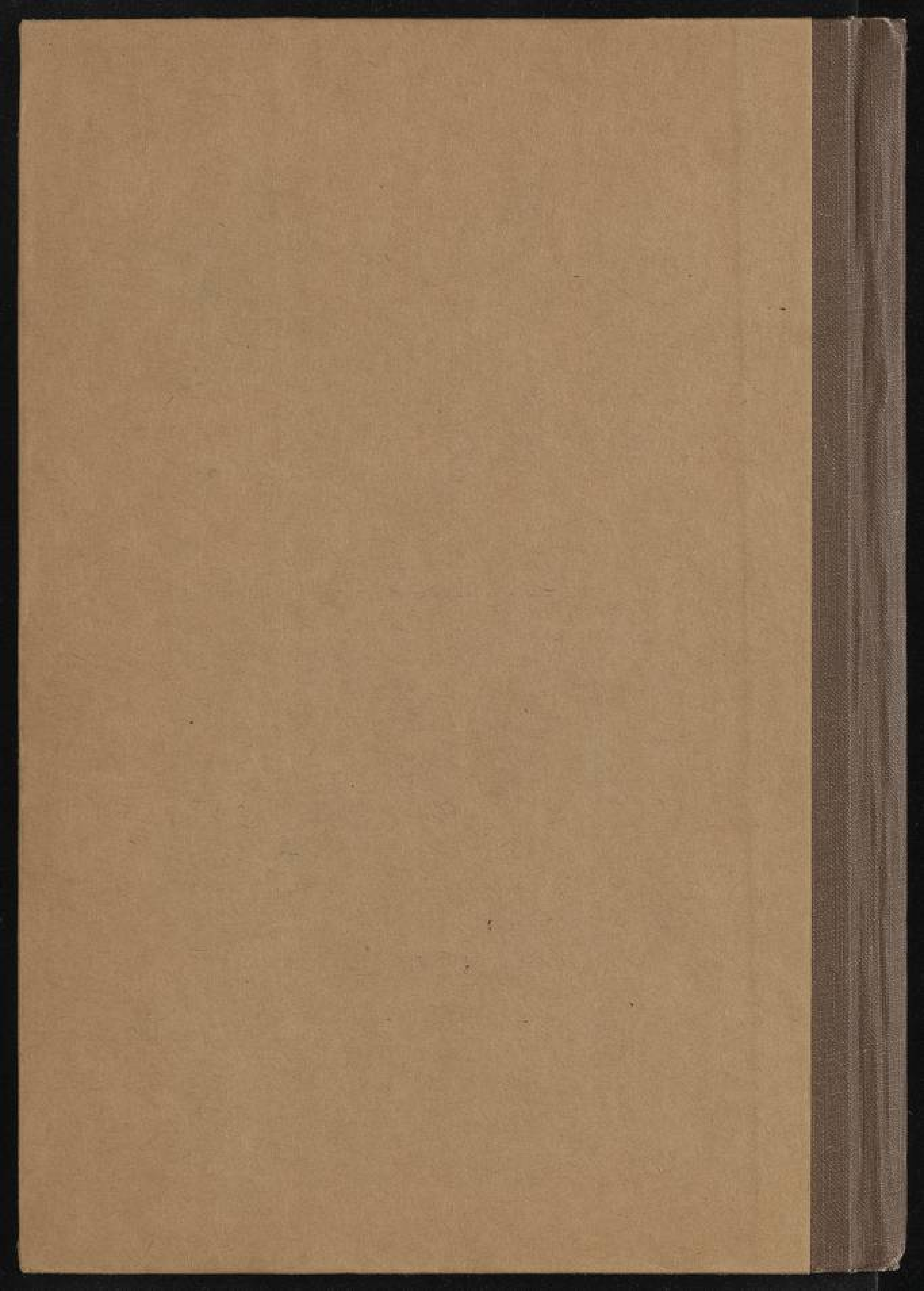
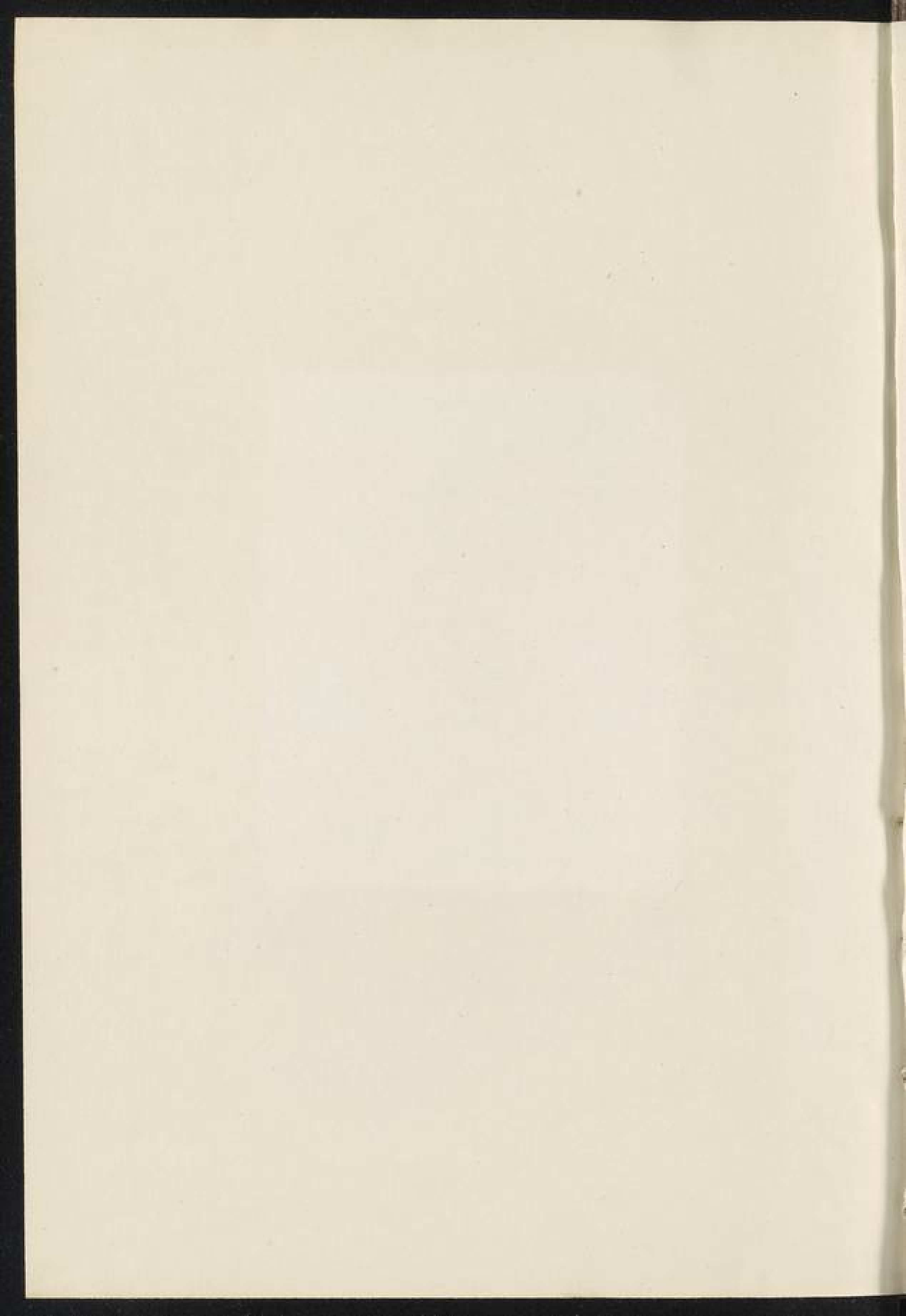
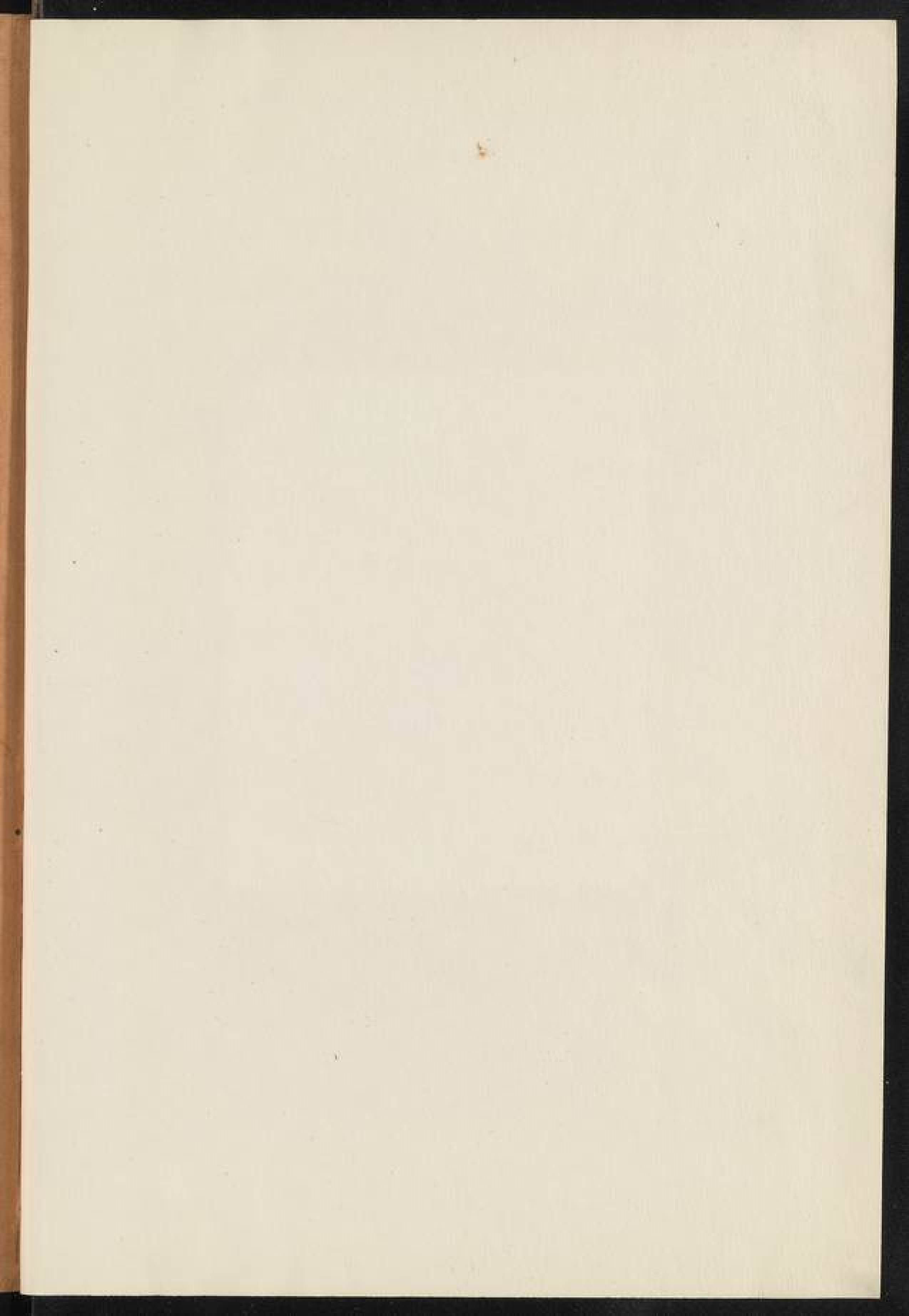






ابن الرومي

حياته من شعره

بقلم

عباس محمود العقاد

الثمن ٢٠ قرشاً

م. مصر شركة مساهمة مصرية
٢٠٠٠/٣١/٣٨٩٠

Ibn Rûmî:

Ḥayâtuh min shiʿrih

verfasst von:

ʿAbbâs Mahmûd

al-ʿAqqâd

Kairo o.J. (1931)

s. Brock. G.A.L.

Suppl. I, S. 125

Avec mes sincères salutations.
Mahmoud Teymour
avril 32

ابن الرومي

على

حياته من شعره

بقلم

عباس محمود العقاد

الثمن ٢٠ قرشاً

م. مصر شركة مساهمة مصرية

تمهيد

هذه ترجمة وليست بترجمة

لأن الترجمة يَغلبُ أن تكون قصة حياة ، وأما هذه فأحرى بها أن تُسمى صورة حياة . ولأن تكون ترجمة ابن الرومى صورةً خير من أن تكون قصة . لأن ترجمته لاتُخرج لنا قصة نادرة بين قصص الواقع أو الخيال ، ولكننا اذا نظرنا فى ديوانه وجدنا مرآة صادقة ووجدنا فى المرآة صورة ناطقة لا نظير لها فيما نعلم من دواوين الشعراء ، وتلك مزية تستحق من أجلها أن يُكتَب فيها كتاب

ان مزايا الشعر كثيرة تتفرق بين الشعراء ويتفرق الاعجاب بها بين القراء . وقد يُحرَم الشاعر احداها أو أكثرها وهو بعدُ شاعر لا غبار عليه ، لأنه يحسن نمطا من الشعر تصحُّ به الشاعرية : كالجمال فى الحسان يروقنا فى كل وجه بلونٍ وسمةٍ وهو فى جميع الوجوه رائق جميل ، وكاللمحة الواحدة من ملامح الجمال تحلو فى هذا الوجه وتحلو فى ذاك ولاتشابهَ بينهما فى غير الحلاوة . ففى العيون ألف عين جميلة لا تشبه الواحدةُ أختها ولا تتفق اثنتان منها فى معانى النظرات ومحاسن الصفات وليس هناك إلا جمال واحد عند الكلام على جوهر الجمال

وكذلك الشعر . يعجبنا فى كل شاعر بطراز مختلفٍ وهو شعر سائغ مستملَح فى كل طراز . فالذى يعجبنا من المتنبي غير الذى يعجبنا من البحترى ، والذى يعجبنا من هذين غير الذى يعجبنا من الشريف

الرضى أو من أبى العلاء أو من أبى نواس أو من ابن زيدون ، والذى يستحق به كلٌ واحد منهم صفةَ الشاعرية غير الذى يستحقها به البقية ! فقد تفرقت مزايا الشعر كما قلنا ايما تفرق ، وامتنع الاعجاب بهن جميعا على الحصر والتعريف

غير أن المزية التى لا غنى عنها والتى لا يكون الشاعر شاعرا الا بنصيب منها هى مزية واحدة ، أو هى مزيةٌ نستطيع أن نسميها باسم واحد : وتلك هى الطبيعة الفنية

ونتعمد أن نقول أنها تُسمى باسم واحد لأنها فى الحقيقة أشياء شتى تدخل فى عموم هذه التسمية

فالطبيعة الفنية هى الطبيعة التى بها يقظةٌ بيّنة للاحساس بجوانب الحياة المختلفة . وهنا ينتهى بنا الاجمال الى كلمة كأنها كلمات ، أو كأنها معجم كامل من المصطلحات . أليست جوانب الحياة عياما لاحدَّ له فى العدد ولا فى الصفة ؟ ثم أليست أنواع التيقظ لتلك الجوانب أشتاتا وأخلاطا لا تجتمع فى حصر حاصر ؟ بلى ! فمن المتيقظين لجوانب الحياة من هو عميق الشعور بها ومن هو متوفّز الشعور أو مهتاجُه أو مستفيضه أو محصوره أو مستقيمه أو منحرفه ، الى غير ذلك من أنواع الشعور ودرجاته . فالذى تجمعه كلمة اليقظة هنيهةً لا تلبث أوصافُ اليقظة أن تفرقه كلَّ مفرق . فهل من سبيل الى اسلاس المعنى وتقريب مقاده للتعريف والتوضيح ؟ نعم ! وسبيل ذلك غير عسير ، فنحن نقول موجزين أن الطبيعة الفنية هى تلك الطبيعة التى تجعل فن الشاعر جزءا من حياته أيا كانت هذه الحياة من الكبر أو الصغر ومن الثروة أو

الفاقة ومن الألفة أو الشذوذ ، وتمامُ هـذه الطبيعة أن تكون حياةُ الشاعر وفنه شيئاً واحداً لاينفصل فيه الانسان الحى من الانسان الناظم ، وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره وموضوع شعره هو موضوع حياته ، فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسه يخفى فيها ذكر الأماكن والأزمان ولا يخفى فيها ذكر خالجة ولا هاجسة مما تتألف منـه حياة الانسان . ودون ذلك مراتبُ يكثر فيها الاتفاق بين حياة الشاعر وفنه أو يقل . كما يلتقى الصديقان أحياناً طواعيةً واختيارا ، أو كما يلتقى الغريبان فى الحين بعـد الحين على كره واضطرار . فالانسان والشاعر فى هذه الحالة شخصان يلتقيـان فى المواعيد ثم يذهب كلٌّ منهما لطيّته الى أن يتاح لهما اللقاء مرة أخرى بعد زمن طويل أو قصير ، وكأنَّ الشعر عند هؤلاء الشعراء روحٌ من تلك الأرواح التى تلبس صاحبها وتفارقه ثم تلبسه كلما استحضرها له مستحضر من الحوادث والأهواء ، فهو اذا لبسته شاعرٌ يأخذ عنها ما تحسه وينقل عنها ما تقول ، وهو اذا فارقته فردٌ من هذا الملأ الذى لا يوحى اليه ولا يكشف عنه الحجاب

ابن الرومى واحدٌ من أولئك الشعراء القليلين الذين ظفروا من الطبيعة الفنية بأوفى نصيب . فمن عرف ابن الرومى الشاعر فقد عرف ابن الرومى الانسانَ حقَّ عرفانه ولم ينقصه منه الا الفضول ، والغريب مع هذا ان ابن الرومى الشاعر هو ابن الرومى الذى لم يعرف بعدُ وان عرفت له مزايا ونالت حسناتٌ له حقها من الاعجاب

***

ليس من الصدق للتاريخ ان يقال ان ابن الرومى كان خاملا فى زمانه

أو بعد زمانه بهذا المعنى الشائع من الخمول الذى يراد به سقوط المكانة الأدبية ونسيان الأثر بين المتأدبين ، فلعله اذا قيس الى الشعراء الهجّائين خليقٌ أن يُعد سعيد الحظ موفور الجزاء . فقد ذهب شعر بشار الا أقله وذهب شعر دعبل الا أقله وبقى ديوان ابن الرومى كله فلم يذهب منه الا أقله ! وهذه محاباة من الشهرة لم يُرزقها فى العربية شاعرٌ هجّاء، ولم يُرزقها قبل عصر الطباعة الا أفراد معدودون بين سائر الشعراء . ثم جاء عصر الطباعة فلم يكن الخمول هو الذى جنى على ابن الرومى وأخّر طبع ديوانه بعد الدواوين التى فى طبقته . لأنه ذُكر فى كل كتاب متداول من كتب الأدب وحُفظت له مختاراتٌ كثيرة فى حيثما وردت مختارات الشعراء المبرزين ، والذين أهملوه — كصاحب الأغانى — انما تعمدوا ذلك حنقاً عليه لا إصغاراً لشأنه، فتأخرَ طبعه فى العصر الحديث لأسباب غير الخمول والاهمال : تأخر لأن ديوانه أطول ديوان محفوظ فى اللغة العربية من جهة ، ولأن نسخته — من جهة أخرى — لم تكن ميسورةً فى البلاد السورية حيث طبعت بعض الدواوين ، وربما كان الاقذاع فى الهجاء سببا ثالثاً مضافاً الى ذينك السببين

فليس من الصدق للتاريخ اذن أن يقال أن ابن الرومى كان خاملا بذلك المعنى الشائع من الخمول ، ولكنه مع هذا كان خاملا وكان خموله أظلم خمول يصاب به الأدباء ، لأنه الخمول الذى يحفظ ذكر الأديب ولكنه يخفى أجمل فضائله وأكبر مزاياه ، وهذا هو الحيف الذى أصاب ابن الرومى ولا يزال يصيبه عندنا بين جمهرة الأدباء والمتأدبين

قال ابن خلكان يصفه ويقدره : « هو صاحب النظم العجيب

والتوليد الغريب ، يغوص على المعانى النادرة فيستخرجها من مكامنها ويبرزها فى أحسن صورة ، ولايترك المعنى حتى يستوفيه الى آخره ولا يبقى فيه بقية »

وهذا وصف صادق كله ولكنه ليس بكل الوصف الذى ينبغى أن يوصف به ويتمّ به تعريفه ، فهو تعريف ناقص . والناقص فيه هو المهم وهو الأجدر بالتنويه . اذ هو هو المزية الكبرى فى الشاعر ،وهو هو الطبيعة الفنية التى تجعل الفن جزءا لا ينفصل من الحياة

ما الغوص على المعانى النادرة؟ وما النظم العجيب والتوليد الغريب ان لم يكن ذلك كله مصحوبا بالطبيعة الحية والاحساس البالغ والذخيرة النفسية التى تتطلب التعبير والافتنان فيه ؟ ان كثيرا من النظامين ليغوصون على المعانى النادرة ليستخرجوا لنا أصدافا كأصداف ابن نباته وصفى الدين أو لآلىء رخيصة كلآلىء ابن المعتز وابن خفاجة واخوان هذا الطراز ، وان الغوص على المعانى النادرة لهو لعب فارغ كلعب الحواة والمشعوذين ان لم يكن صادق التعبير مطبوع التمثيل والتصوير .
وعلى الأوراق المالية رسوم ونقوش وأرقام وحروف ، ولكنها برسومها ونقوشها وأرقامها وحروفها لا تساوى درهما ان لم يكن وراءها الذهب المودع فى خزانة المصرف ! فالاحساس هو الذهب المودع فى خزانة النفس وهو الثروة الشعرية التى يقاس بها سراة الكلام ، أما الرسوم والنقوش والارقام والحروف فعلامة لا أكثر ولا أقل. وقد تغنى عنها علامة أخرى برقم ساذج وتوقيع بسيط !

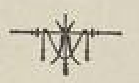
نعم ما النظم العجيب والتوليد الغريب واستغراق المعنى حتى

يُستوفَى الى آخره ولا تبقى فيه بقيةٌ ؟ ان هذا بقضه وقضيضه ان هو الا أدوات التعبير وليس هو التعبير المطلوب فى لبابه . فاذا لم يكن عند الشاعر ما يعبرّ عنه فكل معانيه وتوليداته ونوادره لغو لا حاجة بنا اليه ، واذا كان عنده ما يعبر عنه واستطاع التعبير بغير توليد ولا اغراب ولا استغراق فقد أدى رسالته وأبلغَ فى أدائها أكمل بلاغ . وهذه هى الرسالة المقصودة وهذا هو الشعر الجيد وهذه هى الطبيعة الفنية ، أما المعانى والتوليدات فهى وسائلُ الى غايةٍ لا قيمة لها الا فيما تؤديه وتنتهى اليه ، ويستوى بعد ذلك من أدَّى اليك سريرة نفسه بتوليد واغراب ومن أداها اليك بكلام لا اغراب فيه ولا توليد

وابن الرومى شاعر كثير التوليد غواص على المعانى مستغرق لمعانيه، ولكننا لو سئلنا ما الدليل على شاعريته لكان غنًا له أن نحصر هذا الدليل فى التوليد والغوص والاستغراق . فقد نحذف منه توليداته ومعانيه ولا نحذف منه عناصر الشاعرية والطبيعة الفنية ، فهو الشاعر من فرعه الى قدمه والشاعر فى جيده ورديئه والشاعر فيما يحتفل به وفيما يلقيه على عواهنه، وليس الشعر عنده لباسا يلبسه للزينة فى مواسم الأيام ولا لباسا يلبسه للابتذال فى عامّة الأيام . كلا ! بل هو إهابه الموصول بعروق جسمه المنسوج من لحمه ودمه . فللردىء منه مثلُ ما للجيد من الدلالة على نفسه والابانة عن صحته وسقمه . بل ربما كان بعضُ رديئه أدل عليه من بعض جيده وأدنى الى التعريف به والنفاذ اليه ، لأن موضوع فنه هو موضوع حياته . والمرء يحيا فى أحسن

أوقاته ويحيا فى أسوأ أوقاته ، ولقد تكون حياته فى الأوقات السيئة أضعاف حياته فى أحسن الأوقات

هذا الجانب من شاعرية ابن الرومى هو الجانب الخامل المجهول ، وهو الجانب الذى وقفنا على التعريف به صفحات هذا الكتاب . وعندنا أننا ننصف كل شاعر — ولا ننصف ابن الرومى وحده — بتوضيح هذا الجانب من الشاعرية ، أو بتوضيح ما نسميه الطبيعة الفنية . لأنه هو المقياس الذى لايتم لنا أن نقدر شاعراً بغيره ، والذى نجهل الشعر كله والشعراء كلهم اذا نحن أغضينا عنه والتفتنا الى سواه مما لا يستحق كبيرَ التفات ؟



الفصل الأول

عصر ابن الرومى

أو القرن الثالث للهجرة

« كان أحسن الأزمان وكان أسوأ الازمان ، كان عصر الحكمة وكان عصر الجهالة ، كان عهد اليقين والايمان وكان عهد الحيرة والشكوك ، كان أوان النور وكان أوان الظلام ، كان ربيع الرجاء وكان زمهرير القنوط : بين أيدينا كل شيء وليس بين أيدينا أى شيء ، وسبيلنا جميعاً الى سماء عليين وسبيلنا جميعاً الى قرار الجحيم . تلك أيام كأيامنا هذه التى يوصينا الصاخبون من ثقاتها أن نأخذها على علاتها ، وألا نذكرها إلا بصيغة المبالغة فيما اشتملت عليه من طيبات ومن آفات »

هذا هو عصر الثورة الفرنسية ، وهكذا أستهل وصفه الكاتب الانجليزى « شارلس دكنز » فى بداية قصة المدينتين ، إلا أنك قد تنقل هذا الوصف إلى أمة غير الامة الفرنسية وعصر غير القرن الثامن عشر للميلاد وأنت لاتخرج به عن زمانه ومكانه وفحواه ، إذ هو وصف صادق لكل عصر من العصور فى تواريخ الانتقال والاضطراب ، ومن تلك العصور القرن الثالث للهجرة فى دولة الأسلام الشرقية ، وهو القرن الذى لايوصف فى جملته إلا بمثل هذا الوصف الغامض الجلى الذى كأنما يصف لك عصرين مختلفين لا عصراً واحداً متناسق الأوضاع

والأحوال ، لأنه فى الحقيقة عصران مختلفان أو عـدة عصور مختلفات ، وان اجتمعت فى نطاق واحد من الزمان

ان كان لـكل دولة أوان للبذر وأوان للنماء وأوان للحصاد فالقرن الثالث للهجرة كان أوان النماء للدولة العباسية جاء بُعيد التمهيد وقُبيل النضج والذبول . ففيه نما وأزهر كل ما بذره مؤسسو الدولة من جراثيم الخير والشر وعناصر الصلاح والفساد . وكانت الدولة فى أبانه أشبه شىء بالمرج الأخضر الذى ينمو فيه الحب والفاكهة والشوك والعشب المسموم . خضرة زاهية ناضرة ولـكنها وسيمة شائهة ومصلحة مهلكة ومرجوة مخشية ومختلطٌ فيها الغذاء والسم اختلاطـا لا سبيل فيه إلى التنقية والتمييز فهو العصر الذى بلغ كل شىء فيه أقصاه وأثمر كل عمل فيه نتاجه المحتوم . أثمر فيه الخطأ كما أثمر فيه التوفيق وظهر فيه ما قدموا صالحا أو طالحا على السواء . فبدأ التمام وبدأ النقص فى حين واحد ، واجتمع الخليط من حضارات العرب والفرس والروم الى الخليط من عوامل القوة والضعف والبشارة والانذار ، فـكان نسيجاً من ألوان الزمان لا تشبع منه عين الفنان ولا روية الحكيم

وليس بنا أن نسهب فى وصف هذا القرن واستقصاء تاريخه فانما يعنينا منه مايحيط بفرد واحد هو الشاعر الذى نترجم لحياته . فحسبنا من تاريخ ذلك العصر ما نوضح به نواحى تلك الحياة ، والقليل الوجيز من ذلك التاريخ كافٍ لتوضيح ما نريده فى هذا المقام

حالة الحكومة والسياسة

ولد ابن الرومى فى سنة احدى وعشرين ومائتين وتوفى فى سنة أربع وثمانين على قول بعض الرواة . فهو قد أدرك فى حياته ثمانية خلفاء هم : الواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد والمعتضد الذى توفى بعد ابن الرومى ببضع سنوات . فاذا أردنا أن نحيط بالحالة التى كانت عليها الحكومة وسياسة الدولة يومذاك فلعلنا لا نستطيع أن نعرض لذلك ببيان هو أوجز من الالمام بالمصير الذى صار اليه بعض أولئك الخلفاء . فمنهم واحد قتل وهو المتوكل ، وثلاثة خلعوا وقتلوا بعد خلعهم وهم: المستعين والمعتز والمهتدى ، وقيل أن من الآخرين من مات مسموما . والبقية الذين ماتوا على سرير الملك لم يخل عصر أحدهم من فتنة أو انتقاض أو غارة خارجية ، ولم يكن حظ ولاة العهود والامراء والوزراء بخير من حظ الخلفاء ، ولا مصير أكثرهم بأسلم من هذا المصير . فقلّ بين هؤلاء من نجا من الخلع والسجن والتعذيب واستصفاء الاموال .

وكان الخلفاء عرضة للغضب والكيد من الجند والوزراء ونساء القصور ، أما الامراء والوزراء فكانوا عرضة للغضب والكيد من جميع هؤلاء ، ويزيد عليهم الخلفاء كلما قدروا على البطش وأمنوا على أنفسهم دسائس المشاغبين والمنافسين

ان اطّراد البطش بالخلفاء والوزراء لا يدل على أمان أو انتظام فى سير الامور ، ولكن هذا كله لايزال ضعيف الدلالة على ما كانت عليه

حقيقة الحال فى حكومة تلك الأيام . فقد ينقصنا أن نعلم كيف كان المقتولون يقتلون والمخلوعون يخلعون لنعلم كيف كان الفساد يجرى فى خلائق النفوس كما كان يجرى فى سياسة الدولة وأعمال الدواوين . فقصارى ما يدل عليه اطّراد العدوان أن شريعة الحكم لا تُرعى وأن الحكام لا تتقى ، إلا أن الحكومة قد تهزل هيبتها وتبطل شريعتها ثم يبقى للناس بعد ذلك حرمات أخرى يتقونها وآداب أخرى يحرصون عليها : تبقى لهم حرمات المروءة وآداب العرف والدين . أما فى ذلك العهد فقد بلغ التنكيل والتبشيع فى بعض حوادث الفتك مبلغاً لا حرمة معه لشرع ولا لدين ولا لمروءة

فمن أمثلة ما كان يصيب الخلفاء ما حدث للمعتز حين طالبه الجند الاتراك بأرزاقهم فلم يجدوا عنده ولا عند كتابه ووزرائه مالا : قال الطبرى فى أخبار سنة خمس وخمسين ومائتين : « فلم يرعه الا صياح القوم من أهل الكرخ والدور واذا صالح بن وصيف وبايكباك ومحمد بن بغا المعروف بأبى نصر قد دخلوا فى السلاح فجلسوا على باب المنزل ... ثم بعثوا اليه أن اخرج الينا فبعث اليهم أنى أخذت الدواء أمس وقد اجفلنى اثنتى عشرة مرة ولا أقدر على الكلام من الضعف ، فان كان أمر لا بد منه فليدخل إلى بعضكم ، فدخل اليه جماعة من أهل الكرخ والدور من خلفاء القواد فجروا برجله الى باب الحجرة . قال : وأحسبهم كانوا قد تناولوه بالضرب بالدبابيس فخرج وقميصه مخرق فى مواضع وآثار الدم على منكبه فأقاموه فى الشمس . . . فجعلت أنظر اليه يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذى قد أقيم فيه . . ورأيت بعضهم

يلطمه وهو يتقى بيده . . . فذكر أنه لما خلع دفع الى من يعذبه ومنع الطعام والشراب ثلاثة أيام فطلب حسوة من ماء البئر فمنعوه ، ثم جصصوا سردابا بالجص السخين ثم ادخلوه فيه وأطبقوا عليه بابه فاصبح ميتاً ، وكانت وفاته لليلتين خلتا من شعبان فى هذه السنة . فلما مات أشهد على موته بنو هاشم والقواد وأنه صحيح لا أثر فيه » . . . ومن أمثلة ما كان يصيب الوزراء ما حدث لمحمد بن عبد الملك الزيات فى أيام المتوكل وذكره الطبرى فى أخبار سنة ثلاث وثلاثين ومائتين . قال بعد أن ذكر مصادرة الأموال ونهب الدور وضم الضياع : « لم يزل أياما فى حبسه مطلقاً ثم أمر بتقييده فقيد وامتنع من الطعام وكان لا يذوق شيئاً ، وكان شديد الجزع فى حبسه كثير البكاء قليل الكلام كثير التفكر ، فمكث أياما ثم سوهر ومنع من النوم : يساهر وينخس بمسلة . ثم ترك يوما وليلة فنام وانتبه فاشتهى فاكهة وعنبا فأتى به فأكل ثم أعيد الى المساهرة ثم أتى بتنور من خشب فيه مسامير حديد . . . وكان هو أول من عمل ذلك فعذب به ابن أسباط المصرى حتى استخرج منه جميع ما عنده ثم ابتلى به فعذب به أياما . وذكر عن الدندانى عن الموكل بعذابه أنه قال : كنت أخرج وأقفل الباب عليه فيمد يديه الى السماء جميعا حتى يدق موضع كتفيه ثم يدخل التنور فيجلس ، والتنور فيه مسامير حديد وفى وسطه خشبة معترضه يجلس عليها المعذب اذا أراد أن يستريح ، فيجلس على الخشبة ساعة ثم يجىء الموكل به فاذا هو سمع صوت الباب يفتح قام قائما كما كان ثم شدوا عليه . قال المعذب لى : خاتلته يوما وأريته أنى أقفلت الباب ولم أقفله . إنما أغلقته بالقفل ثم مكثت قليلا ثم دفعت

الباب غفلة فاذا هو قاعد فى التنور على الخشبة ، فقلت أراك تعمل هذا العمل ؟ فكنت اذا خرجت بعد ذلك شددت خناقه فكان لا يقدر على القعود واستللت الخشبة حتى كانت تكون بين رجليه فما مكث بعد ذلك أياما حتى مات ، واختلف فى الذى قتل به فقيل بطح فضرب على بطنه خمسين مقرعة ثم قلب فضرب على ظهره مثلها ، فمات وهو يضرب وهم لا يعلمون . فاصبح ميتا قد التوت عنقه ومتفت لحيته ، وقيل مات بغير ضرب ، وذكر عن مبارك المغربى أنه قال : ما أظنه أكل فى طول حبسه إلا رغيفا واحدا ، وكان يأكل العنبة والعنبتين قال : وكنت أسمعه قبل موته بيومين أو ثلاثة يقول لنفسه يا محمد يابن عبد الملك ! لم تقنعك النعمة والدواب الفرة والدار النظيفة والكسوة الفاخرة وأنت فى عافية حتى طلبت الوزارة ! ذق ما عملت بنفسك ! فكان يكرر ذلك على نفسه ، فلما كان قبل موته بيوم ذهب عنه عتاب نفسه فكان لا يزيد على التشهد وذكر الله » والذى روى عن التمثيل بالمذنبين — ولا سيما فى أيام المعتضد — أفظع من هذا وأعنف . وكأنما كان التفظيع بهم فرجة يتفننون فى ابتداع أشكالها وأساليبها ليلهو بها النظارة ويذكروها فيما يذكرون من مشاهد المجون والفكاهة !

أساس هذا الشر كله سببان غالبان هما القطيعة بين بنى العباس والعرب ، ونظام الاقطاع الذى تمادى فيه بنو العباس حتى انتهى الى تصدع العالم الاسلامى وتشعبه فى مدى قرنين اثنين بضع عشرة شعبة

فبنو العباس كانوا قوما موتورين طال عليهم الظلم واحتمال المكاره ، وكانوا ينقمون على العرب انهم خذلوا آل النبي فى نضالهم مع بنى أمية

وباعوهم بيع السماح لما استمالهم الأمويون بالعطايا والوعود . فلبثوا زمانا يسامون الذل ويلعنون على المنابر ويشهدون قتل رجالهم وسبي نسائهم وهم آل النبي الذين لم يسأل قومه على الهداية أجرا إلا المودة فيهم، وابتلوا بكل محنة فى دولة الأمويين ولا من يغضب لهم أو يجنح إليهم . ولقد كان بنو العباس شركاء بنى على فى الوتر وان كان المصاب فى معظمه مصاب هؤلاء ، لانهم كانوا جميعاً من آل البيت ينالهم من الذل ما ينال كل منتم اليه . ثم لما قامت لهم آخر الأمر دولة لم تقم على أيدى العرب وهم أولى الناس ان ينصروهم وتأخذهم الغيرة لهم ، وإنما قامت على أيدى الفرس الذين كانوا ينقمون مثلهم على الدولة العربية . فامتلأت نفوسهم حفيظة على العرب وانقطع ما بينهم وبينهم من صلة المودة والطمأنينة وشعروا لهم فى نفوسهم بما يشعر به المظلوم لمن ظلموه أو أعانوا عليه ظالميه ، والموتور إذ خاب ظنه فى انصاف الناس وساء رأيه فى أمانتهم واخلاص طويتهم لم يعرف لهم حقا ولم يرع لهم ذمة ولم يجر الأمر بينه وبينهم الا على المنفعة والرهبة دون الثقة والمودة ، ومن هنا كانت تلك السياسة النفعية الفاتكة التى أشتهر بها أساطين بنى العباس ومضى عليها خلفاؤهم من بعدهم ، وجاء اتصالهم بأجلاف الاعاجم من قبائل الترك والديلم فنقلوا عنهم ضروبا من المثلات التى تعودها هؤلاء الأعاجم فى وحشية البداوة

قيل إن العباسيين إنما قربوا إليهم الفرس والأعاجم واتخذوا منهم الأعوان والقواد مكافأة لهم على نصرهم أياهم وتأييدهم لهم على أعدائهم ، والحقيقة أن بنى العباس كانوا يتوجسون من العرب قبل أن تقوم لهم دولة وتنتظم لهم عقدة ، وكان ابراهيم بن محمد بن على صاحب الدعوة

قبل السفاح يكتب إلى أبى مسلم : « ان استطعت الا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل، فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله» فهو الحذر من العرب الذى أبعد هؤلاء، وأخملهم فى دولة بنى العباس وليست مكافأة الفرس ومن إليهم ، ثم توالت الحوادث بما باعد الشقة بين العرب وأصحاب الدولة الجديدة ، فلما كان الخلاف بين الأمين والمأمون ذهب العرب مع الأمين لأن أمه عربية وذهب الفرس مع المأمون لأن أمه فارسية، وقتل الأمين وانتصر المأمون فحفظها للعرب وأمعن فى اقصائهم وتقريب الاعاجم على أجناسهم ، ثم جاء المعتصم - وكانت أمه تركية - فاعتمد على جنود الترك وكثر اختلاف الاجناس فى جيش الدولة وولاة أمرها فضلا عن اختلاف الاجناس بين نساء القصور وأمهات الأمراء، وتفاقمت أسباب الدسائس بين الملوك والأمراء والقادة والوزراء وحاشية القصور من رجال ونساء ، وبلغ من تفاقمها ان أشفق منها الجند والقواد الذين هم مساعير نيرانها فشغب الجند على قوادهم وتنازع القواد أمرهم فودوا جميعا لو يملكهم خليفة قوى يخيفهم ويحسم أسباب النزاع بينهم كما قال بغا الكبير « نجىء بمن نهابه ونفرقه فنبقى معه وان جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضا فقتلنا أنفسنا » ثم اشتد أشفاقهم من تحاسدهم حتى طلبوا أن يتولى القيادة أمير من بيت الخلافه ولا يتولاها أحد منهم ، ولكن أسباب الشقاق كانت أكبر وأوسع من أن يحسمها مثل هذا التدبير العاجل الذى لا يطول الاستقرار عليه

كان أمر الدولة إذن قائما على سوء الظن والدسيسة ، وقد ألف المؤرخون أن يذكروا اخلاص الفرس لبنى العباس حتى خيل إلى بعض

قراء التاريخ أن بنى العباس كانوا خليقين أن يطمئنوا إلى جهة واحدة على الأقل من جهات الدولة وأن يسكنوا إلى شعب واحد من شعوبها الكثيرة ، وما كان الأمر كذلك إلا فى الظاهر الذى لا ينخدع به رجال من المحنكين المتحذرين كرجال الدولة العباسية ، فما نظن أبا مسلم نصير الدولة الأكبر إلا كان طامعاً فى الخلافة متربصاً بأوليائه الدائرة ، ولهذا طمح إلى مصاهرة بيت الملك وارتقى بنسبه إلى العباس وبدأ باسمه فى مخاطبة الخليفة وأراد أن يؤم الناس فى موسم الحج واستعد للملك استعداده الذى لا يخفى على أوليائه ، وما نظن البرامكة إلا كانوا يفعلون فعل أبى مسلم فى شىء من التبصر وطول الأناة

ولم لا يطمع هؤلاء وغيرهم وما كانت تنقص العظماء فى أمة الفرس أسباب الدعاية والانتقاض؟ فان كان الأمر أمر الطمع والقوة فهاهم الفرس أصحاب القوة التى وصل بها العباسيون إلى الخلافة ، وإن كان أمر الدين والغيرة على آل البيت فهاهم أبناء علىّ عندهم يدعون لهم إذا شاءوا ويجدون من الناس مستمعاً ومجيباً بعد ما أصاب العلويين على أيدى بنى العباس من قسوة وتنكيل وما أصاب العرب فى دولتهم من اهمال واطّراح

كان حكم بنى العباس حكم الموتور المستريب ولا يكون إلا هكذا حكم الموتور المستريب . وأطبق نظام الاقطاع على هذه الآفة فتمت به البلية وتشعبت المقاصد حتى فشا سوء الظن ولم يبق موضع لثقة بين انسان وانسان من العاملين فى الحكومة

نظام الاقطاع

فنظام الاقطاع نظام معيبٌ ولكنه يبقى مستور العيوب ما بقيت هيبة الدولة وسطوة القائمين عليها . فاذا ضعفت وضعفوا فهو الشر المستطير يشقى به الحاكم والمحكوم وينخر فى أركان الملك فلا يدعه الا وهو مفكك الأجزاء معتورٌ باسباب الفناء

فكان الولاة — والخلافة العباسية مرهوبة الجانب والأمور مستقرة فى عنفوانها — يؤدون المال الذى عليهم ويتعهدون الأرض والمرافق بالاصلاح لتغزرَ عندهم موارد الجباية وتدوم لهم وللناس منابع الثروة ، فلما تقلقلت الخلافة وارتاب الولاة فى أمرها وفى أمرهم أهملوا الاصلاح وتهافتوا على جمع المال وحبسوا أرزاق العمال وأغفلوا مرافق الرعية ، فخربت الأرض وعمَّ السخط وفسدت طاعة الجند على ما بها من فساد الشقاق والدسيسة ، ولجأ الخلفاء الى اغتيال الولاة والكتاب وكلٌ من بأيديهم مالُ الجباية . فأعملوا فيهم القتل واستصفاء الأموال واستخراج الدفائن والمخبآت ، وأصبحت الكتابة والوزارة وما اليهما من وظائف الدولة كأنما هى رخصة بالظلم والغصب ريثما يحتاج الخلفاء الى ما جمعه الوزراء والكتاب فيحصلوا على المال من هذه الطريق ! وبلغ من شيوع الاختلاس ان الذين كانت بأيديهم خزائن الدولة شاركوا العمال وأصحاب الوظائف فى أرزاقهم فكانوا لا يؤدون رزق عامل أوصاحب وظيفة الا اذا اقتطعوا منه اتاوة لأنفسهم واستكتبوه توقيعه باستيفاء رزقه ، غير مستثنين من ذلك أحدا حتى اخوة الخليفة وأهل بيته . بل قد بلغ من شيوع

الاختلاس أن أصبح سرا مذاعا لا يُكتَم فى حضرة الخليفة نفسه ولا يبالى الوزير أو الكاتب أن يجهر بين يديه بفعله : فلما عرّض الخليفة المهتدى لسليمان بن وهب بما كان يأخذه هذا من العمال « معجّلا ومؤجّلا » قال له سليمان : « يا أمير المؤمنين ! هذا قول لا يخلو من أن يكون حقا أو باطلا ، فان كان باطلا فليس مثلك من يقوله ، وان كان حقا وقد علمتَ أن الأصول محفوظة فما يضر من يساهمنى من عمالى على بعض ما يصل اليهم من غير تحيف للرعية ولا نقص للأموال ؟ »

وراجت تجارة الارتشاء من العمال و عمال العمال حتى بلغت أقصى ما عساها أن تبلغه فى أواخر أيام الدولة ، فقيل عن الخاقانى فيما رواه الفخرى انه وَلَّى فى يوم واحد تسعة عشر ناظرا على الكوفة وقبض من كل واحد منهم رشوة ! فان كان قد بقى لحسن الظن بين ولاة الأمر بقيةٌ فهذه السرقات والرشاوى والمصادرات والنكبات قد أتت على هذه البقية ، فلم تدع بينهم الا علاقات الحذر والمساومة والتربص وفساد الطوية . ولا جرم تَبيض الفتنة وتُفرخ فى بيئة كهذه بين جند يشغبون وعمال يدلّسون وعرب يحنقون وعلويين يتحفزون ورعية تمزقها براثن الرعاة وملوك لا يأمنون على الملك ولا على الحياة

وقد حضر ابن الرومى فى زمانه بعض هذه الفتن وسمع بما تقدمه وترك لنا فى شعره مثلا مما حدث فى واحدة منها وهى فتنة الزنج التى اختلطت فيها الأسباب السياسية والدينية والاجتماعية ، فقال يصف ما حل بأهل البصرة على أيدى الثائرين :

كم أغصوا من شارب بشراب ... كم أغصوا من طاعم بطعام
كم ضنين بنفسه رام منجىً ... فتلقوا جبينه بالحسام
كم أخ قد رأى أخاه صريعا ... تربَ الخد بين صرعىً كرام
كم أب قد رأى عزيز بنيه ... وهو يُعلى بصارم صمصام
كم مُفَدًّى فى أهله اسلموه ... حين لم يحمه هنالك حام
كم رضيع هناك قد فطموه ... بشفا السيف قبل حين الفطام
كم فتاة بخاتم الله بكر ... فضحوها جهرا بغير اكتتام
كم فتاة مصونة قد سبوها ... بارزا وجهها بغير لثام
صبحوهم فكابد القوم منهم ... طولَ يوم كأنه الف عام

ودرجت الأحوال على ذلك فلم يكن يهوّنها على الناس الا اتساع أرجاء البلاد الاسلامية وتفرّق الفتن فى تلك الأرجاء ، وإلا فترات من القوة يتاح فيها للدولة فى الحين بعد الحين خليفةٌ حازم الرأى نافذ العزيمة فتسكن غوارب الفتنة بعض السكون ويستقيم الولاة والعمال بعض الاستقامة ، وتعلو هيبته فيخشاه المغيرون على الدولة من داخلها وخارجها وتفئ الرعية الى ظله زمناً حتى يحم أجله فتعود الأمور الى ما كانت عليه ؟

الحالة الاجتماعية

تنتهى الفوضى السياسية — اذا تطاول بها الزمن — الى الخراب والعسر ونضوب الارزاق بين جميع الطبقات عاليها وهابطها على السواء. ولكن الفوضى لا تمنع الترف اذا هى جاءت فى البداية أو ترددت فى الفترة بعد الفترة ولم يطل بها زمن التخريب والافساد. فلا يندر أن يجتمع الترف والفوضى فى طبقات من الدول المتداعية التى ورثت السلطانَ القديم والثروة الواسعة ومظاهر الحضارة وأفانين المعيشة الفاخرة. بل كثيرا ما تكون الفوضى من أسباب الترف والمغريات به، لتعويدها النفوس أن تخلد الى الدعة واغتنام اللذة وأن تحجم عن المساعى الجليلة والآمال الرفيعة. يأسا من كل غاية وشكاً فى مصير كل نعمة، وعلما بأن الحياة لا تجرى على وتيرة ولا تنتظم فى سياق

وكذلك كان القرن الثالث للهجرة قرنَ الفوضى والترف أو قرن الخطر و « التسلية ». بلغ فيه كلاهما مبلغه وسرت الى العصر جرائر العصور الأولى فجنى ثمارها خللا فى السياسة وبذخا فى المعيشة وحياة كحياة الجند ليلة الحرب كلها قصف وكلها استسلام

ورث القرن الثالث حضارات العرب والفرس والروم وأساليب اللهو فى هذه الأمم وفى الامم التى اتصلت بها من ترك وهند وصين، وتجمّعت الاموال المستحيرة فى أيدى الامراء وجباة الخراج وأصحاب التجارات الغادية الرائحة فى البر والبحر بما تستدعيه ضرورات العيش ونوافل الشهوات، فكثر المترفون المنعمون وشاعت فنون الخلاعة

والمجون ، وأصبح لكل ضرب من ضروب اللهو علم يعرفه علماؤه ويُقرّب أهله الى الخلفاء وذوى الرآسة حتى الرقص وما اليه فضلا عن الغناء والسماع . نقل المسعودى فى مروج الذهب أن الخليفة المعتمد قال لبعض من حضر من ندمائه : « صف لى الرقص وأنواعه والصفة المحمودة من الرقاص واذكر لى شمائله . فقال المسئول . يا أمير المؤمنين ! أهل الاقاليم والبلدان مختلفون فى رقصهم من أهل خراسان وغيرهم . فجملة الايقاع فى الرقص ثمانية أجناس: الخفيف والهزج والرمل وخفيف الرمل وثقيل الثانى وخفيفه وخفيف الثقيل الأول وثقيله ،والرقاص يحتاج الى أشياء فى طباعه وأشياء فى خلقته وأشياء فى عمله. فأما ما يحتاج اليه فى طباعه فخفة الروح وحسن الطبع على الايقاع وأن يكون طالبه مرحا الى التدبير فى رقصه والتصرف فيه ، وأما ما يحتاج اليه فى خلقته فطول العنق والسوالف وحسن الدل والشمائل والتمايل فى الاعطاف ودقة الخصر وحسن أقسام الخلق . . . ومخارج النفس والاراحة والصبر على طول الغاية ولطافة الاقدام . . . ولين المفاصل وسرعة الانفتال فى الدورات ولين الاعطاف ، وأما ما يحتاج اليه فى عمله فكثرة التصرف فى ألوان الرقص وأحكام كل جزء من حدوده وحسن الاستدارة وثبات القدمين على مدارهما ، واستواء ما تعمل يمنى الرجل ويسراها حتى يكون فى ذلك واحدا . ولوضع القدم ورفعها وجهان أحدهما أن يوافق بذلك الايقاع والآخر أن يتثبط به . فاكثر ما يكون هو فيه أمكن وأحسن فليكن ما يوافق الايقاع فهو من الحب والحسن سواء ، وأما ما يتثبط به فاكثر ما يكون هو فيه أمكن وأحسن فليكن ما يوافق الايقاع مترافعا وما يتثبط به متسافلا »

وقس على ذلك سائر ضروب اللهو والترف . حتى انتهى القرن وأقبل ما بعده وللقوم فى آداب المجالس وآداب المائدة ما لم نسمع بمثله عن رومة وبيزنطة، فكان من رؤسائهم من لا يأكل لقمتين بملعقة واحدة

كما قيل عن الوزير المهلبي أنه « كان من ظرفه فى فعله ونظافته فى مأكله أنه اذا أراد أكل شىء بملعقة كالارز واللبن وأمثاله وقف فى جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجا مجرودا — وكان يستعمله كثيرا — فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة ثم يدفعها الى غلام آخر قام فى الجانب الايسر ثم يأخذ أخرى يفعل بها فعل الاولى حتى ينال الكفاية لئلا يعيد الملعقة الى فيه دفعة ثانية »

واقتدى الاوساط والفقراء بالعلية والاغنياء فكثرت بيوت القيان والخمر وادْمِنت المعاقرة صبوحا وغبوقا وشاع اقتناء الجوارى والغلمان واستبيحت اللذات على أنواعها مألوفها وغير مألوفها وطيبها وخبيثها ، فتكشفت الوجوه وقل الحياء وخف موقع الهجر والبذاء على الاسماع ، ولا سيما حين أصبح الحكام والولاة هم قدوة الناس فى هذه الافانين وهم موضع النعمة التى تصبو اليها نفوس المحرومين ، وفى إحدى قصائد ابن الرومى البائية وصفٌ لعيش الكتاب والموسرين لا بأس بأن نلحقه بهذا الباب لدلالته على ذلك العصر وعلى موقع هذه اللذات من نفس الشاعر ، وذلك حيث يقول

أترانى دون الأولى بلغوا الآ … مال من شرطة ومن كتاب
وتجار مثل البهائم فازوا … بالمنى فى النفوس والاحباب
. . . .
خير ما فيهمُ ولا خير فيهم … انهم غيرُ آثمى المغتاب
ويظلون فى المناعم واللذ … ات بين الكواعب الاتراب
لهم المسمعاتُ ما يطرب السـ … ـامعَ والطائفات بالاكواب
. . . .

من جوار كأنهن جوار يتسلسلن من مياه عذاب
لابسات من الشفوف لبوسا كالهواء الرقيق أو كالسراب
ومن الجوهر المضىء سناه شعلا يلتهبن أى التهاب
. . . .
لهف نفسى على مناكير للنـ ـكر غضاب ذوى سيوف عضاب
تغسل الارض بالدماء فتضحى ذات طهر ترابها كالملاب (١)
من كلاب نأى بها كلٌّ نأى عن وفاء الكلاب غدرُ الذئاب
واثباتٍ على الظباء ضعاف عن وثاب الاسود يوم الوثاب
شُرَط خُوِّلوا عقائلَ بيضا لا باحسابهم بل الاكساب
من ظباء الانيس تلك اللواتى تترك الطالبين فى انصاب
فاذا ما تَعجّب الناس قالوا هل يصيد الظباءَ غيرُ الكلاب ؟
أصبحوا ذاهلين عن شجن النا س وان كان حبلهم ذا اضطراب
فى أمورٍ وفى خمور وسمّور (٢) وفى قاقم وفى سنجاب
وتهاويلَ غير ذاك من الرقـ ـم ومن سندس ومن زرياب (٣)
فى حبير منمنم وعبير وصحان فسيحة ورحاب
فى ميادين يخترقن بسا تين تمس الرؤس بالاهداب
ليس ينفك طيرها فى اصطخاب تحت اظلال ايكها واصطخاب
من قرينين اصبحا فى غناء وفريدين اصبحا فى انتحاب
بين افنانها فواكهُ تشفى من تداوى بها من الاوصاب
فى ظلال من الحرور واكنا ن من القرّ جمة الحجاب
عندهم كلُّ ما اشتهوه من الآ لات والاشربات والاشواب (٤)
والطروقات والمراكب والولد ان مثل الشوادن الاسراب

---

(١) طيب يشبه الزعفران (٢) اسماء انواع من الفراء (٣) ماء الذهب
(٤) جمع شوب وهو ما يخلط بغيره

والیلنجوج (١) فی المجامر والنـد ترى نشره كمثل الضباب
والغوالی وعنبر الهند والمســك على الهام واللحى كالخضاب
ولديهم وذائل الفضض البيـ ـض تباهى سبائك الاذهاب
لم اكن دون مالكى هذه الاملا ك لو انصف الزمان المحابى

ففی هـذه القصيدة وصف واف لمناعم العيش فی بيوت الطبقات الموسرة ومعظمها من «الموظفين» . وفيها ـ مع هذا الوصف الوافى ـ تفسير واضح لتهالك الناس على العمالة والـكتابة وسائر الوظائف التى يأتى رزقها من المرتبات والجبايات والرشى والاسلاب ، وفيها ـ مع هـذا وذاك ـ تفسير لنقمة الطبقات المحرومة وللثورات التى كانت تهب من هنا وثَم لرد الظلامات وانصاف الفقراء . وأى شىء أدل على طلب الثورة والتلهف على قلب الاحوال والتأهب لتلبية الداعين الى الشغب من قول شاعر وديع كابن الرومى

لهف نفسى على مناكير للنـ ـكر غضاب ذوى سيوف عضاب
تغسل الارض بالدماء فتضحى ذات طهر ترابها كالملاب
من كلاب نأى بها كلُّ نأى عن وفاء الـكلاب غدرُ الذئاب

لاجرم يكون ذلك العصر عصرَ الحيرة والانتظار ، ولاجرم تتأهب فيـه النفوس لدعاية الجماعات السرية وتتعلق الآمال بالمهـدى المنتظر والمصلح الاكبر الذى يغسل الارض بالدماء ... ولاجرم يكون ذلك العصر هو عصر بابك الخرّمى وداعية الزنج والقرامطة وغيرهم من الثوار وأصحاب المذاهب الذين كانوا يمزجون المقاصد الاجتماعية بالمقاصد

---

(١) عود للتبخر به

الدينية ويعالجون الترفيه عن الفقراء المنزوفين بالدعوة الى المساواة والتمرد على الحكام ، وكان ذلك على اكثره فى بلاد الفرس حيث بقى الفلاحون كما كانوا فى عهد الاكاسرة يسامون سوم الانعام ويُستنزَفون كما كان يستنزفهم الأمراء والملوك المؤلهون فى غابر الزمان ، ثم كان ذلك على اكثره فى المرافىء والثغور حيث تكثر الحركة ويزدحم العمال والصناع ويرتفع السعر ويشتد التنافس بين الطبقات

على أن هذه الاحداث كانت تمر بالدولة وهى باقية سليمة منها بعض السلامة، لانها - كما اسلفنا - كانت تتلقاها متفرقة فى الاماكن والاوقات، وكان شغب الشاغبين يوصم بالكفر والافساد فى الارض ويسمى القائم به تارة باسم الفاسق وتارة اخرى باسم المارق او الفاجر أو الخبيث، فينُسى اسمه الأول ولا يذكر الا بهذا الاسم المنتحل ، وكانت هذه الثورات بتراء ليست لها وجهة مرسومة ولا خطة معلومة . فكانت تنقصها عناصر الدعوة المشروعة المستجابة التى تلتف بها الجماهير وتستبسل فيها، فلا توشك الثورة ان تستفحل حتى تفتر وتضمحل وتثوب الأمور الى نصاب

هذا والقصور سادرة فى غيها قلما تحس لهذه المشكلات الاجتماعية أثرا أو تتحرك لعلاج اسبابها الدفينة الا فى العهد بعد العهد والصحوة بعد الصحوة ، ولا تراها فيما عدا ذلك الا غارقة فى بذخها مفتنّة فى زينتها ولهوها : المهندسون والمزخرفون والمطربون والطهاة والندماء يستبقون فى تجويد اساليب المعيشة وجلب ألوان المسرة ، ومجالس الطرب تدخل على المجتمع العالى بعرف جديد من الآداب والاذواق ،

فلا يكون الادب الا أدبها ولا الذوق الا ذوقها ولا يحسب الوزير وزيرا ولا الرئيس رئيسا ان لم يكن مع ذلك نديما يحسن المجالسة والمفاكهة ويصلح للمجلس قبل صلاحه لسياسة الدولة ، فأصبحت المنادمة باب السلوك الى الملوك وسلم الوصول الى الحظوة عندهم والدالة عليهم والنقض والابرام فى شئون الدولة بالزلفى الى أهوائهم، واحتاج الى علم هذه الصناعة كل ذى خطر فى الدولة لما كان عسى ان يحتاج اليه من الترويح عن الخليفة وحسن المدخل عليه فى ساعات صفوه وغضبه ونوبات اقباله وإعراضه، وكان أعلى مايرجوه صاحب العلم والأدب والفضل والكياسة أن يصبح نديما لملك أو مربيا لابن ملك . وهما عملان متقاربان متشابهان فى الآلة والكفاءة . ولم يكن من السهل أن يحذقها الاديب لانهما صناعة تجمع صناعات وفن يلم بشتى فنون ، واليك مثلا مما كان يعرفه النديم الذى كان يرتقى به الحظ الى مجالسة الأمراء والخلفاء . نقل ياقوت فى معجم الادباء عن أمالى جحظة النديم أن يزيد بن محمد المهلبي قال :

« كنت أرى على بن يحيى المنجم فأرى صورته وصغر خلقته ودقة وجهه وصغر عينيه واسمع بمحله من الواثق والمتوكل فاعجب من ذلك وأقول: بأى سبب يستظرفه الخليفة وبماذا حظى عنده والقرد أملح من قباحته ؟ فلما جالست المتوكل رأيت على بن يحيى قد دخل على المتوكل فى غداة من الغدوات التى قد سهر فى ليلتها بالشرب ، وهو مخمور يفور حرارة . يستثقل لكل أمر يخف دون ما يثقل ، فوقف بين يديه وقال: يامولاى ! اما ترى اقبال هذا اليوم وحسنه واطباق الغيم على شمسه وخضرة هذا البستان ورونقه،وهو يوم تعظمه الفرس وتشرب فيه لانه هرمزروز (يوم هرمزدإله الخير) وتعظمه غلمانك واكرتك مثلى من الدهاقين ، ووافق ذلك ياسيدى أن القمر مع الزهرة فهو يوم شرب وسرور وتحل بالفرح. فهش اليه وقال:

ويلك يا علي! ما أقدر أن أفتح عيني خماراً ، فقال : ان دعا سيدي بالسواك فاستعمله وغسل بماء الورد وجهه وشرب شربة من رب الحصرم او من مثنة مطيبة مبردا ذلك بالثلج انحل كل مايجد. فأمر باحضار كل ما أشار به فقال علي : ياسيدي والى أن تفعل ذاك تُحضَر عجلانيتان بين يديك مما يلائم لخمار ويفيق الشهوة ويعين على تخفيفه، فقال احضروا عليا كل مايريد. فاحضرت العجلانيتان بين يديه وفراريج قد صفقت على اطبقاق الخلاف ، وطبخ حماضية وحصرمية ومطجنة (١) لها مُريقة فلما فاحت روائح القدور هش لها المتوكل فقال له : ياعلي اذقني . فجعل يذيقه من كل قدر بجرف يشرب فيها. فهش الى الطعام وأمر باحضاره ، فالتفت علي الى صاحب الشراب فقال له : ينبغي أن يختار لأمير المؤمنين شراب ريحاني ويزاد في مزاجه الى ان يدخل في الشرب فيهنئه الله اياه ان شاء الله . قال : فلما أكل المتوكل وأكلنا نهضنا فغسلنا ايدينا وعدنا الى مجالسنا وغنى المغنون فجعل علي يقول : هذا الصوت لفلان والشعر لفلان ، وجعل يغني معهم وبعدهم غناء حسنا الى ان قرب الزوال ، فقال المتوكل : اين نحن من وقت الصلاة ؟ فاخرج علي اصطرلابا من فضة في خفة ، فقاس الشمس واخبر عن الارتفاع وعن الطالع وعن الوقت ،فلم يزل يعظم في عيني حتى صار كالجبل وصارت مقابح وجهه محاسن . فقلت لأمر ما قدمت فيك الف خصلة – طبيب ومضحك وأديب وجليس وحذق طباخ وتصرف مغن وفكر منجم وفطنة شاعر ... ماتركت شيئا مما يحتاج اليه الملوك الا ملكته»

وعلي بن يحيى هذا هو الذي ذكر ياقوت قبيل ذلك انه « كان بكركر من نواحي القُفص ضيعة نفيسة لعلي بن يحيى المنجم وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم، والكتب مبذولة في ذلك لهم والصيانة مشتملة عليهم ،

(١) يراجع كتاب الاطعمة الموجود منه نسخة فتوغرافية بالمكتبة المصرية لمعرفة معظم هذه الاصناف وطريقة تحضيرها

والنفقة فى ذلك من مال على بن يحيى . فقدم ابو معشر من خراسان يريد الحج ، وهو اذ ذاك لايحسن كبير شىء من النجوم ، فوصفت له الخزانة فمضى ورآها فهاله أمرها ، فأقام بها وأضرب عن الحج وتعلم فيها النجوم وأغرق فيها حتى ألحد ، وكان ذلك آخرة عهده بالحج وبالدين والاسلام »

كذلك كانت مجالس المجتمع العالية وآداب جلاسها وندمائها . والحديث الذى نقله ياقوت مظنة للزيادة والتأليف فى بعض اجزائه ، ولكنه يدل فى جملته على المناقب والخصال التى كانت تطلب من النديم فى ذلك الزمان ، وترى من هذا الحديث كيف كانت سُنة الفرس غالبة على مجالس الطرب وآدابها ومواعيدها وادواتها ، كما ترى ذلك من اوصاف المهرجانات والنواريز واعياد الطبيعة ومنازه الرياضة والالعاب والصيد والطرد وسائر المراسم والازياء

***

اذا تلخصت الحالة السياسية فى سوء الظن فقد تتلخص الحالة الاجتماعية فى اغتنام الفرصة ، وان هذا وذاك فى الحالتين لكالشىء وظله أو كالصوت وصداه

الحالة الفكرية

قال ابن قتيبة فى مقدمة كتابه « أدب الكاتب » يصف حالة عصره من العلم والأدب :

« انى رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين ، ومن اسمه متطيرين ، ولأهله كارهين . أما الناشىء منهم فراغب عن التعلم والشادى تارك للازدياد والمتأدب فى عنفوان الشباب ناس أو متناس ، ليدخل فى جملة المجدودين ويخرج عن جملة المحدودين . فالعلماء مغمورون وبكرّة الجهل مقموعون ، حين خوى نجم الخير وكسدت سوق البر ، وبارت بضائع أهله وصار العلم عارا على صاحبه ، والفضل نقصا وأموال الملوك وقفا على شهوات النفوس والجاه الذى هو زكاة الشرف يباع بيع الخلق ، وآضت المروءة فى زخارف النجد [1] وتشييد البنيان ، ولذات النفوس فى اصطفاق المزاهر ومعاطاة الندمان ، ونبذت الصنائع [2] وجُهل قدر المعروف وماتت الخواطر وسقطت همم النفوس . . . . فأبعد غايات كاتبنا فى كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف ، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتا فى مدح قينة أو وصف كأس ، وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئا من تقويم الكواكب وينظر فى شىء من القضاء ، ومن المنطق ثم يعترض على كتاب الله بالطعن وهو لا يعرف معناه ، وعلى حديث رسول الله بالتكذيب وهو لايدرى من نقله . قد رضى عوضا من الله ومما عنده بأن يقال فلان لطيف وفلان دقيق النظر : يذهب الى أن لطف النظر قد أخرجه من جملة الناس وبلغ به علم ماجهلوه ، فهو يدعوهم الرعاع والغثاء والغثر وهو لعمرالله بهذه الصفات أولى وهى به أليق ! لأنه جهل وظن أن قد علم فهاتان جهالتان ، ولأن هؤلاء جهلوا وعلموا أنهم يجهلون . ولو أن هذا المعجب بنفسه الزارى على الاسلام برأيه نظر من جهة النظر لأحياه

(١) الاثاث والفراش (٢) جمع صنيعة وهى البر

الله بنور الهدى وثلج اليقين ، ولكنه طال عليه أن ينظر فى علم الكتاب وفى أخبار الرسول وصحابته وفى علوم العرب ولغاتها وآدابها فنصب لذلك وعاداه وانحرف عنه الى علم قد سلمه له ولأمثاله المسلمون وقل فيه المتناظرون ، له ترجمة تروق بلا معنى واسم يهول بلا جسم . فاذا سمع الغمر والحدث الغر قوله : الكون والفساد وسمع الكيان والأسماء المفردة والكيفية والكمية والزمان والدليل والأخبار المؤلفة — راعه ما سمع وظن أن تحت هذه الألقاب كل فائدة وكل لطيفة ، فاذا طالعها لم يحل منها بطائل ! انما هو الجوهر يقوم بنفسه والعرض لايقوم بنفسه، ورأس الخط النقطة والنقطة لا تنقسم ، والكلام أربعة أمر وخبر واستخبار ورغبة : ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب وهى الأمر والاستخبار والرغبة ، وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر ! والآن حد الزمانين ! مع هذيان كثير . . . . ولو أن مؤلف حد المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام فى الدين والفقه والفرائض والنحو لعد نفسه من البكم ، أو يسمع كلام رسول الله وصحابته لأيقن أن للعرب الحكمة وفصل الخطاب . . . . فلما أن رأيت هذا الشأن كل يوم الى نقصان وخشيت أن يذهب رسمه ويعفو أثره جعلت له حظا من عنايتى وجزءا من تأليفى ، فعملت لمغفِل التأديب كتبا خفافا فى المعرفة وفى تقويم اللسان واليد يشتمل كل كتاب منها على فن وأعفيته من التطويل والتثقيل . . . . وليست كتبنا هذه لمن لم يتعلق من الانسانية الا بالجسم ومن الكتابة الا بالاسم ولم يتقدم من الاداة الا بالقلم والدواة ، ولكنها لمن شدا شيئا من الاعراب فعرف الصدر والمصدر والحال والظرف وشيئا من التصاريف والأبنية وانقلاب الياء عن الواو والألف عن الياء وأشباه ذلك . ولا بد له مع كتبنا هذه من النظر فى الأشكال لمساحة الأرضين حتى يعرف المثلث القائم الزاوية والمثلث الحاد والمثلث المنفرج ، ومساقط الأحجار والمربعات المختلفات والقسى والمدورات والعمودين ، ويمتحن معرفته بالعمل فى الأرضين لا فى الدفاتر ، فان المخبر ليس كالمعاين . وكانت العجم تقول : من لم يكن

عالما باجراء المياه وحفر فرص المشارب وردم المهاوى ومجارى الأيام فى الزيادة والنقص ودوران الشمس ومطالع النجوم وحال القمر فى استهلاله واقفاله ووزن الموازين وذرع المثلث والمربع والمختلف الزوايا ونصب القناطر والجسور والدوالى والنواعير على المياه وحال أدوات الصناع ودقائق الحساب كان ناقصا فى حال كتابته . ولا بد له مع ذلك من دراسة أخبار الناس وتحفظ عيون الحديث ، ليدخلها فى تضاعيف سطوره متمثلا اذا كتب ويصل بها كلامه اذا حاور ، ومدار الأمر على القطب وهو العقل وجودة القريحة ، فان القليل معهما باذن الله كاف والكثير مع غيرهما مقصر »

هكذا كان حكم ابن قتيبة على عصره

وابن قتيبة أديب لغوى فقيه ولد فى أوائل العقد الثانى من القرن الثالث ومات فى سنة ست وسبعين ومائتين ، ونشأ وعاش فى بلاد العراق . فهو معاصر ابن الرومى فى زمنه وقرينه فى وطنه وشاهد عيانٍ لذلك العصر يحدث عنه بما اختبر ورأى من صفات أهله

فهل أصاب ابن قتيبة أو أخطأ فى حكمه ؟

لم يصب كل الصواب ولم يخطىء كل الخطأ ، وأياً كان حظه من الصواب أو الخطأ فقد مثّل عصره أحسن تمثيل ينظر اليه صاحب الأدب واللغة والفقه ، وغاب عنه ما وراء ذلك مِن نَظَرٍ لا يحيط به الذين يتحزبون لهذه العلوم على فروع العلم كافة

فمن حسن تمثيله للعصر أنك تعرف من مقدمته كل ما كان يشتغل به أبناء عصره أو لا يشتغلون به من المعارف القديمة والحديثة ، وانك تعرف منه أن العصر لم يكن عصر العلوم القديمة وحدها لأن العلوم الحديثة المنقولة والموضوعة أصبحت شرطا فى الكاتب والأديب

لا تتم بغيرها كتابته وأدبه . حتى رأى مثل ابن قتيبة أنه فى حاجـة الى اظهار مساهمته فى هذه المعرفة وهو يدعو الى علم اللغة والكتابة ، لئلا يستجهَل ويُعرَض عنه

والمعاصر من بعض الوجوه أصلح الناس للحكم على عصره ، ولكنه من وجوه أخرى أقل الناس صلاحا لانصافه والاحاطة بجميع نواحيه ، فهناك أشياء يراها القريب ولا تدخل فى رؤية البعيد ، وهناك أشياء يحيط بها البعيد ولا يلمح منها القريبُ الا اليسير . كالناظر الى القمر فى المنظار يرى جزءا منه كبيرا مفصلا ولكنه لا يراه كله ولا يقع نظره على ما حوله . ومثل هذا ما حدث لابن قتيبة حين كبّر وصغّر وتناول المقياس ليقدر فأخطأ فيما قدر

أخطأ ابن قتيبة فى شرح حالة العلم والتفكير بين أبناء عصره لأسباب متعددة : منها أن العلم لم يكن منهجا واحدا فى ذلك العصر ولكنه كان مناهج كثيرة تشتمل على منهج أهل السنة المتشددين فى انكار البدع ، ومنهج الفرق الاسلامية التى تدخل فيها فرق الشيعة وفرق المعتزلة على اختلافها وتباعد المسافة بينها ، ومنهج العلوم الحديثة من يونانية وفارسية وهندية وغيرها من مستحدثات الترجمة والابتكار ، ومنهج المتأدبين المتظرفين الذين يقتبسون من كل قبس ويستطرفون من كل طرفه . الى غير ذلك من المناهج التى تتقارب وتتباعد على نحوٍ مما نعهد فى زماننا الذى نحن فيه

وقد كان الخلاف والتعصب بين هذه المناهج على أشده فى العراق لأنه كان مجمع العواصم وملتقى العرب والعجم ومثابة العلماء والأدباء من

جميع الطوائف والمذاهب ، فرأىُ ابن قتيبة هو رأى المتشددين أنصار العلوم العربية لا يرون غيرها الا فضولا أو كالفضول ولا يحسبون المنطق والفلسفة والرياضة وما اليها الا لغوا قصاراه أن يلغط اللاغط بالكمية والكيفية والخط والنقطة والجوهر والعرض مع « هذيان كثير »

ولكنه مع ازدرائه هذه العلوم الحديثة لم يلبث أن فرِق من تهمة الجهل بها فذكر أطرافا من مصطلحاتها ودل بذلك على خطرها الذى لا يُزدرى ، ولكنها كما رأى القارىء أطراف مقتضبة كالتى نعاها على الاغرار المفتونين بظواهر تلك العلوم ، فلا يقولها القائل وله علم صحيح بما وراء تلك الاطراف

ومن الاسباب التى باعدت بين الاديب اللغوى والاصابة التامة فى تمثيل عصره أنه كان أديبا ولغويا وكان سبيل العلم بالادب واللغة أن يتحرى الطالب ماتقدمه وأن يرتقى فى تحرى القدم الى أبعد عصوره . فلا ينظر الى العصور التى خلفت بعد العرب الأسبقين إلا على أنها عصور نازلة منحدرة تمعن فى الجهل والاسفاف بمقدار امعانها فى البعد من العربية الجاهلية ! فعنده ان السلف قد ذهبوا بالخير كله ولم يبق للمتأخرين الا أن ينعوا زمانهم ويأسوا على مافاتهم ! وكل زمان هو شر الأزمنة فى أوانه وخير الازمنة — أو من خيرها — متى لحق بالماضى العريق ! وما برح ذمُّ الانسانِ عصره وانتقاصه اياه ديدن كل أديب فيما غبر وديدن بعض الادباء فى هذه الأيام . فابن قتيبة انما جرى على هذه العادة التى لا تُستغرب فى عهد البداوة العربية وفى عهد كل بداوة طبعت على تعظيم السلف والتفاخر بالأنساب والرجوع الى القديم

على أن الرجل لو تجرد من هـذه العادة لبقى سببٌ آخرُ لعله كان يمنعـه أن ينصف أبناء عصره أو يستجمع اخبارهم ويحسن المقابلة بينهم وبين من سبقهم ولحق بهم من أمثالهم . فربمـا كان بعض الجهابذة فى أيامه متباعدين متفرقين فى أقطار ذلك الملك الواسع لايَسمع بهم الا لماما ، وربما كان القريبون منه فى طريق العمل فلم يستووا بعدُ على غاية القمة ولم يلبسوا بعدُ هالة الخلود والشهرة ،وذلك فضلا عن الذين جاءوا بعده بقليل . فهو لايعرفهم ولا يطالب بأن يعرفهم

والحقيقة أن ذلك العصر كان من أزهى عصور العلم فى بلاد الاسلام قاطبة ، لانه كان أول عصر تلقى علوم الثقافة الاسلامية كلها كاملةً مفروغا من وضعها وترجمتها وتحضيرها غـيرَ مستثنى منها علوم السنة والعربية التى كان ابن قتيبة يتوفر عليها

ففى القرن الثالث تمت المذاهب الاربعـة فى الفقه وظهرت آثار أقطاب الحديث كالبخارى ومسلم وابى داود وابن ماجـة والترمذى والنسأى،ونزعت السياسة الى تأييد أهل السنة أيام الخليفة المتوكل . ثم انتهى القرن بظهور أبى الحسن الاشعرى الذى مال من مذهب المعتزلة الى مذهب أهل السنة فقيل فيه « كان المعتزلة قد رفعوا رؤسهم حتى اظهر الله الاشعرى فحجزهم فى اقماع السمسم » . ولم يخل علمٌ من العلوم القديمة أو الحديثة من أعلام نبغوا فى القرن الثالث او حضروا اوائله ، حتى العلوم العربية التى كان ابن قتيبة يتهم القوم باهمالها والجهـل بفضائلها . وهى علوم الرواية والنحو واللغـة والادب . فمن رجالها المشهورين الذين حضروا ذلك القرن الفرّاء وابن السكّيت وقطرب وابن

الاعرابى ونفطويه والجاحظ وابو عثمان المازنى وثعلب والزجّاج والمبرد وابن الانبارى وابن دريد والأخفش والسجستانى والصولى والرياشى وابو سعيد البكرى وقدامة بن جعفر وابن ابى الدنيا وابن العلاء السكرى وكثيرون ممن يضارعون هؤلاء او يقلون عنهم فى الطبقه والشهرة. أما العلوم الأخرى فقد تأسس فى ذلك القرن التاريخ والجغرافية وعاش فيه من المؤرخين والجغرافيين البلاذرى واليعقوبى وابو حنيفة الدينورى وأبو زيد البلخى والطبرى وابن البطريق وابن خرداذبه وابن الفقيه وابن رسته وبُزُرك بن شهريار وآخرون، وكان من فلاسفته الكندى والفارابى وابن سينا، ومن اطبائه الرازى وابن سهل وابن ماسويه، وراج علم النجوم حتى أوشك ألا يكون فى ذلك الزمن الا منجم!

ولم يقتصر الأمر على نبوغ هؤلاء الاعلام فى مناهج العلم المختلفة بل تجاوزه الى طوائف الناس من خاصة وعامة. فتحدثوا بالعلوم واشتغلوا بمحاوراتها ومناظراتها وأقبلوا على اقتناء كتبها، فكان العصر عصر ثقافة عامة كثرت فيه المشاركة فى مسائل البحث والمطالعة وشاع ذلك بين الناس اوسع شيوع، حتى كان الرجل منهم يجمع بين اشتات الثقافة فى زمنه كما رأيت فيما نقلناه عن على بن يحيى المنجم أو كما ترى من قول ابن الرومى فى رجل يصفه بدعوى العلم فى معرض الهجو والتهكم:

قولا لطوط أبى على … بصريّنا الشاعر المنجم
المنذر المضحك المغنى … الكاتب الحاسب المعلم
الفيلسوف العظيم شأنا … العائف القائف المعزّم
الماهن الكاهن المعادى … فى نصر ابليس كل مسلم

وبلغت هذه النهمة العامية حدا أضجر الظرفاء كما أضجر المتشددين، فكان الفتى المهذب يومئذ إما طالب علم قديم أو طالب علم حديث أو مشاركا فى هذا وذاك أو ظريفا ضجرا من أكثر هؤلاء على حد وصف ابن المعتز :

قليل هموم القلب الا للذة ... ينعّم نفسا آذنت بالتنقل
فان تطّلبه تقتنصه بحانة ... والا ببستان وكرم مظلل
بعب ويسقى أو يسقّى مدامة ... كمثل سراج لاح فى الليل مشعل
ولست تراه سائلا عن خليفة ... ولا قائلا من يعزلون ومن يلى
ولا صائحا كالعير فى يوم لذة ... يناظر فى تفضيل عثمان أو على
ولا حاسبا تقويم شمس وكوكب ... ليعرف أخبار العلو من آسفل
يقوم كحرباء الظهيرة ماثلا ... يقلب فى اصطرلابه عين أحول
ولكنه فيما عناه وسره ... وعن غير ما يعنيه فهو بمعزل

والظاهر أن علم النجوم والرياضيات على الجملة كان أروج العلوم الحديثه وأكثرها طلابا، لطرافته وموافقته أحوال الزمن وتقلباته وشيوع الحضارة الفارسية التى كان أهلها يعبدون الكواكب وينوطون بها مقادير الخير والشر وطوالع السعود والنحوس، ولم يكن الايمان بالسعد والنحس والزجر والقيافة غريبا عن العرب فقبلوا العلم الحديث غير متعسرين، وأفرطوا فيه ذلك الافراط الذى لم يرض عنه ابن قتيبة ولم يرض عنه ابن المعتز، وهما فى هذا المقام طرفان !

وربما كان من تمام البيان عن آراء المتعلمين يومئذ فى فنون العلوم المختلفة أن نأتى هنا على رأى « النجوميين » فى أنصار القديم كما أتينا

على رأى أنصار القديم فى النجوميين. فقد كان هؤلاء يهزأون بالمتشددين كما كان المتشددون يهزأون بهم، وكانت لهم فى التنادر بالقوم دعابات ونكات أظرفها ماوُضع فيما نظن على لسان أحمد بن ثوابة الكاتب المعروف فى زمنه وجُمعت فيه نكات العصر على كارهى الهندسة والرياضة وما اليها. قال أبو حيان فى كتاب الوزيرين [1]: «. . . . أن صديقا لابن ثوابة الكاتب أبى العباس يكنى أبا عبيدة قال له ذات يوم: انك بحمد الله ومنه ذو أدب وفصاحة و براعة، فلو أكملت فضائلك بأن تضيف اليها معرفة البرهان القياسى وعلم الأشكال الهندسية الدالة على حقائق الأشياء وقرأت اقليدس وتدبرته !.....»

ثم نقل أبو حيان عن ابن ثوابه أنه كتب الى صديق له سأله عما حدث بينه وبين معلمه الهندسة فأجابه بعد تطويل وحوقلة واستعاذة بما يأتى:

«. . . فأخذ القلم ونكت نكتة نقط منها نقطة تخيلها بصرى وتوهمها طرفى كأصغر من حبة الذر، فزمزم عليها من وساوسه وتلا عليها من حكم اسفار أباطيله ثم أعلن عليها جاهرا بافكه وأقبل على وقال: أيها الرجل ! ان هذه النقطة شىء لاجزء له، فقلت: أضللتنى ورب الكعبة. وما الشىء الذى لا جزء له ؟ فقال كالبسيط . . . . فقلت أنا: وما الشىء البسيط ؟ فقال كالله والنفس ! فقلت له انك من الملحدين. أتضرب لله الأمثال والله يقول فلا تضربوا لله الأمثال ان الله يعلم وأنتم لاتعلمون ؟ . . . . فلما سمع مقالتى كره استعاذتى فاستخفه الغضب فأقبل على مستبسلا وقال. انى أرى فصاحة لسانك سببا لعجمة فهمك وتدرعك بقولك آفة من آفات عقلك، فلولا من حضر والله المجلس واصغاؤهم اليه مستصوبين أباطيله ومستحسنين أكاذيبه وما رأيت من استهوائه اياهم بخدعه وما تبينت من توازرهم

(١) راجع معجم الأدباء فى ترجمة ابن ثوابة

لأمرت بسل لسان الالكع الألكن وأمرت باخراجه الى آخر نار الله وسعيره ... »

ومضى ابن ثوابة يذكر كيف جاءوا له بمعلم مسلم بعد هذا المعلم النصرانى وكيف استعظم هذا المعلم المسلم عليه ان يدرك النقطة وقال له

« وهل بلغت أنت أن تعرف النقطة ؟ فقلت استجهلنى ورب الكعبة !.... وأخذ يخط وقلبى مروع يجب وجيبا وقال لى غير متعظم : ان هذا الخط طول بلا عرض ، فتذكرت صراط ربى المستقيم وقلت له : قاتلك الله ! أتدرى ما تقول ؟ تعالى صراط ربى عن تخطيطك وتضليلك !انه لصراط مستقيم وانه لأحد من السيف البآر والحسام القاطع وأدق من الشعرة وأطول مما تمسحون وأبعد مما تذرعون. . . أتطمع أن تزحزحنى عن صراط ربى وحسبتنى غرا غبيا لا أعلم ما فى باطن الفاظك ومكنون معانيك ؟ والله ماخططت الخط وأخبرت أنه طول بلا عرض الا ضلة بالصراط المستقيم لتزل قدمى عنه وأن تردّينى فى جهنم ! أعوذ بالله وأبرأ اليه من الهندسةومما تدل عليه وترشداليه.انى برىء من الهندسة ومما تعلنونوتسرون.... »

فهذا مثل بارع من السخرية التى كانوا يقابلون بها سخرية القوم من المنطق والنجوم. والكتابُ على مافيه من الصورة الهزلية يدل بين سطوره على حقائق كثيرة : منها استفاضة تلك العلوم وجلالة خطرها بين المتأدبين حتى أن رجلا كابن ثوابة بلغ من المكانة والسن مبلغه يخف الى تعلّمها ويحسب أن مروءته لاتكمل بين ذوى العلم بغير درسها، ومنها ان اشياعها كانوا من الكثرة وأن اساتذتها كانوا من التجلة والهيبة بحيث كان يعز على ابن ثوابة ان يجد فى مجلسه رجلا واحدا يؤازره ويرضى له أن يهين المعلم الذى جبهه بالقول الخشن واستطال عليه بالتقريع فى داره ، وليس يخفى أن الهزل كالغضب كلاهما مصوّرٌ مُبالغ موكّل بالغلوفى التكبير والتصغير ، فلا المتشددون كانوا كما مثلهم لنا ابو حيان

فى دعابته وهزله ولا المشغوفون بالحديث كانوا كما مثلهم لنا ابن قتيبة فى نكرانه وغضبه ، بيد اننا اذا حسبنا كل حساب لمبالغة الهزل ومبالغة الغضب بقيت المسافة طويلة بين الفريقين والبرزخ الفاصل بينهما متعذر العبور على تقارب الجيرة فى الزمان والمكان

على قرب بعض فى المحلة من بعض   وسكان دار لا تزاور بينهم

وليس يصعب على القارىء أن يتخيل هذه الحالة بجملتها لانها أشبه شىء بما نحن فيه الآن من تباعد وتقارب واتصال فى الثقافات وانفصال، أو لعل الفرق الوحيد بيننا وبينهم أن عصرهم كان عصر الموالى الذين يدخلون العصبية الشعوبية فى هذا الخلاف ويجتهدون فى درس العلوم الحديثة لانها تنافس العلوم العربية وتضيف اليها ما ليس منها ، وهم يودون ألا يحصروا الدين والعلم والسيادة جميعا فى العرب، والا يستأثر العرب دونهم بكل مأثرة وفضيلة. وقد يشعرون بهذا القصد ولا يشعرون، ولكنهم حريون أن تميل بهم ضمائرهم هذا الميل اذا وقع التنافس بين العرب والشعوبية والتمست المفاخر من الجانبين

الشعر

قد تكثر دراسة الآداب والعلوم ولا شعر ، وقد يكثر الشعر ولا دراسة للآداب والعلوم. أما القرن الثالث للهجرة فقد كان جامعا لأشتات الثقافة بفروعها ، كثير الآداب والعلوم كثير الشعر كثير المعنيين بالأشعار

عاش فى ذلك القرن — ولا سيما أوائله وأواسطه — نخبة من جلة الشعراء النابهين كأبى تمام والبحترى والحسين بن الضحاك وعلى بن الجهم ودعبل الخزاعى وابن المعتز وابن الرومى ، وعاش فيه مع هؤلاء مئات من قالة الشعر المحسنين وغير المحسنين والمحترفين وغير المحترفين، وأوشك أن يكون كل متعلم متأدب شاعرا ينظم الأبيات والمقاطع فى بعض أغراضه . فالخلفاء كانوا ينظمون للغزل والغناء ، والأمراء والوزراء سواء منهم الفرس والعرب ـ كانوا يتطارحون الأشعار ويحفظون منها الشيء ، الكثير، والمنتمون الى الفرس والأعاجم كانوا أسبق الى المنافسة فى هذا المضمار لينفوا عنهم تهمة العجمة ويدخلوا مع العرب فى ميدان الفصاحة ، ومن الأمراء الفرس الذين مدحهم ابن الرومى من وضع كتابا فى الشكر ضمنه مختارات مما قيل فى هذا المعنى وختمه بأماديح يطرى بها صديقه العلاء بن صاعد على حروف المعجم ، ونعنى به عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عميد بيته العريق الذى تخرج منه كبار القواد والولاة

لهذا كان ابن الرومى يقول وهو يشكو :

قد بلينا فى دهرنا بملوك أدباء علمتهم شعـــراء

لأنه كان يشعر بالمنافسة ولا يشعر بالعطف من جانب هؤلاء الزملاء !

***

وندر فى ذلك العصر من خلا شعره من آثار الحضارة التى أجملنا وصفها فيما تقدم . فمن لم تظهر فى شعره المعانى الفلسفية والآراء الطريفة التى سرت الى المتأدبين من مذاكرة علم الكلام والعلوم المترجمة ظهرت فيه محسّنات اللفظ والمعنى التى كشفها البحث فى أشعار المتقدمين وأدت اليها المعارضة بين أقوال الفحول واستطلاع أسرار البلاغة فيما أجادوه، ومن لم يظهر فى شعره هذا وذاك ظهرت فيه تفخيمات الفرس وترصيعاتهم وجاءته العدوى من أساليب الكتاب فى النثر المنمّق وأساليب التحية فى المجالس وأساليب المعيشة فى القصور، وربما عرضت الكلمة الفارسية فى البيت العربى مما له المرادفات بالعشرات كقول شاعرنا

يأيهـــا الملك الذى   فى برده قـــر وشير

يعنى الأسد

وربما نظموا فى أوزان الشعر الفارسية كالدوبيت والرباعية ، أو تفننوا فى التسميط والتوشيح والازدواج على نحـو ما نراه من كلف بعض الشعراء المعاصرين باختراع الأوزان والأعاريض

وامتاز هـذا العصر على العصر الذى تقدمه بما يصح أن نسميه علم الشعر تمييزا له من العناية بنظم الشعر نفسه . فقد كان الشعراء المولدون يأتون بالمحسّنات البليغة عفوا أو محاكاة للأقـدمين أو تصرفا فى الاختراع، ولا يسمون هذه المحاسن بأسمائها أو يستخرجون منها علما مرتبا على أقسام معززا بشواهد، وسبق فى هذا المجال أمثال بشار ومسلم والعتابى وأبو نواس ، وتلاهم أبو تمام وتلامذته فى أوائل القرن الثالث .

ثم تمكن حب التعريف والتقسيم والتخريج والتأويل من عقول الأدباء، وكتب الجاحظ وقدامة بن جعفر وابن المعتز فى هذه المعانى فاذا علم جديد مقيس على الشواهد معروف بالأسماء

وما انتهى القرن الثالث حتى كانت لهم نظرة فى الشعر كالنظرة التى رواها صاحب زهر الآداب عن الحاتمى اذ يقول :

« مثل القصيدة مثل الانسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه فى صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخوّن محاسنه وتعفّى معالمه ، وقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون فى مثل هذا الحال احتراسا يجنبهم شوائب النقصان ويقف بهم على محجة الاحسان ، حتى يقع الاتصال ويؤمن الانفصال وتأتى القصيدة فى تناسب صدورها واعجازها وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة لاينفصل جزء منها عن جزء. وهذا مذهب اختص به المحدثون لتوقد خواطرهم ولطف أفكارهم واعتمادهم البديعَ وأفانينه فى أشعارهم ، وكأنه مذهب سهلوا حزنه ونهجوا دارسه . فأما الفحول الأوائل ومن تلاهم من المخضرمين والاسلاميين فمذهبهم التعالم عن كذا الى كذا وقصارى كل أحد منهم وصف ناقة بالعتق والنجابة والنجاء ، وأنه امتطاها فادّرع عليها جلباب الليل، وربما اتفق لأحدهم معنى لطيف يتخلص به الى غرض لم يتعمده، الا أن طبعه السليم وصراطه فى الشعر المستقيم نفى تياره وأوقد باليفاع ناره » الى أن يقول بعد أبيات أوردها للنابغة الذبيانى :

« وهذا كلام متناسب تقتضى أوائله أواخره ولا يتميز منه شىء عن شىء ... ولو توصل الى ذلك بعض الشعراء المحدثين الذين واصلوا تفتيش المعانى وفتحوا أبواب البديع واجتنوا ثمر الآداب وفتقوا زهر الكلام لكان معجزا عجبا »

فهذه النظرة تريك أثر البديع فى كتابتهم وفى نقدهم القصيد ،

فأما الكتابة فهذا نمط منها تكثر فيه الاستعارة مع القصد الى معنى يراد ويُفهم، وأما النقد فمذهبهم فى وحدة الاغراض واتصال الاجزاء لا يخالف مذهب المعاصرين الا باستحسان التلفيق بين المديح والنسيب ، وعذرهم ان المديح كان قوام حياة الشاعر يومئذ فما كان الاستغناء عنه والاعتماد على النسيب وحده بالمستطاع

***

وغنى عن القول بعد هذا أن « التَنَبُّه » كان هو السمة الغالبة على الشعر كله فى ذلك العصر الدائب على التفتيش والانتقاد ،فكان شاعرهم ينظم القصيدة وهو واع لنفسه عامدٌ لترتيب اياته عارفٌ بمواضع التجويد فى لفظه ومعناه ، وتتابع الشعراء كبارهم وصغارهم على هذا فكان فيهم كلُّ ما فى هذه الطريقة من المآخذ والفضائل ومن عناصر الضعف والقوة

***

وتغيرت اغراض الشعر فهذا الذى يقول فيه ابن قتيبة انه لا يعدو مدح قينة او وصف كأس . .! وانما كان هذا الامام الناقد الذى درس الشعر ووازن بين أصوله وفصوله مستنكرا مستصغرا يرى الشوهة ويغمض عن الحسنة.ولولا ذلك لرأى ان الشعر قد كان يعدو مدح القيان ووصف الكؤوس الى اغراض كثيرة تشمل كل وصف وتدخل فى كل معرض من معارض الحياة فى ذلك الزمان ، ولم يقلَّ فيها الا ما كان وقفا على اغراض البداوة وايام الجاهلية الأولى . لان هذه البداوة قلت فلم يكن لها نصيب من الشعر الا القليل

لكننا نخاله كان على حق فيما شكاه من شح الجوائز وكساد سوق أهل الادب عامةً عند الملوك والامراء ، فاشتغال هؤلاء الملوك والامراء بالشعر ونظمه وحفظه وروايته شيء واجازتهم عليه الجوائز السنية شيء آخر . انما كانوا فى عصر ثقافة يود فيه كل امرىء كامل المروءة ان يعرف كلَّ ما يُعرف من الآداب والفنون والملاهى ، فاذا تعاموا الشعر فكما يتعلم الرجل المثقف التوقيع على المعازف والشعوذة وطرائق التفكهة والاضحاك فى مجالس السمر، ولا يلزم من ذلك ان يكون لهذه الاشياء أو لأهلها المنقطعين لها خطر فى نفسه

ولا عجب أن يكثر الناظمون وحافظو الشعر فى زمن كانت الوزارة فيه والكتابة — أو صناعة الادب — فنا واحدا وشارة واحدة، وكان معظم الوزراء والولاة من الأدباء الذين ظفروا بالحظوة عند الخلفاء ، ولكنَّ أمورا كثيرة طرأت فى أواخر ذلك العصر كان من جرائها تطفيف ارزاق الشعراء وابتلاؤهم بكثرة النظراء وقلة النصراء : منها توزع العناية بين العلوم الحديثة والشعر الذى كان مستأثرا بجل عناية العرب فى صدر الدولة الاسلامية، ومنها غلبة المنادمة على الشعر وترجيح صفة النديم على صفة الشاعر اذا تعذر الجمع بين الصفتين ، ومنها قلة الاكتراث للمدح والذم حين استبحر العمران واستفاضت المناعم واللذات وشاعت الاباحة والمجون، ومنها كثرة الشعر والشعراء فقد اصابه واصابهم مايصيب كل كثير من الرخص والبوار ، ومنها ان الدعاية السياسية خرجت كلها — أو أغلبها — من ايدى الشعراء الى أيدى الدعاة الذين تفرغوا لهذه الصناعة وبلغوا بها ايام العباسيين والعلويين شأوا من

البراعة والاتقان قلّما يفاق فى عهد من العهود ، ومنهـا اضطراب امور الحكم واختلال أحوال الرعيـة فى اواسط القرن الثالث بين عصرين سعيدين فات السابقُ ولم يأت بعـده أوان اللاحق : ونعنى بهمـا عصر الهيبة والثروة والعطايا والملك الموطّد المرجو المخوف، وقد ذهب. وعصر الأمراء الذين تقسّموا المملكة واستقر كل منهم على جزء منها وتنافسوا بينهم فى اجتلاب الشعراء والتشبه بالخلفاء ، ولم يأت بعد !

فكان الشعراء ضائعين من هنا وهناك ،وربما كان هذا سر خفوت الشعر وقلة الشعراء المجيـدين فى الربع الأخير من القرن الثالث والربع الأول من القرن الذى تلاه

الدين والاخلاق

اذا عُرفتْ حالة السياسة وحالة الاجتماع وحالة التفكير فليس بالحالة الدينية ولا الخلقية خفاء

لأن عقيدة المرء شديدة الصلة بتفكيره ومعيشته ومجرى الأحكام فى زمانه ، وظاهرٌ بعد ما تقدم أن الدين فى القرن الثالث لم يكن «دين الفطرة » الذى يؤمن به شعب لم يعرف الترف والفساد ولم يشهد من ولاته الا العدل والاستقامة ولم يتعود أن يناقش نفسه فى عقيدته وعقيدة غيره . فنشوء المذاهب واختلاف الآراء ضرورة لا محيد عنها فى أمثال تلك الأحوال

كتب ميسرة بن حسان السمّرى الى أحمد بن سليمان بن أبى شيخ يسأله عن مذهبه ولم يكن أحد يقف على حقيقته :

دخلتنا الشكوك يا ابن أبى شـ ... يخ بأى الأديان أنت تدين
والى أيهـا تميـل أبا جعفـر ... كم ذا الهـوى وذا التلوين ؟

فأجابه عنه ابن الرومى

يا ابن حسان لا تشكن فى د ... ينى ، ولا تقتسمك فىّ الظنون
فهو توحيد ذى الجلال وتصد ... يق الذى بلغ الرسول الأمـين

. . . .

فاعدُ عنى وانظر لنفسك دونى ... ليس يُجزى سواى عمـا أدين

وسؤال ابن حسان له مغزاه . فما كان له من محل لو أنهم كانوا يصدّقـون أن الرجل فى زمانهم يبطن ما يظهر ويؤمن بالدين الذى

يؤمن به الناس كافةً . فكأنما كان المفروض فى طائفة من الناس أن يطووا سرائرهم على مذهب غير مذهب الاجماع وسرٌ فى الاعتقاد غير الذى يبدونه علانية من «توحيد ذى الجلال وتصديق الذى بلّغ الرسول».

وليس بعجيب أن يكون الأمر كذلك والعهد عهد الملل والنحل والأحزاب والعصبيات والدعايات والبحث والتفسير . فما من نحلة كانت ولا شعبة من نحلة الا كان لها أنصار ولأنصارها شأن ما فى بعض الجهات . ولا سيما العراق ملتقى الأمم ومشتجر النزاع ومتوسط الرقعة الاسلامية ومثابة الحضارات القديمة والحديثة. وما كان أكثرها من نحل وأشده من لهج بالانتحال !! لكأنما كانت بلاد الدولة العباسية معرضاً للنحل ومستبقاً للمشاقة بين المنتحلين!! ففيه التشيع بدرجاته والاعتزال بطوائفه والسُّنة باختلاف أقوال المجتهدين فيها والفلسفة بمذاهبها والعلوم الحديثة بشعابها، وفيما بين هذا وذاك أشكالٌ من التدين يجىء بها دخول الفرس والروم والديلم فى الاسلام عمداً أو على غير عمد . فبعضهم كان يُسلم وهو فى الباطن على دين آبائه ، وبعضهم كان يخلص فى اسلامه ولكنه ينقل الى دينه الجديد موروثات دينه القديم ، وذلك فضلا عن النصارى واليهود وعباد الأوثان . وكلهم على اختلاف فى المذاهب والعصبيات كهذا الاختلاف ، فغيرُ مستغرب أن يُسأل المرء عن دخيلة رأيه فى الاعتقاد فى هذا المعرض الحاشد بالطوائف والأديان

الا أننا نخطىء أشد الخطأ اذا فهمنا من هذا أن الاباحةَ حلّت محل الدين فى تلك الفترة فتعفّى أثره وبطل سلطانه . فان مداراة الآراء التى تخالف الاجماع لاتدل على ذلك بل لاتدل الا على نقيض ذلك ، والمعهود

فى أمثال تلك الفترة أنها تقبل الغلو فى التدين كما تقبل الشكوك وتعدد المذاهب، كأن الاحساس بالخطر على العقيدة يحرك بواعث الغيرة عليها ويزعج النفوس الى المنافخة عنها ، فاذا رأيت الاباحة والترخص فى جانب لم تلبث أن ترى الغلو والتشدد فى الجانب الآخر ، ولا يخفى أن هذا الجانب الآخر هو الأقوى والأكبر لأنه جانب العادة الخالدة والعدد الأكثر . وربما لاح للناس أنهم نبذوا الدين فما يشعرون الا وهم يلبون دعواته ويتعصبون لأهله ويظنون فى أنفسهم أنهم غير متدينين !

ولقد كان مع الترخص فى اباحة اللذات أناس غالون فى النهى عنها يثورون على أصحابها فى الحين بعد الحين ليقوّموا المنكر باليد واللسان . ومن هؤلاء فئة بغداد خرجت — بُعيد مولد ابن الرومى — تهجم على البيوت فتريق الخمر وتضرب القيان وتكسر العيدان ، وكان يُنادَى فى بغداد قبيل وفاته — أى فى سنة تسع وسبعين ومائتين — « الا يقعد على الطريق ولا فى المسجد الجامع قاصٌ ولا منجم ولا زاجر » وحلف الوراقون ألا يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة

بل كان ابن الرومى اذا ذكر الخمر فى مديح أمير أسرع فاستدرك قائلا انها الشراب الحلال لا الشراب الحرام :

لا المدام الحرام لكن حلالٌ	سؤر نار يحثها طابخان
شارك الخمر فى اسمها ليس الا	أن أداموه مثلها فى الدنان
وحكاها فى اللون والريح والطـ	ـعم ولطف الدبيب فى الجثمان
فهو لا خمر فى الحقيقة لكن	هو خمر فى الظن والحسبان

ومثل هذا لا يقال الا وللدين هيبة وللفرائض رعاية

* * *

وهناك الضمائر التى لا تقوى على الشك لانها تستريح الى التسليم والاتكال ، فهى اما أن تهرب من الشكوك والأقاويل الى ايمان بسيط لا لجاجة فيه ، أو تهرب منها الى اللهو والمؤانسة وما يعنيها فى الحاضر بين يديها لحظة بعد لحظة . كما قال ابن المعتز :

ولكنه فيما عناه وسره — وعن غير ما يعنيه فهو بمعزل

وأصحاب هذه الضمائر هم — حين يُحسبون — أقرب الى المؤمنين منهم الى المتشككين

* * *

وما يقال فى الدين يقال فى الأخلاق . فلا ريب فى أن السياسة القائمة على السلب والغيلة ، والآداب القائمة على اغتنام الفرص وانتهاب اللذات ، والعقائد القائمة على ما رأيت من الشك والتشعب — قلما تُبقى للنفوس بقية صالحة من الأخلاق ومسكة عاصمة من الغواية . ولكننا حريون أن نذكر أن نفوس الدهماء مطبوعة على العزاء وأن أكبر العزاء لها فى هذه الفترات أن تحسب الغواية والرذيلة من مساوىء الغنى والجاه وتعتصم هى بالصبر والرجاء ، وفى بنية الأمة أبدا مثْلَ ما فى بنية الحى من العوامل المكافحة للفساد التى لا تنى تصون الجسم زمنا ولا تبرح تُلهم وظائفه السداد وان ضلّ العقل وأنحى على الجسم بما ينهكه ويرديه . فتظل هذه العوامل ناشطة فى بنية الأمة ولو تراءى للنظر من مشارفة بعض الطبقات أنها وقعت فى الاضمحلال . فلا يحسن بنا أن نبالغ فى تفخيم شأن الفوضى التى ابتليت بها العقائد والأخلاق فى تلك الفترة الشاذة المتناقضة . فهى ولا ريب كبيرة وبيلة

ولكنها ليست أكبر ولا أوبل مما قد يعترى أمما كثيرة وتؤاتيها بعده أسباب السلامة .

* * *

ذلك عصر ابن الرومى بخيره وشره وزيادته ونقصه . لقائل أن يقول فى أطواره ماشاء أن يقول وأن يختلف فى أوصافه ماشاء أن يختلف، ولكنَّ وصفاً واحدا من تلك الأوصاف لا يجوز فيه أقل اختلاف: ذلك أنه كان فى خيره وشره عصرا حيا يصنع التواريخ وليس بالعصر الميت الذى يطويه التاريخ فى ثناياه

وقد وضعنا له حدودا من أرقام السنين لضرورة الحصر والتقريب، ولكننا لم نرد بتلك الأرقام الا أن تكون معالم فى طريق الزمن يُهتدَى بها الى البدايات والنهايات ، وليست هى البداية والنهاية ولا هى محور الابتداء والانتهاء



الفصل الثاني

اخبار ابن الرومى

العصر والرجل

فى تاريخ كل أمة عصر أو عصور اشتهرت بكثرة الذين ظهروا فيها من النوابغ والعبقريين فى الشعر والادب والعلم والفن والصناعة، فيقول الذين يحصرون الفضل كله فى العصر وحده إن احوال العصر هى التى عليها المعوَّل فى تكوين المواهب والعبقريات

وفى تاريخ كل أمة أيضا نوابغ وعبقريون ظهروا فى مختلف العصور على تفاوت الاحوال بين عصر وعصر وبيئة وبيئة، فيقول الذين يحصرون الفضل كله فى ملكة الفرد واستعداده أن العصر لا يُغنى شيئا فى تكوين المواهب والعبقريات، أو انه — اذا لم تسعف الموهبةُ والعبقريةُ — قليل الغناء

ونحن يجب أن نحذر كلَّ فكرة يراد بها أن تخدم فكرة أخرى، فهى تفقد استقلالها كلّه أو بعضه كما يفقد استقلاله كلُّ من يخدم سواه. انما تحترم الفكرة اذا أريدت لنفسها ولم تُرَد لتأييد فكرة هى مضافة اليها

فيغلب على الذين يحصرون الفضل فى العصر وحده أنهم يدعون الى الاجتماعية والاشتراك فى مرافق الامة، فيقللون من شأن الافراد

فى الوصول الى أى حظ من حظوظ العلم والمال بغير مساعدة المجتمع ومؤاتاة الحوادث

ويغلب على الذين يحصرون الفضل فى الفرد وحده انهم ينازعون أصحاب ذلك الرأى وينظرون الى تفنيده وتوهينه لإبطال ما يدعو اليه

فهم مخطئون واصحابهم اولئك مخطئون . ولا يرجى الاخلاص وصدق التحرى فى فكرة مسخرة تساق فى ذيل مذهب تعتمد عليه أو يعتمد هو عليها . فلا العصر هو كل شيء ، ولا الموهبة الفردية هى كل شيء ، والأمر الذى لامراء فيه هو أن العصر لا يخلق الموهبة اذا هى لم توجد فى صاحبها ، وأن بعض العصور من الجهة الأخرى أصلح من غيرها لاظهار المواهب والعبقريات

ثم أن العصر اذا لم يخلق الموهبة خلقا فهو بلا ريب يوجهها ويهيء لها أسباب تمامها واستوائها، بحيث يسهل علينا ان نفهم كيف أن عبقرية من العبقريات تهتدى على وجهتها فى زمن ولا تهتدى اليها فى زمن آخر ، وكيف أن رجلا يكون صانعا فى هذا العصر أو ذاك وهو لو ولد فى غيره لكان من الادباء او السواس

ولا فائدة هنا من البحث فى مصير ابن الرومى ما ذا كان يلقى وماذا كان يصبح لو أنه ولد فى غير القرن الثالث للهجرة. فقد ينبغ او لا ينبغ ، الا ان المحقق عندنا انه فى أى عصر ظهر لا يكون الا شاعرا أو صاحب عمل فنى بسبيل من الشاعرية. فقد تتخيل ابا تمام ـ مثلا ـ قاضيا والبحترى عاملا والمتنبى وزيرا والمعرى فقيها والشريف خليفة أو اماما من ائمة الطريق، وقد تتخيلهم جميعاً ظاهرين بارزين فى غير هذه الاعمال التى زاولها ابناء

الدنيا ويفلحون فيها على درجات من الفلاح ، فهم يصلحون لها ولغيرها بعض الصلاح وان كانوا مع هذا شعراء وذوى قدم فى مناهج الشاعرية. اما ابن الرومى فهو لايصلح الا للشعر وما اليه ولا ينفعه العصر إن لم ينفعه فى هذا المجال . فاذا تمهّد له الشعر فقد استوى على نهجه ، واذا لم يكن شاعراً فهو لاشىء

والعصر الذى عاش فيه كان صالحا لظهور ابن الرومى ايما صلاح : كان صالحا لظهور ابن الرومى — الشاعر — لانه كان عصرا حيا حافلاً باشتات الحياة والوان الاحساس مشغولا بالشعر والعلم وكل ما تشتغل به قريحةٌ او سليقة ، وكان فيما عدا ذلك عصر الموالى او عصراً للموالى فيه نصيبٌ وافر من التعلم والتأدب والتربية التى تُعِد صاحبها للسبق فى كل مضمار

كان لهذا عصرا صالحا لظهور ابن الرومى الشاعر الذى لامتقدَّم له فى غير الشاعرية

ولكن أتراه كان كذلك عصرا صالحا لظهور ابن الرومى -الرجل- الذى لم تبق منه الشاعرية بقيةً لمسعاةٍ ولا لتصرف ؟

لا ! لم يكن ذلك العصر صالحا لابن الرومى الرجل كما كان صالحا لابن الرومى الشاعر. بل لم يكن ذلك العصر الا عصر مَضيَعة له ولامثاله الذين خلقوا فى هذه الدنيا وكأنهم اطفالٌ فى حجر الفن لا يكفلون انفسهم ان لم تلحظهم من الدنيا كفالة ساهرة

فكانت قسمته تلك من غرائب القسم التى تتنازع الانسان بين النقيضين ، كأنه جسم مشدود للتعذيب بين قطبين متجاذبين

فمن جهة هو فى زمنه الذى لم يخلق لغيره ، ومن جهة هو فى الزمن الوحيد الذى لم يخلق له ولم يتزود له بآلة : ابن الرومى الشاعر فى عصر الحياة والاحساس والدراسة والموالى فهو بخير ... وابن الرومى الرجل فى عصر الدهاء والخبث والصراع الجهنمى فهو بشر ما يكون عليه مثله ... ولا سبيل الى الافتراق بين الشخصين ، ولا سبيل كذلك الى التوفيق بينهما على حال !

لو كان ابن الرومى شاعرا وشيئا آخر لكان قمينا أن يرضى بعصره وان يرضى به عصره : لو كان شاعراً ورجلا يحسن الخوض فى معترك العيش بين تلك الفتن والمغامرات لاتقى بعض الفشل على الاقل وارتجى بعض النجاح . لكنه كان شاعراً وحسبُ ولم يكن له زاد آخر غير السليقة الفنية ! فجنى الشاعرُ على الرجل ولم يسعد الشاعر بما جناه . ومن هنا ذلك التفاوت بين نصيب شعره ونصيب شخصه وذلك الخطأ فى تقدير مكانه وسمعته ، فهو خامل وليس بخامل وهو نابه وليس له نصيب النباهة ! شعره نافق وقائل الشعر كاسد ... وربما عابوا شعره فى حياته واكثروا من عيبه . ولكنك بيسير من النظر قد ترى انهم لم يقصدوا بالعيب الشعر كما قصدوا القائل ... وان كان فى الشعر ما يعاب !

فالذين تبادر اليهم ان ابن الرومى كان مجهول القدر فى حياته وبعد مماته انما نظروا الى احدى صفحتيه ولم ينظروا الى الصفحة الاخرى . انما كان خمول الرجل انه لم ينتفع بمعرفة الناس اياه لا أنه لم يُعرف ، وربما كان له خمول آخر وهو أنه لم يُعرف بأحسن مزاياه . أما انه قد عُرف فذلك حق لاشك فيه

وقد ازداد الناس معرفة به بعد موته كما اتفق كثيراً لمعظم الادباء

والعلماء . فقال العميدى صاحب الابانة المتوفىً سنة ثلاث وثلاثين واربعمائة وهو يذكر المتنبي . « ولا أقيسه فى امتداد النفس وعلم اللغة والاقتدار على ضروب الكلام وتصوير المعانى العجيبة والتشبيهات الغريبة والحكم البارعة والآداب الواسعة بابن الرومى » . . . وقال ابن رشيق صاحب العمدة المتوفى سنة ثلاث وستين واربعمائة : « اكثر المولدين اختراعا وتوليدا فيما يقول الحذاق ابو تمام وابن الرومى » . . . وقال ابن سعيد المغربى المتوفى سنة ثلاث وسبعين وستمائة فى كتابه عنوان المرقصات والمطربات : « ويقولون انه احق الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن توليده »...وذكر وفاته ابن الأثير المتوفىً سنة ثلاثين وستمائة فقال ان « ديوانه معروف » ... أى ان هذا الديوان كان متداولا فى ايدى الأدباء الى ايامه . ونظر الى معانيه كثير من فحول الشعراء والادباء منهم المتنبي وبديع الزمان والمعرى والشريف ، وشاعت مختاراته فى كتب الادب فلم يخل منها الا قليل

أما أخباره فقد عُنى بكتابتها وروايتها اثنان من ادباء عصره ، وهما عبيد الله بن المسيّب وابو عثمان الناجم . وثالث هو احمد بن عمار قال ابن المسيّب انه لما مات ابن الرومى «عمل كتابا فى تفضيله ومختار شعره وجلس يمليه على الناس »

ويظهر ان ابا عثمان سعيد بن هاشم الخالدى من ادباء القرن الرابع توسّع فى ترجمته إما فى كتابه حماسة المحدثين او فى كتاب مقصور عليه ، ولكنّ اخباره هذه ذهبت كلها ولم يبق منها أثر الا متفرقات فى الكتب لا تغنى فى ترجمة وافية ولا شبيهة بالوافية ، وهى على قلتها

لا يسعنا اغفالها ولا يسعنا كذلك ان نعتمد عليها ونقبلها على علاتها .

فنحن ننقلها كما هى فيما يلى ثم نعقّب عليها ونستخرج منها ما فى الوسع ان نستخرجه من ترجمة للرجل تدل عليه وتستحضر للذهن صورةً لعبقريته، ومثلنا فى ذلك كمثل المنقبين فى المحفورات اذ يعثرون ببعض العظام المهشمة من جسم مدثور ، فهم يقيسون المفقود على الموجود ويضنون بما وجدوه على الضياع ولو لم يكن به قوام

أخبار ابن الرومى

ولد ابن الرومى كما جاء فى ابن خلكان : « يوم الأربعاء بعد طلوع الفجر لليلتين خلتا من رجب سنة احدى وعشرين ومائتين ببغداد فى الموضع المعروف بالعقيقة ودرب الختلية فى دار بازاء قصر عيسى بن جعفر ابن المنصور »

وبحثنا كثيرا فى الكتب التى عثرنا على شىء من أخباره فيها فلم نجد ذكرا لأبويه وأهله ولا لأيام حداثته وتعليمه ، وانقطعت أخباره فى هذه الفترة فلم تقع لنا الا النوادر التى رويت عنه وهو شاعر لا تعرف سنه الا بالنظر الى تواريخ الوقائع التى وردت فى شعره . فجاء فى معجم الأدباء لياقوت الحموى أثناء الكلام على أحمد بن عبيد الله بن محمد بن عمار

« . . . ووجدت فى كتاب ألفه أبو الحسن على بن عبيد الله بن المسيب الكاتب فى أخبار بن الرومى ، وكان ابن المسيب هذا صديقا لابن الرومى وخليطا له قال : كان أحمد بن محمد بن عبيد الله بن عمار — هكذا قال فى نسبه بتقديم محمد على عبيد الله — صديقا لابن الرومى كثير الملازمة له ، وكان ابن الرومى يعمل له الأشعار وينحله اياها يستعطف بها من يصحبه، وكان ابن عمار محدودا فقيرا وقاعة فى الاحرار ، وكان أيام افتقاره شديد السخط لما تجرى به الأقدار فى آناء الليل والنهار . حتى عرف بذلك فقال له على بن العباس بن الرومى يوما : يا أبا العباس ! قد سميتك العُزَير . قال له : وكيف وقعت لى هذا الاسم ؟ قال لأن العزير خاصم ربه بأن أسال من دماء بنى اسرائيل على يدى بخت نصر سبعين ألف دم ، فأوحى الله لئن لم تترك مجادلتى فى قضائى لأمحونك من ديوان النبوة ! وقال فيه :

وفى ابن عمار عُزيرية   يشارك الله بها فى القدر

لمْ كان ما كان ولمْ لم يكن   مالم يكن ، فهو وكيل البشر

الخ الخ

وكتب ابن الرومى الى أحمدبن محمدبن بشر المرثدى قصيدة يمدحه بها ويهنئه بمولود ولد له ويحضه على بر ابن عمار والاقبال عليه يقول فيها

ولى لديكم صاحب فاضل   أحب أن يُرعى وأن يُصحبا

الخ الخ

قال : « وصار محمد بن داود بن الجراح يوما الى ابن الرومى مسلما عليه فصادف عنده أبا العباس أحمد بن محمد بن عمار وكان من الضيق والأملاق فى النهاية، وكان على بن العباس مغموما به فقال محمد بن داود لابن الرومى ولأبى عثمان الناجم: لو صرتما الى وكثرتما بما عندى لآنس بعضنا ببعض . فأقبل ابن الرومى على محمد ابن داود فقال : أنا فى بقية علة وأبو عثمان مشغول بخدمة صاحبه ـ يعنى اسماعيل ابن بلبل – وهذا أبو العباس بن عمار له موضع من الرواية والأدب وهو على غاية الامتاع والايناس بمشاهدته ، وأنا أحب أن تعرف مثله ، وفى العاجل خذه معك لتقف على صدق القول فيه . فأقبل محمد بن داود على أحمد بن عمار وقال له تفضل بالمصير الىَّ فى هذا اليوم وقبله قبولا ضعيفا، فصار اليه ابن عمار فى ذلك اليوم ورجع الى ابن الرومى فقال له : انى أقمت عند الرجل و بت وأريد أن تقصده وتشكره وتؤكد أمرى معه ، ومحمد بن داود فى هذا الوقت متعطل ملازم منزله . فصار اليه وأكد له الأمر معه وطال اختلافه اليه الى أن ولى عبيد الله بن سليمان وزارة المعتضد واستكتب محمد بن داود الجراح وأشخصه معه وقد خرج الى الجبل ، ورجع وقد زوجه بعض بناته وولاه ديوان المشرق ، فاستخرج لابن عمار أقساطا أغناه بها وأجرى عليه أيضا من ماله ، ولم يزل يختلف اليه أيام حياة محمد بن داود ، وكان السبب فى أن نعشه الله بعد العثار وانتاشه من الاقتار ابن الرومى ، فما شكر ذلك له وجعل يتخلفه و يعيبه ، و بلغ ابن الرومى ذلك فهجاه باهاج كثيرة ... قال

ابن المسيب : ومن عجيب أمر عزير هـذا أنه كان ينتقص ابن الرومى فى حياته ويزرى على شعره ويتعرض لهجائه . فلما مات ابن الرومى عمل كتابا فى تفضيله ومختار شعره وجلس يمليه على الناس »

وجاء فى الجزء الأول من العمدة لابن رشيق :

« وهجا ابن الرومى البحترى وابن الرومى من علمت فأهدى اليه تخت متاع وكيس دراهم وكتب اليه ليريه أن الهدية ليست تقية منه ولـكن رقة عليه ، وأنه لم يحمله على ما فعل الا الفقر والحسد المفرط

شاعر لا أهابه　　نبحتنى كلابه

ان من لا أعزه　　لعـزيز جـوابه

وروى المرزُبانى فى الموشح أن عبدالله بن يحيى العسكرى أخبره عن أبى عثمان سعيد بن الحسن الناجم أن البحترى قال له :

« أشتهى أن أرى ابن الرومى » قال فوعدته ليوم بعينه وسألت ابن الرومى أن يصير الىّ فيه ، فأجابنى الى ذلك . فلما حصل ابن الرومى عندى وجهت الى البحترى فصار الىّ ، فقال له البحترى : قد أقرأنى أبو عيسى بن صاعد قصيدة لك فى أبيـه وسألنى عن الثواب عنها ، فقلت أعطوه لـكل بيت دينارا . ثم تحدثنا ، فقال البحترى : عزمت على أن أعمل قصيدة على وزن قصيدة ابن الرومى الطائية فى الهجاء . فقال له ابن الرومى : اياك والهجاء يا أبا عبادة ، فليس من عملك وهو من عملى . فقال له : نتعاون . وعمل البحترى ثلاثة أبيات ، وعمل ابن الرومى ثمانية فلم يلحقه البحترى فى الهجاء . وكان اجتماعهما عندى سببا للمودة بينهما »

وروى المرزبانى أيضا فى الموشح :

« أخبرنى محمد بن يحيى قال : كنت يوما عند عبيد الله بن عبد الله بن طاهر فذكرنا قصيدة ابن الرومى فى أبى الصقر التى أولها :　　« اجنت لك الوجد

اغصان وكثبان » فقال عبيد الله : هى دار البطيخ ! فضحك الجماعة . فقال : اقرأوا تشبيبها فانظروا ، هى كما قلت ! قال محمد : وقد ملح عبيد الله وظرف ، وهذه القصيدة اكثر من مائتى بيت مر له فيها احسان كثير ، ومن نسيبها مما يدل على قول عبيد الله :

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان ... فيهن نوعان تفاح ورمان

وفوق ذينك أعناب مهدّلة ... سودٌ لهن من الظلماء ألوان

وتحت هاتيك عناب يلوح به ... أطرافهن قلوب القوم قنوان

غصون بان عليها الدهرَ فاكهة ... وما الفواكه مما يحمل البان

ونرجس بات سارى الطل يضربه ... واقحوان منير النور ريان

الفن من كل شىء طيب حسن ... فهن فاكهة شتى وريحان

فلما سمع أبو الصقر قوله :

هذا الذى حكمت قدما بسؤدده ... عدنان ثم أجازت ذاك قحطان

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم ... كلا لعمرى ولكن منه شيبان

قال : هجانى والله ! قيل له : هذا من أحسن المديح ، اسمع ما بعده :

وكم أب قد علا بابن ذرى شرف ... كما علا برسول الله عدنان

فقال أنا بشيبان ليس شيبان بى : قيل له : فقد قال :

ولم أقصر بشيبان التى بلغت ... بها المبالغ اعراق وأغصان

لله شيبان قوم لا يشيبهم ... روع اذا الروع شابت منه ولدان

فقال « والله لا أثبته على هذا الشعر وقد هجانى فيه . قال الشيخ أبو عبيد الله المرزبانى رحمه الله تعالى : وهذا ظلم من أبى الصقر لابن الرومى وقلة علم منه بالفرق بين الهجاء والمديح »

وجاء فى الجزء الثانى من زهر الآداب ان على بن العباس الرومى كان « مفرط الطيرة شديد الغلو فيها . قال على بن عبد الله بن المسيب : وكان

يحتج لها و يقول أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل و يكره الطيرة افتراه كان يتفاءل بالشىء ولا يتطير من ضده ؟ ويقول أن النبى صلى الله عليه وسلم مر برجل وهو يرحل ناقة ويقول يا ملعونة ، فقال لا يصحبنا ملعون ، وأن عليا رضى الله عنه كان لا يغزو غزاة والقمر فى العقرب ، ويزعم أن الطيرة موجودة في الطباع قائمة فيها ، وأن بعض الناس هى فى طباعهم أظهر منها فى بعض ، وأن الأكثر فى الناس اذا لقى ما يكرهه قال : على وجه من أصبحت اليوم . فدخل علينا يوم مهرجان سنة ثمان وسبعين وقد أهدى الىّ عدة من جوارى القيان ، وكانت فيهن صبية حولاء، وعجوز فى احدى عينيها نكتة ، فتطير من ذلك ولم يظهر لى أمره وأقام باقى يومه ، فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت لى ابنة من بعض السطوح وجفاه القاسم بن عبيد الله فجعل سبب ذينك المغنيين المغنيتين وكتب الى :

أيها المحتفى بحول وعور	أين كانت منك الوجوه الحسان ؟
قد لعمرى ركبت أمراً مهينا	ساءنى فيك ايها الخلصان
فتحك المهرجان بالحول والعو	ر أرانا ما أعقب المهرجان
كان من ذاك فقدك ابنتك الحر	ة مصبوغة بها الأكفان
وتجافى مؤمل لى جليل	لج فيه الجفاء والهجران
فلما غاب من أمورك عنوا	ن مبين ، وللزمان لسان
لا تكن بالهوى تُكذّب بالاخبا	ر حتى تَهين ما لايهان
لا يقدك الهوى الى نصرة الاخبا	ر حتى يقدّم البرهان
ان عقب الهوى هوىً وعقبى	طول تلك المهوّنات هوان
لاتصدق عن النبيين الا	بحديث يلوح فيه البيان
خبرّ الله ان مشأمة كا	نت لقوم وخبر القرآن
افزور الحديث تقبل ام ما	قاله ذو الجلال والفرقان
اترى من يرى البشير بشيرا	يمترى في النذير ياوسنان

فدع الهزل والتضاحك بالط يرة ، والنصح مثمن مجّان

وجاء فى ذلك الجزء بعد ذلك :

« وكان ابو الحسن على بن سليمان الاخفش غلام ابى العباس المبرد فى عصر ابن الرومى شابا مترفا ومليحا مستظرفا وكان يعبث به فيأتيه بسحر فيقرع الباب ، فيقال له من ؟ فيقول قولوا لابى الحسن مُرة بن حنظلة ، فيتطير لقوله ويقيم الأيام لا يخرج من داره وذلك كان سبب هجائه اياه . . . فاعتذر اليه وتشفع عنده بجماعة من أهل بغداد ، وكان الاخفش اكثر الناس اخوانا فقبل عذره ومدحه بقصيدته التى يقول فيها

ذكر الاخفش القديم فقلنا ان للاخفش الحديث لفضلا

الخ الخ

. . . ثم عاد على بن سليمان الى اذاه واتصل به ان رجلا عرض عليه قصيدة من شعره فطعن عليها فقال قصيدته التى يقول فيها

ما بلغت بى الخطوب رتبة من تفهم عنه الكلاب والقردة
ولا انا المفهم البهائم والط ير سليمان قاهر المردة
فان يقل اننى حفظت فكالد فتر جهلا بكل ما اعتقده
ساسمع الناس ذمه أبدا ماسمع الله حمد من حمده

. . . . »

وفى الوقائع بينه وبين الاخفش يقول الزبيدى تلميذ ابى على القالى وهو صاحب طبقات النحويين المتوفى سنة تسع وسبعين وثلثمائة :

« حدثنى ابو على قال : كان على بن العباس الرومى لايدع التطير والتفاؤل فى جميع حركاته وتصرفه وكان على بن سليمان الاخفش قد أولع باعتراضه فى مخارجه فيما يتطير به ، فربما صرفه بذلك عن وجهه وربما دق عليه الباب فاذا قال من انت ؟ قال الشؤم والبلاء ! فلا يبرح على بن العباس يوم ذاك ، فلما شق عليه ذلك هجاه

فاقذع فى هجائه،فكان الاخفش يستعمل حفظ هجائه ثم يمليه فيما يملى من الاخبار والاشعار على اصحابه،فلما رأى على بن العباس ان الاخفش لايألم لهجائه أقصر عنه»

ويقول صاحب العمدة فى هذه الوقائع بينه و بين الاخفش:

« وقد مزقه بالهجاء كل ممزق وجعله مثلة بين اصحابه . على ان الاخفش كان يتجلد عليه ويظهر قلة المبالاة به وهيهات وقد وسمه وسمة الدهر وسامه سوم الخسف والقهر »

والأقوال فى طيرة ابن الرومى كثيرة منها ما استطرد الى ذكره صاحب زهر الآداب حيث قال بُعيدَ ما أسلفنا نقله :

« ولابن الرومى فى الاخفش إلحاش صنت الكتاب عنه ، قال على بن ابراهيم كاتب مسروق البلخى : كنت بداره جالسا فاذا حجارة سقطت بالقرب منى ، فبادرت هاربا وأمرت الغلام بالصعود الى السطح والنظر الى كل ناحية ، من أين تأتينا الحجارة ، فقال : امرأة من دار ابن الرومى الشاعر قد تشوفت ، وقالت . اتقوا الله فينا واسقونا جرة ماء و إلا هلكنا ، فقد مات من عندنا عطشا . فتقدمت الى امرأة عندنا ذات عقل ومعرفة أن تصعد اليها وتخاطبها ، ففعلت و بادرت بالجرة واتبعتها شيئا من المأكول ، ثم عادت الى فقالت : ذكرت المرأة أن الباب عليها مقفل من ثلاث بسبب طيرة ابن الرومى ، وذلك أنه يلبس ثيابه كل يوم و يتعوذ ثم يصير الى الباب والمفتاح معه ، فيضع عينه على ثقب فى خشب الباب فتقع عينه على جارله كان نازلا بازائه ، وكان أحدب يقعد كل يوم على بابه ، فاذا نظر اليه رجع وخلع ثيابه وقال لا يفتح أحد الباب . فعجبت لحديثها ، و بعثت بخادم كان لى يعرفه ، فأمرته بأن يجلس بازائه وكانت العين تميل اليه ، وتقدمت الى بعض أعوانى أن يدعو الجار الاحدب ، فلما حضر عندى ارسلت وراء غلامى لينهض الى ابن الرومى و يستدعيه الحضور ، فانى لجالس ومعى الاحدب اذ وافى ابو حذيفة الطرسوسى ومعه برذعة الموسوس صاحب المعتضد ، ودخل ابن الرومى فلما تخطى عتبة باب الصحن عثر

فانقطع شسع نعله ، فدخل مذعورا ، وكان اذا فاجأه الناظر رأى منه منظرا يدل على تغير حال،فدخل وهو لايرى جاره المتطير منه ، فقلت له يا أبا الحسن ايكون شيء في خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم ونظرك الى وجهه الجميل ؟ فقال قد لحقني ما رأيت من العثرة لاني فكرت ان به عاهة وهي قطع انثييه ! قال برذعة : وشيخنا يتطير ؟ قلت نعم ويفرط ، قال ومن هو ؟ قلت علي بن العباس . قال ! الشاعر ؟ قلت نعم . فاقبل عليه وانشده

ولما رأيت الدهر يؤذن صرفه ... بتفريق ما بيني و بين الحبائب

رجعت الى نفسي فوطنتها على ... ركوب جميل الصبر عند النوائب

ومن صحب الدنيا على جور حكمها ... فأيامه محفوفة بالمصائب

فخذ خلسة من كل يوم تعيشه ... وكن حذرا من كامنات العواقب

ودع عنك ذكر الفأل والزجر واطرح ... تطير جار أو تفاؤل صاحب

فبقي ابن الرومي باهتا ينظر اليه ، ولم أدر أنه شغل قلبه بحفظ ما أنشده ، ثم قام أبو حذيفة و برذعة معه ، فخلف ابن الرومي لا يتطير أبدا من هذا ولا من غيره ، وأومأ الى جاره ، فقلت . وهذا الفكر أيضا من التطير ، فأمسك . وعجب من جودة الشعر ومعناه وحسن مأتاه ،فقلت له ليتنا كتبناه ! قال اكتبه فقد حفظته وأملاه على

ومن شدة حذره وعظيم تطيره قوله لأبي العباس بن ثوابة وقد ندبه الى الخروج اليه وركوب دجلة

حضضت على حطبي لناري فلا تدع ... لك الخير تحذيري شرور المحاطب

ومن يلق ما لاقيت في كل مجتنى ... من الشوك يزهد في الثمار الأطايب

اذ اقتنى َ الأسفار ما كره الغنى ... اليّ وأغراني برفض المطالب

ومن نكبة لاقيتها بعد نكبة رهبت اعتساف الأرض ذات المناكب
فصبرى على الاقتار أيسر مطلبا علىّ من التغرير بعد التجارب

. . . .

الخ الخ

وهى طويلة وفيما مر كفاية تنبىء عنه وتدل عليه ، ولو مددت أطناب الاختيار لتتبع هذا النحو من شعره لخرجت عن غرض الكتاب

وفى الجزء الأول من العمدة أنه : « كان كثير الطيرة ربما أقام المدة الطويلة لا يتصرف تطيرا بسوء ما يراه ويسمعه حتى أن بعض أخوانه من الأمراء افتقده فأعلم بحاله فى الطيرة ، فبعث اليه خادما اسمه اقبال ليتفاءل به ، فلما أخذ أهبته للركوب قال للخادم : انصرف الى مولاك ! فأنت ناقص ومنكوس اسمك لابقا ... وابن الرومى القائل : الفأل لسان الزمان والطيرة عنوان الحدثان، وله فيه احتجاجات وشعر كثير »

وقال على بن عبد الرحمن العباسى صاحب معاهد التنصيص المتوفى سنة ثلاث وستين وتسعمائة : « كان كثير التطير جدا وله فيه أخبار غريبة، وكان أصحابه يعبثون به فيرسلون اليه من يتطير من اسمه فلا يخرج من بيته أصلا ، ويمتنع من التصرف سائر يومه ، فأرسل اليه بعض أصحابه يوما بغلام حسن الصورة اسمه حسن ، فطرق الباب عليه فقال من ؟ قال حسن . فتفاءل به وخرج ، واذا على باب داره حانوت خياط قد صلب عليها درفتين كهيئة اللام ألف ورأى تحتها نوى تمر ، فتطير وقال : هذا يشير بان لا تمر ، ورجع ولم يذهب معه ، وكان الأخفش على بن سليمان قد تولع به فكان يقرع عليه الباب اذا أصبح ، فاذا قال من القارع؟ قال مرة ابن حنظلة ! ونحو ذلك من الأسماء التى يتطير بذكرها ، فيحبس نفسه فى بيته ولا يخرج يومه أجمع ، وكتب اليه ينهاه ويتوعده بالهجاء »

وجاء فى هذا الكتاب قبل ذلك : « . . . حكى ابن درستويه أن لائما لامه فقال له: لم لاتشبه كتشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال ألا تنشدنى شيئا من قوله الذى استعجزتنى عن مثله ؟ فأنشده قوله فى الهلال :

انظر اليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال له زدنى ، فأنشده قوله فى الآذريون الأصفر وهو زهر أصفر فى وسطه خمل أسود وليس بطيب الرائحة ، والفرس تعظمه بالنظر اليه وفرشه فى المنزل :

كأن آذريونها والشمس فيه كالية
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية

فصاح واغوثاه ! تالله لا يكلف الله نفسا الا وسعها . ! ذاك انما يصف ماعون بيته لانه ابن خليفة وانا اى شيء اصف ؟ ولكن انظر اذا انا وصفت ما أعرف اين يقع قولى من الناس ؟ هل لأحد قط مثل قولى فى قوس الغمام

وساق صبيح للصبوح دعوته فقام وفى اجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كانجم فمن بين منقض علينا ومنفض
وقد نشرت ايدى الجنوب مطارفا على الجو دكنا والحواشى على الارض
يطرزها قوس السحاب باخضر على أحمر فى اصفر اثر مبيض
كاذيال خود اقبلت فى غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض

و بعضهم ينسبها لسيف الدولة بن حمدان منهم صاحب اليتيمة

وقولى فى صانع الرقاق :

لاانس لا أنس خبازا مررت به يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة و بين رؤيتها قوراء كالقمر
الا بمقدار ما تنداح دائرة فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر

وقولى فى قالى الزلابية

ومستقر على كرسيه تعب روحى الفداء له من منصب نصب

رأيته سحرا يقلى زلابية   فى رقة القشر والتجويف كالقصب
كأنما زيته المقلى حين بدا   كالكيمياء التى قالوا ولم تصب
يلقى العجين لجينا من أنامله   فيستحيل شبابيكا من الذهب

وفى الجزء الثانى من زهر الآداب : « كان ابن الرومى منهوما فى المآكل ،وهى التى قتلته .وكان معجبا بالسمك فوعده ابو العباس المرثدى ان يبعث اليه كل يوم بوظيفة لاتنقطع . فبعث اليه يوم سبت ثم قطعه ، فقال

ما لحيتاننا جفتنا وأنى   اخلف الزائرون منتظريهم
جاء فى السبت زورهم فأتينا   من حفاظ عليه ما يكفيهم
وجعلناه يوم عيد عظيم   فكأنا اليهود او نحكيهم
وأراهم مصممين على الهجـ   ـر فلمْ يسخطون من يرضيهم ؟
قدسبتنا وما اتتنا وكانوا   يوم لا يسبتون لا تأتيهم

فاتصل ذلك بالناجم فكتب الى ابن الرومى

أبا حسن أنت من لا نزا   ل نحمد فى الفضل رجحانه
فكم تحسن الظن بالمرثد   ى وقد قلل الله احسانه
ألم تدر ان الفتى كالسرا   ب اذا وعد الوعد اخوانه
فبحر السراب يفوت القلو   ب فقل فى طلابك حيتانه!

وخرج ابن الرومى الى بعض المتنزهات وقصدوا كرما رازقيا فشربوا هناك عامة يومهم ، وكانوا يتهمونه فى شعره ، فقالوا ان كان ما تنشدنا لك فقل فى هذا شيئا ، فقال لا تريموا حتى اقول فيه وانشدهم لوقته

ورازقى مخطف الخصور   كأنه مخازن البلور

الخ الخ

وفى الجزء الأول من هذا الكتاب: «وكان ابن الرومى لا يزال معتما

وكان يغضب اذا سئل عن ذلك ، وسأله بعض الرؤساء : لم تعتم ؟ فقال بديها

يأيها السائلى لاخبره عنى : لم لا اراك معتجرا
أستر شيئا لو كان يمكننى تعريفه السائلين ما ستُرا

وقد بين العلة التى اوجبت اعتمامه فى قوله :

تعممت احصانا لرأسى برهة من القرّ يوما والحرور اذا سفع
فلما دهى طول التعمم لمتى واودى بها بعد الاطالة والفرع
عزمت على لبس العمامة حيلة لتستر ماجرت على من الصلع
فيالك من جان علىّ جناية جعلت اليه من جنايته الفزع
وأعجب شىء كان دائى جعلته دوائى على عمد ، وأعجبْ بان نفع !

وفى الجزء الثالث من هذا الكتاب : « قالوا : وكان الناس يتشوقون الى أوطانهم ولا يفهمون العلة فى ذلك حتى أوضحها على بن العباس الرومى فى قصيدة لسليمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه على رجل من التجار يعرف بابن أبى كامل أجبره على بيع داره واغتصبه بعض جدرها بقوله :

ولى وطن آليت أن لا أبيعه وأن لا أرى غيرى له الدهر مالكا
عمرت به شرخ الشباب منعمًا بصحبة قوم أصبحوا فى ظلالكا
وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا
اذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا
فقد ألفته النفس حتى كأنه لها جسد إن بان غودر هالكا

الخ الخ

وقال على بن عبد الكريم النصيبى : أتانى أبو الحسن بن الرومى بقصيدته هذه وقال : انصفنى وقل الحق . . أيهما أحسن قولى فى الوطن أو قول الاعرابى

أحب بلاد الله ما بين منعج الى وسلمى أن يصوب سحابها
بلاد بها نيطت على تمائمى وأول أرض مس جلدى ترابها

فقلت : بل قولك ، لأنه ذكر الوطن ومحبته وأنت ذكرت العلة التى أوجبت ذلك . . . . . .

وتخلف سليمان عن نصرة ابن الرومى فذاك الذى هاجه على هجائه ، فمن ذلك قوله وقد خرج فى بعض الوجوه فرجع مهزوما

جاء سليمان بنى طاهر فاهتاج معتز بنى المعتصم
كأن بغداد وقد أبصرت طلعته نائحة تلتدم
مستقبل منه ومستدبر وجه بخيل وقفا منهزم

وقال :

قرن سليمان قد أضر به شوق إلى وجهه سيتلفه
كم يعد القرن باللقاء وكم يكذب فى وعده ويخلفه
لا يعرف القرن وجهه ويرى قفاه من فرسخ فيعرفه
. . . .

وقال المعرى فى رسالة الغفران : « أما ابن الرومى فهو أحد من يقال أن ادبه كان أكثر من عقله ، وكان يتعاطى علم الفلسفة ، واستعار من أبى بكر بن السراج كتابا فتقاضاه به فقال ابن الرومى لو كان المشترى حدثا لكان عجولا ، والبغداديون يدعون أنه متشيع ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجيمية . وما أراه الا على مذهب غيره من الشعراء ، ومن أولع بالطيرة لم ير فيها من خيرة »

أما وفاته ففيها يقول المسعودى فى كتابه مروج الذهب . « وممن أهلك القاسم ابن عبيد الله على ما قيل بالسم فى خشكنانجة على بن العباس بن جريج الرومى ، وكان منشؤه ببغداد ووفاته بها ، وكان من مختلق معانى الشعراء والمجودين فى القصير والطويل متصرفا فى المذاهب تصرفا حسنا ، وكان أقل أدواته الشعر . . . . .

وكان ابن الرومى الأغلب عليه من الاخلاط السوداء ، وكان شرها نهما وله أخبار تدل على ما ذكرناه من هذه الجمل مع أبى سهل اسمعيل النوبختى وغيره من آل النوبخت »

واختلفت الروايات فى قتله فقال الشريف المرتضى فى أماليه :

«أخبرنا أبو الحسن على بن محمد الكاتب قال حدثنى محمد بن يحيى الصولى قال حدثنى الباقطانى قال : اتصل بعبيد الله بن سليمان بن وهب أمر على بن العباس الرومى وكثرة مجالسته لأبى الحسين القاسم ابنه ، وسمع شيئا من أهاجيه فقال لأبى الحسين : قد أحببت أن أرى ابن روميك هذا . فدخل يوما عبيد الله الى أبى الحسين وابن الرومى عنده فاستنشده من شعره فأنشده وخاطبه فرآه مضطرب العقل جاهلا ، فقال لأبى الحسين بينه و بينه : ان لسان هذا أطول من عقله ومن هذه صورته لا تؤمن عقاربه عند أول عتب ولا يفكر فى عاقبته . فاخرجه عنك ! فقال أخاف حينئذ أن يعلن ما يكتمه فى دولتنا ويذيعه فى تمكننا . فقال يابنى ! انى لم أرد باخراجك له طرده ، فاستعمل فيه بيت أبى حية النميرى

فقلن لها سرا : فديناك لا يرح ... سليما ، وإن لا تقتليه فالمى

فحدث القاسم ابن فراس بما جرى ، وكان أعدى الناس لابن الرومى وقد هجاه باهاج قبيحة . فقال له : الوزير أعزه الله أشار بأن يُغتال حتى يستراح منه ، وأنا أكفيك ذلك ، فسمه فى الخشكنانج فمات ... قال الباقطانى والناس يقولون ما قتله ابن فراس وانما قتله عبيد الله . قال ابن الرومى لما رجع الى داره وقد دب السم فى أعضائه شعرا

اشرب الماء اذا ما تلتهب ... نار أحشائى لاطفاء اللهب
فأراه زائدا فى حرقتى ... فكأن الماء للنار حطب

هذه رواية

واعتمد ابن خلكان رواية اخرى فقال: « توفى يوم الاربعاء لليلتين بقيتا من

جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وقيل سنة أربع وثمانين وقيل ست وسبعين ومائتين ببغداد ، ودفن فى مقبرة باب البستان وكان سبب موته رحمه الله تعالى أن الوزير أبا الحسين القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الامام المعتضد كان يخاف من هجوه وفلتات لسانه بالفحش فدس عليه ابن فراش (هكذا) فأطعمه خشكنانجة مسمومة وهو فى مجلسه ، فلما أكلها أحس بالسم فقام ، فقال له الوزير الى أين تذهب ؟ فقال الى الموضع الذى بعثتنى اليه ، فقال له سلم على والدى ! فقال له ما طريقى على النار ! وخرج من مجلسه وأتى منزله وأقام أياما ومات ، وكان الطبيب يتردد اليه ويعالجه بالأدوية النافعة للسم فزعم أنه غلط فى بعض العقاقير ، وقال ابراهيم بن محمد ابن عرفة الأزدى المعروف بنفطويه : رأيت ابن الرومى يجود بنفسه فقلت له : ما حالك ؟ فأنشد :

غلط الطبيب على غلطة مورد ... عجزت موارده عن الاصدار
والناس يلحون الطبيب وإنما ... غلط الطبيب إصابة المقدار

وقال أبو عثمان الناجم الشاعر : دخلت على ابن الرومى أعوده فوجدته يجود بنفسه فلما قمت من عنده قال لى

أبا عثمان أنت حميد قومك ... وجودك للعشيرة دون لومك
تزود من أخيك فما أراه ... يراك ولا تراه بعد يومك

وللناجم قصة عن وفاة ابن الرومى رواها ابن القارح فى رسالته الى المعرى وفيها يقول :

« دخلت عليه فى علته التى مات فيها وعند رأسه جام فيه ماء مثلوج وخنجر مجرّد لو ضرب به صدر خرج من ظهر . فقلت : ما هذا ؟ قال : الماء أبل به حلقى ، فقلما يموت انسان الا وهو عطشان . والخنجر ان زاد على الألم نحرت نفسى ، ثم قال : أقص عليك قصتى تستدل بها على حقيقة تلفى : أردت الانتقال من الكرخ الى باب البصرة ، فشاورت صديقنا أبا الفضل وهو مشتق من الافضال فقال : اذا

جئت القنطرة فخذ عن يمينك وهـو مشتق من اليمن ، واذهب الى سكة النعيمة وهو مشتق من النعيم ، فاسكن دار ابن المعافى وهو مشتق من العافيـة . فخالفته لتعسى ونحسى • وشاورت صديقنا جعفرا وهو مشتق من الجوع والفرار فقال : اذا جئت القنطرة فخذ عن شمالك وهو مشتق من الشؤم ، واسكن دار ابن قلابة . وهى هذه ، لا جرم قد انقلبت بى الدنيا . وأضرّ ما علىّ العصافير فى هذه السدرة تصيح « سيق سيق » فها أنا فى السياق . ثم أنشدنى :

أبا عثمان أنت قريع قومك ... وجودك فى العشيرة دون لومك
تمتع من أخيك فما أراه ... يراك ولا تراه بعد يومك

وألح به البول ، فقلت له : البول ملحّ بك . فقال :

غـدا ينقطـع البـول ... ويأتى الويـل والغـول
الا أن لقاء الله ... هـول دونه الهـول

ومات من الغد »

***

وروى صاحب زهر الآداب اتفاقا أن ابن الرومى فُصد فى مرض وفاته من سياق قصته عن بعض معانيه المأخوذة حيث يقول فى الجزء الأول من الـكتاب :

« دخل يحيى بن خالد على الرشيد وقد ابتدأت حاله فى التغـير فأُخبر أنه مشغول فرجع ، فبعث اليه الرشيد : خنتنى فاتهمتنى، فقال : اذا انقضت المدة كان الحتف فى الحيلة ، والله ما انصرفت الا تخفيفا . أخذه ابن الرومى فقال وقد فصده بعض الأطباء، فزعم أن الفصد زاد فى علته : غلط الطبيب الى آخر البيتين.. ولهذه القصة قيمتها فيما يلى من البحث فى أسباب وفاته

***

هـذه أنفع الأخبار التى وردت فى ترجمته . أما ديوانه فقد جاء عنه فى الفهرست لابن النديم أن شعره « كان على غير الحروف . رواه عنه المسيبى ثم عمله الصولى على الحروف وجمعه أبو الطيب وراق ابن عبدوس من جميع النسخ فزاد عن كل نسخة مما هو على الحروف وغيرها نحو ألف بيت »

ثم ذكر أسماء رواته وعدة الأوراق التى كتبوها من شعره وهم :

مثقال غلام ابن الرومى مائة ورقة ، ورواه. أبو الحسن على بن العصب الملحى عن مثقال عن ابن الرومى ،

ابن الحاجب غلام ابن الرومى مائة ورقة ، أحمد بن أبى قر الكاتب مائة ورقة ، خالد الكاتب وعمله الصولى مائتا ورقة »

والصولى هو أبو بكر الصولى الحافظ الراوية المشهور ؟



الفصل الثالث

حياة ابن الرومى

كما تؤخذ من معارضة اخباره على شعره

ذلك كل ما عثرنا عليه من اخبار ابن الرومى متفرقًا فى كتب الادب والتاريخ، لم نترك منه الا نبذا قليلة تجىء فى مواضعها من فصول هذا الكتاب ، والا الفضول الذى لا ينتظم فى مادة الترجمة ولا يزيدنا علما بالرجل أو بأدبه وشعره

وكل هذا الذى عثرنا عليه وما يشابهه فى مادته لا يُجزىء فى ترجمة وافية او فيما يقرب من ترجمة وافية . لانه مفرط الزيادة فى مواضعَ ومفرط النقص فى مواضع أخرى ، وبين اجزائه فجواتٌ بعيدة لا تُترك خلوا ولا حيلة لنا الآن فى ملئها . فلا خبر عن صباه ولا عن دراسته ولا عن أهله ولا عن أمر مفصل موثوق به من أمور معيشته ، وبغير هذه العناصر الجوهرية لا تقوم ترجمة ولا يكمل تصوير رجل . وعلى هذه القلة فى الاخبار التى بين ايدينا لا نراها تسلم من الخطأ حينا ومن المبالغة احيانا . فنحن — على حد المثل الذى اخترناه — كمن يُؤتى له بعظام ناقصة ليبنى منها بنية جسم كامل، وفيها مع هذا عظام مدسوسة لا تدخل فى بنية الجسم الذى يراد تركيبه !

إلا أن ابن الرومى يعوّضنا بعض العوض من ذلك النقص الكبير

بخاصة فريدة فيه ليست فى غيره من الشعراء : هى مراقبته الشديدة لنفسه وتسجيله وقائع حياته فى شعره

فما من أحد كان له شأن فى حياته الا وجدت اسمه فى ديوانه ممدوحا او مهجوا أو موصوفا أو مردودا عليه ، وما عاب أحدٌ مشيته أو أكله او لبسه العمامة أو طريقته فى النظم الا كان لذلك خبر مقيّد فى ديوانه ، ولم يعرف عنه أنه كان يشتهى طعاما أو فاكهة الا وذلك معروف من شعره قبل أن يُعرف من نوادر المتحدثين عنه ، وما خامرَ طويته خلق محمود أو مذموم الا شهد به على نفسه كأنه فى حرج من أمر كتمانه

أقر على نفسى بعيبى لأننى | أرى الصدق يمحو بينات المعايب
لؤمت لعمر الله فيما أتيته | وأن كنت من قوم كرام المناصب
ولا بد من أن يلؤم المرء نازعا | الى الحمأ المسنون ضربة لازب

على أنه يشهد بخلة الكذب على نفسه كما يشهد لها بهذا الصدق المقرون باظهار العيوب ، فيقول فى أصرح عبارة :

وأنى لذو حلف كاذب | اذا ما اضطررت وفى الأمر ضيق
وهل من جناح على مرهَقٍ | يدافع بالله ما لا يطيق ؟ !

ويقول فى تسجيل حرصه وجبنه :

وأصبحت فى الأثراء أزهد زاهد | وإن كنت فى الأثراء أرغب راغب
حريصا جبانا اشتهى ثم انتهى | بلحظى جنابَ الرزق لحظ المراقب
أخاف على نفسى وأرجو مفازها | واستار غيب الله دون العواقب
ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى ! | ومن أين ؟ والغايات بعد المذاهب

ويتوهم ان اناسا سيعيبون مجونه فى مجلس الشراب ويرون انه

لا يليق بما يدعى من العلم والوقار فيسبقهم الى ذاك ويقول :

وأرى أن معشراً سيقولو ن سخيف من الرجال لعوب
أين عنه وقار ما يدعيـه من علوم لحامليها قطوب
ولعمرى أن الحكيم وقور ولعمرى أن الكريم طروب

ويحس ديب الشيخوخة فى مآرب نفسه وخلجات قلبه فيخشى ان يفوته تسجيل ذلك كأنه محاسب عليه معاقب على تفويته : فيقول لقرائه

اكتهلت همتى فاصبحت لا ابـ ـج بالشىء كنت أبهج به
وحسب من عاش من خلوقته خلوقة تعتريه فى أربه

وهكذا فى الصغائر والكبائر، وفى وقائع العيش وخواطر السريرة، وفيما يلقى به الناس ويلقى به الله

وقد تجد فى الشعراء من تتعرف بعض وقائعه من قراءة شعره ، ومن تستطلع خلائقه من ثنايا كلامه ، ولكن ابن الرومى لا يحوجك الى التعرّف والاستطلاع لانه يغنيك عن الملاحظة بما يقوم به هو من ملاحظة نفسه وتقييد شوارد فكره وهمسات فؤاده وسبحات أحلامه . فكأنما هو رقيب على بواطنه وظواهره ، وكانما أُعطى نفسه ليجربها ويقيد تجاربه فيها ! فكان ديوان شعره كنّاشة الرقابة اعدّها ليحصى فيها كلّ مايحصيه الرقيب الحسيب

هذه الخصلة فى الشاعر تعوّضنا كثيرا مما ضيعته التواريخ من حوادثه وأوصافه . فعلى ماجاء فى ديوانه نعتمد فى تصحيح الاخبار المسطورة وتكميلها على وجهٍ نستوفى به الترجمة جهد المستطاع ، فهو

حسبك من مترجم لحياته وصافة لحقيقته ، ولولا أن الشعر لا يسجل الارقام ولا يتقصى كل مافات الشاعر قبل أن يصبح شاعراً لكان هو حسبك من رواية لاتحتاج بعده الى تدوين رواية

أصله ونشأته

«ولد أبو الحسن على بن العباس بن جريج الرومى يوم الاربعاء بعد طلوع الفجر لليلتين خلتا من رجب سنة احدى وعشرين ومائتين ببغداد فى الموضع المعروف بالعقيقة ودرب الختلية فى دار بازاء قصر عيسى بن جعفر بن المنصور»

وقد رجعنا الى كتب المضاهاة بين التاريخ الهجرى والتاريخين الميلادى والقبطى فوجدنا فى كتاب « التوفيقات الالهامية » لصاحبه محمد مختار باشا ان أول رجب من تلك السنة يوافق يوم الثلاثاء الذى يقع فى العشرين من شهر يونيو سنة ٨٣٥ ميلادية وفى السادس والعشرين من شهر بؤنة سنة ٥٢٢ قبطية . فاليوم الثانى من رجب هو يوم اربعاء وهو مما يحقق صحة تاريخ المولد الذى لم يختلف فيه مؤرخوه

وكان ابن الرومى مولى لعبد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور ، وجعفر هو الابن الثانى للمنصور لم يتول الملك ولم تكن له ولاية عهد ولا كانت بعده لأحد من ولده الذين نشأ فيهم الشاعر

ولا يدع ابن الرومى مجالا للشك فى أصله الرومى فانه يذكره ويؤكده فى مواضع شتى من ديوانه كقوله :

ونحن بنو اليونان قوم لنا حِجًى ... ومجد وعيدان صلاب المعاجم

وقوله فى مدح بعض مواليه من بنى العباس :

ومتى اختل ابن روميكم فأياديكم حرى منه قمن

وقوله فيهم :

مولاهمُ وغذىّ نعمتهم والروم ،حين تنصنى،أصلى

وغير ذلك كقوله :

قد تحسن الروم شعرا ما أحسنته العُريب

و: آبائى الروم توفيل وتوفلس ولم يلدنى ربعى ولا شبث

و: يا بنى السمرى قد لزمتكم حرمة الروم ويحكم فاحفظونى

و: اذا ما حكمت والروم أهلى فى كلام معرب كنت أهلا

و: اذا الشاعر الرومى أطرى أميره فناهيك من مطرى وناهيك من مطر

و: ان لم أزر ملكا أشجى الخطوب به فلم يلدنى أبو الأملاك يونان

بل أن تعدت فلم أحسن سياستها فلم يلدنى أبو السواس ساسان

أو كقوله وهو كما تقدم فى نسب ابيه وأمه :

كيف أغضى على الدنية والفر س خؤلى والروم أعمامى

واسم جده مع هذا جُرَيج أو جورجيس وهو اسم يونانى لاشبهة فيه . فلا معنى اذن للشك فى أصله ولا ينبغى الالتفات الى من قال انه سمى ابن الرومى لجماله فى صباه

***

أبوه

ولم يرد لأبى الشاعر ذكر خاص فى ديوانه الا حيث يقول من

قصيدة بائية يذكر فيها مناقبه ومناقب آبائه

وكم من أب لى ماجـد وابن ماجد ... له شرف يربى على الشرف المربى

اذا أمطرت كفاه بالبذل نوّرت ... له الأرض واهتزت رباها من الخصب

والا حيث يقول

شاد لى السور بعد توطئة الأ ... س أب قال : أنت للشرف

والبيتان الاولان فخر يراد به وقع الكلام واستيفاء باب من أبواب الشعر التى كان الشعراء ينظمون فيها من نسيب ومدح ورثاء وهجو وفخر ونحوها ، فليس فيه خبر ولا رواية . ولكنه معالجة فنية كهذه الموضوعات التى يعالجها الشاعر المعاصر لتصوير الاطوار النفسية ووضع الأماثيل على لسان الحال ثم لا يعنى بها الأخبار عن نفسه وإن جاءت بضمير المتكلم . وقد كان الشاعر القديم يأبى أن يخلو ديوانه من باب من ابواب الشعر المعروفة ويأنف أن يُظن به التقصير فى واحد منها ، فهو لهذا يشبب ويفخر ويقول فى الفخر مايهول وقمه لا مايصدق خبره ! والفخر على هذا الاعتبار عمل فنى يؤخذ على هذا المعنى ولا يُستمد منه التاريخ او يرجع اليه فى تقرير الوقائع

والبيت الثالث يلحق بهذين البيتين فى الفخر والاشادة بالنسب من ناحية « الفن » لا من ناحية « التاريخ ». الا اننا نستخلص منه ان أباه كان يتوسم فيه الذكاء ويرجو أن يشرف بعلمه وأدبه كما شرف بالعلم والادب كثيرون من ابناء الموالى ارتفعوا الى مناصب الوزارة من طريق الكتابة والمساجلة ومعاشرة العظماء المتأدبين ، وكان أبوه صديقا لبعض العلماء والادباء منهم محمد بن حبيب الراوية الضليع فى اللغة

والانساب، فكان الشاعر يختلف اليه لهذه الصداقة وكان محمد بن حبيب يخصه لما يراه من ذكائه وحدة ذهنه ، وحدث الشاعر عنه فقال « انه كان اذا مر به شيء يستغربه ويستجيده يقول لى يا ابا الحسن ضع هذا فى تامورك » [1]

ونرجح أنه فقد أباه وهو صغير لم ييفع . لانه لم يرثه حين وفاته مع انه قال الشعر وهو صبي فى المكتب [2] ، ولانه كان يسمى أخاه «والدا» كأنما كان له عليه فضل تربية وكفالة

أمه

وقد علمنا أن أمه كانت فارسية من قوله « الفرس خؤلى والروم أعمامى » وقوله « فلم يلدنى ابو السواس ساسان » بعد أن رفع نسبه الى «يونان» من جهة أبيه ، ولا يخفى ان انتماءه الى ساسان لا يُقصد به انه من ابناء الملوك الساسانيين وانما هو كقول المصرى اليوم انه من ابناء الفراعنة، ولا علاقة فى النسب بينه وبينهم

وربما كانت أمه من أصل فارسى ولم تكن فارسية قُحا لابيها وأمها وهذا هو الارجح، لان علمه بالفارسية - كما سيأتى - لم يكن علم رجل نشأ

---

(١) معجم الادباء الجزء السادس ص ٤٧٤ (٢) جاء فى ديوانه أنه قال الابيات الآتية فى هجو غلام هاشمى يسمى جعفر وهي أول ماقاله :

أجعفر حزت جميع العيو ... ب فما فيك من خلة تمدح
كلامك أكذب من يلمع ... يخيله بالضحي صحصح
وحلمك أطيش من ريشة ... وروحك من هضبة أرجح
ووجهك من وجه يوم الفر ... اق فى مقلتى عاشق أقبح
فما في حياتك لى مفرح ... ولا فى مماتك لى مترح

ونستغرب نحن ان تكون هذه الابيات اول ما قال ولكنا لا نستغرب ان يقولها في المكتب لانهم كانوا يمكثون فيه حتى يحفظوا القرآن وكان ابن الرومى شاعرا مجيداً وهو دون العشرين

فى حجر أم تتكلم هذه اللغة ولا تحسن الكلام بغيرها

وماتت أمه وهو كهل او مكتهل كما يقول فى رثائها :

أقول — وقد قالوا : أتبكى كفاقد ... رضاعا، وأين الكهل من راضع الحلم

هى الأم يا للناس جرعت فقدها ... ومن يبك أما لم تُذم قط لا يُذم

وكانت تقية صالحة رحيمة كما يؤخذ من ابياته فى رثائها :

لقد نجعت فيك الليالى نفوسها ... بمحييه الأسحار حافظة العتم

ولم تخطىء الأيام فيك فجيعة ... بصوامة فيهن طيبة الطُّعم

وفات بك الأيتام حصن كنافة ... دفىء عليهم ليلة القر والشبم

وجعنا وأفردناك غير فريدة ... من البر والمعروف والخير والكرم

فلا تعدمى أنس المحل فطالما ... عكفت فآنست المحاريب فى الظلم

وجزع عليها جزعاً شديداً ينم عليه قوله :

ألا من أراه صاحبا غير خائن ... الا من أراه مؤنسا غير محتشم

ألا من تلينى منه فى كل حالة ... ابرُّ يد برت بذى شعث يلَمّ

ألا من اليه اشتكى ما ينوبنى ... فيفرج عنى كلَّ غم وكلَّ هم

نبا ناظرى يا أم عن كل منظر ... وسمعى عن الاصوات بعدك والنغم

وأصبحت الآمال ـ مذبنت ـ والمنى ... غوادرَ عندى غير وافية الذمم

وصارمتُ خلانى وهم يصلوننى ... وقد كنت وصّالَ الخليل وان صرم

وآنسنى فقد الجليس وأوحشت ... مشاهده نفسى ، ولم ادر ما اجترم

وكانت لها أخت ماتت قبلها ، فهو يقول اذ يرثيها انه كان له جناحان من عطفها وعطف أمه

أرانى وأمى بعد فقدان أختها ... وان كنت فى رفْه بها وصلاح

كفرخ قطاة الدوّ بان جناحه ... فبات الى حضن بفرد جناح

أخوه

ويظهر أن أبويه لم يعقبا من البنين غيره وغير أخيه محمد المكنى أبا جعفر، وهو اكبر منه لأنه يقول « بأخى بل بوالدى بل بنفسى» وهو يتفجع بذكراه، وشقيقه لأنه يقول فى موضع آخر

بأخ شقيق بعد أم برة بالأمس قطّع منهما أقرانه

ويذكره بمثل ذلك فى غير موضع

وكل ما وصل الينا عن هذا الاخ قصة جاءت فى ديوان الشاعر نعلم منها أنه كان أديباً « وكان يكتب لرجل فعزل بعد مدة، فعبث به آل أبى شيخ اصدقاؤه وقالوا : عزله شؤمك، وكان بين آل أبى شيخ وابن سعدان مؤدب المؤيد مودة فخرجوا اليه فى أيام المؤيد فأقاموا مدة، وكان من المؤيد ما كان وتشتت أصحابه فكتب اليهم ابو جعفر يولّع بهم ويقول : انا شؤمى عزال وشؤمكم قتال وسيأتيكم فى هذا نظم على بن العباس، يعنى أخاه، ومن ذلك النظم قوله :

أنا شؤمى فيما تقولون عزا	ل ولكن شؤمكم قتال
بالذى ادرك المؤيد منكم	وابن سعدان تضرب الامثال
زرعموه والصالحات عليه	مقبلات فأدبر الاقبال
....	....
ان شوما حلت به عقدة المـ	لك لشؤم تزول منه الجبال

ونعلم من هذه القصة أن محمداً عاش الى سنة اثنتين وخمسين ومائتين وهى السنة التى قتل فيها المؤيد، وكان ابن الرومى فى تلك السنة قد بلغ الحادية والثلاثين . فالارجح ان محمدا قد عاش بعدها بضع سنوات،

لأن الشاعر ذكره فى رثاء أمه حيث قال : « أقاسى وصنوى منه كل شديدة » أى ذكره وهو كهل جاوز الحادية والثلاثين . لأنه كان كهلا حين ماتت أمه كما مر بنا فى رثائها ، والحادية والثلاثون ليست بسن كهولة . الا أن يكون الذين لاموا الشاعر لفرط جزعه على أمه قد تعمدوا تكبير سنه لاستيجاب الملام

ونرى فى موضعين من الديوان أبياتاً يستعطف بها الشاعر لاخيه رئيساً غضب عليه ، وكأن أخاه مات وهو يعمل فى خدمة عبيد الله ابن عبد الله بن طاهر أحد أركان بيت بنى طاهر المشهور فى دولة بنى العباس . فان الشاعر يقول من قصيدة يخاطب بها عبيد الله ويذكر أخا شقيقاً مات بعد أم برة :

فليحيه الملك الهمام فلم يفت ... محياه قدرته ولا سلطانه
وحياته لى أن أقوم مقامه ... وأسد من دار الأمير مكانه

فالشاعر يتكلم عن نفسه على ما نرجحه كثيراً ويطلب أن يحل فى دار عبيد الله محل أخيه [1] . والمجزوم به بعد هذا كله أن محمدا مات بعد

---

(١) نقول هذا ترجيحاً لا تحقيقاً لان القصيدة مبدوءة بهذا البيت

أمسى دمشق الأمير ودهره ... ملق عليه بركه وجرانه

فما معنى تلقيب ابن الرومى نفسه بالدمشق فى مطلع القصيدة ؟ أكان ذلك اقباله عند الامير ؟ يجوز . وتكون النسبة الى الدمشق وهو الرجل السريع اليدين المنجز عمله ، ولكننا لا نعلم من اخباره ما يؤيد هذا التلقيب ، وهناك دمشق صديق لابن الرومى هو الاديب « أبو العباس احمد بن القاسم بن الخليل الدمشق » عاتبه الشاعر لتعاليه عن معونته فقال :

يأيها المتعالى عن معونتنا ... غنى بما فيه من ذهن ومن أدب
لو استعنت بنفس غير أنفسنا ... أو غير نفسك قابلناك بالغضب
لكن غنيت بنفس لا كفاء لها ... فى النظم والنثر من شعر ومن خطب
ولا ملام على مرتاد مصلحة ... باع اللجين بضعفيه من الذهب

فهل القصيدة موضوعة على لسان هذا الدمشق ؟ يجوز كذلك . ولكنه جد بعيد ،

موت المؤيد وأنه كان على شيء من الأدب ومعرفة الكتابة وحب العبث والدعابة

وقد حزن عليه ابن الرومى حزناً طويلا ملحاً بقى يعاوده الى آخر أيامه، فلم يفتأ يذكره ويعيد ذكره فى شعره اذا مدح أو عتب أو استعبر، ومن ذاك أنه قال يرثيه :

وتسلينىَ الأيام لا أنْ لو عتى — ولا حزنى كالشىء يُنسى فيعزب
ولكن كفانى مسليا ومعزيا — بأن المدى بينى وبينك يقرب

وقال لصاحب كان يحسده ويغرى به :

أيها الحاسدى على صحبتى العمـ — ـر وذمى الزمان والاخوانا
. . . . — . . . .
ليت شعرى ما ذا حسدت عليه — أيها الظالمى أخاى عيانا
أعلى اننى ظمئت وأضحى — كلٌّ من كان صاديا ريانا
. . . . — . . . .
أم على اننى ثكلت شقيقى — وعدمت الثراء والأوطانا

وقال وهو يعاتب القاسم بن عبيد الله

أنا ذاك الذى سقته يد السقـ — ـم كؤسا من المرار رواء
ورأيت الحمام فى الصور الشـ — ـنع، وكانت لولا القضاء قضاء
ورماه الزمان فى شقه النفـ — ـس فأصمى فؤاده اصماء

وقد مرض واشتد مرضه بعد موته فهو يقول حين أجلى عن مسكنه

فيه عافانى الاله من الشـ — ـكو وفك البلاء عنى كبوله
بعد جهد حملت منه ضروبا — ليس أثقالهن بالمحموله
ومصاب بشقة النفس منى — ضمّن الجسم سقمه ونحوله

ولم يبق لابن الرومى بعد موت ذلك الاخ الوحيد أحد يعوّل عليه

من أهله أو مَن يُحسبون فى حكم أهله ، الا أناس من مواليه الهاشميين العباسيين كانوا يبرونه حينا ويتناسونه أحيانا ، وكان هو لعهد الهاشميين الطالبيين أحفظ منه لعهد الهاشميين العباسيين كما يظهر مما يلى . أما ابن عمه الذى أشار اليه فى قوله :

لى ابن عم يجر الشر مجتهداً ... الىّ قدما ، ولا يصلى له نارا
يجنى ، فأصلى بما يجنى ، فيخذلنى ... وكلما كان زنداً كنت مسعارا

فلا ندرى أهو ابن عم لح أو ابن عم كلالة . ومبلغ ما بينهما من صلة المودة ظاهر من البيتين

***

أولاده وزوجته

ورزق ابن الرومى ثلاثة أبناء : هم هبة الله ومحمد وثالث لم يذكر اسمه فى ديوانه ، ماتوا جميعا فى طفولتهم ورثاهم بأبلغ وأفجع مارثى به والدٌ ابناءه ، وقد سبق الموت الى أوسطهم ـ محمد ـ فنظم فى رثائه الدالية المشهورة التى يقول منها :

توخّى حمام الموت أوسط صبيتى ... فلله كيف اختار واسطة العقد
على حين شمت الخير فى لمحاته ... وآنست من أفعاله آية الرشد

ومنها فى وصف مرضه :

لقد قل بين المهد واللحد لبثه ... فلم ينس عهد المهد أو ضُم فى اللحد
الح عليه النزف حتى أحاله ... الى صفرة الجادىّ عن حمرة الورد
وظل على الأيدى تساقط نفسه ... ويذوي كما يذوى القضيب من الرند

ويذكر فيها أخويه الآخرين :

محمد ما شىء تُوهّم سلوةً ... لقلبى ، الا زاد قلبى من الوجد

أرى أخويك الباقيـين كليهما — يكونان للاحزان أورى من الزند
إذا لعبا فى ملعب لك لذّعا — فؤادى بمثل النار عن غير ما عمد
فما فيهما لى سـلوة بل حزازة — يهيجانها دونى واشقى بهـا وحدى

فابنه محمد اذن قدمات منزوفا فى حياة أخويه الصغيرين وهو فيما بين الرابعـة والخامسة، لانه يقول فيه « لقـد قل بين المهد واللحد لبثه » ويقول « وظل على الأيدى تساقط نفسه » وانما يحمل الطفل المريض على الأيدى فى مثل تلك السن، ولا يُحتمل أن يكون أصغر من ذلك لان أخاه الصغير كان فى سن اللعب، وهى لا تكون قبل الثالثة ونحوها

أما ابنه هبة الله فقد ناهز الشباب على ما يفهم من قوله فى رثائه :

يا حسرتا ! فارقتنى فننـا — غضا، ولم يثمر لىَ الفنن

والبيت من قطعة مريرة دفينة الحزن أشبه بالنشيج منها بالنحيب يقول فيها

ابنىّ انك والعـزاء معـا — بالأمس لُف عليكما كفنُ
تالله لا تنفك لى شجنا — يمضى الزمان وأنت لى شجن
ما أصبحت دنياى لى وطنا . — بل حيث دارك عندى الوطن
. . . . — . . . .
أولادنا أنتم لنـا فـتن — وتفارقون فأنتم محن

وكأنها لم تشف لوعته فيه أو كأنه لام نفسه على حزنه الصامت فعاد يقول وهو موزع القلب بين الصبر والجزع :

شجىً ان أروم الصبر عنك فيلتوى — علىّ، ولؤم أن يساعدنى الصـبر
فيـا حزنى ألا سـلو يطيعنى — ويا سوءتى من سلوتى، انها غـدر

وفى الديوان أبيات بائية يرثى بها ابنا لم يذكر اسمه، وهى هذه الابيات :

حماه الكرى همٌّ سرى فتأوبا   فبات يراعى النجم حتى تصوبا
أعينىّ جودا لى فقد جدت للثرى   بأكثر مما تمنعان وأطيبا
بنىّ الذى أهديته أمس للثرى   فلله ما أقوى قناتى وأصلبا
فان تمنعانى الدمع أرجع الى أسى   اذا فترت عنه الدموع تلهبا

ويبعد أن تكون رثاء لابنه الأكبر هبة الله ، فهى على الأرجح رثاؤه لأصغر أبنائه الذى لم يذكر اسمه ، ولا ندرى هل مات قبل أخيه أو بعده . ولكن يخيل الينا من المقابلة بين هذه المراثى أن الأبيات البائية كانت آخر مارثى به ولداً لانها تنم عن فجيعة رجل راضه الحزن على فقد البنين حتى جمدت عيناه ولم يبق عنده من البكاء الا الأسى المتلهب فى الضلوع والا العجب من أن يكون قد عاش وصلبت قناته لكل هذه الفجائع . وقد كان رثاؤه لابنه الاوسط صرخة الضربة الاولى ففيها ثورة لاعجة تحس من خلل الأبيات ، ثم حل الألم المرير محل الالم السوّار فى مصيبته الثانية فوجم وسكن واستعبر ، ثم كانت الخاتمة فهو مستسلم يعجب للحزن كيف لم يقض عليه ويحس وقدة المصاب فى نفسه ولا يحسه فى عينيه

ولقد غشيت غبرة الموت حياته كلها وماتت زوجته بعد موت ابنائه[1] جميعاً فتمت بها مصائبه وكبر عليه الأمر وقل فيه العزاء فهو يقول

عينىّ سحا ولا تشحا   جل مصابى عن العزاء

ورثاها فى موضع آخر يقول فيه

فاستغزرا درة الشؤن على   بدركما ، بل على قضيبكما

---

(١) نكاد نجزم بهذا لانه لم يشر فى رثائه اياها الى ولد تركته مع استقصائه كل معنى يقال فى موضوع ، وذلك أحق شىء بأن يذكر فى رثاء زوجته

ويلوح منه انها ماتت وهى فتية توصف بما توصف به الفتيات

ويغلب انه هجر الزواج بعدها زمنا فلم يتزوج الا فى أواخر عمره اذا صح ما استخلصناه من بعض أبياته

ونقول ما استخلصناه لأننا لا نعتمد على خبر صريح فى أمر زواجه الآخر ، ولكنا لا بد أن نقف فى هذا الصدد عند أبيات قالها للقاسم ابن عبيد الله وهى :

وهبْ خادما لم يوف نعماك شكرها	فبدّل عرفٌ عنده بنكير
فما ذنب طفل كان تسبيب كونه	رجاؤك ، يا مرجوّ كل فقير
أيحسن أن جر العيالَ رجاؤكم	وخاب نداكم ، وهو خير خفير
غياثكم يا آل وهب فاننى ،	وان لم أكن أعمى ، أضر ضرير

وأبيات أخرى لعل المخاطب بها هو القاسم أيضا ، وهى :

منعت الكفاف الذى لم تزل	تجود به كفك الموسعة
فان كنت مسلم ذى حرمة	لقول أعاديه . ما أضيعه !
فعجله بالسيف كى يستر	يح ، ان كنت من مثله فى سعة
اتسلمنا للردى ستة	وقد كنت ترحمنا أربعة ؟

لا بد أن نقف عند هذه الابيات ولا بد أن نفهم منها أنه تزوج فى أواخر عمره ورزق ولدا فأصبح أهل بيته ستة بعد أن كانوا أربعة ، ولا يمكن أن تكون الاشارة فى الأبيات الرائية الى طفله الاول وزوجته الاولى . لان الأبيات قيلت للقاسم بن عبيد الله ، والقاسم ولد حوالى سنة خمس وخمسين ومائتين ، فلا يبلغ من السن المبلغ الذى يرجى فيه ويمدح إلا حوالى سنة خمس وسبعين ، ولا يعقل ان ابن الرومى بقى عزبا الى تلك السنة ثم تزوج زواجه الاول ورزق أولاده الثلاثة

وكيفما كانت جلية القول فى هذه الأبيات فقد كانت له زوجة عند ما هجا عمرا حاجب القاسم ، لأنه قال فيه :

أيركب عمرو حوله من يحفه ... ويعوزنى قوت أعول به عرسى ؟

ولا يكون ذلك قبل سنة خمس وسبعين ونحوها . كذلك لاشك فى أنه لما قارب الستين لم يكن متزوجا لأنه يقول فى قصيدة نظمها فى نحو تلك السن :

ومبيتى بلا ضجيع لدى القـ ... ـر ، وللوغد شادن مخضوب

ولم يذكر أحد من مؤرخيه — ولا الناجم الذى حضر وفاته — انه ترك ولدا بعده ، فاذا صح ما استخلصناه من امر زواجه الثانى فهناك فجيعة أخرى أصيب بها فى ولد جديد[1] قبل وفاته ، فمات ولا زوج له ولا بنون

تعليم

ذلك كل ما استطعنا أن نجمعه من الأخبار النافعة عن نشأة الشاعر وأهله . ولا فائدة من البحث فى المصادر التى بين أيدينا عن ايام صباه

---

(١) قضى ابن الرومى زمنا لايتزوج حتى كان يسأل « ... لم لاتزوج » كما جاء فى أبيات له جيمية ، ومن أقواله فى هذا المعنى

أنا غيران ولا زوجة لى ... بل على النعمة عند ابن خلف

ومنها

كيف ترضى الفقر عرسا لامرىء ... وهو لا يرضى لك الدنيا أمه

ومنها ما كتب به الى صديق له يسمى ابراهيم

ياسمي الخليل اياك أدعو ... دعوة يممت سميعا مجيبا
أمة من أماء طولك أجمـ ... ـت على نقلها الى قريبا
ما تزوجتها على غير تأميـ ... ـك فانظر أجائز أن أخيبا
وقليل النوال فى هذه الحا ... ل مما أراه شيئا عجيبا

وقد يكون بعض هذا الزمن مضى قبل زواجه الاول ، ولكننا رأينا كذلك أنه قضى زمنا فى أواخر عمره وهو أعزب

وتعليمه ومن حضر عليهم وتتلمذ لهم من العلماء والرواة . فان هذه المصادر خلو مما يفيد فى هذا المقام ، الا ما جاء عرضا فى الجزء السادس من الأغانى حيث يروى ابن الرومى عن « أبى العباس ثعلب عن حماد بن المبارك عن الحسين بن الضحاك » وحيث يروى فى موضع آخر « عن قتيبة عن عمرو السكونى بالكوفة عن أبيه عن الحسين بن الضحاك » . فيصح أن تكون الرواية هنا رواية تلميذ عن أستاذ ، لأن ثعلبا ولد سنة مائتين فهو أكبر من الشاعر باحدى وعشرين سنة ، أما قتيبة (والمفهوم أنه أبو رجاء قتيبة بن سعيد بن جميل الثقفى المحدث العالم المشهور) فجائز أن يكون ممن أملوا عليه وعلموه لأنه مات وابن الرومى يناهز العشرين

وقد مر بنا أنه كان يختلف الى محمد بن حبيب الراوية النسابة الكبير ، وسنرى هنا أنه كان يرجع اليه فى بعض مفرداته اللغوية فيذكر شرحها فى ديوانه معتمداً عليه . قال بعد هذا البيت

وأصدق المدح مدح ذى حسد ملآن من بغضة ومن شنف

« قال لى محمد بن حبيب : الشنف ما ظهر من البغضة فى العين » وأشار اليه بعد بيت آخر وهو

بانوا فبان جميل الصبر بعدهم فللدموع من العينين عينان

اذ فسر كلمة « عينان » فروى عن ابن حبيب أنه قال : « عان الماء يعين عينا وعينانا اذا ساح »

فهؤلاء ثلاثة من أساتذة ابن الرومى على هذا الاعتبار ، ولا علم لنا بغيرهم فيما راجعناه . وحسبنا مع هذا ان الرجل — كيفما كان تعليمه وأيا كان معلموه — قد نشأ على نصيب واف من علوم عصره وساهم فى

القديم والحديث منها بقسط وافر فى شعره ، فلو لم يقل المعرى أنه كان يتعاطى الفلسفة والمسعودى ان الشعر كان أقل آلاته لعلمنا ذلك من شواهد شتى فى كلامه . فهى هناك كثيرة متكررة لا يُلم المتصفح ببعضها إلا جزم باطلاع قائلها على الفلسفة ومصاحبة أهلها واشتغاله بها حتى سرت فى أسلوبه وتفكيره ، وما كان متعلم الفلسفة فى تلك الأيام يصنع أكثر من ذلك ليتعلمها أو ليُعد من متعلميها . فأنت لا تقرأ لرجل غير مشتغل أو ملم بالفلسفة والقياس المنطق والنجوم كلاما كهذا الكلام :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد
والا فما يبكيه منها وانها ... لأرحبُ مما كان فيه وأرغد
أو : سأمدح بعض الباخلين لعله ... اذا اطّرد المقياس أن يتسمح
أو : غاب تحت الحس حتى ... ما يرى الا قياس
أو : اذا احتج محتج على النفس لم تكد ... على قدر يُمنى لها تتعتب
أو : يا باطلا أوهمتنيه مخايله ... بلا دليل ولا تثبيت برهان
أو : رجوت صلاح القبل بالبعد فانبرى ... لنا ظلمكم فاستفسد القبل بالبعد

أو ما قاله فى أصحاب الجدل :

لذوى الجدال اذا غدوا لجدالهم ... حجج تضل عن الهوى وتجور
وهن كآنية الزجاج تصادمت ... فهوت ، وكل كاسر مكسور
فالقاتل المقتول ثم لضعفه ... ولوهيه ، والآسر المأسور

أو ما قاله فى هجاء صاعد وابنه أبى عيسى ومنه :

وثنى بابنه السفيه المعنى ... بأساطير أرسطاطاليس

والذى لم يصخ بأذنيه الا نحو ذوثوريوس أو واليس[1]
عاقدا طرفه ببهرام أوكيو ان أو هرمس أو البرجيس
أو بشمس النهار والبدر والزه رة عند التثليث والتسديس
واجتماعاتهن فى كل قيد وافتراقاتهن عن كل قيس

فهو فى الابيات الاخيرة يذكر الفلاسفة والرياضيين باسمائهم المعروفة فى الكتب المنقولة ، ويذكر اكثر الكواكب باسمائها الفارسية ، ويذكرها فى غير هذه الابيات باسمائها المعروفة عند العرب وخصائصها التى كانت معروفة عند الكلدانيين والفرس الاقدمين ونقلها منهم اليونان ولا تزال مشهورة الى اليوم فى آداب الغربيين . فيقول فى مدح اسماعيل بن بلبل وكان كاتبا قائدا :

وافى عطاردُ والمريخ مولده فاعطياه من الحظين ما اقترحا

لان عطارد كان رب الكتابة والحكمة والفنون عندهم والمريخ كان رب الحرب والشجاعة

ويقول فى مدح عبيد الله بن سليمان بن وهب :

اذا صبت زهرته صبوةً قال له هِرمسه : هندسى
وان عدا هرمسه حده قالت له زهرته : نفّسى

والزهرة هى ربة الجمال واللهو ، وهرمس هو اسم عطارد عند الفرس وهو رب الكتابة والحكمة كما تقدم . يعنى ان ممدوحه يميل مع اللهو والجمال فتهيب به الحكمة والمعرفة ، ويرهق نفسه بهذه فتدعوه الزهرة الى التنفيس

---

(١) راجع اسمى ذروثيوس ووالبس فى أخبار الحكماء للقفطى

وربما اعطاك شواهد مساهمته فى معارف زمانه كلها من اساطير مأثورة وعلوم قديمة وحديثة فى بيت واحد ، كقوله يداعب المرثدى حين أخلف وعده فى هدايا السمك :

أ ألحوت حوت الارض ام حوت يونس لك الخير ام حوت السماء أروم؟

فحوت الارض هو الحوت الذى تزعم الاساطير انه يحمل الثور الكبير الذى يحمل الارض ، وحوت يونس هو الحوت الذى ابتلع النبي يونس وجاء نبأه فى القرآن ، وحوت السماء هو البرج المعروف باسم الحوت

وبين أيدينا خبران عن اقتناء الكتب اذا لاحظنا قلة اخباره فى كل شأن من شؤنه علمنا انهما يدلان على شىء كثير: احدهما أتى به المعرى فى رسالة الغفران وفيه انه « كان يتعاطى الفلسفة واستعار من ابى بكر السراج كتابا فتقاضاه به ، فقال ابن الرومى : لو كان المشترى حدثا لكان عجولا »

والخبر الثانى مأخوذ من ديوانه اذ يعاتب أبا الحسين محمد بن المعلى لتضييعه كتابا استعاره منه فيقول له من قصيدة :

منحتك مصباحا فاعشاك ضوءه وقد كان ظنى أنه سيريكا

وخبران من هذا النوع فى حياة قليلة الأخبار يشفان — مع شواهد شعره الكثيرة — عن شغف دائم بالتحصيل ومدارسة العلوم الى مابعد سن الكهولة ، فانه لا يقول « لو كان المشترى حدثا لكان عجولا » الا وهو كهل أو شيخ جاوز الكهولة

***

ومن الحق له وللتاريخ ألا نهمل أخباره عن نفسه فى هذا الباب للابانة عن منزلته من العلم والدراسة كلما كانت هذه الأخبار مطابقة لما نعرف من مجمل حاله . ففى بعض شعره يقول عن نفسه أنه أدمن الدرس ورفض المكاسب فى سبيل أدمانه كما جاء فى هذه الأبيات :

أن امرءا رفض المكاسب واغتدى يتعلم الآداب حتى أحكما
فكسا وحلّى كل أروع ماجد من حرّ ما حاك القريض ونظّما
ثقةً برعى الاكرمين حقوقه لأحق ملتمس بألا يُحرما

وأظهر من ذلك قوله فى الهمزية الكبيرة للقاسم :

ن أكن غير محسن كل ما تطلـ ب انى لمحسن أجزاء
فمتى ما أردتَ صاحب فحص كنتُ ممن يشارك الحكماء
ومتى ما أردتَ قارض شعر كنت ممن يساجل الشعراء
ومتى ما خطبتَ منى خطيبا جلّ خطبى ، ففاق بى الخطباء
ومتى حاول الرسائل رسلى بلّغتنى بلاغتى البلغاء

وأظهر من هذا وذاك أبياته التى يمدح بها أباسهل النوبختى ويذكّره فيها مودة آل النبي واشتغالهما معاً بالتفكير فى ادحاض شبهات الفلاسفة والمتكلمين ، ومنها :

ويدمج أسبابَ المودة بيننا مودتُنا الابرارَ من آل هاشم
واخلاصُنا التوحيد لله وحده وتذبيبنا عن دينه فى المقاوم
بمعرفة لا يقرع الشك بابها ولا طعنُ ذى طعن عليها بهاجم
وإعمالنا التفكير فى كل شبهة بها حجة تعيى دهاة التراجم
يبيت كلانا فى رضى الله ماحضا لحجته صدرا كثير الهماهم

وهذه الأبيات أحجى أن نعتمد عليها فى هذا الباب ، مذ كانت تتعدى نفر الانسان بنفسه الى التذكير بوقائع معهودة ومدارسات طويلة، جرت بينه وبين رجل من صفوة أهل العلم والدراية فى أيامه

وقد وردت فى أبياته الهمزية السابقة أشارة الى حذقه الكتابة ومشاركته فى البلاغة المنثورة تعززها أشارة مثلها فى هذا البيت

ألم تجدونى آل وهب لمدحكم بشعرى ونثرى،اخطلا ثم جاحظا

فلا بد أنه كان يكتب ويمارس الصناعة النثرية. الا ان ما استجمعناه من منثوراته لا يعدو نبذا معدودة موجزة ، منها رسالة الى القاسم ابن عبيد الله يقول فيها متنصلا :

« ترفع عن ظلمى ان كنت بريئا ، وتفضل بالعفو ان كنت مسيئا، فوالله انى لأطلب عفو ذنب لم أجنه ، وألتمس الأقالة مما لا أعرفه ، لتزداد تطولا وازداد تذللا . وأنا أعيذ حالى عندك بكرمك من واش يكيدها ، وأحرسها بوفائك من باغ يحاول أفسادها . واسأل الله تعالى أن يجعل حظى منك بقدر ودى لك ، ومحلى من رجائك بحيث استحق منك ، والسلام »

ومنها رسالة كتبها يعود صديقا : « أذن الله فى شفائك ، وتلقى داءك بدوائك ، ومسح بيد العافية عليك ، ووجه وفد السلامة اليك ، وجعل علتك ماحية لذنوبك مضاعفة لثوابك »

وكتب الى صديق له قدم من سيراف فأهدى الى جماعة من أخوانه ونسيه :

« أطال الله بقاءك وأدام عزك وسعادتك وجعلنى فداءك . لولا اننى فى حيرة من أمرى وشغل من فكرى لما افترقنا ، وشوقى علم الله فغالب وظمأى فشديد . والى الله الرغبة فى أن يجعل القدرة على اللقاء حسب المحبة ، إنه قادر جواد

« ومكاننا من جميل رأيك أيدك الله يبعثنا على تقاضى حقوقنا قبلك، وكريم

سجاياك واخلاقك يشجعنا على امضاء العزم فى ذلك ، وما تطولت به من الايناس يؤنسنا بك ويسطنا اليك ، وآثار يديك تدلنا عليك وتشهد لنا بسماحتك . والله يطيل بقاءك ويديم لنا فيك وبك السعادة

« وبلغنى أدام الله عزك أن سحابة من سحائب تفضلك أمطرت منذ أيام مطرا عم أخوانك بهدايا مشتملة على حسن وطيب ، فأنكرتُ على عدلك وفضلك خروجى منها مع دخولى فى جملة من يعتدّك ويعتقدك وينحوك ويعتمدك ، وسبق الى قلبى من ألم سوء الظن برأيك اضعافُ ما سبق اليه من الألم بفوت الحظ من لطفك ، فرأيت مداواة قلبى من ظنه وقلبك من سهوه ، واستبقاء الود بيننا بالعتاب الذى يقول فيه القائل : ويبقى الود ما بقى العتاب ، وفيما عاتبت كفاية عند من له أذنك الواعية وعينك الراعية »

وقال فى تفضيل النرجس على الورد : « النرجس يشبه الأعين والمضاحك والورد يشبه الخدود ، والأعين والمضاحك أشرف من الخدود . وشبيه الأشرف أشرف من شبيه الأدنى ، والورد صفة لأنه لون والنرجس يضارعه فى هذا الاسم لأن النرجس هو الريحان الوارد أعنى أنه أبدا فى الماء . والورد خجل والنرجس مبتسم ، وانظر أدناهما شبها بالعيون فهو أفضل »

هذه نماذج من منثوراته لا نعرف غيرها فيما بين أيدينا ، وخليق بمن يكتب بهذا الأسلوب أن يُعَد فى بلغاء الكتاب وان لم يعد فى أبلغهم . على ان ابن الرومى لم يكن يحسب نفسه الا مع الشعراء اذا اختلفت الطوائف . فانه يقول عن نفسه وهو يمدح أبا الحسين كاتب ابن ابى الاصبع :

ونحن معاشر الشعراء نُنمى ... الى نسب من الكتاب دان
وان كانوا أحق بكل فضل ... وأبلغ باللسان وبالبنان
أبونا عند نسبتنا أبوهم ... عطاردُ السماوى المكان

ولا عجب فى هذا . فقد كان للشعر كلٌ مادرس الشاعر من فلسفة وعلم وأدب ، وكانت هذه المعارف عنده كالروافد للشعر لا تقع لها ان

لم ينته بها المصب الى النهر الكبير . ولم يكن له عقل فيلسوف ولا عقل عالم . وقد رأيت قياسه المنطق فى تفضيل النرجس على الورد ، فهل قياس فيلسوف هو أو قياس فنان ؟ انه لقياس فنان نظر الى الدنيا كأنها متحف للناظر ومسرح للشعور ، وقليلا ما نظر اليها كأنها معمل للتحليل أو قضية مبهمة للتأمل والتفكير

***

أما حظه من علوم العربية والدين فمن الفضول أن نتعرض لاحصاء الشواهد عليه فى كلامه ، لأنه أبين من أن يحتاج الى تبيين . وندر فى قصائده المطوّلة أو الموجزة قصيدة تقرأها ولا تخرج منها وأنت موقن باستبحار ناظمها فى اللغة واحاطته الواسعة بغريب مفرداتها وأوزان اشتقاقها وتصريفها ومواقع أمثالها وأسماء مشاهيرها وما يصحب ذلك من أحكام فى الدين ومقتبسات من أدب القرآن . فليس فى شعر العربية من تبدو هذه الشواهد فى كلامه بهذه الغزارة والدقة غير شاعرين اثنين أحدهما صاحبنا والثانى المعرى ، وقد كان يمدح الرؤساء والأدباء أمثال عبيد الله ابن عبد الله وعلى بن يحيى واسماعيل بن بلبل فيفسر غريب كلماته فى القرطاس الذى يثبت فيه قصائده ، كأنه كان يشفق أن تفوتهم دقائق لفظه وأسرار لغته ، ثم يعود الى الاعتذار من ذلك اذا أنس منهم الجفوة والتغير :

لم أفسر غريبها لك لكن   لامرىء يجهل الغريب سواكا

***

لغيرك لا لك التفسير ، انى   يفسر لابن بجدتها الغريبُ

وكانوا لشهرته باللغة وعلم أسرارها ولطيف نكاتها يختلقون له الكلمات النافرة يسألونه عنها ليعبثوا به أو يعجّزوه ، وقصة « الجرامض »

احدى هذه المعابثات التى تدل على غيرها من قبيلها . فقد سأله بعضهم فى مجلس القاسم بن عبيد الله: ما الجرامض ؟ فارتجل مجيبا :

وسألت عن خبر الجرا مض طالبا علم الجرامض
وهو الخزاكل ! والغوا مض قد تفسر بالغوامض
وهو السلجكل شئت ذ لك ، ام أبيت بفرض فارض

وكلها كلمات من « مادة » الجرامض لا معنى لها ولا وجود

واذا صح استقراؤنا وكان من أساتذته أمثال ثعلب وقتيبة فضلا عن الأستاذية الثابتة لابن حبيب فلا جرم يصير ذلك علمه بالغريب والانساب والأخبار وهؤلاء كلهم من نخبة النخبة فى هذه المطالب . ولا سيما اذا أعانهم تلميذ ذو فطنة متوقدة الفهم وذاكرة سريعة الحفظ كهذا التلميذ ، فقد مرّ بك أنه كان يحفظ الأبيات الخمسة من قراءة واحدة،فهب فى الرواية بعض المبالغة التى تتعرض لها أمثال هذه الروايات فهو بعدُ سريع الحفظ وهذا مما يعينه على تحصيل اللغة وتعليق المفردات

***

أفكان مع هذا العلم بالعربية يعرف لغةً غيرها ؟ إن جده كان روميا ولكن كثيرا من الناس أجدادهم غرباء عن أوطانهم وهم لا يعرفون غير لغة الوطن الذى ولدوا فيه

وإن أمه كانت تنتمى الى فارس ولكننا لا نعلم أفارسية هى أم من أصل فارسى قد يرتفع الى الأجداد ، وفرقٌ بين الحالتين كما لا يخفى . لأنها قد تجهل الفارسية وهى حفيدة فارسى أو يغلب أن تجهلها فى هذه الحالة ، وقد تتكلمها وهى بنت فارسى وفارسية فيلقنها ابنها وينشأ على التكلم بها من صباه

وفى أشعار ابن الرومى كلمات فارسية غير قليلة كالبنفشا (البنفسج) والدستبند (ضرب من الرقص) والبذبخت (سىء الطالع) والشير (الأسد) والبرشوجة (طائر) والدستنبوية (الشمامة) والكذخذاة (القهرمانة) وأشباه هذه الألفاظ ، ولكن العلم بألفاظ كهذه وبأضعافها لا يكثر على ساكن بغداد فى ذلك العصر الذى تقاربت فيه الأمتان الفارسية والعربية وامتزجت فيه الحضارتان ونفذ فيه الفرس الى كل فرع من فروع المعيشة الرفيعة والوضيعة . فمن ابناء القاهرة اليوم من يتلقف أضعاف هذا العدد من الكلمات الفرنسية والانجليزية والايطالية ويجريها فى مخاطباته اليومية ، وهو لا يتكلم بغير لسان وطنه

بل هناك ما يكاد يدونا الى الجزم بجهل ابن الرومى اللغة الفارسية وهو قوله فى هجاء اسماعيل بن بلبل يتهمه فى عربيته :

أأسماعيل من رجل	تعرب بعد ماشاخا
وأصبح من بنى شيبا	ن ضخم الشأن بذاخا
وصار أبوه بسطاما	وكان أبوه قيباخا
وصار يقول « قم عنا »	وكان يقول « قوهاخا »

فأول ما يتبادر الى الذهن ان « قوهاخا » هذه ترجمة « قم عنا » باللغة الفارسية . ولكننا سألنا من يعرفونها بيننا فلم يعرفوا للكلمة هذا المعنى ولا غيره ، وأكبر الظن عندنا أنها ليست الا حكاية صوتية لبعض المخارج الفارسية يحكيها ابن الرومى على سبيل التهكم بالعجمة فى تلك المخارج . ولو كان حظه من العلم بالفارسية أكثر من حظ الحكاية الصوتية لكان أحرى به أن يظهر فى هذا المقام .

***

مزاجه وأخلاقه

أى خبر من الأخبار التى تسربت الينا عن حياة ابن الرومى لاتتركه مختارين غير آسفين لو استطعنا أن نستبدل به صورة لوجه الرجل وشخصه؟ بل أى خبر من هـذه الأخبار لا نتركه مختارين غير آسفين لو استطعنا أن نستبدل به وصفا دقيقا لملامح الرجل وقسماته وشارته وسائر ما يتصل بشكله؟ فقد تعودت النفوس أن تشتاق الى رؤية من تتحدث به وتسمع عنه . ولم تتعود ذلك عبثا ، ولـكنها تعودته لأن الرؤية تزيدها معرفة بمن تريد أن تعرفه ، أو لأن المعرفة لا تكمل بغير رؤية

وليس من مجرد المصادفة — فيما نعتقد — أن تشيع الصور الشمسية والترجمة التحليلية والدراسـة النفسية فى عصر واحد ، ولا أن تكون الأمم المعروفة قديما ببراعة الترجمة وكتابة السير أمما معروفة كذلك بتقييد الملامح والسمات فى الصور والتماثيل. فان فراسة الظاهر جزء من فراسة الباطن . وكلتاهما لازمة لفهم السيرة واتقان الدراسة النفسية

ونحن نؤمن بالفراسة كل الايمان ولا نشك الا فى المتفرسين أو فى بعض المتفرسـين . فالذى فاتنا من ترجمة ابن الرومى بفوات صورته قسم ليس بالقليل ، وتعويض هذا القسم بما بقى لنا من الوصف العرضى والاخبار المنزورة من أصعب الأمور

فها نحن اولاء نكتب سيرة ابن الرومى ولا نعرف ماالفرق مثلابين سحنته وسحنة أى شاعر من شعرائنا الآخرين ، نعم ان ابن الرومى كان كما نعلم سليل أبوة يونانية وأمومة فارسية ، ولـكن ألم يكن من الجائز أنه كان أقرب الى ملامح الأمومة منه الى ملامح الأبوة ؟ أو أقرب الى

ملامح الأبوة منه الى ملامح الأمومة ؟ أكان له وجه فارسى أو وجه يونانى أو وجه رجل فيه مسحة من سمات الشعبين أو لا مسحة فيه من هؤلاء ولا هؤلاء ؟ ما نظن ذلك مما يُستغنى عنه فى ترجمة شاعر أو صاحب ترجمة كائنا ما كان

فاذا كنا سنرجع الى ذخيرتنا التى نعتمد عليها من شعر الشاعر والى القليل من أخباره التى تسربت الينا فلا مندوحة لنا فى هذا الصدد ولا حيلة، وعزاؤنا بعض العزاء أننا قد نهتدى من شعره وأخباره الى صورة له تعين على تخيله وتمثيله وان لم تغن عن صورته الحقيقة ولا عن وصفه الدقيق كل الغناء

***

كان ابن الرومى صغير الرأس مستدير أعلاه ، أبيض الوجه يخالط لونه شحوب فى بعض الأحيان وتغيّر، ساهِم النظرة باديا عليه وجومٌ وحيرة : وكان نحيلا بيّن العصبية فى نحوله ، أقرب الى الطول أو طويلا غير مفرط ، كث اللحية أصلع بادر اليه الصلع والشيب فى شبابه ، وأدركته الشيخوخة الباكرة فاعتل جسمه وضعف نظره وسمعه ، ولم يكن قط قوى البنية فى شباب ولا شيخوخة ولكنه كان يحس القوة اليسيرة فى الحين بعد الحين كما يحس غيره العلل والسقام ، فكان اذا مشى اختلج فى مشيته ولاح للناظر كأنه يدور على نفسه أو يغربل ، لاختلال أعصابه واضطراب أعضائه . وكان على حظ من وسامة الطلعة فى شبابه معتدل القسمات لا يأخذ الناظر بعيب بارز ولا حسنة بارزة فى صفحة وجهه ، أما فى الشيخوخة فقد تبدلت ملامحه وتقوس ظهره ولحق به ما لابد

أن يلحق بمثله من تغيير السقام والهموم

***

هذه خلاصة الصورة التى استخرجناها من شعر الشاعر وأخباره، وقد كان ينبغى أن نكتفى بها ونقف عندها لو كانت « الترجمة لذاتها » هى الغرض الوحيد من هذا الكتاب. ولكن «الترجمة» ليست هى كل ما نقصد اليه ولا أهم ما نقصد اليه، لأن الطريق المؤدى الى الترجمة غرض كبير من أغراض الكتاب لا يقل عن بيان الترجمة لذاتها، ووسيلة الوصول الى النتيجة مطلوبة كالوصول الى هذه النتيجة، والصيد مقصود هنا كما تُقصَد المائدة والطعام الذى على المائدة. فمن الواجب علينا أن نبين مكان هذه الترجمة من شعر ابن الرومى وحاجةَ الأخبار التى بين أيدينا الى التكميل من كلامه فى وصف نفسه عامدا وغير عامد، وأن نبين كيف أن ديوان شعره قد تجاوز حد الترجمة الباطنية الى الترجمة التاريخية، لاشتمال وجدان الرجل عليه وفرط استيعابه لنفسه فى شعره، وشدة الامتزاج بين حياته وفنه :

***

فأما أنه كان صغير الرأس مستدير أعلاه فيؤخذ من رده على من عاب صغر رأسه :

اذ تنقصتنى بصعلكة الرأ	س، سفاها، واذممت غير ذميم
ما تعديت أن وصفت خشاشا	لوذعيا كالحيـة المشهوم
. . . .	. . . .
وقديما ما جرب الناس قبلى	ثقل الهام فى الخفاف الحلوم
واعتبر ان أفشل الطير فى الط	ير، وفينا كروسات البوم

فهو يقول لعائبه ان صغر الرأس لا يزرى به لأن الحية المشهوم —

وهى موصوفة بالحكمة واليقظة — صغيرة الرأس ، والبومة كبيرته وهى مضعوفة فاشلة بين الطير والناس

وأما أنه كان أبيض اللون فذلك غير عجيب فى رجل له جدٌ من الفرس وجدٌ من الروم ، وقد قال هو يصف ديباجة وجهه فى نضرة العمر :

ياهل تعود سوالف الازمان أولا ؟ فمنصرفٌ الى السلوان
كيما أروح وللشبيبة حبرة أرنى العيون بفاحم فتان
وبمشرق صافى الاديم كانما فيه ائتلاق من صفيح يمان

والاشراق والصفاء والائتلاق أشبه بالبياض منها بأى لون من ألوان الوجوه

وأما أنه كان « يخالط وجهه شحوب فى بعض الأحيان وتغير ، وأنه كان ساهم النظرة باديا عليه وجوم وحيرة » فيفهم من قوله وقد لاحظت عليه بنت صغيرة لعبيد الله بن عبد الله أنه كان كثير السكون والتفكير :

وشقيقة قالت أراه مفكرا حتى أراه من السكينة نائما
فاجبتها انى امرؤ هيامة فى كل واد ما أفيق هَماهِما
أمسى وأصبح للشوارد طالبا بهواجسى ، حول الاوابد حائما

وهى ملاحظة صادقة بسيطة كأكثر ملاحظات الأطفال — ولا سيما البنات — على الرجال الذين يرونهم عند آبائهم فيتفرسون فيهم ويطيلون النظر اليهم . ثم أن أناساً كانوا يعيبون عليه انقباضه كما يؤخذ من قوله فى هجاء بعضهم : « يعيب انقباضى معجبا بانبساطه » وكما قال على ابن ابراهيم كاتب مسروق البلخى « كان اذا فاجأه الناظر رأى منه منظرا يدل على تغير حال » . ولو لم يكن هذا واضحاً فى شعره وأخباره لتوسمناه من اعتلال صحته وخيبة أمله وكثرة شكواه

وأما نحوله « العصبى » المعروق فالدلائل عليه فى شعره كثيرة منها قوله

انا من خف واستدق فما يثـ ــقل أرضا ولا يسد فضاء

. . . .

أنا ليث الليوث نفسا وان كنـ ــت بجسمى ضئيلة رقشاء

ومنها :

يقول القائلون ضويتَ جدا ولم تنضجك ارحام النساء

ومن انضاجها اياى أعرت عظامى من لحومهم الوطاء

اذا ما كنتُ ذا عود صليب فيكفينى القليل من اللحاء

ومنها :

وزارية علىّ بأن رأتنى من الهزلى حقيرا فى السمان

وذلك فضلا عن مدحه النحافة فيمن كان يمدحهم وتفضيله شأو الخماص على شأو البطان لأن العصب جُمل فى الرجال قديما و « كذا الجدل فى الحبال المتان »

ونعلم أنه كان أقرب الى الطول أو طويلا غير مفرط من شعره وحده لا من خبر روى عنه . فقد كان شديد السخر بالقصار شديد النكاية فى هجائهم ، ومن قوله فى شيخوخته :

أقول وقد شابت شواتى وقُوّست قناتى واضحت كدنتى [١] تتخدد

ومنه :

وأرى قوامى لج فى تقويسه ولقد يلج اللين فى تعطيفه

والقوام والقناة والتقويس بالطوال أشبه ، ولا سيما حين يلج

---

(١) بنية الجسم من لحم وشحم

التقويس ولا يقف عند الانحناء اليسير . ويتوسم فيه الطول من أبيات كثيرة كهذا البيت

وكم مثلها من ظبية قد تفيأت ظلالى وأغصانُ الشبيبة ميّد

ومثله :

وظبية من ظباء كان مسكنها فى ظل غصنى، اذا ظل الضحى التهبا

ومثله :

اذ للشبيبة صبوة تصبو بها وبشاشة تُصبى بها وتروق

يهتز منك لاريحيات الصبا غصن تفيؤه الظباء وريق

ولا يكون الاهتزاز والتشبيه بالغصن الذى تتفيؤه الظباء الالقوام فيه امتداد وطول

وقد طلب مرة ثوبا فكتب يقول ويذكر نفسه بضمير الغائب :

فأنجز الوعد بثوب له من الجياد المرتضاة الحسان

وفى القوافى ثمن مربح فلا يقصّر ذرعه عن ثمان

فاذا حسبنا كل حساب للطمع فلا نظن ثمانى أذرع تُطلب لرجل قصير أو فوق القصير بقليل

الا أنه لم يكن مفرط الطول لأنه كان يهجو من فى طوله أفراطٌ كما قال فى عمرو الحاجب :

فللقد منه طول نهر معوّج وللأنف منه نفخة البوق فى الكفر

ونحسب هذه الشواهد كلها كافية فى تخيّل قوامه ، وأنه لم يكن بالطويل المفرط ولا بالقصير

***

وكان ملتحياً ولا شك فى أوائل كهولته لأنه يقول :

رأيت جليسى لايزال يروعه　　بياض القذى فى لحيتى فيميطه
فكيف به عماقليل اذا رأى　　قذى الشيب قد عفّى عليها سفيطه(١)

فهو قد التحى فى سن يتوقع ما بعدها من زيادة الشيب وعمومه. الا أنه كان كث اللحية قصير شعرها كما قال:

ولم أزل سبط الأخلاق واسعها　　وان غدوت امرءاً فى لحيتى كثث

وكأنما جعل من ذلك النقص فخراً لأنه نقصٌ لايدَ له فى استدراكه، فكان يسخر من اللحى الطوال ويسميها أذناباً ومخالى ومذبات ويشك فى أدب كل غزير اللحية بل يجعل غزارتها دليلا قاطعاً على نزارة أدبه، حتى البحترى! لأن

البحترى ذَنوب الوجه نعرفه　　وما رأينا ذنوب الوجه ذا أدب

ومغالطته فى هذا باديةٌ من دخيلة أحساسه بهيبة اللحية وأنها علامة التذكير حيث يقول لصاحب لحية طويلة:

أرع فيها الموسى فانك منها　　— يشهد الله — فى أثام كبير
أيما كوسج يراها فيلقى　　ربه بعدها صحيح الضمير
هو أحرى بأن يشك ويُغرَى　　باتهام الحكيم فى التقدير
. . . .　　. . . . .
لحية اهملت فسالت وفاضت　　فاليها تشير كف المشير
مارأتها عين امرىء مارآها　　قط إلا أهلّ بالتكبير
روعــــة تستخفه لم يُرعها　　من رأى وجه منكر ونكير
فاتق الله ذا الجلال وغير　　منكراً فيك ممكن التغيير
أو فقصر منها فحسبك منها　　نصف شبر علامة التذكير

والرغبة فى غزارة اللحية معقولة من رجل أصلع كان يفرق من

(١) نثيره

الصلع ويخفيه جهده ، ويود أن يداريه بغزارة الشعر فى وجهه الذى لا يستطيع مداراته كما كان يدارى رأسه

أما الشيب والصلع فحديثه عنهما طويل وشهرته بما قال فيهما مضرب الأمثال بين الأدباء

شاب رأسه فى غضارة الشباب فقال :

شاب رأسى ولات حين مشيب   وعجيب الزمان غير عجيب

. . . .

قد يشيب الفتى وليس عجيباً   أن يُرى النور فى القضيب الرطيب

ولم يدع لنا أن نسأل عن السن التى شاب فيها لأنها هى الحادية والعشرون من عمره كما عينها لنا تعيينا فى قوله :

فظلم الليالى انهن اشبننى   لعشرين يحدوهن حول مجرَّم

ثم والى ذكر السنين مرحلة بعد مرحلة ، فقال فيما دون الثلاثين

وانّى تفرع رأسى المشيـ   ـبُ ولم أتفرع ثلاثين عاما

وبلغ الاربعين فعد نفسه من الموتى الا احلاما تذكره الحياة :

متّ الا حشاشة وادكار   مثل احلام حالم النوام

ومتى ما انقضت أجارىّ طِرف   مات الا صيامه فى المصام

. . . .

وقضيت الرضاع من درة الكر   م لتجريم أربعين تمام

وهكذا فى الخمسين والخامسة والخمسين والستين ، كأنه عابر طريق يحصى ما عبر منها وما بقى له أن يعبر. وما وخط الشيب شعره حتى آلى له من البداية « يمينا لأخفينك جهدى » ووالى اخفاءه بقية عمره .

وأخفى الصلع حين أصابه فى شبابه كما اخفى المشيب ، فكان لا يُرى فى

مكان الا لابسا عمامة ، وعز عليه ان يُمنى بهذا التشويه فى نظره وهو الذى أولع بكل تشويه يتضاحك به ويفتن فى تمثيله ويغرق أصحابه فى المزح والدعابة. فلزم العمامة لا يخلعها وأخفى سر ذلك عن جلسائه وجليساته، فكان أثقل شىء عليه أن يتعرض متعرض لهذا السر المصون !

يأيها السائلى لأخبره عنّى : لم لا أراك معتجرا ؟
أستر شيئا لو كان يمكننى تعريفه السائلين ما سُترا

ومن عيره هجاه وقال فيه .

يعيرنى لبس العمامة سادرا ويزعم لبسيها لعيب مكتم

وتلا ذلك ما لا بد منه فى هجاء صاحبنا من عوار الكلام

ثم انكشف الأمر ولم تغن الحيلة فى لجاج الفضوليين والمتشوفين فعاد الى العمامة يحيل عليها اللوم ويتهمها بجريرة الصلع ويقول أنه لم يكن أصلع قبل أن يلبسها وإنما كان يتقى بها البرد والحر فدهاه طول التعمم فى لمته ، فهو يلبسها الآن لستر هذا التشويه . . . الحديث !

تعممت احصانا لرأسىَ برهة من القر يوما والحرور اذا سفع
فلما دهى طول التعمم لمتى وأودى بها بعد الاصالة والفرع
عزمت على لبس العمامة حيلة لتستر ما جرت على من الصلع
فيا لك من جان على جناية جعلت اليه من جنايته الفزع

ولا يبعد أن يكون هذا صحيحاً بعض الصحة ، وأن خوفه البرد والحر كان من أسباب ملازمته العمامة وإن لم يكن هو كل السبب، فقد كان يكابد فى الصيف نصبا كما قال لبعض ممدوحيه « يا عليما بما أكابد فيه »[1] . . . وكان مرهف الحس جدا فكان أهون مس يهيج

(١) قد مضى أكثر الشتاء وجاء الصيـ ف يعدو فلا تزده التظاء
يا عليما بما أكابد فيه لا تعاونه ، ان فيه اكتفاء

أعصابه ويستفز خلقه ، بل كانت الرائحة اذا قويت تؤذيه وتصدعه ، فلهذا كان يذم الورد ويمدح النرجس كما جاء فى فصل التلطف من كتاب الصناعتين . ومَن بلغ منه التقزز هذا المبلغ لم يبعد أن يلبس العمامة لاتقاء الحر والبرد ، ولم يبعد كذلك ان يكون ضعيف الشعر فطرة وأن يصيبه الشيب والصلع لأضعف سبب

أما مشيته فقد تولى هو وصفها لنا على طريقته التى لا تدع شيئا من تمثيل الشكل والحركة ، فعلمنا منه أنه كان يختلج فى مشيته كأنه يحمل بين يديه غربالا يديره

ان لى مشية أغربل فيها آمنا ان أساقط الاسقاطا

وهذه المشية معروفة تدل عليها حركة الغربلة وتكثر فيمن بهم خلل فى العصب أو العضل . وفى ديوانه أبيات يهجو بها أخا نصر الجهبذ لأن نصراً أراد ان يزوجه بنته فمنعه من ذلك أخوه وقال له : اما تنظر الى مشيته مثل مشية المخنثين ؟

ونحسب اننا فى غنى بعد هذا عن شواهد أخرى على حظه من الصحة وقوة التركيب فى شبابه ومشيبه ، ولكننا لا نحب أن نحدس اذا امكن أن نجزم ، فالرجل يقول فى صباه :

وانى للقوى على المعالى وما أنا بالقوى على الصراع

وكان يشكو مرض العينين قبل الشيخوخة ، ففى ذلك يقول من قصيدته الدالية فى صلح عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وأخيه سليمان ، وهى مما نظم حوالى الأربعين :

شغلت عنك بعوّار أكابده   لا بالملاهى ولا ماء العناقيد
ولو قعدت بلا عذر لهد لى   جميلُ رأيك عذرى أى تمهيد
قاسيتُ بعدك لا قاسيتَ مثلها   نهار شكوى يبارى ليل تسهيد
امسى وأصبح فى ظلماء من بصرى   فما نهارى من ليلى بمحدود
كأننى من كلا يومى وليلته   فى سرمد من ظلام الليل ممدود
اذا سمعت بذكر الشمس آسفنى   فصعدت زفراتى أى تصعيد

وذلك الى شكاية من المتطببين واعتذارات كثيرة بالمرض تدل على بنية مصابة وحظ من العافية قليل

فلما أدركته الشيخوخة لاجرم برّحت به واشتدت وطأتها عليه فرجفت أعضاؤه وتعاورته الاسقام واحتاج الى العصا وزاغ نظره وثقل سمعه

ودب كلال فى عظامى ادبّنى   جنيبَ العصا ، اناَد أو اتأيد
وبورك طرفى فالشخوص حياله   قرائن من أدنى مدى وهى فرّد

أو كما قال فى قصيدة أخرى

واحدث نقصان القوى بين ناظرى   وسمعى وبين الشخص والصوت برزخا

وجماع ذلك قوله :

انا ذاك الذى سقته يد السـ   ـقم كؤساً من السقام رواء
ورأيت الحمام فى الصور الشـ   ـنع فكانت لولا القضاء قضاء

* * *

وقد اختلفت أقوال ابن الرومى فى حظه من القسامة قبل أن تجور عليه السن وتعصف السقام بما كان له من صباحة فى ضحوة عمره . فهو اذا أراد أن يمزح أو يهوّن على نفسه فقد الشباب العزيز قال :

من كان يبكى الشباب من جزع　　فلست أبكى عليه من جزع
فان وجهى بقبح صورته　　مازال لى كالمشيب والصلع

أو قال :

جزى الله عنى قبح وجهى سعادة　　كما قد جزاه ، والاله قدير
دعوت به قوما فأدوا أتاوة　　كأنى عليهم عند ذاك أمير

وهو اذا أراد أن يرثى الشباب ويتفجع عليه قال :

وكنت جلاء للعيون من القذى　　فقد جعلت تقذى بشيبى وترمد

أو قال :

وما يرجى من البيض ابتسام　　لمن أمسى لمفرقه ابتسام
كأن محاسنى لم تضح يوما　　وفى لحظاتهن لها اقتسام
كأنى لم أر اللمحات نحوى　　وفى اللمحات لثم والتزام

والمرء يبالغ اذا أراد أن يتهكم أو يتفجع ، ويبالغ اذا اراد التهوين أو التهويل ، فالصورة الأولى أدخل فى باب الصور الهزلية التى فيها ما فى جميع هذه الصور من التحريف والمسخ والمبالغة ، والصورة الثانية أدخل فى باب الصور المحسّنة التى يكثر فيها التنوّق والاصلاح . ولكننا نرجح أنه كان كما قلنا « على حظ من وسامة الطلعة فى شبابه معتدل القسمات لا يأخذ الناظر بعيب بارز ولا صفحة بارزة فى صفحة وجهه » . لأنه كان يتناول بالسخر كل عيب فى وجوه الذين هجاهم من خصومه ومازحهم من أصحابه ، فلو كان فيه مثل هذه العيوب البارزة التى لا تُدارى ولا يُغالط فيها لما تناولها ولا حوّل الانظار الى مثلها فى وجهه ، أو هو لو كانت فيه هذه العيوب وتناولها بالهجو والدعابة لتعرض له المهجوون بمثل فعله فرد عليهم شعرا كما رد عليهم حين تعرضوا له فى العيوب

الأخرى من مشية أو صلع أو هزال . فالاقرب الى الترجيح أنه لم يكن ذا عيب بارز ولا حسنة بارزة ، وانه لم يكن ظاهر الحسن ولا ظاهر التشويه . على انه كائناً ما كان حظه من القسامة فى صباه قد فقد ولا ريب ذلك الحظ الذى كان له حين شاخ وجاوز الخامسة والخمسين ، فاننا لا نتخيل الجمال لشيخ نحيل معروق تقوّس ظهره وشحب وجهه وانطفأ وميض عينيه وطال عليه السقم والغم ولم تزينه الشيخوخة بذلك التاج الفضى الذى تسبغه على رؤس الشيوخ ولا بتلك الحلية الناصعة التى تحيط بها وجوههم بالوقار والجمال

***

على أن ضعف البنية لم يكن ليضير ابن الرومى كثيرا فى شبابه أو فى شيخوخته لو أنه اعتدل فى عيشه وقوى على ضبط نفسه ، فان ضعاف البنيـة قد يعمرون ويبلغون فوق الستين التى بلغهـا ابن الرومى وهم فى عيشة سوية وحالة من الصحة مرضية ، وربما نيّف الهزيل على الثمانين وهو معـافى الجسد موقّى من الامراض التى لا يتقيهـا الاقوياء ولا يحجمون عن مواقعة اسبابها ؛ ولكن ابن الرومى كان هزيلا وكان مع هزاله قليل التصوّن والاحتراس ، فجنى على بدنه فوق ما جناه عليه هزاله. ولج به الحس المتوفر فتهافت على لذات الحياة وأطايبها تهافت من لا يحب أن تفوته متعة أو تفلت من يديه نهزة ، وكبرّ له الخيـال لذات الحس ومبـاهجه فأكبّ على مائدة الحياة كالطفل على مائدة الحلوى لا تمنعه كظة ولا تقمع شهوته حمية . وراح منهوما كذلك بكل لذة عقلية يتهم المعرفة — كما يلتهم اللهو والنعمة — التهام من يخشى أن يذاد عنها ولما يستوف.

شبع شهوته منها. فجار على بنيته الضاوية وانطلق مسرفا فى درسه مسرفا فى اشتهائه مسرفا فى طعامه وشرابه، وروى له الشعر حتى فى اصناف الطعام والشراب بل روى له الشعر فى هذه الاغراض حيث لا يروى له شعر غيره. قال محمد بن يحيى الصولى فيما نقله المسعودى فى مروج الذهب:

« اكلنا يوما بين يدى المكتفى بعد هذا بمقدار شهر — اى بعد أكلة رُوى فيها شعر لابن الرومى — فجاءت لوزينجة فقال: هل وصف ابن الرومى اللوزينج؟ فقلت نعم. فقال انشدنيه، فأنشدته:

لا يخطئنّى منك لَوْزِينجٌ ۞ اذا بدا أعجب أو عجّبا
لم تغلق الشهوة أبوابها ۞ الا أبت زلفاه أن يحجبا
لو شاء أن يذهب فى صخرة ۞ لسهّل الطيب له مذهبا
. . . . ۞ . . . .
مستكثف الحشو ولكنه ۞ ارق جلدا من نسيم الصبا
كأنما قُدَّتْ جلابيبه ۞ من أعين القطر الذى طنّبا (١)
يخال من رقة خِرشائه (٢) ۞ شارك فى الاجنحة الجندبا

الى آخر الابيات. فحفظها المكتفى فكان ينشدها »

وأخبر نفطويه عن احمد ابن حمدون: « تذاكرنا يوما بحضرة المكتفى فقال: أفيكم من يحفظ فى نبيذ الدوشاب شيئا؟ فأنشدته قول ابن الرومى:

اذا اخذت حبه ودبسه ۞ ثم اجدت ضربه ومرسه
ثم اطلت فى الاناء حبسه ۞ شربت منه البابلى نفسه

فقال المكتفى: قبحه الله ما اشرهه! لقد شوقنى فى هذا اليوم الى شرب الدوشاب »

وانا لنقرأ هذه الابيات وامثالها الكثيرة فى ديوان ابن الرومى

---

(١) اذا انتفخت قطرة الماء كان لها قبة رقيقة هى المقصودة هنا (٢) الخرشاء قشرة البيض العليا

فيخطر لنا عصره المترف ويخطر لنا ان الاسهاب فى وصف الطعام والشراب لم يكن فى ذلك العصر معيبا ولا مخلا بالمروءة ، لأنه كان عصر الشهوات جميعها وأولها شهوة المآكل والمشارب ، بل كان عصرا يصح أن يُسمى بعصر الموائد والولائم لأنها كانت وصلة الاجتماع فى الجد واللهو وملتقى طلاب اللقاء فى مواعد الوجبات اليومية وغير مواعدها المألوفة ، وكان من مقاييس مروءة الرجل ان ينظر الى مطعمه فى بيته وبراعة طهاته ونفقته على أكله ، فغضب المتوكل على عافية بن شيب وأقصاه من مجلسه ونفاه الى البصرة لأنه رأى له طعاما لا يليق بمن يجالس الخليفة وينال صلاته، ونحن لا نتصفح أخبار المجالس فى ذلك العصر الا صادفنا الحديث عن الولائم والمهارة فى اتقانها والسخاء فى النفقة عليها . فربما كان الخليفة وجلساؤه يتواعدون الى الموعد ومع كل منهم طعامه يتفكهون باستعراض ألوانه والمقابلة بين صناعاته وطعومه ، وكان من تمام ظرف الاديب والنديم أن يحذق شأن الطعام ويخبر صنعه وما قيل فى وصفه . فظهرت فى ذلك العصر كتب الأدباء فى فن الطهو ككتاب الطبيخ لابراهيم بن العباس الصولى وكتاب الطبيخ وكتاب فضائل السكباج لجحظة البرمكى، وخفت مذمة النهم لأنه أصبح كأنه قدرة وعلم وظرف! وكأنه فى ذلك كله أقرب الى الفخر منه الى الملامة !

يخطر لنا ذلك العصر المترف ونحن نقرأ هذه الابيات الكثيرة فى ديوان ابن الرومى فنسأل أنفسنا : ما نصيب العصر فى تلك الأوصاف وما نصيب الرجل ؟ وما حظ العين من لون وشكل وما حظ المعدة

من شبع وامتلاء ؟ فمن شاء ان يحسب نهم ابن الرومى على النحو المتقدم بابا من الأدب لا بابا من الشره فله ذلك وحجته فى هذا الحسبان غير ضعيفة ! ولـكنه هو لا يدعنا نحار فى خليقة كهذه الخلائق التى تحكى عنه ويكون لها دخل فى حياته ، فاذا تطرق الشك الى جانب فلا بدله من جانب آخر يقطع ذلك الشك ويردك الى اليقين فيه ، ومن شعره المحفوظ مايَروى لك كيف كان يعاب فى أكله وكيف كان رده على من يعيبونه ، فتارة يقر بالذنب ويزعم أنه هفوة لا جريمة

أإن اصطبغت ولقمتى معضوضة[1] انشأت تهجونى بذلك ظالما ؟
عيبٌ لعمرك غير ان لم آته عمدا ! فهبنى هافيا لا جارما

وتارة يقول لقسطنطين جارية أم حبيب وكأنها ضحكت من أكله :

ذرينىَ قسطنطين آكل شهوتى وتبشمنى ؛ انى بذلك راض
فأكثر ما الق من الزاد كظةٌ مدى يومها ، واليوم أسرع ماض

ثم لا ينسى أن يعرّض كدأبه بغير ذلك ، وان يذكر الـكظة التى لا تنصرف الا بعد تسعة أشهر !

وتارة يصف الطعام ويعقب الوصف بالتشوق اليه واللهفة عليه

لهفى عليها وأنا الزعيم بمعدة شيطانها رجيم

بل هو لا يدعنا نحار حتى فى « الاصناف » التى كان يحبها ويؤثرها على سواها . فقد علمنا مثلا انه كان يحب الموز من الفاكهة لأنه غذاء القلوب لا غذاء المعدات !

يكاد من موقعه المحبوب يدفعه البلع الى القلوب

---

(١) اصطبغ ولقمته معضوضة أى وضع اللقمة فى الطعام وفي فمه لقمة يمضغها

وانه كان يعاف المشمش لأنه دواء لا غذاء

اذا ما رأيت الدهر بستان مشمش فأيقن بحق انه لطبيب

وعلمنا انه كان يشتهى السمك ويمعن فيه :

فيا حبذا امعاننا فيه ناضجا كما جاء من تنوّره المتوقد

وعلمنا ان ابن ابى بشر المرثدى غلط مرة فوعده أن يوافيه أيام السبت بالهدية منه بعد الهدية . فوقع المسكين فى شباكه فما كانت تنقضى فترة الا على تذكيرله ومناوشة ، وجعل ابن الرومى هذا الوعد هجّيراه ودعابته التى لايفرغ منها. وما كان يفرغ من دعابة ولا غير دعابة وفيها بقية ؛ فحينا يقول انه قد تهوّد فى انتظار السمك ويسأل ابن ابى بشر!

ما لحيتاننا جفتنا وأنىَّ اخلف الزائرون منتظريهم !

قد أزحنا اعتلالهم وجعلنا سبتهم جمعة ، فما يشكيهم ؟

جاء فى السبت زورهم فأتينا من حفاظ عليه ما يكفيهم

وجعلناه يوم عيد عظيم فكأنا اليهود أو نحكيهم

واحتملنا مقالة الناس فينا ولهم كلٌّ ما احتملنا وفيهم

. . . .

قد سبتنا ، وانما كان قومٌ يوم لا يسبتون لا تأتيهم

يشير الى المائدة التى كانت تأتى بنى اسرائيل يوم يسبتون ..!

وحينا يحمد الله الذى نجا السمك حين تعلقت به شهوة ابن الرومى ووعد المرثدى

الحمد لله الذى نجا السمكْ من الشصوص الجائلات والشبكْ

علمه يونس من تسبيحه ما كان ادناه الى تسريحه

فهو من الصياد فى أمان مادمت ابغيه ، وفى ضمان

وحيناً يسائل المرثدى مستعظما لابطائه :

ألحوت حوت الارض أم حوت يونس لك الخير ، أم حوت السماء أروم ؟

وحينا يسأل السمك :

ايا سمكا بين السماكين عزةً الى كم يرانا الله عنك نصوم

وحينا يُعلّم المرثدى أن دجلة قريبة من قصره وأنه قليل العذر فى اخلاف وعده :

اعلم وُقيتَ الجهل انك فى قصر تليه مطارح السمك

. . . .

وبناتُ دجلة فى فنائكم مأسورة فى كل معترك

. . . .

بيض كأمثال السبائك بل مشحونة بالشحم كالعلك

تغنى عن الزيات قاليها وتبخّر الشاوين بالودك

. . . .

فليصطد الصياد حاجتنا تصطد مودتنا بلا شرك

وهكذا وهكذا مما يغريه به حب السمك وحب الدعابة ، وكلاهما شهى اليه !

وكان هذا ديدنه فى كل أمر من أموره : اسراف واستقصاء لا يمسكهما ضابط ولا تعقدهما عزيمة ، اسراف واستقصاء فى النكتة وفى المعنى وفى الدرس وفى الطعام والشراب والشهوات ، لا حدّ لهما الا البشم والامتلاء ، واستنفاد ما بين يديه من مادة مادة فى ساعتها حتى لا سؤر ولا صبابة

ان يكن عندك لى نصـ ـح فما عندى انتصاح
لا تلمنى فالهوى فيـ ـه جماح وطماح

. . . .

ما على المفتون فى ما غلب الصبرَ جناح
كل شىء غُلب الصبـ ـر اليه فمبـاح
انما الدنيا ملاه واغتبـاق واصطبـاح
والمزاح الجد ان فكـ ـرت والجد المزاح

وتختلف نزغات هذا الاسراف وسببُها كلها واحد: سببها كلها توفز الحس ومطاوعة الرغبة الحاضرة والاندفاع معها وقلة الصبر عنها ، ولو أن هذه الأشواق الجامحة شُفعت بمسكة من العزم المتين لاعتدلت حاله ولو بعض الاعتدال وسلم جسمه ولو بعض السلامة ، ولكنْ أنّى له العزيمة وهو أسيرا حساس اللحظة التى هو فيها لا يترك له استغراقه فى مؤثراتها الحاضرة منفذا الى التفكير فى قابل أو غابر ولا يعدل بما يزينه الحس والخيال حظاً تزينه له الحكمة والحصافة ؟

وصاحب هذا المزاج اذا خلا من الاحساس الثائر والرغبة الجامحة يثوب لا محالة الى وجوم يجثم على صدره وانقباض يثقل على وجدانه . كالنشوان لا يفيق من أحلام الكأس حتى يرين عليه السأم فيسرع الى النشوة ، فهو أبداً بين النقيضين من ثورة الاحساس وشدة الوجوم

وليس التناقض بين ثورة الاحساس والوجوم فى الحقيقة الا ظاهرا لا يتعمق الى البواطن الدخيلة ، اذ أن فرط الاحساس كثيراً ما يؤدى بصاحبه الى فرط الوجوم اتقاء الألم أو شعوراً بالوحشة التى تنتابه حين

يرى التفاوت بين شعوره وبلادة من حوله ، أو مضيا مع عادة التفكير والخلو بالنفس التي ينميها التفات الانسان الى موارد الاحساسات المتوالية على وجدانه وحسه ، واذا لم يتوجه الاحساس الى العمل والحركة فسبيله التي لا محيد عنها أن يتوجه الى التأمل ومناجاة السريرة ، وندر أن يوجد الخجل والاحتجاز الا مع شدة الوعى والتنبه لكل حركة يتحركها الانسان وكل كلمة ينبس بها وكل أثر يكون لحركته وكلامه فى نفوس غيره ، فالسكون أدل على الحس المتوفز فى بعض الأحيان من الحركة والاضطراب

ولعل الأصوب أن نقول ان ابن الرومى وقع من مزاجه واسرافه فى حلقة موبقه لا يُدرى أين طرفاها . فمزاجه أغراه بالاسراف والاسراف جنى على مزاجه ، فان هذا الاسراف الموكّل بالاستقصاء فى كل مطلب ورغبة خليق ولا غرو أن يسقم جسمه وينهك أعصابه ويتحيّفَ صوابه ، بيد أنه لا يسرف هذا الاسراف الا وفى جسمه سقم وفى أعصابه خلل وفى صوابه شطط لا يُكبح جماحه ، فالعلة هى سبب الاسراف والاسراف هو سبب العلة ! وهو من هذه الحلقة الموبقة فى بلاء واصب ومحنة لا قبل بها للضليع الركين فضلا عن المهزول الضئيل ، وعلاقة كل ذلك باختلال الأعصاب وشذوذ الأطوار بدءا وعودا ثم عودا وبدءا أوثق علاقه من جانب الجسد ومن جانب التفكير

ولا تعوزنا الأدلة على اختلال أعصاب ابن الرومى وشذوذ أطواره من شعره أو من غير شعره ، فان أيسر ما تقرأه له أو عنه يُلقى فى روعك الظنة القوية فى سلامة أعصابه واعتدال صوابه ، ثم يشتد بك

الظن كلما أوغلت فى قراءته والقراءة عنه حتى ينقلب الى يقين لا تردد فيه . وكل ما نعلمه عن نحافته وتفزز حسه وشيخوخته الباكرة وتغير منظره واسترساله فى الوجوم واختلاج مشيته وموت أولاده وطيرته ونزقه وشهوانيته الظاهرة فى تشبيبه وهجائه، واسرافه فى أهوائه ولذاته ثم كل ما نطالعه فى ثنايا سطوره من البدوات والهواجس — قرائنُ لا تخطىء فيها الدلالةَ الجازمةَ على اختلال الأعصاب وشذوذ الأطوار، بل لا تخطىء فيها الدلالة على نوع الاختلال ونوع الشذوذ

ونقول « نوع الاختلال » لأن هذه الكلمة عنوانٌ واسع يشمل من الحالات النفسية والجسدية مثلَ ما تشمله كلمه « الصحة » أو أكثر، فهذا صحيح وهذا صحيح ولكن البون بينهما جد بعيد ، وهذا مختل الأعصاب وذاك مختلها ولكن الخلاف بينهما فى الأخلاق والمشارب كأبعد ما بين فردين مختلفين من بنى الانسان . فتختل أعصاب المرء فاذا هو جسور عنيد متعسف للأخطار هجام على المصاعب لا يبالى العظائم ولا يحذر العواقب ، وتختل أعصاب المرء فاذا هو وديع مطيع حاضر الخوف متوجس من الصغائر يبالغ فى تجسيمها أو يخلقها من حيث لم تخلق ولم يكن لها وجود فى غير وهمه . وبين الحالتين — لا بل فى كل حالة من الحالتين — نقائض وفروق لا تقع تحت حصر ولا تطّرد على قياس

وبديهى أن ابن الرومى لم يكن من الفريق الاول فى « نوع اختلاله » ولكنه كان من الفريق الثانى الذى يستحضر الخوف ويكثر التوجس ويختلق الاوهام

ومن أصحاب هذا المزاج من يخاف الفضاء أو يخاف الماء أو يخاف حيوانات منزلية لا قوة لها ولا ضراوة كالقطط والكلاب والجرذان ، فابن الرومى واحد من هؤلاء نحسب انه كان مستعدا لهذه الهواجس طول حياته فى صحته ومرضه وفى شبابه ومشيبه ، ونحسب أن استقصاءه للمعانى الشعرية والالحاح فى تفريغها وتقليب جوانبها انْ هو الا علامة خفيفة من علامات هذا الوسواس الذى لا يريح صاحبه ولا يزال يشككه ويتقاضاه التثبت والاستدراك ، فيمعن ثم يمعن حتى لا يجد سبيلا الى الامعان .

ولكنه مع استعداده للهواجس فى شبابه ومشيبه قد تمادى به الوسواس فى اعوامه الاخيرة حتى أصبح آفة متأصلة غلبت على اقواله وأفعاله جميعا فليس له عنها محيص ، فأفرط فى الطيرة واشتد خوفه من الماء لا يركبه ولو أدقع ودعاه الى ركوبه من يمنّونه الأرفاد وحسن الضيافة ، وصوّر لنا ما يعتريه من خوف الماء تصويراً لا يدل إلا على حالة مرضية ولو كان التشبيه فيه من مجاز الشعر وتهويل الخيال ، وهذا بعض ما قاله فى مخاوفه وأهوال ركوبه :

ولو ثاب عقلى لم أدع ذكر بعضه	ولكنه من هوله غير ثائب
. . . .	. . . .
أظل اذا هزته ريح ولألأت	له الشمس امواجاً طوال الغوارب
كأنى أرى فيهن فرسان بهمة	يليحون نحوى بالسيوف القواضب

والماء الذى يصفه هنا هو ماء دجلة لا ماء البحر ولا ماء المحيط !

***

هذه الوساوس هى التى عناها الذين قالوا — فى رواية المسعودى —

« انه كان الاغلب عليه من الاخلاط السوداء » والذين روى عنهم المعرى أنه « كان ادبه أكثر من عقله » . وهى التى وسمته فى نظر أبناء عصره بسمة الركاكة والجنون

***

بين اصحاب هذا المزاج اناس من نوابغ الشعر والفنون عُرفوا بسرعة الملاحظة وسرعة الخاطر ، أو عرفوا — على الاصح — بسرعة انتقال الخواطر وتعاقب الافكار واستحضار المناسبات الخفية والمشابهات البعيدة التى تدركها سرعتهم ولا تدركها عقول السواد فى بطئها وأخذها بالسير المألوف

وقد تتفاقم هذه الخصلة فتصل الى الجنون الذى يقول عنه القائلون أنه يخلط بين الشرق والغرب ويُقحم الاحاديث فى غير مواضعها ومناسباتها لسرعة وثبه من كلام الى كلام ومن معرض الى معرض ، ولخفاء أوجه المناسبة بين موضوعات تفكيره على الذين يستمعون اليه

ولكنها اذا هى لم تبلغ الى حدها الأقصى المشاهد فى أعراض الجنون كانت خصلة نافعة للشعراء والمصورين بما تقرّب لهم من المشابهات البعيدة وتبرز لهم من فوارق الافكار الدقيقة وظلال الاشكال المستسرة ، اذ لا يلزم من سرعة تفكيرهم أنهم يخطئون التفكير ويجيئون به مقتضبا أو مشوها على غير استواء . فانهم فى هذه الخصلة كالآلة التى تنطلق بالصور المتحركة فتعرض لك فى لمحة ما يعرض فى برهة ، والمناظرُ بعدُ واحدة والنسبة بينها كلها على استواء واحد . أو هم كالمجهر المكبر الذى يرى الاشياء كلها اكبر مما تراه العين المجردة وهى بعدُ صحيحة الابعاد

مستقيمة الاوضاع ، والعلم يحتاج الى التكبير فى درس الاشياء ويحتاج الى مثل هذا التكبير فى درس النفوس. فليس كل ما دق الشعور به عن الناس عامةً باطلا معيبا ، ولا كل ماخفى على العين حقيقا بالتجاهل والاخفاء

انما يدرك الخطأ أصحابَ هذا المزاج فى الغالب من ناحية واحدة هى ناحية ضبط الاحساس أو ناحية التفريق بين الخواطر واحساساتها التى تناسبها

فقد زعموا فى الاساطير ان السحرة الاقدمين كانوا اذا فكروا فى جِنّى يريدونه حضر بين أيديهم بغير استدعاء ولا انتظار اشارة

فلك أن تقول أن مازعموه حقيقةٌ لا اسطورة، وان السحرة الاقدمين موجودون فى كل زمان لأنهم هم بعينهم سحرة الفن من اصحاب ذلك المزاج

يخطر لهم ان صديقا مات فما هو الا أن يومض فى ذهنهم هذا الخاطر حتى يثب معه الحزن الذى يحزنه الصديق على صديقه ، أو بعبارة أخرى يثب معه الجِنّى الملازم لخاطر الموت بغير استدعاء ولا انتظار أشارة

وقد تسنح لأحدهم الفكرة فما هى الا ان تتراءى فى خياله حتى يقترن بها الاحساس الذى يناسبها من خوف أو غضب أو فرح أو اغتباط ، ثم لايستطيع أن يضبط حركة إحساسه ولا أن يصرف عنه الخالجة النفسية التى أيقظتها فيه هذه الفكرة ، فكل شر مظنون فهو عنده كالشر المحقق على حد قول شاعرنا :

واذا ما ظننت شيئا فخفه   رب شر يقينه مظنونه

وربما كان أحدهم على قمة جبل فيسنح له خاطر السقوط منه

فسرعان ما يهب فى نفسه شعور الوجل والاضطراب كأنه قد سقط فعلا، ثم لا يستطيع دفع شعوره ولا يهدّىء من روعه علمه بأنه مستقر على الأرض ناج من خطر الوقوع الموهوم! وربما سنح له شبح الافعى فتفاجئه الرهبة من سمها الناقع ولو لم يكن فى موضع تطرقه الافاعى أو يظن بها طروقه. لأن هذا التنبيه الصغير كاف لتحريك الاحساس وجيشانه وتمثيله لخياله فى مثل لمح البصر، ثم لا توجد عنده القدرة على رد أحساسه الى نصابه والهيمنة على حركات نفسه. فهو كأولئك السحرة فى قوة الاستدعاء لولا أنه ينسى الاشارة التى يصرف بها الشياطين فتلتوى عليه وترديه!

وهذا هو مورد الخطأ على أصحاب ذلك المزاج

ولكنك ترى أنه ليس ثمة خطأ فى الخاطر ولا فى الاحساس الذى يلازمه، فالخاطر صحيح والاحساس كذلك صحيح، وانما الخطأ ان الاحساس يجىء قبل الاوان أو فى غير الاوان. وقد يُعَد ذلك عيبا فى العلم أو فى تدبير المعاش، أما فى الفن فلا عيب فيه. لأن الفنان أحوج ما يكون الى استحضار الشعور فى غير موعده وتمثيل العاطفة كلما دعته حاجة عارضة الى تمثيلها. فهذه الخصلة قد تؤذيه فى معاشه وقد تؤلمه وتشقيه، ولكنها لا تستلزم الخلل فى تفكيره وعاطفته الامن حيث التكبير والتجسيم، وقد يكون التكبير والتجسيم ألزم لأظهار الخفى وتقريب البعيد من نظرة القسط والهدوء، ولا سيما فى الفنون

* * *

ومع كل هذا يجب أن نذكر ان آمن شىء فى الحكم على هذه الأمزجة

وأشباهها هو ألا تركن كل الركون الى قاعدة مقررة فى تقدير أعمالها وأحوالها، وألا تزال مترقبا منها للمفاجآت والغرائب فى كل لحظة. فقد يجتمع العنف العصبي والوداعة العصبية فى اهاب واحد، وقد يعنف اللطيف ويلطف العنيف حسبما يطرأ عليهما من الطوارىء، وهذا الذى تراه اليوم يتوقد ذكاء وفطنة قد تراه فى بعض حالاته خابى الذهن كليل الفهم لايعى عنك ماتقول، وهذا الذى يقيم القيامة للصغائر التوافه قد تراه وقتاما وهو مستخف بالعظائم لايبالى ما كان منها أوما يكون... وأنت تسأل: أفى تركيبهم تناقض؟ فلك أن تقول نعم ولك أن تقول لا. لأن التناقض موجود فى ظواهر الأفعال ولكنه غير موجود فى بواطن المزاج، فمن كانت تقيمه الهنة الضعيفة وتقعده اذا هى لمسته وبلغت منه حرى ألايبالى الحوادث الجسام اذاهى لم تامسه ولم تبلغ منه، فالمعول فى ثورته وسكينته على مايباشر حسه ويلامس أعصابه. لاصغير الا وهو خطير مثير اذا أزعجه وملأ أحساسه، ولا خطير الا وهو هين طفيف اذا غاب عن وهمه وأعفاه من رؤيته، فهو الدهر بين تبرم وفزع من توافه الأشياء وطمأنينة وسخر من فوادح الخطوب

ويحتاج الأديب أحيانا الى هذا التناقض كما يحتاج الى استحضار الاحساس فى غير أوانه، أو يحق لنا أن نقول ان شاعرنا خاصةً قد استفاد من هذا التناقض مضاء وحدةً فى ملكة السخر التى اشتهر بها وبلغ فيها أوجه. فان النقائض والمفارقات ألزم لوازم هذه الملكة بعد دقة الملاحظة. وها هنا معدن النقائض والمفارقات التى يعانيها الساخر فى نفسه وقد يستغنى بها عن مراقبة غيره

كان ابن الرومى ساخرا ولا جرم. كان شاعر النقائض فى عصر النقائض، وكان شاعر الفطنة الوحيّة فى عصر الرياء المضحك أو عصر الاختلاف بين الظواهر والبواطن والبعد الشاسع بين ما هو كائن وبين ما يُدّعى ويُستوجب. فلا جرم يسخر وعناصر السخر فى نفسه وفى زمنه! وقدرة السخر فى قلبه وفى عقله! ولا جرم يسخر وهو مهيّأ للسخر فيما عدا ذلك بتعدد أصوله وتوزّع أهوائه وعصبياته. فان صاحب العصبية الواحدة خليق أن يتحيز ويتنطس ويغلو فى الجد والمرارة، ولكنّ صاحب العصبيات الكثيرة لا يستطيع ان يفعل ذلك ولا يسعه الا أن يستخف ويضحك من تلك الدعاوى وتلك المظاهر التى يضعها غيره من الناس موضع الجد والقداسة

وها هنا شاعر ينتمى أبوه الى الروم وتنتمى أمه الى الفرس ويدين هو بدين العرب وينتسب فى ولائه الى أبناء النبي العربى ويتقاسم ولاءه عدوان لدودان من العباسيين والطالبيين. فأين تكون العصبية وأين تكون المطاعن والمثالب؟ ثم أين يكون التصديق الأعمى وأين يكون التكذيب الأعمى؟ لن يسعه هو اذا اشتجرت مفاخر الروم والفرس والعرب والطالبيين والعباسيين واختصمت بينهم العصبيات والمنافسات الا أن يبسم فى كل صوب بسمة العطف والدعابة، وأن يصبح على غير قصد منه عظيم الاستعداد للتسامح والفكاهة: كالذى يختصم اليه بنوه ويدعى كلهم ما يدعى من فضله وعيوب اخوته، وكلٌ مافيهم من فضل وعيب هو من لحمه ودمه ووشائج حبه وحنانه

فقد اجتمع لابن الرومى اذن من عناصر السخر ما لم يجتمع لأحد فى

فى عصره : اجتمعت له دقة الملاحظة والاحساس وعمق الشعور بالمناقضات فى نفسه وفى زمنه ، وسعة النظر الى الفوارق وسماحة العطف التى تقابل مرارة العصبيـة . فهو ساخر لا يُبارى فى سخره ، وعابث مطبوع على العبث بكل شىء حتى صحبه ونفسه . يستخدم السخر فى الهجاء والمديح والمطايبة والمعاتبة ، ويعرض لك فى متحفه الكبير تلك الصور الهزلية التى لا مثيل لها فى شعر شاعر واحد من شعراء العالم كله ، ثم لا يأنف أن يريك بينها صورة له بل صوراً شتى لا ينقصها حظٌ من العناية وأمانة الصناعة

فهذا الوجه الذى فُصّل للصلاة والتعبد فى الفلاة وجه من هو ؟ انه وجه ابن الرومى فيما صوره لنا حيث يقول :

شُغفت بالخرّد الحسان ومايصـ	ـلح وجهى الا لذى ورع
كى يعبد الله فى الفلاة ولا يشـ	ـهد فيهـا مشاهد الجمع !

ومن هذا الغائص الذى تعلّم السباحة ليغوص لاليسبح ، او هذا الخائف المراقب الذى يمر بالماء فى الكوز مر المجانب ؟ انه هو ابن الرومى ايضا حيث يقول عن نفسه :

وكيف ؟ ولو أُلقيتُ فيه وصخرةً	لوافيت منه القعر اول راسب
ولم اتعلم قط من ذى سباحة	سوى الغوص ، والمضعوف غير مغالب
فأيسر اشفاقى من الماء اننى	أمرّ به فى الكوز مرّ المجانب
وأخشى الردى منه على كل شارب	فكيف بأمنيه على نفس راكب ؟

وابن الرومى أيضا هو ذلك المنهوم الذى يشره الى الطعام حتى فى الاحلام ، ويأسف على أن يذاد عنه ولو فى المنام :

ولقد مُنعت من المرافق كلها	حتى منعت مرافق الاحلام

من ذاك انى ماراني طاعمـــا   في النوم او متعرضا لطعام
الا رأيت من الشقاء كأنني   أثنى وأكبح دونه بلجام !

وابن الرومي كذلك هو الشيخ الفاني الذي لاينسيهم الشيخوخة ان يتهكم بنفسه ويحمد الله على زيغان بصره ، لانه بركة تجعل الشخص شخصين في نظره

وبورك طرفي فالشخوص حياله   قرائن من ادنى مدى وهي فرّد

هذا مثال من سخره بنفسه . أما سخره بغيره فله في افانينه الكثيرة ومعانيه الغريبة مايقوم بديوان كامل ، وبراعته فيه طبقة لاتعلوها طبقة في نوعها ويندر أن يدانيها فحول الساخرين في المشرق والمغرب ، فله في أحدب كان يضايقه ويترصدله امام داره ليتطير منه :

قصرت اخادعـه وطال قـذاله   فـكأنه متربص ان يُصفعـا
وكأنما صفعت قفاه مرة   وأحس ثانية لهـا ، فتجمعـا

وهي براعة لانظير لها في وصف الشكل والحركة ولا في تضمينهما هيئة السخر التي عمل فيها الشاعر عمله المركّب ليتم فيها نصيب العين والضحك والخيال . فصورة الرجل وهو يتهيأ لان يُصفع ثم يتجمع ليتقي الصفعة الثانية هي صورة الأحدب بنصها وفصها لاينقصها الاتقان الحسي ولا الحركة المهينة ولا الهيئة الزرية ولا التـأمل الطويل في ضم اجزاء الصورة بعضها الى بعض حتى يتفق التشبيه هذا الاتفاق

وله في معلم صبيان مغن :

ابو سليمان لاترضى طريقته   لا في غنـاء ولا تعليم صبيان
له اذا جاوب الطنبور محتفـلا   ضربٌ بمصر وصوت في خراسان
عواء كلب على اوتار مندفـة   في قبح قرد وفي استكبار هامان

وتحسب العين فكيه اذا اختلفا عند التنغم فكى بغل طحان

وله فى جحظة وكان مغنيا جاحظ العينين :

تخاله أبدا من قبح منظره مجاذبا وترا(١) أو بالعاً حجرا
كأنه ضفدع فى لجة هرم اذا شدا نغما او كرر النظرا

وله فيه

نُبئت جحظة يستعير جحوظه من فيل شطرنج ، ومن سرطان
وارحمتا لمنادميه تحملوا الم العيون للذة الآذان

وله فى مغن :

انك لو تسمع الحانه تلك اللواتى ليس يعدوها
خلت من داخل حلقومه موسوسا يخنق معتوها(٢)

وله فى مغنية :

تضغط الصوتَ الذى تشدوبه غصةٌ فى حلقها معترضة
فاذا غنت بدا فى « جيدها » كل عرق مثل بيت الأرضة

وله فى مغنية أخرى :

صوتها بالقلوب غير رفيق بل له بالقلوب عنف وبطش
فاذا رققته بالجهد منها خلت فى حلقها شعيرا يُجش

وله فى صاحب لحية :

لوغاص فى الماء بها غوصة صاد بها حيتانه أجمعا
او قابل الريح بها مرة لم ينبعث فى خطوه أصبعا

وله فى ابى حفص :

---

(١) وتر القوس لا وتر العود
(٢) البيتان غير موجودين فى الديوان المخطوط

ان ابا حفص وعثنونه كلاهما أصبح لى ناصبا
قد أغريا بى يهجوانى معا وحدى ! وكان الاكثر الغالبا
ان كان كفؤا لىَ فى زعمه فليعتزل لحيته جانبا ؟ !

وله فى رجل له منظر ولا أدب عنده :

طول وعرض بلا عقل ولاأدب فليس يحسن الا وهو مصلوب

وله فى اكول مضاغة

بعض أضراسه يكادم بعضا فهى مسنونة بغير سنون
لا دؤبٌ الا دؤب رحاها او دؤب الرحى التى للمنون
لاتعطل رحاك ياابن سليما ن فليس الثواب فيها بدون
قسماً لو وقفتها للمساكيـ ن لما مسهم غلاء الطحين
ماظننت الانسان يجتر حتى كنت ذاك الانسان عين اليقين

وله فى قصير أعور أصلع :

أقصرٌ وعـــــــورٌ وصلـع فى واحـــد
شواهـــــــد مقبولة ناهيـك من شواهـد
تنبئنا عن رجـــــــل مســـــــتعمل المقافد
اقمأه القفـــــــد فاضـ حى قائمـــا كقاعد

وله فى قصير :

على أنه جعـد البنان دُحيـدحٌ اذا ما مشى مستعجلا قيل : يدرج

وله فيمن هجاه :

رقادك لا تسهر لى الليل ضلةً ولا تتجشم فىّ حوك القصـائد
أبى وأبوك الشـيخ آدم تلتقى مناسبنا فى منسب منـــه واحد
فلا تهجنى حسبى من الذم أننى واياك ضمتنـــــا ولادة والد

وله فى بخيل :

يقــتر عيسى على نفسه ... وليس ببــاق ولا خالد

فلو يستطيع لتقتــيره ... تنفَّس من منخر واحــد

وله فى أصلع :

فوجهــه يأخذ من رأسه ... أخذ نهــار الصيف من ليله

وله من أمثال ذلك ما يطول بنا احصاؤه ولا نرى هنا فائدة من الاسهاب فى تكرار شواهده

وأبرع ما يكون سخره كما ترى اذا هو شبه لك صورةً محسوسة أو خلق لك من خياله صورةً معنوية ، فانه يُحكم التشبيه ويُحكم خلق الصورة فيُضحك بالمقابلة بين الشىء وشبيهه ويضحك بما تتخيله من المنظر الغريب حين يعمد الى خلق الشكول المعنوية ، كصورة الأحدب مثلا أو كصورة الرجل « المستعمل المقافد » . . . الذى يضرب فى كل مكان صالح منه للضرب ، فيصلع لقفده فى موضع شعره ويقصر لكثرة الطرق على رأسه ويعور لضربه على عينه ، وحركة الأبيات نفسها حين تُتلى على عجل كحركة الصفعات ماتنى نازلة صاعدة كما أبأ عنها فى تلك الأبيات

أو كصورة الرجل الذى لا نفع له الا أن يُصلب لأنه بذاك يظهر أحسنُ ما فيه وهو عرضه وطوله ، أو كصورة المغنى الذى تتراءى عيناه الجاحظتان كعينى الضفدع « الهرم » فى لجة يكرر النظر ويغنى وفمه فى الماء !

وكان فضلا عن هذا لاتفوته من الاغراض فائتة فى اللفظ ولا فى

المعنى ولا فى التصوير : ألق بالك مثلا الى كلمة « جيدها » فى هذا البيت :

فاذا غنت بدا فى جيدها كل عرق مثل بيت الارضة

فلو أن ساخراً غير مطبوع على السخر اراد هذا المعنى لاختار كلمة غير « جيدها » للمبالغة فى التقبيح والتشويه ، ولكنك تنظر فترى أن أصلح الكلمات فى هذا الموضع هى الكلمة التى تُوهمك الحسنَ وتُحضر لك المناقضة التامة بين الوهم والصورة المشهودة ، فيستوى طرفا النكتة ويبدو لنا الفرق المضحك بين الجيد وبيت الارضة ، كما نضحك من الفرق الذى يبدو لنا اذا وقف القزم الى جانب العملاق

وتأمل كلمة « طحان » فى هذا البيت :

وتحسب العين فكيه اذا اختلفا عند التنغم فكّىْ بغل طحان

فليس تمام القافية وحدها بهذه الكلمة بل الصورة المعنوية هى التى تمت بها أحسن تمام . لأن السخر لن يُستوفى فى هذا التشبيه الا اذا تمثلنا فى موقف الغناء الممتع بغلا من بغال الطحانين العجاف الجياع يتنغم ويستكبر بأنغامه استكبار هامان ، ولو كان بغلا من البغال الفارهة المترفة لنقصت الصورة وفترت فيها قوة السخر وقوة التشبيه . وقس على ذلك « الشيخ » آدم ، أو قس عليه سائر الابيات والصور

وسيأتى تفصيل الكلام على ملكة التصوير فى شعره عند الكلام على عبقريته والصلة بين فنه وبين الطبيعة والحياة

* * *

وليس يكفى ان نقول إن ابن الرومى كان ساخراً بارع التصوير لنعلم كل شىء نحب أن نعلمه عن سخره . فان السخر يتنوع حتى لا يتفق

فى الباعث الذى يوحيه ولا فى العبارة التى تؤديه . وأدباء « النفسيين » يقسمونه الى التهكم والعبث والمجانة والفكاهة، ويجعلون كل قسم منها جميعها نوعا من « الضحك » قائماً بمفرده مستقلا بصبغته وغرضه . والأقرب الى فهم الموضوع عندنا ان نوحّد الضحك ونجعل الاختلاف فى الخلائق والحالات النفسية . فنفرق بين ضحك الخليقة الكريمة وضحك الخليقة اللئيمة ، وبين الضحك فى حالة الرضى والعطف والضحك فى حالة الغضب والجفاء ، ثم نفرق بين العبث فى الحالين المختلفين من النفس الواحدة : فعبث النبيل الاريحىّ غير عبث الوضيع الخبيث ، وتهكم الصارم الأبىّ غير تهكم الرخو الذليل . وفى الدنيا من التهكم بمقدار ما فيها من المتهكمين ، نعنى بذلك ان التهكم ليس « نوعا » واحداً من الضحك ولا شكلا واحدا من المواهب ، ولكنه أنواع تختلف باختلاف الحالات والخلائق والاساليب . نخيرٌ لنا أن نرجع الى اختلاف هذه الحالات من أن نجمع التهكم كله فى باب واحد وصبغة واحدة وهو ليس كذلك

وما من ضاحك الا وهو قابلٌ لجميع هذه الحالات فى مختلف الاطوار ، فهو متهكم حينا وعابث حينا ومازجٌ بين هذين الشعورين فى بعض الاحيان ، كما يتفق كثيرا ان يمتزج الشعوران المتغايران

فاذا قلنا ان ابن الرومى ساخر فقد بقى ان نعرف نوع السخر لنعرف نوع الطبيعة التى توحيه ، فان المرء — كما تقدم — يكون ساخرا وهو طيبٌ سليم الطوية وساخرا وهو خبيث مظلم السريرة . فمن أى فئات الساخرين كان ابن الرومى وأى خليقة من الخلائق كانت تهيمن

على سخره ؟ أنسلكه فى الطيبين أو فى الخبثاء وفى الخلائق الشفافة القويمة أو فى الخلائق الكدرة العوجاء ؟

اننا نسأل هذا السؤال و نبتسم

نبتسم كما قد نرى الطفل اللعوب يعدو وراء مضحكة من المضاحك أو فرجة من الفُرَج ثم يسألنا السائل فى جد ورزانة : ما هى العداوة التى يكنها ذلك الطفل لمن يعدو خلفهم ويلهو بمعابثتهم .. ! فأى عداوة وأى صداقة ؟ وأى خبائة وأى طيبة ؟ هنا مضحكة وكفى .. ! ولن يفهم الطفل فى منطقه الا أنه يستطيع هنا أن يضحك ، فلم لا يضحك ؟ إى نعم لم لا والضحك لذيذ والاغراء به حاضر ؟ !

فابن الرومى هو ذلك الطفل فى سخره وضحكه وتهكمه وهجائه ، لسنا نفهمه حق فهمه الا اذا تمثلناه أبدا فى جدّة الاحساس واخضراره على هيئة الطفولة النامية التى لا تجف ولا تشيخ وان جفت المفاصل وشاخت الأوصال ، وستمر بنا عقد كثيرة من عاداته ومواهبه لا تُدرَك ولا تُفسَّر الا على اعتبار واحد وهو أنه طفل كبير لا يفرغ من الطفولة طول حياته . فسل ما شئت عنه ولكنْ سؤالك عن الطفولة النامية عزيتها ونقصها وطيبها وخبثها ورضاها وغضبها ، وانتظر منه سوء الأدب اذا غضب واحتدم غيظه واختنق صدره ولكن لا تنس ان الأدب السىء خلة غير خلة الطبيعة السيئة ، وانْ ليس الكظم والسكوت علامة على الكرم والصفح الجميل فى كل حال

وأجهل الناس بالطبائع الانسانية من يصف امرءا كابن الرومى بالحسد والضغينة لأنه كان يألم ويتحسر لحرمانه ويعجب لحظوة الجهلاء

بالخير دونه، اذ ليس الحسد أن يألم الانسان لأنه محروم مذود عن النعم التي يشتهيها ويتذوقها ويعرف معني المتعة بها، ولا أن يرى — مصيباً أو مخطئاً في رأيه — أنه أجدر وأليق بتلك النعم ممن لا يحسبهم انداده في الفضل والذكاء وأقرانه في المناقب والمآثر، كلا! ليس هذا هو الحسد المذموم المعدود في ردىء الصفات، وانما الحسد المذموم هو خلق كريه يبتلى به المرء فلا يطيق النعمة عند غيره وان كانت عنده ولا يستريح الى شعور الناس بالسعادة لانقطاع ما بينه وبينهم من رحم العطف والمشاركة في الأفراح والآلام

فالحسد نضوب في العاطفة وابن الرومي أبعد انسان عن نضوب العاطفة، وتحجرٌ في الشعور وليس للتحجر في خلائق ابن الرومي وأمثاله مكان، والحاسد لا يجعل الخير مقرونا بالفضل والنعمةَ مرهونة بالمناقب، ولا يطلب المتعة والجاه لانه أقدر وأجدر ممن ينعمون بهما في الدنيا بغير حق ولا معرفة، اذ التفكير على هذا النمط غريب عن جبلة الحاسد الذى انما يريد الخير لانه يريده وكفى! ثم لا يكلف عقله ان يدلى له بحجة في طلبه غير حجة الاثرة الحيوانية التى لا تسأله سببا والانانية الصماء التى لا تعقل ولا توازن ولا تتدبر، ويسوءه ان ينعم الناس لانه يرى النعمة وقفا عليه ويرى ان كل ما سر غيره مسلوب منه، وليكن ذلك السرور علما وهو لا ينافس العلماء أو صلاحا وهو لا يتشبه بأهل الصلاح أو شرفا وهو لا يطمح الى الشرف، فحسبه انه سرور في عرف أحد من الناس وحظٌ ينعم به غيره ويتملاه ليكون ذلك السرور ثأرا عنده ويكون تنغيص المسرور

به من همه وأربه . وهذا هو الحسد الذى ليس فى طبيعة ابن الرومى ذرة منه ، بل ليس ما عنده الا نقيضه وضده

فقد كانت ألذّ متعهِ التى وصفها تلك المتع التى غنمها مع صحبه وسعد بها كما سعد غيره ، وربما كان لا يلح ذلك الالحاح فى طلب السمك الذى يحبه الا ليسرع به الى صديق يدعوه اليه ويشركه فيه :

متى عهدك بالكرخ وبالشبوط والفرخ
وبالبكر التى لم تشق بالنار ولا الطبخ

وقد كان شعوره بحرمان غيره كشعوره بحرمان نفسه ولو لم تكن بينه وبين المحروم صداقة ولا علاقة . فكان يرثى للحمال المكدود اذا بصر به فيصف حاله وصف مشفق عليه يألم لجميع ألمه :

رأيت حمالا مبين العمى يعثر فى الأكْم وفى الوهد
محتملا ثقلا على رأسه تضعف عنه قوة الجلد
بين جمالات واشباهها من بشر ناموا عن المجد
وكلهم يصدمه عامداً أو تائه اللب بلا عمد
والبائس المسكين مستسلم اذل للمكروه من عبد
وما اشتهى ذاك ولكنه فرّ من اللؤم الى الجهد
فرّ الى الحمل على ضعفه من كلحات المكثر الوغد

وما كان بينه وبين ذلك الحمال من صلة حركت فيه ذلك الاشفاق عليه والعجب من صبره الا انه كان يؤثر مقاساة الجهد على مقاساة اللؤم ، ويربح العناء على التكسب بمدح البخلاء ، ويريح نفسه مما يعانيه الشاعر ويفتقر اليه من استجداء النوال وذل السؤال ، وهى صلة لا تتحرك بها العاطفة

الا فى نفس مجبولة على العطف والتأسى باحوال الكبير والصغير والرفيع والوضيع

« وكان هو وصديق له متصلين برجل جليل من حاشية السلطان فكان المتصل به يسرف على صديقه فى الاستخفاف به » فقال ابن الرومى يلوم ذلك الرجل الجليل على استخفافه بصديقه :

أحب ان تشتمنى بوزن ما تشتمه
او توقع الاكرامَ لى وللذى أكرمه
فان ما تفعله بحضرتى يحشمه
. . . .
وانني يظلمنى كل امرىء يظلمه

ولو رجلٌ غيرُ ابن الرومى فى موضعه كان بنفسه حسد أو دخيلة سوء لسره أن يُخص بالحفاوة دون زميله والتمس الزلفى عند ذلك الرجل الجليل بموافقته على مزاحه واستخفافه . لكنه كان فى الواقع كابرأ الناس من حسد وأعظمهم سرورا بعطف صديق، بل كان الصديق مقدما عنده على الحبيب

عرّج على ذكر الصد يق وعدّ عن ذكر الحبيب
كم مكثر لى مخبث ومقل قول لى مُطيب

لان العطف حاجة من حاجات قلبه وضرورة من ضروراته ووقاء له مما كان يرهقه ويشتد على صبره . فكان عطف الصديق يحيى نفسه ويخلقه خلقا جديدا كما قال

خليل اظل اذا زارنى كأنى أنشأ خلقا جديدا
أرانى وان كثر المؤنسو ن ماغاب عنى وحيدا فريدا

فما كان الرجل حاسدا ولا شبيها بالحاسد ، وما كان الا انسانا كسائر الناس يحب الخير لنفسه ولا يكرهه لغيره ، بل ما كان الا ذلك الطفل الكبير الذى كانه فى حدّة طمعه وقلة حيلته وقد فتح عينيه وفغر فاه الى قطعة الحلوى فى يد غيره فبلع ريقه وصاح فى براءة وصراحة لا تعرفها طبائع الحاسدين :

لا تلومن حاسدا . ألم النفـ ـس من البخس يا أخىّ شديد!

وما حيلة المسكين فى شهوة قلبه وفى قلة حيلته وحوله ؟ وكيف الصدوف عن النعمة وما هو بزاهد فيها ولا يجاهل لقدرها ولا بغافل عن لذتها؟ أهو معصوم من الفتنة كما قد حرم نصيبه من النعمة ؟ لا ! بل ان فتنته لأشد وأضرى وانه بالغبن لأحس وأدرى :

يا ليت أهل العقل اذ حُرموا عُصموا من الشهوات والفتن

لكنهم حرموا وما عُصموا فقلوبهم مرضى من الإحن

وهمُ أحس على بليتهم من غيرهم بمرارة الغبن

فبلغ القول فى حسده انه كان شديد الرغبة فى مُتَع الحياة قليل الحيلة فى احتجانها ، فاذا سميت هذا حسدا فقل ان ابن الرومى حاسد وقل ان الطفل الذى يتطلع الى الحلوى فى يد رفيقه الصغير حاسد . وأضف الى الحسد بهذه التسمية معنى جديدا لم يكن من معانى هذا الخلق البغيض الذميم

* * *

ويقال فى حقده ما يقال فى حسده . فقد كان ساخطا ولم يكن

حاقدا ، والبون بعيد بين السخط والحقد . وان التبست اعراض هذين الخلقين على طلاّب الظواهر .

فهما خلقان متباينان وقد يكونان فى بعض الاحيان متناقضين ، فيسخط الانسان بل يدوم سخطه وليس فى قلبه من الحقد أثر ، وقد تكون كثرة سخطه لكثرة استجابته للمؤثرات الجديدة الطارئة التى تتعاقب على حسه ، أى لقلة حقده وقلة اصراره على البغض القديم

والحقد توأم الحسد فى خلة الأثرة الحيوانية والانانية الصماء ، فلهذه الخلة يستكبر الحاقد الاساءة الصغيرة الى نفسه كما يستكثر الحاسد النعمة القليلة على غيره ، والسبب فى الحالتين واحد . وهو أنه لغلوه فى حب نفسه واستغراقه فى الأثرة الحيوانية لا يريد أن يُساء هو ولا أن يُسر غيره ، وليس يعنيه أن يُساء بالحق أو بغير الحق وان يكون عاديا فى هذه الاساءة أو معدوّا عليه . فان ذلك كله من وراء تفكيره وحسابه ، ولا فرق عنده بين أن يظلمه الناس فى الاساءة اليه أو ينصفوه وبين أن يسيئوا اليه بالعدوان عليه أو بصده هو عن العدوان : فمن الحاقدين من يحقد على الناس لانهم أبوا عليه ان يضرهم ليستفيد من ضررهم ووقفوا بينه وبين مصلحته ولو كان وقوفهم هذا من حقهم ولا نقاذ حياتهم !! وهو لا يفكر بالعدل ولا يكره العدوان لانه جور وعسف ولا يعرف من الكراهة الا أن يكره ما يسوءه كائنا ما كان وبالغا ما بلغ فيه العذر والاضطرار ، وهذا غير الشعور الذى يشعر به المرء حين يُعتدى عليه بغير الحق فيسوءه ذلك ثم يتوالى العدوان فيتوالى الاستياء ويطول السخط والامتعاض ، فان من النبل أن يغضب المرء للعدوان وقع به أو وقع بغيره .

فأن لم يرتفع بغض العدوان الى مقام النبل فهو لا يهبط بصاحبه الى مادون منزلة العذر المعقول والطبع المستقيم

من هذا القبيل كان شعور ابن الرومى حين توالت عليه أسباب السخط فتوالى سخطه وغضبه وتواصلت شكواه وضجره، فكل سبب كان يثيره فهو سبب «أخضر» لا مشابهة فيه لأسباب الحقد التى يطول ثواؤها بالضمير حتى تفسد وتتعفن أو تيبس وتتحجر.

وما كان لطبيعة مهتاجة كطبيعة ابن الرومى اية طاقة بضرب من الاحساس غير ذلك الذى نسميه « بالاخضر » لجدته وحرارة نبضه وسرعة أثره وسرعة زواله، وأنى لمثل هذه الطبيعة إصرار الحقد وتدبيره وثباته على مافيه بين تقلب الحوادث وتجدد المسرات والمصائب؟ كل ما تطيقه هذه الطبيعة من الشعور هو ذلك الشعور الذى تحضرها أسبابه وتلح عليها مؤثراته، فاذا كانت الاسباب ماتزال مؤلمة مغضبة فالألم دائم والغضب لازم والناس يقولون حينئذ انه الحقد وانه الضغينة وانه خلق ذميم وطبيعة رديئة، لان الحقد هو الاسم الذى يطلقه العامة على الاستياء اذا دام واتصل وتوالت موارده فتوالى وجوده، ولأنهم ربما بلغوا من بلادة الأنانية وقلة الأحساس بمعنى العدل ان يسيئوا الى المستضعف المخذول ولا يتوقعوا منه الألم والاستياء . . . . ولم لا؟ ألا يسرهم أن يعبثوا به ويتماجنوا عليه؟ فما باله اذن لا يُسر بما به يُسرون ولا يضحك هو كما هم يضحكون؟!

فكل ما كانت تطيقه طبيعة ابن الرومى من الشعور هو ذلك الذى تحضرها أسبابه وتلح عليها مؤثراته، فاذا غابت الأسباب وفترت المؤثرات

نسى شعوره فى لمحة عين وانقلب الى نقيضه، وفى قصته مع الاخفش عبرة لمن شاء أن يعرف ما وراء سخطه من الطيب والغفران والمودة، فقد صمد الاخفش ما صمد من الزمن يعبث به ويثقل عليه فى العبث حتى منعه أن يبرح بيته ويتصرف لمعاشه، فعاتبه ابن الرومى فلم يرعو وانذره فلم يحفل وقال له يتوعده:

لا يأمنن السفيه بادرتى ... فاننى عارضٌ لمن عرضا
عندى له السوطان تلوّم فى السـ ... ـير وعندى اللجام ان ركضا

وما توعّده الا بعد لجاج ومحال وصلح واعتذار، فلما لم ينفعه ذلك هجاه وأقذع فى هجائه كعادة أهل الزمان فى كل هجاء، فعاد اليه يسترضيه ويستعطفه فرضى وعطف، وأسرع فنسى تثقيله ونسى الهجاء وراح يقرظه ويطريه ويبالغ فى تقريظه واطرائه غير تارك لنفسه بقيةً لو ترقديم ولا لوتر مستأنف:

ذُكر الاخفش القديم فقلنا ... ان للاخفش الحديث لفضلا
واذا ما حكمت والروم أهلى ... فى كلام معرب كنت عدلا
انا بين الخصوم فيه غريب ... لا أرى الزور للمحاباة أهلا
ومتى قلت باطلا لم القّب ... فليسوفا ولم اسوّم هرقلا
بدأ النحو ناشئا فغذاه ... احدث الاخفشين فانقاد رسلا

. . . .

ياظماء الى الصواب ردوه ... يسقكم بالصواب علا ونهلا
هو بحر من البحور فرات ... ليس ملحا، وليس حاشاه ضحلا

وأطنب فى ذلك حتى دعاه مقوّمه وخدينه:

قل له يا مقوّمى وسميي ... وكنيي ومن غدا لى شكلا

قد اردت الاطناب فيك فقالت ‌ ‌ لىّ غاياتك البعيدة مهلا
ورأيت اليسير يكفى من الحـ ‌ ‌ لى اذا النصل كان مثلك نصلا

إلا ان الأخفش لم يصفُ هذا الصفاء، ولم يكن الاعابثا فى صلحه كما كان عابثا فى خصامه ، فعاد الى شنشنته معه وعاد ابن الرومى الى سلاحه الذى نبذه حتى حسب صاحبُه انه حطمه ، فقال يذكره

حذار عرامى أو نَظارِ فانما ‌ ‌ يظلكم قطع من الرجز مرسل
ولا تحسبن الصلح أنصل آلتى ‌ ‌ ولا اننى فى هدنة السلم أغفل
ولكننى مستجمع الحلم مغبر ‌ ‌ افوّق نبلى تارة وانصّل
فان هاجت الهيجاء أو عاد عودها ‌ ‌ على بدئها لم يُلق منى أعزل

وليس يغُر الحاقد هذا الغرور ولا الناس يصنعون هـذا بمن يعلمون حقده ويحذرون منه تصميم نيته

وانقلب ابن عمار على ابن الرومى وابنُ الرومى كما عرفتَ من اخباره هو الذى اعانه بما فى وسعه وقرّبه من الرؤساء اصحابه وجعل له سببا الى رزقه ، فجزاه انقلابا بانقلاب ومسبة بمسبة ، ولم يفعل ذلك الا بعد أن تحيّل جهده على عطفه واستلال حقده وحسده فلم يفلح، وكتب اليه يستعيده الى سالف مودته :

أيها الحاسدى على صحبتى العـ ‌ ‌ ـمر وذمى الزمان والاخوانا
حسدا هاجه على ثلب شعرى ‌ ‌ ولقائى معبّسا غضبانا
وانتقاصى مع العدو وقد كا ‌ ‌ ن يرى لى نقائصى رجحانا
ليت شعرى ماذا حسدت عليه ‌ ‌ ايها الظالمى اخائى عيانا
اعلى اننى ظمئت وأضحى ‌ ‌ كلُّ من كان صاديا ريانا
ام على اننى أمشّى حسيرا ‌ ‌ وارى الناس كلهم ركبانا

أم على انى ثكلت شقيقي | وعدمت الثراء والاوطانا
عدْ كريما الى كريم كما كنـ | ـت والا لقيتَ منى هوانا
لا عقابا بما تقول ولكن | بجفاء اردفته هجرانا
وتيقن انى مقيم على العهـ | ـد حياتى ، وخذ بذاك ضمانا
لا أعد الذنوب منك ذنوبا | بل هدايا مقبولة وحنانا

فلم يجُد ذلك فى استعطاف ابن عمار ولم يثنه عن عدائه وثلبه ...ثم تقرأ فى ديوان ابن الرومى فترى فيه قصيدة قالها قبل موته بخمسة أيام أوستة يمدح الجراح على لسان ابن عمار هذا لتيسير منفعة كان يرجوها لديه

ونظن اننا فى غنية على سرد القصص والامثلة على عطف ابن الرومى وغرارته وطيب قلبه ، فقد كان العطف كما اسلفنا حاجة من حاجات طبعه وضرورة من ضرورات حياته ، وآيةُ ذلك بينة فى شعره كله وفى تفجعه على احبابه وشدة فقده لأهله ، وقناعته منهم باليسير من المودة يأخذها حيث وجدها ويأسى عليها حيث لا يجدها ، وهو القائل وقد صدق :

وانى لبرٌّ بالاقارب واصل | على حسد فى بعضهم وعلى بغض

***

ولقد آن أن تنبذ تلك الطريقة العتيقة التى كان بعض الاقدمين يعتمدونها فى نقد الاخلاق وتسمية اسمائها والمقابلة بين المتشابه والمتخالف منها ، فانهم تعودوا أن يأخذوا فيها بالاعراض دون الجواهر وبالظواهر دون المخابر ، وكانوا ينظرون الى السمات البادية ولا ينظرون الى ماوراءها من بواعثها ... فللغضب الدائم والحقد سمة واحدة فهما اذن خلق واحد!

ومتى كان الشاعر كثير الذم والانحاء على الناس فهذه حجة جديدة تضاف الى سمات وجهه، فلا جدال اذن فى حقده ولا شك فى قبح سريرته وجنوحه الى الشر دون الخير والعداوة دون المودة ... فاذا اتفق مع هذا انه شهد على نفسه بالحقد فقد بطل الجدال وحقت عليه الكلمة ونفذ فيه القضاء. الا تراه ناقما مغتما؟ ثم الا تراه هاجيا لا يكف عن الذم والشتيمة؟ ثم الا تراه يقر بذنبه ويصارح الناس بدفين بغضه؟ فماذا بقى بعدُ من اسباب الحكم غير أن يوصم وأن يدان؟!

لا يا قضاة.! بقى من اسباب الحكم كل شيء، ولم يحصل لدينا بعد هذا كله سببٌ واحد يجوز لنا أن نعتمد عليه! بقى البحث فى اسباب نقمته وذمه وشهادته على نفسه، فان هذه هى العناصر التى تتألف منها الاخلاق وليست ملامح الغضب ولا كلمات الشفاه. فاذا نحن عرفناها فذاك، أما اذا ظلت مجهولة فقد جهلنا كل سر ولم نعرف إلا الوان الطلاء.

علام تدل النقمة؟

ثم علام يدل الاعتراف؟

ان الانسان لينقم وهو من اشرف الناس فى نقمته، وأنه ليرضى وهو من أخبث الناس فى رضاه، وان اعتراف المعترف لأحجى ان ينزهه من رذيلة المواربة والنفاق، وهى رذيلة لا تخلو منها طبيعة الحاسد أو طبيعة الحقود

ويلوح لنا أن نقاد الاخلاق على هذا النمط لا يختلفون كثيرا عن قضاة الزمن الغابر الذين كانوا يضربون «المتهم» ليقر بالذنب ثم يأخذونه بشهادته على نفسه .... فغاية الفرق بينهم ان نقادنا لا يضربون ولكنهم

كذلك لا يسألون عن المنقود المسوق اليهم هل هو مضروب أو غير مضروب ؟ ونخالهم يغتبطون بأن يساق اليهم مضروبا معترفا ليغنيهم عن البحث ويعفيهم من مؤنة السؤال والجواب !

وشهادة الانسان على نفسه بالشر كشهادته لها بالخير كلتاهما لاقيمة لها ما لم يكن له مصداق من الطبيعة والواقع . فابن الرومى قد شهد على نفسه بالحقد فقال وهو يتحدث بأخلاقه :

شكرى عتيد وكذاك حقدى	للخير والشر مكان عندى

وقال .

وما الحقد الا توأم الشكر فى الفتى	وبعض السجايا ينتسبن الى بعض
فحيث ترى حقدا على ذى اساءة	فثم ترى شكرا على حسن القرض
اذا الارض أدت ريع ما أنت زارع	من البذر فيها فهى ناهيك من ارض
ولا عيب أن تُجزى القروض بمثلها	بل العيب أن تدّان دينا فلا تقضى

فهذا اعتراف صحيح يتلهف عليه القضاة : قضاة المحكمة العتيقة ، ولكنه بعدُ ليس بالمهم فى البحث عن أخلاق الرجل لأن وراءه ، سرا هو الأهم فى هذا الصدد وهو الحقيق بأن يدار البحث اليه

فيجب أن نعلم أولا لماذا شهد ابن الرومى على نفسه بالحقد هذه الشهادة ، فان الحقود لا يشهد على نفسه بحقده والمطبوع على الصراحة لا يكون مطبوعا على الحقود . وصراحة ابن الرومى هنا تلفت النظر الى أمر شاذ فى هذا « الاعتراف » وتدعونا الى السؤال عن سره ، وسره ليس ببعيد

فالرجل كان يدعى الحقد ليخيف الذين يستوطئون جانبه

ويستسهلون ارضاءه بعد اغضابه ، فما كان يذكر الحقد الا وهو ينذر ويتوعد من طرف خفي أو ظاهر، ويخير الناس بين شكره وحقده ليغنموا شكره ويجتنبوا حقده . فهذه الدعوى عنده كتلك السحنة البغيضة التي ينتحلها بعض الحيوان للاخافة والتهويل حين لا يكون مخيفا ولا هائلا في الحقيقة . وهو محتاج الى دعواه حاجة الحيوان الى سحنته البغيضة في معترك الحياة

وسبب آخرُ لاعترافه بالحقد أنه كان يتفلسف ويدرس الجدل ويتعاطى صناعة البرهان ويحب أن يمتحن قوته في المنطق والفلسفة بتقبيح الحسن وتحسين القبيح حسبما يبدو له من وجهيه ومن تنازع الأقوال فيه ، وتلك سنة كانت معروفة في ذلك العصر يقيسون بها البلاغة ويقيسون بها قوة البرهان . فمدح ابن الرومي الحقد وذمه ولم يقصر بحجة الذم عن حجة المديح ، وهو القائل في ذم الحقد والرد على مادحيه :

يا مادح الحقد محتالا له شُبها	لقد سلكت اليها مسلكا وعثا
لن يقلب العيب زينا من يزينه	حتى يرد كبيراً عاسيا حدثا
قد أبرم الله أسباب الأمور معا	فلن ترى سببا منهن منتكثا
يا دافن الحقد في ضعفي جوانحه	ساء الدفين الذي أمست له جدثا
الحقد داء دويٌّ لا دواء له	يَرِي الصدور اذا ما جمره حرثا
فاستشف منه بصفح أو معاتبة	فانما يُبرىء المصدور ما نفثا
واجعل طلابك بالأوتار ما عظمت	ولا تكن لصغير الأمر مكترثا
والعفو أقرب للتقوى وانْ جرمٌ	من مجرم جرح الألباب أو فرثا(١)

(١) فرث شق وفرث الرجل ضرب كبده وهو حي .

يكفيك فى العفو ان الله قرظه … وحياً الى خير من صلى ومن بُعثا

شهدتَ انك لو أذنبتَ ساءك ان … تلقى أخاك حقودا صدره شرثا(٢)

نعم وسرك أن ينسى الذنوب معاً … وان تصادف منه جانبا دمثا

انى اذا خلط الأقوام صالحهم … بسىء الفعل ، جدا كان أو عبثا

جعلت قلبى كطرق السبك من حسد … يستخلص الفضة البيضاء لا الخبثا

ولست أجعله كالحوض أمزجه … يحفظ ما طاب من ماء وما خبثا

وهو القائل فى هذا المعنى :

يا ضارب المثل المزخرف مطريا … للحقد لم تقدح بزند وار

أصبحت خصم الحق تهدم ما بنى … والحق محتج ، وأنت تمارى

أطريتَ غثك لاسمينك ضلةً … واخترت من خلقيك غير خيار

شبهت نفسك والأولى يولونها … آلاءهم بالأرض والعمّار

ورأيت حفظك ما أتوا من صالح … أو سىء — كرما وعتق نجار

وزعمت فيك طبيعة أرضيةً … يا سابق التقرير بالاقرار

ولقد صدقت وما كذبت فانه … لا يُدفع المعروف بالانكار

لكنَّ هاتيك الطبيعة فى الفتى … مما يلظ عليه بالأستار

ولَصمتُه عن ذكرها أولى به … من عدها فى الفخر يوم فخار

فينا وفيك طبيعة أرضية … تهوى بنا أبدا لشر قرار

هبطت بآدم قبلنا وبزوجه … من جنة الفردوس أفضل دار

فتعوضا الدنيا الدنية كاسمها … من تلكم الجنات والأنهار

بئست لعمر الله تلك طبيعة … حرمت أبانا قرب أكرم جار

واستأسرت ضعفى بنيه بعدها … فهمو لها أسرى بغير أسار

لكنها مأسورة مقسورة … مقهورةُ السلطان فى الأحرار

(١) الشرث من السيوف والاسنة المحدد وشرث الرجل غلظ ظهر كفه

نجسومهم من أجلها تهوى بهم ونفوسهم تسمو سمو النـــار

. . . .

عرفوا لروح الله فيهم فضل ما قد أثرت من صالح الآثار
فتنزهوا وتعظموا وتكرموا عن لؤم طبع الطين والأحجار
نزعوا الى النجر الذى منه أتت أرواحهم ، وسموا عن الأغوار

فابن الرومى القائل هـذا هو ابن الرومى القائل ذاك ... وكأننا بقضاة المحكمة العتيقة يتحفزون للادانة المبرمة ويبحثون بين أيديهم عن المجرم الذى دانوه فلا يجدون هنالك الا متفلسفا يقلب القضية على وجهيها ، أو هرا مستضعفا يزأر لأنه خائف لا لأنه مخيف . . اويعلمون أن الرجل قد يستجمع سمات الغضب الدائم ولهجته ويعترف على نفسه بحقده ولا يكون بعد ذلك على شىء من الحقد كثير ولا قليل

وجميع أخلاق ابن الرومى تنتهى عند البحث فيها الى مثل هذه النهاية ، فهو كما أسلفنا لا يعرف من الأخلاق الا « الأخضر » الذى يجرى فيه الماء لوقته ، أو هو لا يعرف من الأخلاق الا ما يحضره سببه وتختلج فى صدره دواعيه:

أيندم ويتوب عن المعاصى ؟

نعم ! وجبت التوبة والندم . اذ

حتى متى نشترى دنيا بآخرة سفاهةً ، ونبيع الفوق بالدون
معلَّلين بآمال تخادعنـــا وزخرف من غرور العيش موضون

أيلهو ويقصف ؟

نعم ! يلهو ويقصف ويقول لمن يتوب ويندم :

لا تخلط الحب بالتقوى فتعطفنا على المُقاسى عذابَ الهجر والبين

ولم نبع قط دنيانا بآخرة ومثلنا لا يبيع النقد بالدين

أيسكر بعد اقبال المشيب وادبار الشباب ؟

نعم

فأعذر شراب المدامة شارب لتقصير أيام المشيب الاطاول

أو

فالآن حين أجدّ الشيب يطلبنى أبادر الشيب باللذات عجلانا

أم يقلع عن السكر بعد اقبال المشيب وأدبار الشباب ؟

قد يكون ذلك خيرا

فدع شربها اذ أصبح الرأس مشرقا محاذرةً أن يصبح القلب مظلماً

ولا يَرينك السن والله والنهى على الشيب والاسلام واللوم مقدما

أيشح ويحرص على ماله ؟

نعم . فانه

اذا لم يكن عندى سوى ما يكفنى فشحى عليه مثل شحى على عرضى

لأنى متى اتلفته احتجت حاجة تُذيل مصون العرض فى طلب القرض

ايجود ويسرف ؟

نعم . و

لا تحملن هموم أيام على يوم لعلك أن تقصّر عن غده

بل هو يسأل الله أن يقيه الشح ويلهمه الجود :

قنى يا الهى شح نفسى فاننى أرى الجود لى حظا وشيمتىَ البخل

وربما تعاورته الحالتان فى لحظة واحـدة ، فتراه حائر النفس بين الحرص والتوكل لا يطمئن الى هذا حتى يثوب الى ذاك :

وقضاء الاله أحوط للنا ... س من الامهات والآباء
غير أن اليقين أضحى مريضاً ... مرضا باطنا شديد الخفاء
ما وجدتُ امرءا يرى أنه يو ... قن الا وفيه شوبُ امتراء
لو يصح اليقين ما رغب الرا ... غب الا الى مليك السماء
وعسير بلوغ هاتيك جدا ... تلك عليا مراتب الأنبياء

او قد يدركه الحذر أو الاريحية فيحجم عن هجاء السلطان ويعلن سر احجامه كأنه مطالب بهذا الاعلان :

لا اقذع السلطان فى أيامه ... خوفا لسطوته ومر عقابه
واذا الزمان اصابه بصروفه ... حاذرت رجعته ووشك مثابه
وأعد لؤما أن أهم بعضه ... اذ فلّت الايام من أنيابه

ذلك حين يساوره الخوف ويذكر الاريحية . فاما اذا ثارت بلابله واضطرمت لواعجه وملكه الغيظ فاجتاح حزمه وخوفه فهو اهجم هاجم على سلطان حديد ناب أو مفلوله ؟ وهو الجسور فى هجائه على ما يخافه الجسور الذى لا يخاف

فهو ابن ساعته وطوع الحاضر من احساسه ، و« النوبة الطارئة » هى المفتاح الذى يُفض به كل ما استغلق من أسرار نفسه على الجملة ، وما كان فى نفسه من سر مغلق الا وجدته هو معنىً مهوما بالغوص عليه والكشف عنه لقارئى شعره !

معيشته

عاش ابن الرومى حياته كلها فى بغداد ، لا يفارقها قليلا حتى يعود سريعا وقد نازعه اليها شوق وغلبه نحوهـا حنين ، وكانت بغداد يومئذ عاصمة الدنيا غير مدافع : فيها كل محاسن العمار الواسع وعيوبه وكل رفاهة العمار الواسع وشقائه . قصور تبلغ النفقة على بنائها وتأثيثها الوف الالوف ، ومتاجر يؤمها اصحاب القوافل من أقصى المشرق وأقصى المغرب ، ومدارس ومكاتب وحلقات للمذاكرة يجلس فيها الائمة فى كل فرع من فروع العلم والادب ، والى جانب ذلك بيوت فى كل منزه ومرتاد على النهر أو فى الخلاء للهو والمعاقرة والسمر يغنى فيها القيان ويرقص الجوارى ويغشاها العلية والسواد ، ويسكت عنها الخلفاء حيناً فتكثر وتعمر أو يغضبون عليها فيبعدونها الى حيث تغيب عن الانظار ولكنها لا تغيب عن الطلاب والرواد ، ومن وراء ذلك احياء منبوذة يكمن فيها اللصوص والمغتالون يتألبون على نقب الدور وحمل الخزائن واستدراج الموسرين على نحو ما نقرأ عن عصابات الاثم والجريمة فى عواصم هذا الزمان ، فاذا تصفحت اخبار بغداد بما اشتملت عليه من جمال وشناعة وبذخ وفاقة واحتيال على طلب المال والمتعة من كل مطلب وانصراف الى السرور والرغد فى كل وجهة فكأنك تتصفح أخبار الغرائب فى عواصم الدنيا التى تسمى اليوم باريس وبرلين ولندن وشيكاغو ونيويورك

وهذه العواصم كافة لا تطيب فيها اقامةٌ الا بمال، اما بغداد خاصة

فكان ساكنها احوج الى المال من ساكن العواصم الحديثة ، لأنها كانت عرضة للغلاء فى القرن الثالث لاضطراب الأمور فى الجهات التى كانت تميرها وانقطاع الوارد عنها حيناً بعد حين . فاذا وقع فيها الغلاء ندر الخبز وارتفع سعر الدقيق وكان ما وصفه ابن الرومى فى بعض شكاياته

أحسن ما كان الدقيق موقعا   من رجل أفلس حتى أدقعا

. . .   .

واصبح القوم البطان جوعا   وخشى الجائع الا يشبعا

وهى اذا لم تغل لم ترخص ولم يستغن طالب المعيشة فيها عن بعض اليسار كما قال بعض الشعراء :

سقى الله بغداد من جنة   غدت للورى نزهة الانفس

على انها منية الموسر   ين ولكنها حسرة المفلس

وابن الرومى لم يكن طالب معيشة وحسبُ ، ولكنه كان طالب معيشة ومتعة ومسرة ، وكان منهوما فى مطالبه كلها قليل الصبر على غواية المناعم واللذات انّى كانت وحيث أمكن منها الحول والحيلة :

فبادر الدهر بالمناعم واللذ   ات واحذر من وشك مرتحل

فان تعذرن ان يحثنك بالقو   ة فاحتل لطائف الحيل

وكان كثير الالفة لبيوت القيان يعاشرهن ويسمعهن ولا يسمع فيهن لوم لائم :

ولاح فى القيان فقلت مهلا   رُميتَ بنبل أوتار القيان

. . . .

شبيهات الرماح قنامتونٍ   وكما فى القلوب بلا سنان

وهل من حربة أو من سنان   كعين أو كثغر أو بنان ؟

وربما كان الشعر من حيله التى كان يحتال بها على ود القيان وحضور مجالسهن فيثنى عليهن حينا ويهجوهن احيانا وينال بذلك مايناله غيره بالدنانير والدراهم ، ولكنها حيلة تغنيه فى هذا الغرض قليلا ولا تغنيه كثيراً ، ثم هى لا تغنيه عن المال كلما احتاج اليه فى سائر وجوه عيشه ولهوه

فصاحبنا فى مدينة الغلاء قد عاش وعلى غير التقشيف والزهد قد فطر ، فهل كان ميسور الحالة مكفىّ المؤنة ؟ وهل كان الشعر كفيلا له بمال يغنيه فى ضروراته ونوافله ؟ أو هو كان فقيرا محروما لا يصيب من فرص العيش الا ما يُعبه على موائد الامراء أو يحتال له « لطائف الحيل » حيثما اسعفت وافادت ، وقلما تسعف وتفيد ؟

ان قصائد ابن الرومى فى جملتها لا تدع الا أثراً واحداً فى ذهن القارىء من هذه الوجهة ، وهو أنه كان فى ضنك وفاقة كثير الحرمان كثير الشكاية . ولكنها لا تخلو هنا وهناك من ابيات تدل على كفاف أو حظ من اليسر ، وعلى أن بعض ممدوحيه كانوا يحرمونه عطاياهم لذلك اليسر الذى يرونه عليه

اتحرمنى لأنى مستقل	وانى لست كالرزحى السغاب
فما تحمى ذواتُ الدَّر درا	اذا صادفن ملآن الوطاب

ومن ابياته ما يدل على انه كان صاحب ضيعة وصاحب دارين وثراء وتحف موروثة منها قدحٌ زعم انه كان للرشيد وقال فى وصفه وقد اهداه الى على بن يحيى المنجم :

وبديعٍ من البدائع يسبى	كل عقل ويطّبى كل طرف
وُفّىَ الحسنَ والملاحة حتى	ما يوفّيه واصف حق وصف

قدح كان للرشيد اصطفاه   خلفٌ من ذكوره غير خلف
كفم الحب فى الحلاوة بل أحـ   لى، وان كان لايناغى بحرف
صيغ من جوهر مُصفىّ طباعا   لا علاجا بكيمياء مُصفٍ
تنفذ العين فيه حتى تراها   اخطأته من رقة المستشف
كهواء بلا هباء ، مشوب   بضياء . أرقّ بذاك وأصف
وسط القدر لم يكبر لجرع   متوال ، ولم يصغر لرشف

فعلى هـذا يلوح لنـا انه كان ميسّر المعيشة ولو بعض التيسير ، وانه كان فى وقت من اوقاته « مستقلا » ليس « كالرزحى السغاب ، غير أننا لا نعلم بخبر تلك الضيعة الا لنعلم انها مجدبة تطيل عناءه ولا تغل عليـه :

أعانى ضيعة ما زلت منها   بحمـد الله قدما فى عناء

وأنها كانت تصاب بالجراد فيأتى على زرعها فى بعض السنين :

لى زرع أتى عليـه الجراد   عادنى مـذ رزئته العواد
كنت أرجو حصاده فأتاه   قبل أن يبلغ الحصادَ الحصاد

وانه كان يستعفى من دفع خراجها ويكتب الى وهب بن سليمان يشكو اليه ضيقه وسلب الخطوب ما فى يديه :

هب لراجيك ما عليـه فانّ اسـ   ـمك وهب ووسمُك الوهاب
أنت بحر ومن له تُجتبى الأمـ   ـوال بحر لجانبيـه عبـــاب
فارغبـا عن مداد شعبى فليست   فيه الا صبابة ، بل ســراب
وارثيا لامرىء ألحّ عليـــه   للزمان الصئول ظفر وناب
ســلبته الخطوب ما فى يديه   وله من تجمــلٍ أثواب
. . . .
غير أن ليس فى خراجى وحدى   ما بأعلاقه يســوغ الشراب
لك فى مكثرى الرعيـة دونى   حلَبٌ كيف شئت بل أحلاب

كذلك لا نعلم « بثرائه » الا لنعلم أنه أصيب فيه بحريق و

حدوث حوادث منها حريق　　تحيّف ما جمعت من الثراء

وأنه أصبح يستطعم بعد أن كان من المطعمين :

أمن بعد منزلة المطعمين　　أعــدَم منزلة الطاعم

وكذاك لا نعلم بخبر داريه الا لنعلم أنهما غصبتا منه كما زعم أو خرجتا من يده بحق أو بغير حق على أية حال ، فاما كان فى نحو الثلاثين جار على دار له تاجر يعرف بابن أبى كامل — فى رواية زهر الآداب — فاغتصب بعض جدرها وأجبره على بيعها وفزع ابن الرومى الى سليمان بن عبد الله ابن طاهر يستعديه ويذكر تلك الدار أو ذلك « الوطن » :

ولى وطن آليت أن لا أبيعه　　وأن لا أرى غيرى له الدهرَ مالكا
عهدت به شرخ الشباب ونعمة　　كنعمة قوم أصبحوا فى ظلالكا
وحبب أوطانَ الرجال اليهم　　مآرب قضاها الشبـاب هنالكا
اذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهم　　عهود الصبا فيهـا فحنوا لذلكا
فقــد ألفته النفس حتى كأنه　　لها جســد ان بان غودر هالكا
. . . .　　. . . . .
وقد ضامنى فيــه لئيم وعزّنى　　وها أنا منــه معصم بحبالكا
وأحدث احداثا أضرت بمنزلى　　يريغ الى بيعيــه منى المالكا
وراغمنى فيما أتى من ظلامتى　　وقال لى أجهد فى جهد احتيالكا
فما هو الا نظمك الشعر سادرا　　وما الشعر الا ضلة من ضلالكا
مقالة وغد مثــله قال مثلها　　وما زال قوالا خلاف مقالكا
صدوفا عن الخيرات لا يروم العلا　　ولا يحتــذى فى صالح بمثالكا
من القوم لا يرعون حقا لشاعر　　ولا تقتــدى أفعالهم بفعالكا
يعيرنى سؤل الملوك ولم يكن　　بعار على الأحرار مثل سؤالكا

مدلا بمـال لم يصبـــه بحـلة وحق جـلال الله ثم جلالكا
وحسبى عن اثم الأليـة زاجر بما امتلأت عينى به من جمالكا
وانى وان أضحى مدلا بمـــاله لآمل أن ألفى مدلا بمالكا
فان اخطأتنى من يمنيـك نعمـة فلا تخطئنـــه نقمة من شمالكا

فلم يصغ اليه سليمان بن عبد الله .

وهذه هى قضية الدار الأولى التى غُصبت وسليمان وال على بغداد وابن الرومى يومئذ فى نحو الثلاثين . وهى قضية كما ترى مفصلة لم يسقط منها حرف مما قيل بين الخصمين المتنازعين . ! تقرأ الابيات حتى تنتهى منها فلا يسعك الا أن تنسى الدار وتنسى يسر ابن الرومى وعسره التفاتا الى هذا الاستقصاء الدقيق فى سرد وقائع المشكلة والمشاجرة التى نشبت بين صاحب الدار والتاجر الباغى عليه فى زعمه ، فما من كلمة قيلت فى تلك المشاجرة او تقال فى امثالها الى اليوم الا جاء بهـا ابن الرومى وابرأ بها ذمته كما يبرئ الذمةَ حالف اليمين الغموس : يجور التاجر على دار الشاعر فينقض جدارها ويتلفها ليجبره على بيعها ، فيقوم الشاعر ويقعد ويرغى ويزبد وينذر خصمه الويل والثبور وعظائم الامور ، فيهزأ التاجر المعتز بثروته الساخر بكل شىء غير ذهبه وفضته ويقول له : وماذا عساك أن تفعل؟ قصاراك أن تنظم قصيدة ! ... فاذهب وانظم ما بدالك ودع الشعر ينفعك ! فما هو الا ضـلة من ضلالك وبلاء لك يضرُّ بك ولا يجدى عليك ، فيغضب الشاعر لشعره ويذكر الادب والعلم والملوك والامراء ، فيستخف التاجر بفخره ويقول له : وما انت من ذاك كله .... ما أنت الا متسول مسترفد تمد يديك الى مال غيرك ! ! فيرتد عليه الشاعر

مزريا بمال لم يجمع الا من السرقة والخداع والسحت والحرام ، ويذهب يشكو ويستعدى ويرجو ويستجدى، وهكذا تدور الملاحاة والمنابزة فى القصيدة وتُسجَّل القضية كلها فى الشعر على نمط لايخرم حرفا ولا يزيد فيها ولا ينقص . كأن الشاعر مشغول بالرواية عن الدار والمنازعة عليها ! ! ومن الطبيعى ان يحدث جميع ما حدث ولكن ليس من الطبيعى أن يثبت الشاعر جميع ماحدث فى قصيدة . اذ لافرق بين اقدر الشعراء واضعفهم الا ان أقدر الشعراء يجىء فى شعره «بالطبيعى» البسيط واضعفهم يهمل « الطبيعى » البسيط وينقص منه أو يزيد عليه

وللدار الثانية قضية نعرف تفصيلها كما عرفنا تفصيل هذه القضية، فقد نازعته فيها امرأة ونزعتها منه عنوة فكتب الى الوزير عبيد الله بن سليمان يعرض عليه القضية ويستغيث :

تهضّمنى أنثى وتغصب جهرةً ... عقارى ، وفى هاتيك اعجب معجب
لقد اذكرتنى لامرىء القيس قولة ... « فانك لم يغلبك مثل مغلب »

وكانت آخر قصيدة قالها – كما جاء فى الديوان – لامية يقول فيها :

اقول اذ غصبتنى كف جارية ... الله اكبر من ود ومن هبل[1]
ان الغوانى بما امّلن من أمل ... فما يبالين ما لاقين من اجل
متى غلبن رجال الجد فى زمن ... كما غلبن رجال اللهو والغزل
وان أعجب شىء انت مبصره ... فى كل ما حملته الارض من ثقل
كف خضيب من الحناء غاصبة ... كفا خضيبا من الايطال والعضل
ياحسرتا لى ! ويا لهفا ! ويا عجبا ... ان هذه الحال لم تنكر ولم تزل
فى دولتى انا مغصوب وفى زمنى ... عودى ظمىء بلا رى ولا بلل

---

(١) ربان من أرباب العرب فى الجاهلية

يريد دولة بنى وهب انصاره وممدوحيه

ومن الواضح أن هـذه الدار أخذت منه قبيل موته بزمن قليل ، لأنه يطلب رجعها فى أواخر شعره ويقول انه لم يكن يومئذ « من رجال اللهو والغزل » . وقد يُحتمل ان هذا الشعر كله قيل فى دار واحدة لا فى دارين وأنه تشبث بتلك الدار بعد ما أحدث فيها التاجر الأحداث ورام أن يضطره الى بيعها فلم يبعها وظل مالكا لها حتى ضاعت منه فى أخريات عمره ، وهو احتمال يرد على الخاطر ولكننا نستبعده لان زهر الآداب صريح فى أن التاجر « أجبره » على بيع داره ولان ابن الرومى لا ينسى أن يذكر الصبا وطول العهد بسكنى الدار لو كانت هى الدار الأولى التى ملكها وعاش فيها من صباه الى هرمه

وثَمّ قصة أخرى « لدار » كان ابن الرومى يسكنها ويخاطب فى شأنها والى الشرطة احمد بن محمد الواثق الذى بقيت له الولاية الى ما بعد موت ابن الرومى ببضع سنوات ، فمن تلك الدار يقول :

بينما النفس ويها بك ترجو	ملك دار معمورة مأهولة
وتراعى آمالها منك انجا	زمواعيد للمنى ممطولة
اذ اتانى الرسول منك بأمر	يشبه الموت نفسه أو رسوله
وهو ازعاجها باعنف عنف	عن محل قد استطابت حلوله
انا أن لم تذد بيمناك عنى	غير شك فريسة مأكولة

ونظن أن البيتين الآتيين مما قاله فى هذه الدار بعينها

ياويح من أصبح فى غمة	ليس له من كربها مخرج
فروحه تزعج عن جسمه	وجسمه عن بيته يزعج

وقد تكون هذه الدار هى التى نزعتها منه المرأة ، وقد تكون دارا مأجورة وهو الأرجح عندنا ، لأن الشاعر لا يقول فى مزاياها الا أنها « محل قد استطاب حاوله » و « منزل احب نزوله » وأنها مكان :

فيه عافانى َ الاله من الشكـ ـو وفك الاله عنى كبوله
بعد جهد حملت منه ضروبا ليس أثقالهن بالمحمولة

وهو كلام أشبه بأن يقال فى مكان جُرّب بعد تجربة غيره ، وكان فيه معنًى للاستطابة والاختيار ، وله على غيره من الأماكن المأجورة مزية الموافقة والاستحسان . ويزيد فى ترجيح ذلك أن الشاعر يقول انه كان يرجو « ملك » دار معمورة مأهولة فما كفاه أن تفوته الدار المملوكة حتى أزعجوه عن مسكنه . . . . وذلك بما تقدم أشبه

وأيا كان الخلاف فيما سبق فالأمر الذى لا خلاف فيه أنه مات فى دار مأجورة . فان الناجم يقول حين قص علينا قصته فى مرض وفاته انه انتقل من الكرخ الى باب البصرة فسكن فى دار ابن قلابة ولم يسكن فى دار ابن المعافى كما أشار عليه بعض أصدقائه . وهو يصف حاله قُبيل ذلك فيقول من قصيدته البائية الى القاسم بن عبيد الله حين عزم على الشخوص الى « آمد » مع الخليفة المعتضد :

ثوبىَ الرث والثياب طراء وطعامىَ برغمىَ المجشوب
ومحلى عاريّة وجـدارا ت بيوتى فكلها منقوب
ومقيلى فى الصيف سخن بلا خيـ ـش ، فعظمى يكاد منه يذوب

فالذى يُفهم من هذه الأخبار حين يُجمع بعضها الى بعض انه ورث

دارا من أبيه هى التى يقول أنه قضى فيها أيام صباه ، فلا تكون على هذا الا إرثاً نشأ فيه قبل أن يدرك السن التى يُكسب فيها ثمن الدور ، وورث تحفا تُقتنى كتلك الكأس التى زعم أنها كانت للرشيد ، وقد تكون الضيعة بعض إرثه من أبيه وقد تكون مما اقتناه فى بعض حالات وفره ، ولكنه كان يحتاج الى الدين فيعرّض عقاره للضياع وتقوم عليه الحجة فلا يقدر الولاة على دفع خصومه وقبول دعواه ، وشكاياته من الديون كثيرة تؤيد هذا التفسير . فمنها :

يا من يحمّلنى دينى رجائيه على دين ثقيل أنت قاضيه
ووكلتنى الى بحر سواقيه وقد حمانىَ اخوانى مواردهم

ومنها :

أقول لما رأيت عرسى تسترزق الله باليدين
سيجعل الله بعد عسر يسرا بجدوى أبى الحسين
. . . .
من حسن حال ورفه بال ورفع قدر وحط دين

ومنها :

وارتكاب الديون اياى فى ظلـ ـلك يهجوك باللسان الفصيح

فى هذه الديون ضاع عقاره واستبدّ به دائنوه .

ومثل ابن الرومى لا يُستغرب منه ان يسرف ويستدين وانما يستغرب منه ان يقصد فى نفقته ويعتدل فى تصرفه ، فهو إما مضياع متلاف واما شحيح مقتّر حسبما تعاوره من المغريات بالانفاق وهواجس الخوف من الفاقة ، وقد كان هو مضياعا متلافا وشحيحا مقترا فى نوبات

نوبات لا يُدرى لها سبب ولا يضبط لها ضابط ، فكان مضياعا متلافا على الكره منه وشحيحا مقترا على الكره منه كذلك ، وكثيرا ما انحى على نفسه باللوم لحرصه وضعف ايمانه وشكاها الى الله كانما يغالبه على الحرص مغالب شديد المراس كما قال :

الى الله اشكو شح نفسى لاننى ... أرى الجود لى حظًا وشيمتيَ البخل
وقد كان حق الجود بذل ذخائرى ... الى ان يرانى الله يُعوزنى الأكل
ولكنّ نفسى آثرت نبل مالها ... وما حيث نبل المال ما يوجد النبل

او كما قال :

وفيم اجتهاديَ في محاولة الغنى ... وما للغنى عند الجواد به قدر

وحينا يثقل عليه الصراع بين حرصه وسرفه ويخلد الى العجز عن المغالبة فيلتمس المعاذير لنفسه ويجعل الشح من المكارم المحمودة لانه يصونه عن الحاجة ويعصمه من السؤال والاقتراض :

اذا لم يكن عندى سوى ما يكفنى ... فشحى عليه مثل شحى على عرضى
لانى متى اتلفته احتجت حاجة ... تذيل مصون العرض فى طلب القرض

فهو لايزال أبدا شديد الزهد شديد الرغبة :

«واصبح» فى الاثراء أزهد زاهد ... وان «كان» فى الاثراء أرغب راغب

فلا جرم يضطرب فى عيشه ويخرج عن القصد فى حالتى شحه وسرفه، ويظل مدخرا لاينتفع بما ادخر او مبددا لا يبقى من ماله ولا يذر

***

على انه لو بقى له كل ما ورث من أبيه وكل ما علمنا أنه ملكه لما

اغنانا ذلك عن البحث فى مورد رزقه وسبب اتصال عيشه . اذ كان البيت الذى يسكنه مالكه لا يحسب من موارد الكسب ، والضيعةُ التى « ما زال منها فى عناء » لا تبلغ أن تدر عليه رزقا يكفيه، ومن اخباره ما يقطع بعثور جده وبؤسه الغالب عليه معظم حياته ، فلولا هذا البؤس لما لزمه ميسم النحس ولا عيروه الخيبة والخصاصة ، ولولا عسره وافتقاره لما وقع بينه وبين البحترى ما وقع . اذ هجاه « فأهدى اليه تخت متاع وكيس دراهم وكتب اليه ليريه أن الهدية ليست تقية منه ولكن رقة عليه ، وانه لم يحمله على ما فعل الا الفقر والحسد المفرط » ! ! فاذا خطر لنا أن مطالبه الكثيرة لا تدل على حقيقة فقره وانها عادة جرى عليها كما جرى الشعراء فى عصره فاشتهاره بالنحس والتخلف وردُّ البحترى عليه دليل على عسر حقيقى ما فيه ريب ، أو دليل على حاجة دائمة الى المدائح والصلات يعوّل عليها فى ضرورات معاشه فضلا عن نوافل لهوه

فسؤالنا الذى ينبغى أن نسأله فى هذا المعرض هو : ماذا كان نصيبه من المدائح وكيف كانت حظوته عند ممدوحيه ؟ والجواب الذى لا تردد فيه انه لم يكن نصيبا جزيلا ولا حظوة مغبوطة . اذ هو لم يتصل بالخلفاء ولم يأخذ جوائزهم الكبيرة التى تغنى الشاعر عن السؤال زمنا أو تغنيه عنه بقية حياته ، وانما كانت مدائحه كلها للولاة والوزراء والقواد والكتاب ومن يضارعهم ويقل عنهم فى الرتبة والثروة . فلم يمدح خليفةقط الا لعلاقة بين هذا الخليفة وبين رئيس أو نديم من الذين يعرفهم وينتمى اليهم ، فمدح المستعين وهجا المعتزحين تنازعا الخلافة

بينهما لأن محمد بن عبد الله بن طاهر كان من حزب المستمين وكان مقيما في بغداد وابن الرومى يمدحه ويقيم معه فى المدينة ، ومدح المعتمد لأن بنانا المغنى اقترح عليه مدحه — وهو يكتب لبنان — فاجابه الى ما اقترح وذكر اسمه فى ختام القصيدة :

فلا يزل فى نعيم عيش مزاجه الخفض والليان
حتى يرى فيه كلّ سؤل ومنية عنده بنان

ومدح المعتضد بالمقاطيع الكثيرة لأنه كان صديق آل وهب وكالئهم من لدن تولى العهد الى أن بويع الخلافة

وقس على ذلك سائر مدائحه للخلفاء وولاة العهود وما هى بالكثيرة فى عددها ولا هى بالكثيرة فى عدد أبياتها . فقد كان لا يُعنى بتطويلها كما كان يطوّل مدائح الولاة والوزراء لأنها مدائح لم تُقصد لذاتها ولم ينظمها الا مرضاة لأصحابه وتلبيةً لاقتراح المقترحين عليه ، وكأنهم كانوا يطمعونه بذلك فى تقريبه من الخلفاء وإزلافه لعطاياهم ، ولكنهم لا يفعلون . فظل محجوبا عن الخلفاء لا يستدعونه ولا يسألون عن شعره حتى مات وجاء المستكفى يسأل عما قاله فى الطعام والشراب !

ونعود الى الوزراء والرؤساء لنبحث عن نصاب الجائزة عندهم وغاية ما يصلون به الشاعر اذا رضوا عنه وبالغوا فى عطائه . وليس يطول بنا البحث فى هذا لأنه واضح من الحديث الذى جرى بين البحترى وابن الرومى حيث يقول البحترى : «اقرأنى أبو عيسى بن صاعد قصيدة لك فى أبيه وسألنى عن الثواب عنها فقلت : أعطوه لكل بيت ديناراً » فكأن هذا غاية ما يرتقى اليه الموصى بجائزة وغاية ما كان ينتظره

ابن الرومى من شفاعة متشفع يتودد اليه ، وابن الرومى نفسه قد عيّن نصاب هـذه الجوائز تعيينا فى بيت يخاطب به على بن يحيى المنجم يقول فيه :

وما المائة الصفراء منك بـبدعة ولا من أخيك الأريحىّ أبى الصقر

يعنى مائة دينار . فهى اذن غاية الغايات من جوائز الأمراء ، ولا بد أن يحسب فى هذا التقدير حساب مبالغتين مفروضتين فى هذا المقام هما مبالغـة الطمع ومبالغة الثناء ، بل حساب مبالغة أخرى صريحة فى البيت وهى ان الانعام بمائة دينار كان أقصى ما تسمو اليه الاريحية وكان بدعة فى ذلك العصر من غير هـذين الممدوحين . فمن الرؤساء — على هذا — من كان يجيز الشاعر إن أجازه بعشرين دينارا وعشرة دنانير وما فوق ذلك وما دونه ، وكانت هـذه هى السنة الشائعة والنصاب الذى جرى عليه العرف بين معظم الرؤساء ومعظم الشعراء

وأنت تقلّب ديوان ابن الرومى فتقرأ فيه عشر قصائد فى الشكوى والتذكير والاستبطاء والالحاح والانذار والهجاء الى جانب قصيدة واحدة فى المدح الخالص من العتاب والاستنجاز ، فلنقدر أنه نجح فى مائة قصيدة وأخـذ عليها مائة جائزة فمحصّل ذلك كله لا يزيد على ألفى دينار مع التسهل فى عدد الجوائز ومقـدار الدنانير ، وألفا دينار يتلقفها الشاعر فى نحو أربعين سنة ليست بالرزق الرخىّ ولا بالوقاء من العوز والدين فى مدينة الغلاء وعصر البذخ والاسراف ، ودع عنك أنها تجىء متقطعـة ممنونة لا يعرف لها موعد ولا توافق أوقات الطلب والحاجة .

ذلك نصاب الجوائز عند الرؤساء والوزراء اذا رضوا وسمحوا بالعطاء ، فأما الحظوة عندهم فلم تكن من قسمة ابن الرومى فى أكثر الأوقات وإن أكثر وإن أجاد وإن أفرط فى التزلف والاسترضاء . فما أكثر ما كانوا يتجنون عليه ويستخفون به ويتمحلون العلل الواهية لحرمانه وجفائه والقدح فى شعره ! فهذا اسمعيل بن بلبل مدحه بقصيدة معدودة فى شعر المدح العربى من أقدم أزمانه الى أحدثها فتجهم له وضن عليه ، ولأى ذنب ؟ لأنه قال فيها :

قالوا أبوا الصقر من شيبان قلت لهم ... كلا لعمرى ولكن منه شيبان

وأى شىء فى ذلك ؟ فيه كما زعم أنه هجاه وأنكر عليه ما ادعاه من نسبه . ! فقيل له هذا من أحسن المديح ، فاسمع ما بعده :

وكم أب قد علا بابن ذرى شرف ... كما علا برسـول الله عدنان

فتجنى وتعلل وقال : أنا بشيبان ليس شيبان بى . فقيل له أنه لم يبخس شيبان وقد قال فيها :

ولم أقصر بشيبان التى بلغت ... بها المبالغَ اعراق واغصان

لله شيبان قوم لا يشيبهم ... روع اذا الروع شابت منه ولدان

فأصر على التجنى والتعلل وأقسم لا أثابه ، ورجع الشاعر مغضوبا عليه فوق حرمانه وطرده ... وقد كان رجاؤه بما جوّد وأطال انه يُرضى عنه ويثاب . ولم يكفه هذا حتى جنى على نفسه انحراف الوزراء الآخرين عنه لأنهم لم يمدحوا بتلك القصيدة ، فراح منهم من يقول انها دار البطيخ !

ومدح محمد بن عبد الله بن طاهر مرة فانقلب ناقدا منافسا للشاعر وهجا شعره ولم يجزه بشىء :

مدحت ابا العباس اطلب رفده فخيبنى من رفده وهجا شعرى
فهبنى قد أعفيته من مثوبتى ايغضى له شعرى على مضض الوتر ؟

ومن اهمالهم اياه أنه كتب قصيدة عتاب الى ابى سهل النوبختى فنظر اليها والرياح تلعب بها فى جانب الدار وقد خُطط فى ظهرها بالمداد. ! فثارت ثائرته واقبل يعاتب لاهمال العتاب بعد أن كان يعاتب لاهمال الثواب:

رقعة من معاتب لك ظلت ولها فى ذراك مثوى مهان

. . . .

سطر العابثون فيها اساطير عفت متنها فما يستبان
خط ولدانكم افانين فيها او رجال كأنهم ولدان

. . . .

وقبيح يجوز كل قبيح رقعة من معاتب لا تصان

ويتماجنون فيقولون اذا مدحهم انه ينظم الشعر كأنه نائم . . . فيرى المسكين فرضا لزاما أن يسلم لهم العيب الذى عابوه وأن يستخرج منه معنى جديدا من معانى الثناء على ذلك الممدوح الذى تماجن عليه:

مدحتك مدح المستنيم الى امرىء كريم فقلت الشعر وسنان هاجعا

ولا ترى له شعرا فى أحد من الذين انقطع لهم وأكثر من قصدهم إلا رأيته يشكو فى خطابه له أنه يظلمه حقه ويخصه بالحرمان دون أمثاله ومن هم أقل منه . فهو يقول لبنى وهب:

فاز الورى من ريحكم بسحائب هطلت ، وفزتُ بسافيات تراب

ولبنى طاهر:

أرى الشعراء حظوا عندكم سواء عييهم واللسن
سواى ! فانى أرانى امرءا هزلت ، وكلهم قد سمن

ولبنى هاشم :

بنى هاشم مالى أراكم كأنكم تجورون أحيانا وأنتم أولو عدل
كما لو هجاكم شاعر حل قتله كذلك فأوفوا مادحا دية القتل

ولاسماعيل بن بلبل :

أبا الصقر لست أرى مهديا لك المدح — غيرى — الا مثابا

ولعل قربه منهم وحسبانه عليهم هو الذى أنزر نصيبه من جوائزهم وحفاوتهم، لأنهم كانوا يحسبون عليه حضور مجالسهم وموائدهم وإسهامه أحيانا فيما يسهم فيه الجلساء والندمان من ألطافهم وهداياهم ، ويوجبون عليه بذلك أن يظل لهم وحدهم شاعرهم وأديب بيتهم يطرفهم بالملح الادبية ويواليهم بالتهنئة فى مناسبات التهنئة والثناء فى معارض الثناء ثم لا ينتظر منهم الخلع والصلات على كل قصيدة ولا فى كل موسم كما ينتظرها الشاعر الطارىء الذى يلقى قصيدته ويذهب لطيته . وهم فوق هذا يمنون عليه أنْ قبلوه فى مجالسهم وأحضروه موائدهم ويفرضون عليه وفاء العبد للسيد والصنيعة لولى النعمة ، ويظنون أنهم كفلوه بالعيش الرغيد والظل الظليل :

اذا امتاحهم أكلة عبد وه تعبيد رب لمربوبه
يخالون أنهم بلغو ه بالقوت أفضل مطلوبه
وانهمُ حرسوا نفسه به من غوائل مرهوبه
يذيل مضيفهم ضيفه كملبوسه أو كمركوبه

والاغلب عندنا انهم كانو يقبلونه فى مجالسهم ويحضرونه موائدهم غراما بضروب الشذوذ والشهرة وكلفا بالطرائف والملح كما هو دأب اصحاب المجالس فى كل أمة ، فكانوا يأنسون به فى بعض حالاتهم

ويقربونه لغرابة أطواره ووفرة محفوظه من الاشعار والنوادر والامثال وسرعة ارتجاله للتشبيه والمحاكاة ، فكأنهم اصطنعوه للأغراب لا للمودة وتخيروه للمظهر لا للثقة والكرامة، ولهذا كانوا يحضرونه مجالس الاحتشام وينحونه عن خلوات الحفاوة والتبسط ، وكان يعلم بهذا فيسوءه فوق مساءته بالحرمان ويُعْجله الغيظ الذى لا يقوى على كظمه أن يسكت عن العتاب فى مثل هذا الأمر ، فيعتب كلما حُجب كما قال فى مرة من هذه المرات للقاسم :

يابن الوزير لعاتب متعتب	فى جلنار وأختها دبسيه
دبسيه الكبرى لغيرى تُحجب	احضرتمونى جلنار وأُحضرت

وكان يحار فى هذا الحجب ولا يدرى ما علته ولا ما النقص الذى استوجبه ، ويسائل الاميرعن نفسه :

ام ترى النكراء شابت فطنهْ	هل ترى الغفلة شابت حلمه
ام ترى الغى يؤاخى لسنه	هل ترى العى يؤاخى صمته
عند حق ، أم تراه يقنه	هل ترى الشك عليه غالبا
ام رأى منك جميلا دفنه	هل رأى منك قبيحا بثه
ام اماناتٌ غدت محتجنة	هل لديه لك سر ذائع

لكنّ حيرةَ ابن الرومى هذه قد ترشدنا الى اسباب حجبه لانها ترشدنا الى بضاعته التى اعدها للمنادمة وحسبَ انه مستحقٌ بها التقريب والمصاحبة ، وهى ادوات العلم والبحث والشك فى موضع الشك واليقين فى موضع اليقين ! وماهى بالزم مايلزم النديم فى مجالس الخلوة فضلا عن مجالس الاحتشام ، فقد يستغنى النديم عنها كلها

بالقدرة على المصانعة ومسايرة الاهواء ، فى حين ان العلم لا يغنيه عن تلك القدرة ولا يسد مسدها فى مجالس الاحتشام ولا مجالس الاباحة

بقى حفظ السر وما نظن دعواه فيه مطابقة للحقيقة أو لرأى جلسائه المحتجزين عنه فى خلوات الاباحة : لأن من كان مثله مطبوعا على « الاعتراف » بعيوبه لاتخاله يمسك لسانه ويحفظ سراً رآه ساعة لهوه ، فاذا حجبه الامراء عن مجالس الخلوة فلأنه لا ينفعهم فى تلك المجالس ولا يؤمن عندهم على اسرارها وما يقع فيها من فلتات اللسان وبوادر رفع الكلفة وارسال النفس على السجية

لكنهم كانوا يحجبونه أيضاً عن المجالس العامة ولا يقتصرون على حجبه عن المجالس الخاصة ، وكانوا يقطعون ما بينه وبينهم حتى تضيق به الدنيا ويتنمر له كل من ينتمى اليه او ينتمى اليهم :

تعرفت فى اهلى وصحبى وخادمى هوانى عليهم مذ جفانىَ قاسم

فيعود يسأل الاذن فى المقابلة ويكتفى به عن سائر المطالب :

بل انت مغنىً من جميع حوائجى الا لقاءك فى السواد الاعظم
لا أبتغى ما كنت اسأل مرةً حسبى بوجهك ، فهو أفضل مغنم

قال هذا وقدحجبه القاسم عن لقائه وامر الخدم برده ، وكان القاسم وامثاله يمنعونه بعض المنع وفى نفوسهم بعض الرعاية له وبعض الرضى عنه ، فأما اذا غضبوا عليه وصرحوا له بالجفاء فقد كانوا ينبذونه ويوصدون دونه كل باب ويُخلون بينه وبين الحجاب يدّعونه ويتصلفون عليه ، والحجابُ لا يُعوزهم التصلف على مستأذن يأمنون العواقب فيه ويأنسون من سادتهم الرضى بايذائه ، فان الحاجب منافسٌ لكل جليس

ينزل من سيده منزلة الخليل والسمير وهو قائم على الباب مقام الخادم، وهو يود أن يدل عليه بقدرته على الرد والاذن والاقصاء والتقريب والتمييز فى الحفاوة والتعظيم، فكان ابن الرومى فى فترات الاقصاء والاعراض يقاسى شديدا من غلظة الحجاب ويسرع كدأبه الى شرح ما يلقاه منهم على أبواب الرؤساء المعرضين عنه، وهو شبيه بما يلقاه كل طارق مهيض الجانب من كل حاجب غاضب أو متغاضب:

وكم حاجب غضبان كاسر حاجب ... محا الله ما فيه من الكسر بالكسر
عبوس، اذا حييته بتحية ... فيالك من كبر! ومن منطق نزر!
يظل كأن الله يرفع قدره ... بما حط من قدرى وصغّر من أمرى
اذا ما رآنى عاد أعمى بلا عمى ... وصُمّ سميعا ما بأذنيه من وقر

ولقد كان يحمد الله احيانا انه نجا من تعجرف الحجاب عليه بغير أذى فى جسده:

عم الاذين باذنه وتخلفت ... حالى، فلم أُذكر ولم أتوهم
لكن نبذت مع اللفيف بمسمع ... وبمنظر للشامتين ومعلم
بل ما اصابتنى هناك شماتة ... لكن غُبطت لاننى لم أُلطم!!

فلم يكن رزق الرجل اذن متصلا من الجوائز ولا من الطاف المجالس، ولم تكن حاجته الى ضرورات العيش بالحاجة المصطنعة التى لا تنم عن فاقة حقيقية فى معظم ايام حياته. فسؤاله الدقيق والطعام والملبس سؤال محتاج الى ما يطلب معتمد على ما يجمع من النوال، ولنا أن نشك فى حاجته الى الشىء حين يطلبه ويلح فى طلبه، ولكنْ ليس لنا أن نشك فى حاجته عاجلا أو آجلا الى ذلك الشىء من طريق السؤال كما كان يصنع عامة الشعراء فى الأزمان الماضية؛ ولا سيما فى ذلك الزمان الذى

اضطربت شؤنه وقل ضمانه وتلاحقت طوارئه ، فمن مسائل ابن الرومى ما يصعب الشك فى صدقه كقوله يستعطف وهو يكاد ييأس :

ان لله غير مرعاك مرعى يرتعيه وغير مائك ماء
وتيقن متى جنيت على عبد ك ضيا وضيعة وعناء
ان لله بالبرية لطفا سبق الامهات والآباء
. . . .
لى خمسون صاحبا لو سألت الـ قوت فيهم الفيتهم سمحاء
اترى كل صاحب لىَ منهم يمنع الشهر بلغتى إجراء
لىَ فى درهمين فى كل شهر من فثام ما يطرد الحوجاء

وكثيرا ما ألم لهـذه الحاجة الدائمة وتوسل الى الرؤساء ان يجربوه فى ولاية او جباية او يتخذوه لعمل فى الديوان يريحه من ذل السؤال وعذاب القلق والانتظار، فكانوا يضنون عليه بماسأل ويأبون ان ينقذوه من سوء تلك الحال ، ولزم آلَ وهب ما لزمهم وهو يترقب ايام دولتهم ويترجى الخير الجزيل على ايديهم ، فلما صارت اليهم الوزارة لم يصنعوا شيئا وزادوا انهم قطعوه بعد صلة ومنعوه ما كان يناله قبل الوزارة ! وكثر زوارهم وقصادهم فتأخر مقامه بينهم وربما رأوه حينا وهو مقدم على سواه

انا من عراك وباب دارك موحش من كل مؤتنف على مقدم

وكان اسمح الرؤساء معه من كان يلهيه عن العمل فى الديوان بوظيفة صغيرة يشاهرها عليه ولا يثبتها فى سجل الارزاق المرصودة المضمونة بعض الضمان ، ومن شأن هذه النوافل ان تحتاج ابدا الى التذكير والتنبيه

فما لابد ان يجر اليه التذكير والتنبيه من السأم والجفاء، فاذا حصل ذلك — ولا بد من حصوله — خسر الوظيفة وصاحب الوظيفة وباء الى شر مما كان

والعمل الوحيد الذى ذكر فى ديوانه هو عمله فى الكتابة عند آل بنان المغنى الذى كان ينادم الخليفة المعتمد ويغنيه ويسأل ابن الرومى ان يمدح الخليفة بلسانه، وكأنه لبث فى هذا العمل عشر سنين على ما يجوز ان يؤخذ من قوله

والغناء الشديد شدوا وضربا سحنة قد ملأت منه الأناء
ظلت عشرا كواملا فى مغانيه أغنىّ واسمع الانحاء

ولن يكون ذلك العمل الا ضئيل الأجر مغبونه كما يُظن بأجر يتناوله كاتب مغن، وكما يدل بيتاه المشهوران فى بنان :

تعالى جد دينارى بنان فحلا حيث حل الفرقدان
ولو أن النفوس بحيث حلا غدون من الحوداث فى امان

فان قلنا ان « الدينارين » هنا للتطفيف لا للحصر فأقصى ما ترتقى اليه الديناران ان يكونا عشرة ! وعشرة دنانير ليست بالرزق الطيب فى عصر كعصر المعتمد بمدينة بغداد

فمعيشة الرجل فى جميع ادوارها كانت معيشة عارف بالحياة متذوق لها وهو مع المعرفة والتذوّق ملدّد محروم طويل الهم بأمر الرزق مشتت الفكر بين القلق والخيبة والمطل والحرمان، وهى معيشة مزعجة مكربة تهد القوى وتنهك الفكر والجسد ولا تكون الا وخيمة الأثر فى نفس رجل مثله كثير المخاوف عليل الاعصاب

لماذا فشل

فشل لأنه كان قليل الحيلة صفراً من الدهاء ، ذلك أوجز ما يقال فى أسباب فشله ، فما من عمل كان يحتاج الى حيلة الا كان ابن الرومى فيه مخفقاً أو كان مصدوفا عنه حتى اللعب ! ومن ثَم كراهته للعبة الشطرنج التى راجت فى أيامه وكثر التفنن فى طرائق لعبها بين ممدوحيه حتى كان أحدهم يلعبها وظهره الى رقعتها ، وهو الذى يقول فيه :

تقتل الشاه حيث شئت من الرقـ ... ـعة طبا بالقتلة النكراء
غير ما ناظر بعينك فى الدسـ ... ـت ولا مقبل على الرُّسلاء
بل تراها وأنت مستدبر الظهـ ... ـر بقلب مصور من ذكاء
ما رأينا سواك قرناً يولى ... وهو يردى فوارس الهيجاء

ولكنه هو كان يجهلها ويحاول البراعة فيها فلا تساعده الحيلة ، فينقلب هازئاً بها ويقضى عليها بأنها من تعلات الفراغ والجوع !

أرى لعبة الشطرنج ان هى حُصّلت ... أحق أمور الناس ألا تُحصلا
تعلة بوابَين جاعا وأرملا ... بباب قليلٍ خيره ، فتعللا

أو يقول

تفرست فى الشطرنج حتى عرفتها ... فان صح رأيى فهى بالوعة العقل

وحسب الرجل أن تقل حيلته فى أواسط القرن الثالث ليكون مقضياً عليه بالهلاك أو بالفاقة وان اتصل بذوى الاخطار والعاملين فى سياسة الدولة ، بل يقضى عليه بالهلاك والفاقه لانه اتصل بميدان هو أحوج الميادين الى المكر وسعة الحيلة ، فمدائح ابن الرومى نفسه أدل شىء على ضرورة الدهاء فى أيامه وشيوع هذه الخصلة بين أبناء عصره .

فانه مدح أشتاتا من ذى المقامات بينهم الوزير والقائد والنديم والكاتب والفيلسوف فكان الدهاء صفة تتكرر فى مدح كل واحد منهم وثناء مشتركا بين من يطلب منه الدهاء بحكم عمله ومن لا يُطلب منه ولا يعيبه أن يفوته ، واليك أمثلة قليلة نكتفى بها عن إحصاء كل ما جاء على هذا المعنى فى مدائحه الكثيرة

قال فى على بن يحيى النديم :

فلّ بالحجة الخصوم وبالكيـ ... ـد زحوف العدى ذوى التأليب

وقال فى ابن ثوابة الكاتب :

وبكيـــــده يروى القنا ... علقا ويختضب اختضابَهْ

وقال فى القاسم بن عبيد الله الوزير :

يرمى بدهيـــاء من فلاتقه ... فى وجه دهياء من فلاتقها

وقال فى عبيد الله بن عبد الله القائد :

يصاول القرن أو يخاتله ... جلدا أريباً بعيـــدةً سربهْ

كالليث فى بأسه وآونة ... مثل الشجاع الخفى منسربه

وقال فى الجنود الاتراك :

ترى شبه الآساد فيهم مبيّنا ... ولكنهم أدهى دهاء وأنكر

وقد صدقت فى هـذه المدائح فطنـة ابن الرومى الى صفة عصره والخلق الذى لابد منه للمتقدمين فيـه من ندماء أو كتاب أو قادة أو وزراء أو جنود ، فلم يكن لواحد من هؤلاء غنى عن الكيد والختل والدهاء ، ولم تكن للعصر كله صفة بارزة بروز هذه الصفة التى اشتدت الحاجة اليها بين القلاقل والدسائس والاضطرار الدائم الى اتقاء الشر ومدارة الأقوياء والحيطة لما تأتى به طوارىء الاحداث ، وأحجى أن

تشتد الحاجة اليها حيث تعشش الفتنة وتبيض وتفرخ بين رجال الدولة ومن يعاشرهم ويلحق بهم من الشعراء والندمان ومقتنصى الفرص من صعود هذا وهبوط ذاك وإقبال هذه الدولة وإدبار تلك ، فقد كان هذا هو عمل كل يوم وشاغل كل ساعة فى البيئة التى عاش فيها ابن الرومى خاصة ، فما كانت أيامهم تنقضى على غير خليفة يعزل أو يدبر له العزل وولى عهد يخلع أو يدبر له الخلع ووزير يكاد له أو يكاد لخصمه وصاحب مال يصادر أو يسعى لمصادرة غيره ، وهذا واشباهه شغل يفتقر من يزاوله ويعيش فى بيئته الى الدهاء افتقاره الى أداة المعيشة الأولى وسلاح الحرب الألزم له من كل سلاح

فى ذلك العصر عاش ابن الرومى وهو أعزل لم يستعد له بعدة ولم يحسن قط أن يتداهى على أحد ولا أن يحترس من دهاء أحد . وراح يتقلب فيه باحساس طوع الحوادث ولسان طوع الاحساس ! فكان نقيض الرجل الذى يصلح لمثل زمنه . اذ كان ألزم مايلزم ذلك الرجل أن يملك احساسه ولا يطيعه ، وأن يجعل بين احساسه ولسانه سدا منيعا من الرياء يستتر خلفه ، فأخطر ما يجر الخطر على المرء فى عصور القلق أن يرسل نفسه وأن يطلق لسانه وأن يلهو بما بين يديه عما حوله ، كما كان يفعل ابن الرومى ومن طبعوا على غراره . وما نظنه كان يكرر صفة الدهاء فى ممدوحيه الا وهو يشعر بخلوه منه وحاجته اليه ، غير أن الشعور بالحاجة الى الدهاء لا يعطيه الدهاء ! كما ان شعور المريض بالحاجة الى القوة لا يعطيه القوة ، وغاية ما يستطيعه أن يأسى ويتكلف ما ليس

فى خلقه ، فلا يفيده الأسى ولا التكلف الا أن يُبدى من ضعفه ما هو أولى باخفائه

***

ذلك أول الفشل أو ذلك أوجز ما يقال فى إجمال أسبابه

وهو مع هذه الغرة التى تعد من أكبر الجنايات فى عصر الدسيسة والمداورة — كانت له جناية أخرى تعد من أكبر الجنايات فى جميع العصور وبين جميع الأمم وعند جميع الأفراد . كان غريب الأطوار ولا أضر على الضعيف الحيلة من غرابة الأطوار . لأنها تفرده بين الملأ فتنصبه وحده هدفا لكل ما فى الطبائع الانسانية من لؤم وسفاهة وسوء ظن ومجانة . و « الشىء مستوحش اذا غربا » كما يقول . فحسب المرء أن يشتهر بهذه الغرابة وأن يسجلها عليه من يعرفه ومن لا يعرفه حتى تبطل دعواه وتسقط حقوقه ويكون « المجتمع » قد أصدر عليه حكما سرمدا كذلك الحكم الذى كان يصدره السلطان فى غابر الأزمان بأهدار دم الطريد الهارب من عقوبته وسخطه . فلا ينصفه أحد ولا يتحرج متحرج من العدوان عليه والتعرض لغضبه ، فانما أساس الانصاف أن يعرف للانسان حق الرضى والغضب وحق الشكوى والملام ، فاذا سُلب هذا الحق واشتهر عنه أنه يألم لغير ما يوجب الألم ويفرح لغير ما يوجب الفرح ويعجب والناس لا يعجبون ويثور والناس لا يثورون ويُطرق وهم لا يعرفون فيم يطرق ويهلل وهم لا يشعرون فيم يهلل — فهم اذن فى حل من اسخاطه واهتضام حقه !

وهو اذن طلبة السلطان الأعظم سلطان المجتمع الذى أهدر دمه وأباح امنه

وماله ، فلا يشكو الا وهو متهم ولا يُشكَى الا وللشاكى عليه حجة . وكل ذنبه بين الناس أنه من معدن غير معدنهم وذو شعور بالحياة غير شعورهم ، وقد يكون خيرا منه وأجدر بالأنصاف

بل حسب المرء أن يشتهر بالغرابة حتى يصبح المألوف من عمله غريبا يفعله هو فيلاحَظ ويتبعه الناس بالغمزات ، ويفعله غيره فلا يلاحظ ولا يتغامز أحد عليه . لأن سمعة الغرابة هى المهم فى هذا الصدد، وليست الحوادث التى توصف بالغرابة

وقد يُعفى الغريب الأطوار من هذا « الاهدار » اذا كان مع غرابة أطواره له سطوة أو ثروة أو عصمة يعتصم بها من عشيرة تغار عليه أو جار يميل اليه ، فربما أساغوا منه غرابته فى هذه الحالة وعدوها حليةً تزينه وظريفةً ترغبهم فيه . فأما أن يكون ضعيفا لا حول له ولا حيلةً وغريبا فى خلقه وشعوره فذلك هو الجرم المضاعف الذى لا شفاعة فيه ولا نجاة من عقوبته ، وقُلْ فى عقوبة مشددٍ فيها كما يشاء لؤم من لا يخاف عاقبة لؤمه ، مبالغٍ فيها كما يُبالَغ فى ايذاء كل معدوم النصير

***

عاش ابن الرومى فى ذلك العصر قليل الحيلة فهو أعزل ، غريب الأطوار فهو مستهدف لكل من يرميه ، دقيق الحس فهو معذب بما يصيبه . وثقلت عليه صدمات الخيبة وساء ظنه بانصاف الناس فوهن ما فيه من بقية عزم الشباب — وعاف السعى وانطوى على اليأس ووجدت نفسه لذلك وجدا تعرفه من صرخته :

لا عذر لى فى أسفى بعدها على العطايا . عفتها ! عفتها !

فكان هذا مع ضعفه واعتلاله وحذره المغروس فى تركيبه وحاجته الى من يرأمه ويعينه صارفاً له عن السعى فى طلب الرزق والنزوح عن الوطن ، جانحاً به الى القعود حيث قعد لا يرى الا أن البلاد كبلده وأن الأخيار والأشرار سواء فى قلة انصافه

ذقت الطعوم فما التذذت كراحة   من صحبة الاشرار والأخيار

وما كان الرجل مخلوقا للجلد والمشقة فى أيام الشباب بله المشيب ، ولكنه كان ربما رحل فى تلك الأيام الى الابلة أو سامرا « سر من رأى » أو بعلبك ، وهى فيما نظن أبعد ما وصل اليه فى رحلاته . فلا يلبث أن ينكرها وتنكره ويعود منها وما لقى فيها الا مثل ما لقى فى وطنه :

لقد أنكرتنى بعلبك وأهلها   بل الأرض بل بغداد صاحبة البتل

ويرسل الى أصحابه فى بغداد يتشوف ويقسم لا أزمع بعدها سفرا ولا آثر على قربهم مطمعا :

وان يقض لى الله الرجوع فانه   علىَّ له ألا افارقكم نذر
ولا ابتغى عنكم شخوصا ورحلة   مدى الدهر الا ان يفرقنا الدهر
فما العيش الا قرب من انت الفه   وما الموت الا نأيه عنك والهجر

و« طول مقام المرء فى الحى مخلق لديباجتيه » كما قيل . فاذا احصينا أسباب الجفاء الذى كان يشكوه من ممدوحية واسباب فشله بعبارة أخرى فلا شك أن طول مقامه ببغداد واحد من تلك الأسباب التى رجّحت عليه غيره من انداده الشعراء ومن هم أقل فى الطبقة ، لأنهم كانوا يغيبون ويحضرون فلا يضن عليهم الأمراء بالعطاء فى السنة

بعد السنة أو بعد السنوات ، ولأنه كان مقيما امام أعينهم فى كل يوم فلا يلقى عندهم حفاوة الطارق بعد غياب

وهو لم يرحل تلك الرحلات القصيرة التى كان يظنها غربة طويلة الا وهو فى أبان القوة والطمع فى الولاية والجوائز . فلما طال عليه الأمر ووطن نفسه على اليأس قعد فى بغداد لا يريمها وقنع بما يتفق له وهو وادع فى بلده ، وأبى أن يجيب من يستدعيه اليه ويحضه على « الحطب لناره » . . . لأنه يكلفه ركوب البحر وهو اخوف ما يكون من ركوبه

حضضت على حطبى لنارى فلا تدع   لك الخير تخويفى شرور المحاطب

. . . .

أيعزب عنك الرأى فى أن تثيبنى   مقيما مصونا من عناء المطالب

وما هى بعد الا دعوةٌ فيما نظن لم يكن بالمنظور أن تتكرر ، اذ قلَّ فى الولاة من كان يعنى بشأنه وشأن رزقه فى حالى شبابه ومشيبه ، وقل فيهم من كان يرعى حقه ويخلص فى مودته

وربما اغتر هو ببعض المجاملة منهم وخيَّل لنفسه حقا عندهم فتشفع اليهم فى اتباعهم كما تشفع لمهندس القاسم الأسير المغضوب عليه « وما ضيف بأضعف من أسير » . . . أو كما تشفع لكتابه الذين « اضحوا وهم اسوأ الكتاب احوالا » . . . . أو كما تشفع فيما هو اكبر وأجل وهو شكاية الحسن ابن عبيد الله الى أبيه من تقديم أخيه القاسم عليه وترشيحه لعظيم المراتب دونه . لا أنها شفاعات لانعرف ماذا أوجبها على ابن الرومى ولانعرف ماذا كان مصيرها عند المشفوع لديهم ، فهى ان دلت على شىء

قاطع فانما تدل على أن قوما ذوى حوائج كانوا يقصدون فيها من يقبل تبليغها ويأنسون من ابن الرومى تلبية لا يأنسونها فى صحابة الامراء غيره ، وربما اغراهم به سذاجة طبعه وسرعة استمالته . ولاسيما فى وساطة الحسن عند أبيه والتماسه منه ان يسوّى بينه وبين أخيه القاسم ، لأنه

ليس يوهى اخاه شدك ايا ه به ، بل يزيده فى اشتداده

ولا يبعدان تكون هذه الوساطة علة إعراض القاسم عنه ومجافاته اياه تلك المجافاة التى قيل انها انتهت بقتله . فغير ابن الرومى لا يقدم على هذه الوساطة وهو جليس القاسم المطالب فى شريعة تلك الايام بنصرته على كل من ينافسه ولو جاءت المنافسة من اخيه . اذ يرى الحزم والحكمة ان يتبع الدولة حيث كانت وألا يعرّض نفسه لغضب صاحب الحظوة من أجل أخ له مهجور ضعيف الأمل فى النجاح ، فاستشفاع الناس بابن الرومى لا يدل على أكثر من هذا ولا على أكثر من انهم أرادوه للتبليغ والتذكير عسى ان ينبهوا غافلا ويُسمعوا من لم يسمع . وقد يدل على انه أصيب بسبب هذه الشفاعة فى رزقه وحياته كما يلوح لنا من جرائر الوساطة بين الحسن وأبيه ، فأما ان تدل هذه الشفاعات على حق مرعىّ له عند الأمراء وعناية منهم بأمر رزقه وصيانته فى قربه وبعده فذلك احتمال بعيد تناقضه اخباره واشعاره على السواء

وما نخال أن أحداً من ممدوحيه كان بينه وبين ابن الرومى من المؤاخاة فى الأدب مثل ما كان بينه وبين ابى سهل بن نوبخت سليل البيت الفلكي المعروف ، . فقد كانت بينهما مساجلات كثيرة تلمح

فيها مخاطبة الند للند والصديق للصديق فى بعض الأبيات ، فابن الرومى يغرب فى مدحه فيقول :

اعلم الناس بالنجوم بنونو ... بخت علما لم يأتهم بالحساب

بل بأن شاهدوا السماء سموّا ... ورقيا فى المكرمات الصعاب

وابو سهل يجيبه وهو يعتذر من قلة اضطلاعه بجوابه :

هكذا يجتنى الودودَ من الاخو ... ان اهلُ الأذهان والآداب

نظم شعر به يُنظَم شمل المـ ... ـجد كالعقد فوق صدر الكعاب

قد سمعنا مديحك الحسن الفـ ... ـرض ولكن لم نضطلع بالجواب

ومثل هذا الخطاب لا يكون الا بين رجلين صديقين او كالصديقين فيما توجبه العلاقة بينهما من الولاء والمعونة . فانظر مع هذا كيف كان ابو سهل فى رعايته لحقه وعنايته بأمره وصيانته لقدره ؟ كان كما قال فيه :

لى صديق اذا رأى لى طعاما ... لم يكد أن يجود لى بشراب

فاذا ما رآهما لى جميعا ... كفيانى لديه لبس الثياب

فمتى ما رأى الثلاثة عندى ... فهى حسبى لديه من آرابى

لا يرانى أهلا لملك الظبا ... رىّ ولا موضع العطايا الرغاب

وكأنى فى ظنه ليس شأنى ... لهو ذى نهية ولا متصاب

فىّ طبعٌ ملائكى لديه ... عازف صادف عن الاطراب

او حمارية ! فمقدار حظى ... شبعة عنده بلا إتعاب

انما حظىَ اللقاء لديه ... مع ما فيه بى من الاعجاب

ليس ينفك شاهدا لى بفهم ... وبيان وحكمة وصواب

ومتى كان فتح باب من الا ... ـه توقعت منه اغلاق باب

نعم ! مع ما فيه من الاعجاب به والشهادة له بالفهم والبيان . فقد

كان قصارى حقه عند صاحبه هذا وعند اصحابه الموسرين جميعا ان يعجبوا به او يتعجبوا لفطنته وغرائب أحواله ، او يساجلوه فى الشعر مساجلةً يظهرون بها قدرتهم على مجاراة شاعر قدير منقطع للشاعرية ، او يسامروه سمراً يلهون فيه بحديثه و نوادره ثم يستأدوه الثمن غاليا من صبره وماء وجهه . فأما ما وراء ذلك من نفع ومبرة فليس من حقه عندهم وليس له منه كما قال الا نصيب الملائكة أو نصيب الحمير . . ! وما كان واحدٌ من كبار ممدوحيه عاجزا عن اغاثته واصلاح أمره و تدبير عمل له يناسبه لو صححوا النية ولم يساوموه مساومة التاجر الشحيح ليأخذوا منه اكثر مما يعطوه ، وليأبوا ان يهبوه ما دام فى وسعهم ان يمنعوه . ففى قدرتهم كانوا ان يستحضروا النية فى اصلاحه وجبر نقائصه وتلافى عيوبه ، وفى قدرتهم كانوا ان يجدوا سببا واحدا على الأقل يوجب هذا الحق عندهم من باب الوفاء او من باب الرحمة ، بيد أنهم لم يجدوه ولا حاولوا ايجاده . . . ووجدوا اسبابا شتى لحرمانه واهماله والاعتذار من توجيه الاعمال اليه واتخاذه للكتابة أو النظر فى بعض مرافق الديوان

ونحن نقرأ قوله لابى سهل الذى تقدم ذكره

اتزعم انى إن توليت قرية رأيت ازورارى عن صديقى من الفرض؟

وقوله للقاسم

اركيكا رأيت عبدك صفرا لاجنى فيه ؟ ام جنى شنعاء ؟

فنفهم جملة هذه العلل التى كانوا يعتلون بها عليه ، نفهم انهم كانوا يكرهون توليته لئلا يستقل عنهم ويعرف له موردا غير

موردهم ، او أنهم كانوا يحسبون عليه غرارته ذنبا يحرمه الولاية كما حرمه العطاء وكفالة الرزق من جراية لايكدرها المن والتسويف ، وهى — ولا مراء — اسباب طبيعية للحرمان فى الحياة نفهمها حين نبحث عن سر حرمانه ، ولكنها لاتصلح عذرا للمتفضل الذى يريد الافضال ولا تعد ميزانا رفيعا للمروءة ومكارم الاخلاق . فمن الطبيعى ان يأكل الذئب الحمل وأن يعبث اللئيم بالغرير وان ينهب المحتالُ مال الطفل اليتيم والمغتال مال الاعزل الضعيف ، إلا ان البون بعيد جدا بين هذه الاسباب الطبيعية فى الدنيا وبين معالى الهمم ومكارم الاخلاق ، وان هذا البون البعيد جدا لهو مناط الحمد واللوم والشرف والضعة والفضل والقصور

* * *

وكان لفشل ابن الرومى وحرمانه سبب آخر هو فشله وحرمانه !

نعم كان فشله وحرمانه سبباً لنفرة الناس منه واتهامهم إياه ، فكانوا يلومونه على بلواه ويعدونها من ذنوبه وخطاياه . وكان لومهم هذا بلاء فوق بلاء وحسرة فوق حسرة ، وشكايةً أشد عليه من سائر الشكايات لأنها تحرمه حق الشكاية :

يا رب ما أطول البلاء وما أكثر فى أن بُليتُ لوّامى
يلومنى الناس ان حُرمت وما ألزمنى الله غير إحرامى

فاذا شكا فهو مذنب ، واذا سكت فالرزئية عنده أعظم من السكوت ، وهذا آلم ما يُبتلى به المنكوب وأظلمه وادعاه الى المزيد من نكبته وظلمه ... ولكنه كذلك طبيعى مألوفٌ فى الناس ، لأنهم لايكلفون

أنفسهم الرأفة بأحد اذا استطاعوا أن يحيلوا عليه جريرة خطاياه ! فاذا حُرم فما ذاك الا لأنه محروم مستحق للحرمان بما جناه على نفسه أو بما جناه عليه القضاء ، واذا كان كذلك فهم أولى بالاجفال منه والهرب من عدوى شقائه ! والا فما ذا يصنعون له وهو الجانى على نفسه ؟ ثم ما ذا يصنعون للقضاء ولا طاقة لهم برد القضاء ؟ فمن حُرم وفشل فليحرم أبداً وليفشل أبداً ، وليكن مصابه حجةً للمزيد من مصابه ودليلا على شقاء مكتوب عليه ، لاخلاص منه ولا للناس فيه حيلة !

وتضاف الى ذلك الحرمان نكبات متواليات لا يد لمخلوق فيها ولا هى مما يجنيه انسان على نفسه أو يرده انسان عن حوزته ، فتحق عليه تهمة الشؤم وتثبت عليه مطاردة الأقدار.! فلا رأى للعاقل الا أن يفرّ منه ويلتمس العصمة والامان بالبعد عنه .... وقد أطبقت على ابن الرومى النقمتان نقمة الفشل والحرمان ونقمة الفجائع فى أهله وولده والتلف فى زرعه والحريق فى ثرائه والضياع فى عقاره . فالرجل لاريب مشؤم يستعاذ منه وطريدة للأقدار لا يجيرها مجير وهو آمن على سربه! فمن غرر بنفسه وعالج خلاص الطريدة من القدر الذى يتعقبها فهو مبتلىً لا محالة بمثل بلائها ، ثم لا يلومنّ الا نحسه ورأيا سخيفا سوّل له التورط فى المهالك وخيّل اليه أنه مجير من قدرة الله ورادٌّ لما لا مردَّ لحكمه

وحقّ لابناء القرن الثالث أن يخافوا المشؤمين وطرداء القدر لأنه كان عصر السعد والنحس والقلاقل والمفاجآت مع الايمان بما يصحب ذلك من الخرافات والأوهام ، ولانه العصر الذى تمت فيه ترجمة الكتب الهندسية والفارسية وشاعت بين المسلمين أحاديث النجوم

والطوالع ما كان منها خرافيا كاذبا وما كان من قبيل العلم الصحيح، وزاد فى شيوع تلك الأحاديث أن الدولة كانت يومئذ للفرس وأن آداب المجالس فى قصور الملوك والشرفاء كانت آداب الفارسية والناشئين فى البلاد الفارسية، وكانت لهؤلاء ساعات للسعود وساعات للنحوس ومقارنات بين الأفلاك يطيب معها الطعام والشراب تارة ولا يطيبان تارة أخرى، بل كان لكل شىء فى الأرض والسماء حسابه وارصاده وبشائره ونذره، فلا يسافر المسافر ولا يتحرك العامل الا بعد استشارة للنجوم وموافقة لارصاد الطوالع، ولا عجب أن يدرج الفرس على ذلك وهم أمة عبدت الكواكب زمانا وجعلت لها صفات الخير والشر وأسندت اليها تدبير الحوادث وتحويل الدول وتقدير المقادير

وكأنما شاءت الأقدار أن تهيء للقرن الثالث كل أسباب العناية بالنجوم فظهر فى أوائله مذنب « هالى » الذى رأيناه هنا فى دورته الأخيرة قبل نحو عشرين سنة، والذى قال فيه أبو تمام فى تلك الأيام

وخوّفوا الناس من دهياء داهية	اذا بدا الكوكب الغربى ذو الذنب
وصيروا الأبرج العليا مرتبة	ما كان منقلبا أو غير منقلب
يقضون بالأمر عنها وهى غافلة	ما دار فى فلك منها وفى قطب

وليس يصعب علينا أن نتمثل كيف يكون أثر ذلك المذنب المرهوب أولَ ظهوره فى زمان كذلك الزمان وبين أناس كأولئك الأناس قد غلب عليهم الاشتغال بالتنجيم صادقه ومكذوبه وكثر بينهم جدا من يعلقون حوادث الأرض بأنباء النجوم

ولقد تردد ذكر السعود والنحوس وأسماء الكواكب فى كلام

شعراء القرن الثالث والقرن الذى بعده من أثر هذه العوامل كلها فألم اليها أبو تمام والبحترى مرارا وأفرط ابن الرومى فى الاشارة اليها لأنه كان أعلم من صاحبيه بهـذه المطالب . وتمادى الأمر بمن بعدهم حتى أصبح درس النجوم فريضة عن كل رجل مثقف مطلع على آداب زمانه ولو كان كالمعرى مكفوف البصر غير صالح للتوسع فى هذا الباب . فكان رهن المحبسين يذكرها فى سقط الزند واللزوميات ويصف مواقعها ويتكلم عن مقارناتها كأنه فلكى مشتغل بصناعته وليس بأديب ضرير واضح العذر فى جهل هذه الصناعة

ثم اتفق أن راجت عقيدة النجوم فى الأسرتين اللتين علق بهما ابن الرومى وكان لهما نصيب من شعره ومدحه وعتابه أكبرُ من نصيب سائر ممدوحيه . نعنى أسرة بنى طاهر وأسرة بنى وهب ، وهما أقوى وأغنى من حكم فى ذلك الزمان من الأسر التى تصرفت فى الدولة وتصدى أبناؤها للمدح والعطاء وتولية الأنصار وعزل الخصوم ، فلما مات محمد بن عبد الله ابن طاهر وخسف القمر تحدث أهله وتحدث النـاس أن القمر خسف لموته ، وكتب ذلك المؤرخون فيما كتبوا من تاريخه ، وذكره ابن الرومى فى بعض شعره فقال :

بات الامير وبات بدر سمائنا ... هذا يودعنا وهـذا يكسف
قمر رأى قمرا يجود بنفسه ... فبكى عليه بعبرة لا تذرف

وكسفت الشمس مرة فخاف القاسم بن عبـد الله (بن سليمان بن وهب) أن يكون كسوفها مؤذنا بموت عظيم فى الدولة وهلع لذلك

فكان ابن الرومى هو الذى هدأ روعه ونصح له باللهو والسماع للتسرية عن نفسه وكتب اليه :

لا تهولنك شمس كسفت دون أن تطلع من مغربها
هان ذاك الرزء فيها مثلما هان ما عزّك من مطلبها
هى نار وافقت مطفئها لست بالأيس من ملهبها
فابك من تشفق من معطبه فلقد أومنت من معطبها
ضل باك أن أبيخت جمرة سوف تذكيها يداً مثقبها
ليس للشمس اذا ما كسفت غير شمس تخلف الشمس بها
من بنات الروم لا يكذبنا لونها المشرق عن منصبها

وانها لفكاهة مضحكة من فكاهات الخطوب أن يكون ابن الرومى مهدّىء روع فى هذا وهو أحوج انسان الى من يهدىء روعه ويذهب عنه الوجل من نذر الزمان وعلاماته !!

فالخوف من شؤم صاحبنا كان من أقوى أسباب فشله واجتنابه، وفى بعض معاتباته اشارة صريحة الى تطير أبناء طاهر وأبناء وهب من هذا الشؤم واجتنابهم إياه بعد أن جاءتهم الدولة وزخرت لهم النعمة ، مخافةً على سعودهم أن يدركها طائف من شقائه ونحسه ، فكان يقول لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر يدفع عن نفسه هذه التهمة :

نحن ميامين على أننا على أعاديك مشائيم
لما دخلنا دخلت نعمة كان لها حولك تحويم
ولم يفخّمك الذى نلته بل للعطايا بك تفخيم

وكان يقول للقاسم بن عبيد الله :

طلعت بأيمن ما طائر عليكم وأسـعد ما طالع
فجاءتكم دولة غضـة تفيـأ فى ثمر يانع

وكأنما كان حاسدوه ومزاحموه يعرضون بشؤمه لبنى وهب وينسبون اليه ما يكره الوهبيون من رحلة أو مشقة ، فكان يبرأ اليهم ويسرع الى تفنيد ما نسبوه اليه قبل أن يحسب عليه ، وما هو فى حاجة عندهم الى اختلاق الذنوب :

ولقد خفت والبرىء ملقىً كلُّ ذنب برأسه معصوب
أن يقول الوشاة بى أن شؤمى قادهذا الشخوص، والافك حوب
وجوابى أن لم يغيبوا وشاهد تُ فزالت مخاوف ونكوب
انا من لا يُشك فى اليمن منه أو يمينُ ابن فجرة ويحوب
جئت والدولة السعيدة خلفى رأسها فى مقادتى مجنوب

***

فحسب الانسان فى ذلك العصر أن تلوح عليه شبهة من السعد أو النحس فيقال أنه مسعود أومنحوس ، ثم تلزمه التهمة وتلصق به طول حياته وتشد لصوقا به إذا كان فى أحواله وأخلاقه ما يغرى الناس بالالحاح فيها والاصرار عليها. وهل كان شىء من ذلك ينقص ابن الرومى؟ كلا ! لم تكن تنقصه شبهة النحس لأنه كان عالما ذكيا ولا حظوة ولا جاه، فما الذى يحول بينه وبين حظوة أمثاله الا أن يكون الجد العاثر والطالع المشؤم ؟ ولأنه فقد اباه وامه وأخاه وزوجته وابناءه وعاش بعدهم كئيباً حزيناً مستهدفا للبلاء من الأيام والناس. وهل يفقد كلٌّ هؤلاء ويعيش

بعدهم فى تلك الحال الا المنكود المرزأ المنحوس ؟ ولانهُ منى كما رأينا بالجراد فى ضيعته والحريق فى ماله والضياع فى عقاره. وهل يمنى بذلك — مع مصائب الموت والضنك — الامن شمله النحس فى شبكة لانجاة منها لمشبوك ؟

ثم هل كانت تنقص ابن الرومى تلك الخلائق التى تغرى به أهل العبث والمجون فيلحون عليه بتهمة الشؤم ويتفكهون بما يؤلمه من ذلك ويؤذيه ؟ لا ! بل كان الرجل أول المتفائلين المتشاءين وأول من يسوّغ للناس التباشر والتطير، ولزمته الحجة من ذكائه وإدبار حظه ومن مصائبه فى ذويه وصحبه، فكان الذكاء نكبة عليه تعد فى النكبات، والمصائب ضعفين ما يصيبه من شرها وما يصيبه من سمعة نحسها وولع العابثين بالسخر منها، وانه لمصاب عظيم . . .

ولقد رأينا ان أخاه ابا جعفر كان يكتب لرجل فعزل الرجل بعد مدة فعبث به أصدقاؤه آل أبى شيخ وقالوا له : « إنما عزله شؤمك » كأن حديث الشؤم والسعد كان حديثهم فى كل نكبة وفى كل نعمة، ولو أنصف القوم لكانوا كلهم مشؤمين منحوسين إذ كانوا كلهم قد فجعوا فى الاصحاب والانصار وشهدوا نكبات الأخيار والأشرار . واذ كان ابن الرومى قد فقد اعداءه كما فقد احبابه فلا فضل لشؤمه على سعده ولا رجحان لطوالع الخيرات فيه على طوالع الشرور . ولكنها الحظوظ التى الا تعرف القسط فى الموازين ! ! ومن الحظوظ التى ألمنا بأسبابها أن يكون ابن الرومى منفردا بسمعة الشؤم فى ذلك العصر دون سائر المشؤمين ! !

وسواد الناس لاينصفون مختارين ، ثم هم لا ينصفون اذا كان الانصاف يكلفهم واجبا او يحرمهم فكاهة يضحكون منها ! فليس لابن الرومى اذن الا ان يبوء وحده بجريرة ضعفه وعقائد زمنه ، فغاية الحكم فيه انه ولدمقضيا عليه بالفشل وعاش فى زمن لارحمة فيه لمثله، ووجب أن يترك لقضائه يصنع به ما لا حيلة فى دفعه

إن من الباحثين من يرى أن رجال الفنون فى المجتمع كالأطفال فى الاسرة لابدلهم من رعاية تكتنفهم وأمداد قومية تغنيهم عن السعى لانفسهم ، لانهم لايحسنون حيل السعى ولا يجيدون عملهم اذا تفرغوا لممارسة العيش واتقان حيله ، فاذا التمس هؤلاء الباحثون مثلا يدعمون به رأيهم فما اخالهم يجدون فى تاريخ الآداب مثلا أصلح من شاعر كابن الرومى فى زمان عجيب متناقض كأواسط القرن الثالث للهجرة

طيرة

الطيرة شعبة من مرض الخوف الناشيء من ضعف الأعصاب واختلالها الذى أشرنا اليه فى الكلام على مزاج الشاعر ، إلا أنها خوف خاص له بواعثه واعراضه ، وهى فى ابن الرومى خلة خاصة قد بلغت مداها ولبست الوانا غير الوانها فى اكثر المتطيرين ، بحيث وجب ان نفردها بالبحث فى هذه الكلمة ببعض التفصيل

فأصل البواعث التى أصابت ابن الرومى بداء الطيرة هو اختلال الأعصاب قبل كل شيء

فالرجل السليم لا يتطير ولا يتشاءم ، لانه ينتظر من الدنيا خيراً ولا يحس النفرة بينه وبينها ، ومن ثم لا يحس الخوف والتطير منها وقد تصادفه الحوادث كما تصادف الناس كافة فتقع على نفسه موقعا خفيفا يملك معه عزمه ويضبط معه شعوره ، فهو فى غنى عن الحذر والتوجس مذ كان يلقى الخطر — حين يلقاه — بعدة كاملة ونفس مطمئنة ، لا يتسلّف الفزع منه قبل وقوعه ولا يفرط فى الفزع منه متى وقع واستحال عليه دفعه . وقد تؤدى به هذه الطمأنينة الى نقيض الطيرة فيحتجب عنه الخطر الصحيح والمتوهَّم على السواء ، ويستسلم للامن الصادق والكاذب استسلام المتطير لكاذب الخوف وصادقه وظاهر الوهم ومكنونه ، فهو ابداً فى حالة سلم وأمان إذ يكون المتطير ابداً فى حالة حرب وارتياب

هذه طبيعة السليم من حيث التطير خاصة والخوف من الطوارىء عامة

اما مختل الاعصاب فالصغائر مكبرة فى حسه والاشباح والاطياف كثيرة فى وهمه ، يتخيل ويتوهم ثم يفزع مما يتخيل ويتوهم ، ثم يزيده الفزع من الاخيلة والاوهام . فان كان الى ذلك شاعراً وكان خياله قويا فللطيرة فيه معين لا ينضب من الخلق والإبتكار والطوارق

وتتوارد عليه المنبهات — وكل طارق فى الدنيا منبه لاصحاب هذا المزاج — فيتيقظ فيه الشعور بالخطر ويلمح المخاوف حيث لا يلمحها الآخرون . كما هو الشأن فى كل مستحضر للحذر متوقع للمفاجأة

فأنت تسير فى الطريق المأمون فلا تزعجك نبأة ولا يلفتك ماقد يوجب التلفت . ولكنك إذا ادلجت فى الأجمة المرهوبة واستحلك الليل حولك خيل اليك انك تسمع فى كل همسة فحيح أفعى وفى كل نفخة همهمة أسد وفى كل خبطة تليك هجمة عدو ينتحيك بمكروه ، وما اختلف على حسك بين الطريق المأمون والأجمة المرهوبة إلا اختلاف التوقع واستحضار الحذر من كل مجهول غير منظور ، وذلك هو موضع الاختلاف بعينه بين المتطيرين وغير المتطيرين

ولقد كان ابن الرومى أوعى لنفسه من أن تخفى عليه طبيعة الحذر المركبة فيه . فهو يشعر من دخيلة طبعه بأنه حذور، ويعلم ان لا مفر له من الحذر فيتخذ من الضرورة فضيلة - كما يقولون — ويزعم ان الحذر باب الأمان :

فآمن ما يكون المرء يوما اذا لبس الحذار من الخطوب

ويحتج لذلك بحجج كثيرة من القرآن والحديث والمنطق والروايات كما مر بك فى اخباره ، ثم لا يشك فى انه محق مصيب ضعفت حجته

أو قويت وصدقت محاذيره أو كذبت . لأن الحجة فى العقائد الشعورية تلحق العقيدة ولا تسبقها ، وتؤكدها إذا وافقتها ولكنها لا تفندها إذا عارضتها

***

ومن روافد الطيرة فى ابن الرومى ذوق الجمال وتداعى الخواطر

فالنفس المطبوعة على ذوق الجمال تفرح وتتهلل للمناظر الجميلة السوية وتنفر وتنقبض من المناظر الدميمة الشائهة . ويصاحب الفرحَ الاقبالُ والاستبشار والرغبةُ ، ويصاحب النفورَ الانكارُ والتشاؤمُ والكراهةُ ، وليس أقرب من المسافة بين النفور والطيرة اذا دق الحس وغلب عليه الحذر واصبح الانقباض عنده نذيرا يثنيه ويقتضب عليه طريق أمله

اما تداعى الخواطر فصاحبه ابدا يستخرج من الكلمة أو الفكرة غاية ماتؤدى اليه وتتقلب عليه ، ومتى كانت طبيعته الحذر ومزاجه مركبا على التشاؤم فليس أسهل من اتجاه خواطره السريعة الى حيث ألفت طبيعته واستمر مزاجه

فلكل كلمة عنده سر ولكل سر مخافة ! ويسيرٌ عليه ان يعرف ذلك السر ويكشف تلك المخافة لانه سريع حركة الذهن يتنقل كومضة البرق بين المعانى ومشابهاتها ومناقضاتها وبين الكلمات وما يجانسها ويشاكل حروفها وأوزانها ، فلا يشق عليه ان يعثر بطلبته الموافقة لنزعة طبعه ومتوجهًا ذهنه عند معنى من تلك المعانى ومشاكلة من تلك المشاكلات

وذوق الجمال وتداعى الخواطر كانا فى ابن الرومى على ادق

وايقظ ما يكونان فى انسان . كانت له عين خاطفة تلتهم الالوان والاشكال التهام الجائع المنهوم الذى لايشبع . وقد عرفنا امثلة من ذلك فى دقة تشبيهاته وإحكام صوره وغرابة التفاته الى مواقعَ للنظر لايلتفت اليها شاعر غيره . وسنعرف اضعاف ذلك عند الكلام على عبقريته وفنه واسلوبه فى تناول الحس وتصويره

ثم كان مع هذه النظرة الخاطفة يشنأ القبح ويحسبه ذنبا يُعاف ويُستر ، وكان يبالغ فى اخفائه من نفسه اذا ابتلى به كما كان يبالغ فى اخفاء صلعه والسخط على من يسألونه عنه ! فالقبح عنده شر أو نذير بالشر ، ولا يرى الاحدب او الاعور او الخصى او الاشقر الذى يحكى لونُ وجهه لونَ الجلد المسلوخ او غيرهم من المشوهين الخارجين عن سواء الخلقة الا انقبضت نفسه واسرع اليه ما يلازم الانقباض من التوجس والحذر والوجوم

وتداعى الخواطر ملحوظ فى جميع شعره لا يستدل منه بغرض دون غرض ولا بقصيدة دون قصيدة ، فهو يُسلسل المعنى ويشعّبه حتى يُستنفد ، وكلما عنّ له خاطر لحق به ما يقاربه وما يناسبه حتى تبطل المناسبة ويضطر الى الوقوف . هذا فى المعانى . اما فى الالفاظ فانه يغوص فى تصحيف حروفها مثل هذا الغوص ويستخرج البعيد والقريب من رموزها وقرائنها ويستنبط منها ما يشاء من ملامح اليمن والشؤم ودفائن المدح والذم . . . فجعفر عنده تساوى « جاع وفر » والخان يذكره بالخيانة

فكم خان سفر خان فانقض فوقهم	كما انقضت صقر الدَّجن فوق الارانب

ويلعب بتصحيف الكلمات فى السمع والخط احيانا لينقلها الى المدح أو الهجاء، فيقول فى القيان:

لا تلح من تفتنه « قينةٌ » فان تصحيف اسمها « فتنةٌ »

ويقول فيمن اسمه ابن « هرثمة »

عائذٌ دهرَه اذا سطع النقـ ع بمعنى مصحّف اسم ابيه

وتصحيف هرثمة هو « هزيمة »

ويجعل عمر « عيرا » بقوله

يا عمرو لو قلبت ميم مسكنة ياء محركة لم تخطىء الفقر

أو يفعل ذلك فى الاسم الواحد ممعنا أشد الامعان فى استخراج التصحيف للمدح والذم كما فعل فى اسم اسحاق مادحا وهاجيا فقال وهو يمدح

واسلم أبا اسحاق لابس غبطة وعداك للابعاد والاسحاق

وقال وهو يهجو وأبعدَ جدا فى تصحيفه:

يا ابا اسحاق واقلب نظم اسحاق وصحف
واترك الحاء على حا ل فما الحاء مصرف
يشهد الله لقد أصبحـ ت عـين المتخلف

فتبدلَ اسم « اسحاق » بعد قلبه وتصحيف قافه فاء وسينه شينا واثبات حائه على حالها نخرج من هذه العملية الطويلة « فاحشا » ... وليس بينه وبين الأصل صلة كما ترى الا ما عرض له من التصحيف والتحريف من أبعد طريق

وقد يذهب ذهنه الى الصورة التى تنقلب اليها الاسماء بعد اللثغ المضاعف كما قال فى أبى على بن أبى قرة :

انت عندى وشيخك السيد الما   جد لا شك صادقا الكنيتين
ليس فى منطق الفصيح ولكن   حين يحكيكما اخو لثغتين
مبدلٌ لام كل لفظ بياء   مبدلٌ قاف كل لفظ بغين

فيصبح على بن ابى قرة فى لغة الالثغ وهو عى بن ابى غرة بكسر الغين ! ولولا السرعة فى تداعى الخواطر وخلق المناسبات لما وصل الى هذا التصحيف فى الاسمين

وقد يعكس اللفظ ليستخرج منه فألا لغيره كما صنع بكلمة «سكّان» حين انحدر العلاء بن صاعد يريد واسطا فتحركت ريح الجنوب حركة عظمت معها الأمواج فانكسر السكان فرجع . فقال ابن الرومى

رأيت منكسر السكان ظاهره   هول وتأويله فأل لمنجاكا
. . . .
لان لفظة « سكان » اذا قلبت   حروفها « نا كس » لاشك فى ذاكا

وإن عقلا كهذا العقل المطبوع على سرعة التنقل بين المعانى والالفاظ ومايتفرع عليها ويتسلسل منها ليس بالغريب أن يهتدى الى مكامن الطيرة والشؤم فى كل معنى وكل كلمة ، ولا سيما إذا رانت على نفسه الخيبة وقدّر الفشل فى كل خطوة واقترن ذلك بالاحساس المتوفز المتربص الذى لا تضبطه عزيمة ولا تحكمه صرامة فى الفطرة

وتداعى الخواطر بهذه السرعة من الحالات التى تتقارب فيها العبقرية والجنون كما تقدم فى الكلام على مزاج الشاعر ، فيثب العبقرى

فى لمحة عين من المعنى الى شبيهه أو نقيضه ويصل بين القطبين البعيدين بسلسلة من المشابهات والمناقضات دقيقة الحلقات لا يتبينها الناظر الا بعد التوضيح والجهد الجهيد فى التنبه لمداخلها وتعقب أوصالها والجرى معها جريا يتعبه ولا يسره لأول وهلة. وتسمع المجنون يتكلم فاذا هو يخلط ويأتى بالمفارقات ولكنه فى داخل ذهنه يجمع بينها بمناسبات تقرب منها ما نأى وتؤلف ما تبعثر، غير أن الجنون عقيم منبتٌ والعبقرية مثمرة نافذة. وهذا هو الفرق الكبير بين الشذوذين المتناقضين، أى بين أسمى ما يرتقى اليه الذهن وأوضع ما ينحدر اليه

واليك مثلا هـذه الأبيات التى قالها ابن الرومى فى هجاء ابن طالب الكاتب :

أزيرق مشؤم أحيمر قاشر	لاصحابه، نحسٌ على القوم ثاقب
وهل أشبه المريخَ الا وفعله	لفعل نذير السوء شبهٌ مقارب
وهل يتمارى الناس فى شؤم كاتب	لعينيه لون السيف والسيف قاضب
ويُدعى ابوه طالبا وكفا كم	به طيرة ان المنيـة طالب
الا فاهربوا من طالب وابن طالب	فمن طالب مثليها طار هارب

فبهذا المثل نستطيع أن نتتبع مداخل الطيرة الى نفس ابن الرومى من جانب « ذوق الجمال » ومن جانب « تداعى الخواطر » فى وقت واحد، ونستطيع أن نراقب ذهنه وهو يعمل فى حركته السريعة بين الأشكال والألوان والألفاظ والمعانى كما نراقب البنية الحية وهى تعمل من وراء المجاهر والكواشف . فانظر الى لون الوجه « الاحيمر » القاشر والى نذير السوء والبلاء أين هما وماذا يجمع بينهما من الصلة

والمناسبة ؟ لا صلة ولا مناسبة ! ولكن ضع بينهما المريخَ ولونَه الأحمر ثم ضع مع المريخ ما اقترن به فى الأساطير من خصائص الحرب والفتنة تنتظم العلاقة وتنعقد المناسبة من جميع اطرافها ، وقلْ مثل ذلك فى لون العين ولون السيف القاضب ! وفى « الطالب » الذى لا يقابله الا « الهارب » ! وفى « الطلب » الذى يعقد الشبه بين الموت وذلك الكاتب ! وفرّق هذا كله فاذا هو ابعد المتفرقات . . . واجمعه كما جمعه ابن الرومى فاذا هو أقرب المناسبات والزم العلاقات

***

ولقد ضاعف العصرُ ما فى نفسه من الاستعداد للطيرة من هذه الجوانب الكثيرة فاستعصى عليه علاجها وسُهلت عليه مطاوعتها والاغراق فيها . فقد كان أصح الاصحاء فى عصره يصدق الطوالع ويؤمن بالسعد والنحس والتفاؤل والتشاؤم ، فزعم ابن الرومى أن الطيرة موجودة فى الطبائع وأنه ما من أحد إلا يتفاءل بأشياء ويتشاءم بأشياء ويتخذ العلامات من ظواهر الزمان لخفاياه ، ومن فلتات لسانه لما فى دخائل ضميره !

وكثر التصحيف فى زمنه ، بل كثر فى بيت من بيوت الرؤساء التى اتصل بها وتردد عليها فى مجالس سمرها ولهوها ، وهو بيت بنى طاهر ولاة الحكم فى خراسان والشرطة ببغداد . ومن رؤسه عبد الله ابن طاهر الذى قال ملغزا فى اسم ظريف :

اسم من اهواه اسم حسن ... فاذا صحفته فهو حسن

فاذا اسقطت منه فاءه كان نعتا لهواه المختزن

الخ الخ

ومن رؤسه عبيد الله الذى كان يعرض الشعر على ابن الرومى ويقترح عليه تصحيفه كما ترى فى ديوانه

فتمكنت عادة التصحيف فى ذهنه وجاءت الطيرة فوجدت منها اداة صالحة لخلق دلائل الشؤم واستنباط الاشارات الخفية من ظواهر المعانى والألفاظ

على أننا — مع توافر هذه البواعث فى مزاجه وعصره — نلاحظ أن الروايات التى ذكرت عن طيرته لا ترجع واحدة منها الى ما قبل الخمسين من عمره ، فرواية ابن المسيب التى يقول فيها ان ابن الرومى فزع من رؤية الحول والعور فى المهرجان ترجع إلى مهرجان سنة ثمان وسبعين ، أى حين كان ابن الرومى فى السابعة والخمسين . والنوادر التى حكيت عن الأخفش لا يُظن أنها حدثت قبل نيف وسبعين ومائتين ، لأن الزبيدى يخبرنا أن الأخفش كان له تلاميذ يملى عليهم هجاء ابن الرومى فيه ، ويغلب ألا يكون للعالم حلقة يجلس فيها للتدريس قبل الثلاثين . والأخفش مات سنة ست عشرة وثلاثمائة عن نحو ثمانين سنة ، فكأن ابن الرومى كان فى الخمسين حين جاوز الاخفش الثلاثين

والرواية التى نقلت عن ابراهيم كاتب مسروق البلخى وحضرها برذعة الموسوس صاحب المعتضد ترجع إلى أيام المعتضد الذى تولى الخلافة سنة تسع وسبعين ومائتين أى حين بلغ ابن الرومى الثامنة والخمسين. فيُرجَّح إذن ان الطيرة الشديدة فى ابن الرومى كانت عارضا من عوارض

الشيخوخة، وانه افرط فيها بعد ما ابتلى به من الآلام والاحزان وساورته المخاوف من كل جانب وقل حوله المؤاسى والرفيق، وللشيوخ كافة ميل الى تصديق الاساطير واستطلاع الغيوب وما يدخل فى باب العيافة والزجر على العموم، فابن الرومى فى شيخوخته أحجى ان يصاب بهذه العاقبة التى ادخرها له المرض والمزاج والعصر وحوادث الايام

إلا أننا يجب أن نحسب هنا حسابا للمبالغة التى تدخل على كل شهرة وتغرى الناس باختراع الاقاويل واضافة النوادر الشائعة عن كل صفة غريبة الى الشخص الذى يشتهر بتلك الصفة ويتفرد فيها بالظهور. فقد يكون الموضوع من أخبار هذه الطيرة أكثر من الصحيح، وقد يكون الصحيح مشوبا بالمبالغة والاطناب

عقيدته

تقدم فى الكلام على الحالة الدينية فى القرن الثالث للهجرة انه كان عصراً كثرت فيه النحل والمذاهب وقل فيه من لا يرى فى العقائد رأيا يفتن به اسلامه ، وبخاصة بين جماعة الدارسين وقراء العلوم الحديثة

فابن الرومى واحد من هؤلاء القراء لا ننتظر أن تمر به هذه المباحث التى كان يدرسها ويحضر مجالسها ويسمع من أهلها بغير أثر محسوس فى تفسير العقيدة . فكان مسلما صادق الاسلام ولكنه كان شيعيا معتزلا قدريا يقول بالطبيعتين ، وهى أسلم النحل التى كانت شائعة فى عهده من حيث الايمان بالدين

وقد قال المعرى فى رسالة الغفران ان البغداديين « يدعون انه متشيع ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجيمية » ثم عقّب على ذلك فقال : « ماأراه الا على مذهب غيره من الشعراء »

ولا ندرى لماذا شك المعرى فى تشيعه لانه « على مذهب غيره من الشعراء » ... فان الشعراء اذا تشيعوا كانوا شيعة حقا كغيرهم من الناس ، وربما أفرطوا فزادوا فى ذلك على غيرهم من عامة المتشيعين ، وانما نعتقد ان المعرى لم يطلع على شعره كله فخفيت عنه حقيقة مذهبه ، ولولا ذلك لما كان بهذه الحقيقة من خفاء

على ان القصيدة الجيمية وحدها كافية فى اظهار التشيع الذى لا شك فيه ، لان الشاعر نظمها بغير داع يدعوه الى نظمها من طمع أو مداراة ، بل نظمها وهو يستهدف للخطر الشديد من ناحية بنى طاهر

وناحية الخلفاء ، فقد رثى بها « يحيى بن عمر بن حسين بن زيد بن على » الثائر فى وجه الخلافة ووجه ابناء طاهر ولاة خراسان ، وقال فيها يخاطب بنى العباس ويذكر « ولاة السوء » من ابناء طاهر :

أجنُّوا بنى العباس من شنآنكم ... وأوْكوا على ما فى العياب وأشرجوا[1]
وخلوا ولاة السوء منكم وغيهم ... فأحر بهم أن يغرقوا حيث لججوا
نظارِ لكم ان يرجع الحقّ راجعٌ ... الى أهله يوما ، فتشجوا كما شجوا
على حين لا عذرى لمعتذريكمُ ... ولا لكم من حجة الله مخرج
فلا تلقحوا الآن الضغائن بينكم ... وبينهم ، ان اللواقح تنتج
غررتم ، لئن صدقتمُ ان حالة ... تدوم لكم ، والدهر لونان أخرج
لعل لهم فى منطوى الغيب ثائرا ... سيسمو لكم ، والصبح فى الليل مولج

فماذا يقول الشيعى لبنى العباس أقسى وأصرح فى التربص بدولتهم وانتظار دولة العلويين من هذا الكلام ؟ فقد أنذر بنى العباس بزوال الملك وكاد يتمنى — أو تمنى — لبنى على يوما يهزمون فيه أعداءهم ويرجعون فيه حقهم ويطلبون تراثهم وينكلون بمن نكل بهم . وهواه ظاهر مع العلويين لا مداجاة فيه كهوى كل شيعى فى هذا المقام . على أنه كان أظهر من هذا فى النونية التى تمنى فيها هلاك أعدائهم ولام نفسه على التقصير فى بذل دمه لنصرتهم .

ان يوالى الدهر أعداءً لكم ... فلهم فيه كمينٌ قد كمنْ
خلعوا فيه عذار المعتدى ... وغدوا بين اعتراض وأرن[2]
فاصبروا يهلكهم الله لكم ... مثل ما أهلك اذواء اليمن
. . . .

(١) وكى القربة ربطها وأشرجها ضمها والمقصود : اخفوا يابنى العباس ما فى صدوركم من بغض العلويين

(٢) الأرن النشاط واظهار القوة

قرب النصر فلا تستبطئوا ... قرب النصر يقينا غير ظن
ومن التقصير صونى مهجتى ... فعلَ من أضحى الى الدنيا ركن
لا دمى يُسفك فى نصرتكم ... لا ولا عرضىَ فيكم يمتهن
غير أنى باذل نفسى وإن ... حقن الله دمى فيما حقن
ليت انى غرض من دونكم ... ذاك ، أو درع يقيكم ومجن
اتلقى بجبينى من رمى ... وبنحرى وبصدرى من طعن
انّ مبتاع الرضى من ربه ... فيكمُ بالنفس لا يخشى الغبن

وليس يجوز الشك فى تشيع من يقول هذا القول ويشعر هذا الشعور، فانه يعرّض نفسه للموت فى غير طائل حباً لبنى على وغضبا لهم وإشهار العاطفة لا تفيده ولا تفيدهم، وقد كان لا يذكر يحيى بن عمر الا بلقب الشهيد كما ذكره فى القصيدة الجيمية وفى خاطرة أخرى مفردة نظمها فى هذين البيتين :

كسته القنا حلةً من دم ... فاضحت لدى الله من ارجوان
جزته معانقة الدراء ... ين معانقة القاصرات الحسان

وبعض هذا يكفى فى الدلالة على تشيعه للطالبيين واتخاذه التشيع مذهباً فى الخلافة كمذهب الشعراء، او غير الشعراء... ولا سيما التشيع المعتدل الذى يقول أهله بجواز امامة المفضول مع وجود الأفضل ويستنكرون لعن الصحابة الذين عارضوا عليا فى الخلافة، ومعظم هؤلاء من الزيدية الذين خرجوا فى جند يحيى بن عمر لقتال بنى العباس . فهم لا يقولون فى نصرة آل على أشد مما قال ابن الرومى ولا يتمنون لهم أكثر مما تمناه

ويلوح لنا أن ابن الرومى ورث التشيع وراثة من أمه وأبيه، لأن أمه كانت فارسية الأصل فهى أقرب الى مذهب قومها الفرس فى نصرة

العلويين ، ولان أباه سماه عليا وهو من أسماء الشيعة المحبوبة التى يتجنبها المتشددون من أنصار الخلفاء ، ولا حرج على أبى الشاعر أن يتشيع وهو فى خدمة بيت من بيوت العباسيين ، لأن مواليه كانوا أناساً بعيدين من الخلافة وولاية العهد وهما علة البغضاء الشديدة بين العباسيين والعلويين ، وقد اتفق لبعض الخلفاء وولاة العهد انفسهم أنهم كانوا يكرمون عليا وأبناءه كما كان مشهوراً عن « المعتضد » الخليفة الذى أكثر ابن الرومى من مدحه ، وكما كان مشهورا عن « المنتصر » ولى العهد الذى قيل أنه قتل أباه « المتوكل » جريرةَ ملاحاة وقعت بينهما فى الذب عن حرمة على وآله

***

ومع هذا لم يخطىء المعرى حين ظن أن للشعراء تشيعا غير تشيع الدين والعصبية ، إذ كان الشعراء فى كل زمن يؤخذون بالعاطفة وتشجيشهم البواعث الحية التى تجيش لها القلوب من حولهم ، وكانت العاطفة ابداً مع بنى على حيث كانت المصلحة ابدا مع بنى العباس . وقد برز هذا الفارق فى مقتل يحيى بن عمر خاصةً لأنه كان محبوبا معطوفا عليه لشجاعته ونخوته وكرم نفسه وشبابه وجماله ، وكان معذورا فى خروجه على العباسيين لأنهم حرموه رزقه حتى عز عليه القوت وجاع وأترب وتبين ذلك لانصاره فكانوا يعرضون عليه الطعام فيأباه ، ويقول : « ان عشنا أكلنا » . . . وفى ذلك يقول ابن الرومى من القصيدة الجيمية :

أفى الحق ان يمسوا خماصا ؛ وانتم ... يكاد اخوكم بطنه يتبعج

وتمشون مختالين في حجراتكم ... ثقالَ الخطى اكفالكم تترجرج

وليدهم بادى الضوى ، ووليدكم   من الريف ريان العظام خدلجُ

وقد بلغ من حبه فى قلوب الناس انه لما قُتل التمس قتلته أحدا يعالج رأسه كما تعالج رؤس القتلى لتُحفظ وتُنصب فاعياهم ان يجدوه ، وطال بحثهم عنه حتى عثروا برجل من أراذل السوقة رضى ان يصنع بالرأس مالم يرضه الآخرون . ثم أرادوا نصبه فى بغداد فهاج أهلها وماجوا وخيفت الفتنة فانزلوه ولما يكد يُرفع ، ولم يُعرف فى تاريخ الطالبين أحد حزن الناس لموته واضطربوا لحزنهم واضطرابهم لقتل يحيى بن عمر . ففى غضب ابن الرومى شىء كثير من غضب الشاعرية أو من غضب السليقة الحساسة التى لا يسعها ان تهدأ وتفتر والقلوب حولها جائشة والصدور مكظومة والطبائع نافرة . ولا ننس انه رثى يحيى وهو دون الثلاثين فى سنٍ للعاطفة عليها سلطان عظيم وللحزم عليها سلطان ضعيف . ولكن اتراه — لولا العقيدة — كان يكرر هذا الغضب ويخرج هذا الخروج عن الحذر ؟ أكان يجازف بحياته ويقول فى النونية أشد مما قال فى الجيمية التى هِيجَ لها هذا الهياج وساوره فيها الحزن كما ساور الوف المحزونين؟

* * *

وبعدُ فيجب أن نذكر فى هذا السياق أن ابن الرومى رثى محمد ابن عبد الله بن طاهر الذى تولى حرب يحيى وجلس لقبول التهنئة بقتله . ففى هذه الملاحظة ما يجوز أن يُلقى الشبهة على جِده فى التشيع ولدده فى الخصومة للمذهب . فاذا أردنا أن نذكر ذلك وجب أن نذكر معه أمورا كثيرة تصحح تلك الملاحظة وترد تلك الشبهة . وهى : ان ابن الرومى لم يكن قط لدودا فى اية خصومة ولا صارما فى

أية عصبية ، وان محمد بن عبد الله بن طاهر مات بعد مقتل يحيى بثلاث سنوات سكنت فيها سورة الحزن وفترت حدة الغضب ، وان ابناء طاهر كانوا حماة لابن الرومى يمدحهم ويرثيهم ويختلف الى قصورهم ويدخل فيما بينهم من منافسة ومصالحة بين أقطابهم . فأولى ان نذكر هنا انه نسى ذلك كله وهجاهم وثار عليهم فى سورة الحزن فرماهم بما نسميه الآن « الخيانة العظمى » واتهمهم بالكيد لبنى علىّ وبنى العباس على السواء ، وأنهم يأتمرون بالدولة العربية الاسلامية ليقيموا على انقاضها دولة الفرس القديمة! فقال لهم فى القصيدة الجيمية انكم لو امكنتكم فى الفريقين فرصة . . . .

اذن لا ستقدتم منهما وتر فارس وانْ وليا كم ، فالوشائج أوشج
أبى ان تحبوهم يد الدهر ذكركم ليالىَ لا ينفك منكم متوّج
وانى على الاسلام منكم لخائف بوائق شتى بابها الآن مرتج

وتلك سورة متشيع ناقم لا يبالى ما يقول وقد ملكه الحزن ونسى العواقب وراح يخبط فى تهم وحزازات كان اهونها يطير بالرأس فى تلك الأيام

ويصح أن نذكر بعد ما تقدم ان الطاهرين كانوا فى بواطنهم متشيعين يضطرون اضطرارا إلى حرب بنى على وقبول التهنئة بموتهم كما كان الطالبيون انفسهم يضطرون الى شهود محافل التهنئة وهم مطويون على الحزن الاليم والثأر المقيم . ويقول ابن الأثير ان سليمان ابن عبد الله بن طاهر انهزم اختيارا فى حرب الحسن بن زيد العلوى الذى ثار بعد مقتل يحيى بن عمر « لان الطاهرية كلها كانت تتشيع » .

فلما أقبل الحسن بن زيد الى طبرستان تأثم سليمان من قتاله لشدته فى التشيع وقال :

نبئت خيل ابن زيد اقبلت حينا تريدنا لتحسّينا الأمرينا
ياقوم ان كانت الانباء صادقة فالويل لى ولجمع الطاهرينا
أما انا فاذا اصطفت كتائبنا أكون من بينهم رأس المولينا
فالعذر عند رسول الله منبسط اذا احتسبت دماء الفاطميينا

وتشيّعُ الطاهريين معقول مرجح لانهم كانوا فرسا يوافق هواهم هذا المذهب ، ويصلح عندهم ذريعةً لقلب الدولة وتجديد ملك فارس وقيام الدولة الطاهرية . فرثاء الشاعر رجلا من الشيعة — على هذا الاحتمال — أمر لاغبار عليه من هذه الوجهة ولا شبهة فيه على صدق الميل والجد فى العقيدة

وأن أحق عقيدةٍ ان يجدّ المرء فيها لعقيدة تُجرّئه اذا خاف، وتبسط له العذر والعزاء اذاسخط من صروف الحوادث ،وتمهد له الأمل فى مقبل خيرٍ من الحاضر وأدنى منه الى كشف الظلامات ورد الحقوق ، وكل اولئك كان ابن الرومى واجدَه على أوفاه فى التشيع للعلويين اصحاب الامامة المنتظرة فى عالم الغيب على العباسيين اصحاب الحاضر الممقوت المتمنَّى زواله ، فلهذا كان متشيعا فى الهوى متشيعا فى الرجاء متشيعا فى الرأى الذى وافق الهوى والرجاء ، وكان « على مذهب غيره من الشعراء » وعلى مذهب غيره من سائر المتشيعين

***

أما الاعتزال فابن الرومى لايكتمه ولايمارى فيه ، بل يظهره اظهار معتز به حريص عليه ، فمن قوله فى ابن حريث :

معتزلى مسرّ كفر   يبدى ظهورا لهما بطون
أأرفض الاعتزال رأيا   كلا ! لانى به ضنين
لو صح عندى له اعتقاد   مادنت ربى بما يدين

يقول : ان ابن حريث هذا يبطن الكفر ويظهر الاعتزال وهو الايمان الصحيح فى رأى المعتزلة ، ثم يقول : أترانى اذن أرفض الاعتزال لان ابن حريث يدعيه ؟ فيجيب نفسه : كلا ! لأنى أضن به ، وأعلم ان عقيدة ابن حريث الباطنة غير الاعتزال ، ولولا علمى بذلك ما دنت ربى بما يدين

وكان مذهبه فى الاعتزال مذهب القدرية الذين يقولون بالاختيار وينزهون الله عن عقاب المجبر على ما يفعل . وذلك واضحٌ من قوله يخاطب العباس بن القاشى ويناشده صلة المذهب :

ان لا يكنْ بيننا قربى فآصرةٌ   للدين يقطع فيها الوالد الولدا
مقالة « العدل والتوحيد » تجمعنا   دون المضاهين من ثنى ومن جحدا
وبين مستطرفى غى مرافقةٌ   ترعى ، فكيف اللذان استطرفا رشدا
كن عند اخلاقك الزهر التى جُعلتْ   عليك موقوفةً مقصورةً ابدا
ما عذر « معتزلى » موسر منعت   كفاه معتزليا مقترا صفدا
أيزعم القدر المحتوم ثبّطه ؟   ان قال ذاك فقد حل الذى عقدا
ام ليس مستأهلا جدواه صاحبُه ؟   انىَّ ؛ وما جار عن قصد ولا عندا
أم ليس يمكنه ما يرتضيه له ؟   يكفى اخاً من اخ ميسور ما وجدا
لا عذر فيما يرينى الرأى أعلمه   للمرء مثلك ألا يأتىَ السددا

فواضحٌ من كلامه هذا انه « معتزلى » وأنه من أهل « العدل والتوحيد » وهو الاسم الذى تسمى به القدرية لأنهم ينسبون العدل

الى الله فلا يقولون بعقوبة العبد على ذنب قُضى له وسيق اليه ، ولأنهم يوحدون الله فيقولون ان القرآن من خلقه وليس قديما مضاهيا له فى صفتى الوجود والقدم . وقد اختاروا لأنفسهم هذا الاسم ليردوا به على الذين سموهم « القدرية » ورووا فيهم الحديث « القدرية مجوس هذه الأمة » فهم يقولون : ما نحن بالقدرية لأن الذين يعتقدون القدر أولى بأن ينسبوا اليه . انما نحن من أهل العدل والتوحيد لأننا ننزه الله عن الظلم وعن الشريك

وواضح كذلك من كلامه أنه يعتقد حرية الانسان فيما يأتى من خير وشر ويحتج على زميله بهذه الحجة فيقول له : لم لا تثيبنى ؟ ان قلت ان القدر يمنعك فقد حللت ما اعتقدت من اختيار الانسان فى أفعاله ، وان قلت انك لا تريد فقد ظلمت الصداقة وأخللت بالمروءة

وله عدا هذا أبيات صريحة فى اعتقاد « الاختيار » وخلق الانسان لأفعاله كقوله

لولا صروف الاختيـار لأعنقوا لهوىً ، كما اتسقت جمال قطار

وقوله :

أنّى تكون كذا وانت مخير متصرف فى النقض والامرار

وقوله :

الخير مصنوع بصانعـه فمتى صنعت الخير أعقبكا
والشر مفعول بفاعـله فمتى فعلت الشر أعطبكا

الا أنه كان يقول بالقدر فى تقسيم الأرزاق وأن

الرزق آت بلا مطالبة سيان مدفوعـه ومجتذبه

ويقول : أما رأيت الفجاج واسعـة والله حيا والرزق مضمونا

ولا تناقض عند القدرية فى هذا لأنهم يقولون بالاختيار فيما يعاقب عليه الانسان ويثاب لا فيما يناله من الرزق وحظوظ الحياة . ومن العزاء لابن الرومى أن يكون الرزق مضمونا مقدرا لأنه أمان له من مخاوف الغد المجهول وراحة من القاء التبعة على نفسه فيما أصابه من الخذلان والتخلف

أما القول بالطبيعتين فأوضح ما يكون فى قوله :

فينا وفيك طبيعة أرضية ... تهوى بنا أبدا لشر قرار

هبطت بآدم قبلنا وبزوجه ... من جنة الفردوس افضل دار

فتعوضا الدنيا الدنية كاسمها ... من تلكم الجنات والأنهار

بئست لعمر الله تلك طبيعة ... حرمت ابانا قرب أكرم جار

واستأسرت ضعفى بنيه بعده ... فهمو لها أسرى بغير اسار

لكنها مأسورة مقسورة ... مقهورة السلطان فى الاحرار

فجسومهم من أجلها تهوى بهم ... ونفوسهم تسمو سمو النار

لولا منازعة الجسوم نفوسهم ... نفذوا بسورتها من الاقطار[1]

أو قصروا فتناولوا بأكفهم ... قمر السماء وكل نجم سار

وكأن الفارسية هنا تسربت الى أقوال المعتزله كما تسربت الى كثير من أفكار الثقافة العربية ، فان القول بالطبيعتين من أقدم ما عرف من ديانة الفرس قبل أديان بنى اسرائيل وقبل النصرانية والاسلام . فلما جاء التوحيد الاسلامى أبطل التثنية ولم يبطل النزاع بين الخير والشر والنور والظلام ، فجاز للمسلم أن يؤمن بالطبيعتين على أن يؤمن بالوحدانية ولا يشرك الشر فى تدبير الوجود

---

(١) أقطار السموات

والى هنا تكلمنا عن مذهبه ولم نتكلم عن « فطرته الدينية » أو عن قوة الايمان فى نفسه

والفرق بين الأمرين لا يحتاج الى شرح طويل . فان الناس قد يختلفون فى المذهب أبعد اختلاف ويتفقون فى « الفطرة الدينية » أقرب اتفاق ، فربما رأيت الف رجل يدينون بكل مذهب فى فجاج الارض وهم على الرغم من ذلك أصحاب «فطرة دينية واحدة» مطبوعون على حماسة الدين أو مطبوعون على حب التقديس والعبادة ، يتفقون فى هذه الفطرة ويخرج كل منهم الى معبده فاذا واحدٌ منهم ذاهب الى المسجد والثانى الى الكنيسة والثالث الى المعبد والرابع الى بيت الاصنام، أو يتفقون على هذه الفطرة ويخرج كل منهم الى قتال الآخرين بتلك الغيرة القوية التى يقاتله بها أولئك الآخرون . فالفطرة الدينية توجَد فى أنصار كل مذهب وملة ، أما المذاهب والملل فلا نهاية لها فى التعدد والافتراق

وابن الرومى كان مفطورا على التدين لأنه كان مفطورا على التهيّب والاعتماد على نصير ، وهما منفذان خفيان من منافذ الايمان والتصديق بالعناية الكبرى فى هذا الوجود . ومن ثَم كان مؤمنا بالله خوفاً من الشك ، مقبلا على التسليم بسيطا فى تسليمه بساطة من يهرب من القلق ويؤثر السكينة الى أى شىء ، وبلغ من بساطته أنه كان ينكر على الحكماء الذين يشكون فى حفظ أجساد الاتقياء بعد الموت ويحسبونه من فعل الدواء والحنوط . فقال لابن أبى ناظرة حين تذوّق بعض الاجساد ليعلم مافيها من عوامل البقاء

يا ذائق الموتى ليعلم هل بقوا ‏ ‏ بعـــد التقادم منهمُ بدواء
بينتَ عن رعة وصدق أمانة ‏ ‏ لو لا ابهامك خالق الاشياء
أحسبت أن الله ليس بقادر ‏ ‏ أن يجعل الاموات كالاحياء
وظننت ما شاهدت من آياته ‏ ‏ بلطيفة من حيلة الحكماء

ومات وهو يقول فى ساعاته الأخيرة

الا أن لقاء الله هول دونه الهول

وما كانت الطيرة عنده الا شعبة من ذلك « التهيب » الدينى الغريزى فيه . فهو يتفلسف ويرى الآراء فى الدين ولكن فى حدود من الشعور لا فى حدود من التفكير ، ولهذا كان الفنان ولم يكن الفيلسوف

وليس من « الاجتراء » انه قال بالاختيار ورأى له فى الدين رأيا غير ما اصطلح عليه السواد . فانه كان يحيل الذنب على الانسان وينفى الظلم عن القدر فى العقاب والثواب ويتصور الله على أحسن ما يتصور المتفلسف مثله الهه، فكأنما جاءه هذا الرأى من محاباة عالم الغيب لا من الاجتراء عليه، وانما دفع به الى رأى المعتزلة مخاوف الشكوك التى كانت تخامره فلا يستريح حتى يسكن فيها الى قرار وينتهى من التفكير فيها الى بر الامان ، ولذلك كان يأوى الى الاصدقاء يكاشفهم عما فى صدره ويستعين بهم على تفريج غمته

ويدمج اسباب المودة بيننا ‏ ‏ مودتنا الابرار من آل هاشم
واخلاصنا التوحيد لله وحده ‏ ‏ وتذبيبنا عن دينه فى المقاوم
بمعرفة لايقرع الشك بابها ‏ ‏ ولا طعن ذى طعن عليها بهاجم
وإعمالنا التفكير فى كل شبهة ‏ ‏ بها حجةٌ تعيي دهاة التراجم

يبيت كلانا فى رضى الله ما حضا   لحجته صدرا كثير الهمام

بيد أن « الايمان» شيء واداء الفرائض الدينية شيء آخر ،فقصارى الايمان عنده انه يؤمّنه بقرب آل البيت وتنزيه ربه والاطمئنان الى عدله ورحمته ، ثم يدع له سبيله يلعب ويمرح كلما لذ له اللعب والمرح ، ولا أهلا بالصيام اذا قطع عليه ما اشتهى من لذة وأرب :

فلا اهلا بمانع كل خير   واهلا بالطعام وبالشراب

بل لا حرج عليه اذا قضى ليلة فى السرور ان يشبهها بليلة المعراج

رفعتنا السعود فيها الى الفو   ز فكانت كليلة المعراج

ذلك أنه كان فى تقواه طوع الاحساس الحاضر كما كان فى كل حالة من حالاته . يلعب فلا يبالى أن يتماجن حيث لا يليق مجون ،ويستحضر التقوى والخشوع فلا يباريه أحد من المتعبدين ، ويخيل اليك انك تستمع الى متعبد عاش عمره فى الصوامع حين تستمع اليه يقول :

تتجافى جنوبهم   عن وطىء المضاجع

كلهم بين خائف   مستجير وطامع

تركوا لذة الكرى   للعيون الهواجع

ورعوا أنجم الدجى   طالعا بعد طالع

لو تراهم اذا همُ   خطروا بالاصابع

واذا هم تأوهوا   عند مرّ القوارع

واذا باشروا الثرى   بالخدود الضوارع

واستهلت عيونهم   فائضات المدامع

ودعوا : « يا مليكنا   يا جميل الصنائع »

اعف عنـــا ذنوبنا　　للوجـوه الخواشع
اعف عنـــا ذنوبنا　　للعيون الدوامع
انت ان لم يـكن لنا　　شافع ، خيرشافع »
فأجيبــــوا إجابة　　لم تقع فى المسامع
« ليس ما تصنعونه　　أوليـــائى بضائع »
« ابذلوا لى نفوسكم　　أنهـــا فى ودائع »

وله من طراز هذا الشعر الخاشع كثير لا تسمعه من ابن الفارض ولا محيي الدين ؟

هجاؤه

أخرج القرن الثالث للهجرة شاعرين هجائين هما أشهر الهجائين في أدب العصور الاسلامية عامة، أحدهما ابن الرومى والآخر دعبل الخزاعى هاجى الخلفاء والامراء وهاجى الناس جميعا والقائل:

أنى لافتح عينى حين افتحها ... على كثير ولكن لا أرى أحدا

وقد جمع المعرى بينهما فى بيت واحد وضرب بهما المثل لهجاء الدهر لبنيه فقال:

لو انصف الدهر هجا أهله ... كأنه الرومى أو دعبل

وليس للمؤرخ الحديث أن يضيف اسما جديدا الى هذين الاسمين، فان العصور التالية للقرن الثالث لم تخرج من يضارعهما فى قوة الهجاء والنفاذ فى هذه الصناعة، وكلاهما مع هذا نوع فذ فى الهجاء يظهر متى قرن بالآخر. فدعبل كما قلنا فى غير هذا الكتاب:

« كان صاحب طبيعة من تلك الطبائع النابية النافرة التى تخرج على « المجتمع » وتثور به ولا تزال فى حرب معه لا مسالمة فيها ولا مهادنة الى ان يواريها الموت فى ثراه، وكان غاضبا أبدا على الناس ينكر عرفهم ويشذ على اجماعهم ويهجو افرادهم باسمائهم وهو انما يهجو الناس جميعا فى اشخاص اولئك الافراد.... وكان يهيم على رأسه فى البلاد سنين عدة تنقطع فيها أخباره وتخفى آثاره ثم يظهر حيث كان فجأة وقد أثرى وغنم ليبدد ماجمعه فى اللهو والقصف، ثم ينقلب الى شأنه من الاباق والتطواف فى ارجاء الارض، وربما لقى الشراة وقطاع الطريق فى بعض رحلاته فيجالسهم ويؤاكلهم ويأمر غلاميه ان يغنيا لهم ويعرفهم ويعرفونه فلا يمسونه بأذى ولا يذكرهم بسوء، لانهم ابناء نحلة واحدة يؤلف شملهم النفور من الناس

ويوفق بينهم الشذوذ عما تواضعوا عليه من الآداب والدساتير . فهو قاطع طريق بفطرته التى ولد عليها وإن لم يحمل السيف ولم يخرج للفتك والغيلة ، بل لقد قيل انه قطع الطريق فى بعض ايامه فعلا « وانه كان يكمن للناس بالليل فرصد يوما صيرفيا طمعا بما معه ففتك به ولم يجد فى كمه الا ثلاث رمانات فى خرقة فخرج هاربا من الكوفة لاشتداد الطلب عليه » وما كان هجوه لو بحثت فى اسبابه الا ضربا من قطع الطريق على الناس اشتهاء فى أكثر الاحيان للذة الصيد والقنص ونزوة المطاردة والتخويف ، لا طمعا فى المال او طلبا للترات . فما اتفق الناس على امام الاهجاه والح فى هجائه وان احسن اليه واجزل له العطاء ، ولا ترك اميرا ولا وزيرا ولا واليا الا ناله بلسانه عرضا او قصدا ولو كان من ابناء قبيلته ومن خاصة المفضلين عليه »

« . . . . . اما ابن الرومى فلم يكن مطبوعا على النفرة من الناس ولم يكن قاطع طريق على « المجتمع » فى عالم الادب ، ولكنه كان « فنانا » بارعا اوتى ملكة التصوير ولطف التخيل والتوليد وبراعة اللعب بالمعانى والاشكال ، فاذا قصد شخصا او شيئا بهجاء صوّب اليه « مصورته » الواعية فاذا ذلك الشخص او ذلك الشىء صورة مهيأة فى الشعر تهجو نفسها بنفسها وتعرض للنظر مواطن النقص من صفحتها كما تنطبع الاشكال فى المرايا المعقوفة والمحدبة ، فكل هجوه تصوير مستحضر لاشكاله او لعب بالمعانى على حساب من يستثيره »

هذا هو الفرق بين مذهبي هذين الشاعرين اللذين ظهرا فى قرن احد وأخذا بطرفى الهجاء فى الآداب العربية

ولك أن تقول من جهة أخرى أن الفرق بينهما كان فرقا بين المذهب البدوى والمذهب الحضرى فى الهجاء . فقد كان دعبل بدويا نافراً بفطرته وكان ابن الرومى حضريا أنيساً بفطرته ، فاذا تبرم ابن

رومى بالناس فانما يتبرم بهم تبرم من يألفهم ويأنس بهم ويعانى مايعانى من عشرتهم ثم يسخط عليهم لأنه مقيد بهم لا يستطيع الفكاك منهم . فسخطه أساسه المودة والألفة وليس أساسه القطيعة والنفرة ، كما كان السخط فى نفس صاحبه دعبل الخارج على الجماعة القاطع الطريق

ولهذا الفرق أثره فى موضوع المثالب التى يلقيها كل منهما على مهجويه ، فدعبل يسلب المهجو جميع الفضائل التى تعتز بها النفس الصارمة البدوية : يسلبه النخوة والكرم والبأس وطيب النحيزة . ويجعله رجلا يسمع البدوى صفاته فيقول أنه حقير مرذول

وابن الرومى يسلب مهجوه الفطنة والكياسة والعلم ويلصق به كل عيوب الحضارة التى يجمعها التبذل والتهالك على اللذات ، فاذا حذفت من هجوه كل ما أوجبته الحضارة والخلاعة الفاشية فى تلك الحضارة فقد حذفت منه شرّ ما فيه ولم يبق منه الا ما هو من قبيل الفكاهة والتصوير

والبدوى يخاف الذم والحضرى قلما يخافه

فما يرتاح للمدح ولا يرتاع للشتم

كما قال الرومى فى بعض مهجويه . فالافحاش وليد الحضارة والغلو فى الافحاش وليد التهتك فى الحضارة ، ومتى غلا الشاعر فى القذف بأدناس التبذل والخلاعة فهناك عيبان محققان أحدهما لا شك عيب البيئة التى أشاعت تلك الادناس أو جعلت الذم بها ذما هينا على الاسماع فلا بد فيه للشاعر من المبالغة والاغراق

والثانى تبحث عنه فى قائل الهجو ومدمنه ، فانه لولا عيب فيه لما

اضطر الى الهجاء ولا أدمنه وأفرط فيه

فما هو عيب ابن الرومى — أو ما هى عيوبه — التى أولعته بالهجاء والافحاش وصيرته عنوانا لزمانه فى السفاهة والبذاء ؟ يبدو لنا أن عيبه الأول هو الشهوانية والتهالك على اللذات . فالشهوانية هى التى هونت عليه الاقذاع وسوغت له خوض الفضائح فأوغل فيها غير مستكره ولا متحرج . ثم أعانها الضعف وهو عيبه الغالب عليه الذى تبدأ منه وترجع اليه جميع عيوبه

ففى هجائه صفة ذميمة يشمئز منها القارىء جداً فى كثير من الاحيان ، ولكنها صفة الضعف والخفة وليست صفة الخبث والرداءة ، وقل فيه وفى هجائه ما شئت من لوم وتهجين وتأفف ولكنك متى قلت فيه كل ما هو أهله وأقبلت ترد هجاءه الى بواعثه لم تجد ثمة شرا دخيلا ولم تخطىء قط أن تجد الحرج والاضطرار وتشعر بأن قائل هذا الهجاء رجل متألم يدفع الألم عن نفسه وليس برجل السوء الذى يعنيه أن يوقع الالم بغيره ويعتد ايلام الناس غرضا له مقصودا لذاته

وهو مع اشتهاره بالهجاء أسلم من غيره حالا فيه وأكثر عذرا من غير المشهورين به . أسلم من البحترى مثلا كما قال المرزبانى فى الموشح :

« وكثير من اهل الآدب ينكر خبث لسان على بن العباس الرومى ويطعن عليه بكثرة هجائه حتى جعلوه فى ذلك أوحد لا نظير له . ويضربون عن اضافة البحترى اليه والحاقه به مع احسان ابن الرومى فى اساءته وقصور البحترى عن مداه ، وانه لم يبلغه فى دقة معانيه وجودة الفاظه وبدائع اختراعاته أعنى الهجاء خاصة . لان البحترى قد هجا نحوا من اربعين رئيسا ممن مدحه ، منهم خليفتان : وهما المنتصر والمستعين ، وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من جلة الكتاب

والعمال ووجوه القضاة والكبراء بعد ان مدحهم واخذ جوائزهم ،وحاله فى ذلك تنبىء عن سود العهد وخبث الطريقة . ومما قبح فيه ايضا وعدل عن طريق الشعراء المحمودة انى وجدته قد نقل نحوا من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفر حظه منهم عليها الى مدح غيرهم وامات اسماء من مدحه أولا ، مع سعة ذرعه بقول الشعر واقتداره على التوسع فيه

« وقال احمد بن ابى طاهر : ما رأيت اقل وفاء من البحترى ولا اسقط ، رأيته قائما ينشد احمد بن الخصيب مدحا له فيه فخلف ليجلسن . ثم وصله واسترضى له المنتصر وكان غضبان عليه . ثم أوصل له مديحا اليه واخذ له منه مالا فدفعه اليه ، ثم نكب المستعين احمد بن الخصيب بعد فعله هذا بشهور فلعهدى به قائما ينشده

لابن الخصيب الويل كيف انبرى بافكه المردى وابطاله

. . . .

يا ناصر الدين انتصر موشكا من كائد الدين ومغتاله

فهو حلال الدم والمال ان نظرت فى ظاهر احواله

ثم قال ابن ابى طاهر : كان ابن العلجة فقيها يفتى الخلفاء فى قتل الناس . نزحه الله . ثم ختم القصيدة بقوله

« والرأى كل الرأى فى قتله بالسيف واستصفاء امواله »

فالبحترى كان فى غنى عن هذا ومندوحة واسعة ، ولكنك قلَّ أن تقرأ لابن الرومى هجاء تقول انه كان من الوجهة النفسية فى غنى عنه

على أن لصاحبنا فناً واحدا من الهجاء لا ترتاب فى انه كان يختاره ويكثر منه ولو لم تحمله الحاجة وتلجئه النقمة اليه ، ونعنى به فن التصوير الهزلى والعبث بالاشكال المضحكة والمناظر الفكاهية والمشابهات الدقيقة ، فهو مطبوع على هذا كما يطبع المصور على نقل ما

يراه واعطاء التصوير حقه من الاتقان والاختراع ، وما نراه كان يقلع عنه فى شعره ولو بطلت ضروراته وحسنت مع الناس علاقاته . لكنّ هذا الفن أدخل فى التصوير منه فى الهجاء ، وهو حسنة وليس بسيئة وقدرة تُطلب وليس بخلة تنبذ . وانت لا يغضبك ان ترى ابنك الذى تهذبه وتهديه ماهرا فيه خبيرا بغامزه وخوافيه ، وان كان يغضبك أن تراه يشتم المشتوم ويهين المهين ويهجو من يستهدف غرضه للهجاء . لأنك اذا منعته ان يفطن الى الصور الهزلية وان يفتنّ فى ادراك معانيها وتمثيل مشابهاتها منعت ملكة فيه ان تنمو وابيت على حاسة صادقة فيه ان تصدقه وتفقه ما تقع عليه ، اما اذا منعت الهجاء وبواعثه فانك تمنع خلقا يُستغنى عنه وميلا لا بد له من التقويم

ذلك هو فن ابن الرومى الذى لاعذر له منه ولاموجب للاعتذار ، فأما ما عدا ذلك من هجائه فهو مسوقٌ فيه لا سائق ومدافعٌ لا مهاجم ومستثار عن عمد فى بعض الاحيان لا مستثير . وانك لتقرأ له قوله :

ما استب قط اثنان الاغلبا شرهما نفسا واما وأبا

فلا تصدق ان قائله هو ابن الرومى هجّاء اللغة العربية وقاذف المهجوين بكل نقيصة . لكنّ الواقع هو هذا ، والواقع كذلك انه كان يسكن الى رشده احيانا فيسأم الهجاء ويعافه ويود الخلاص منه حتى ولو كان مهجوا معدوّا عليه ، ويعتزم التوبة عن الهجاء مقسما

آليت لا أهجوا طوا ل الدهر الا من هجانى
لا بل سأطّرح الهجا ءوان رمانى من رمانى

امن الخلائق كلهم فليأخذوا منى امانى
حلمى أعز على من غضبى اذا غضبى عرانى
اولى بجهلى بعدما مكنت حلمى من عنانى

وهذا اشبه بابن الرومى لانه فى صميمه خلق مسالما سهلا ولم يخلق شريرا مطويا على الشكس والعداوة . بل هو لو كان شريرا لما اضطر الى كل هذا الهجاء ، اوهو لو كان اكبر شرًا لكان أقل هجاء ، لانه كان يأمن جانب العدوان فلا يقابله بمثله . وما كان الهجاء عنده كما قلنا الا سلاح دفاع لا سلاح هجوم ، وما كان هجاؤه يشف عن الكيد والنكاية وما شابها من ضروب الشر المستقر فى الغريزة كما كان يشف عن الحرج والتبرم والشعور بالظلم الذى لا طاقة له باحتماله ولا باتقائه . وكثيرٌ من الأشرار الذين يقتلون ويعتدون ويفسدون فى الارض يقضون الحياة دون ان تسمع منهم كلمة ذم فى انسان ، وكثيرٌ من الناس يذمون ويتسخطون وهم مطبوعون على الخير والعطف وحسن المودة ، بل هم قد يذمون ويسخطون لانهم على ذلك مطبوعون

ومن قرأ مراثى ابن الرومى فى اولاده وأمه واخيه وزوجته وخالته وبعض اصدقائه علم منها انها مراثى رجل مفطور على الحنان ورعاية الرحم والانس بالاصدقاء والاخوان . فمراثيه هى التى تدل عليه حق الدلالة المنصفة وليست مدائحه التى كان يمليها الطمع والرغبة او أهاجيه التى كان يمليها الغيظ وقلة الصبر على خلائق الناس . ففى هذه المراثى تظهر لنا طبيعة الرجل لا تشوبها المطامع والضرورات ، ونرى فيه الولد البار والاخ الشفيق والوالد الرحيم والزوج الودود والقريب الرؤم

والصديق المحزون . ولا يكون الرجل كذلك ثم يكون مع ذلك شريرا مغلق الفؤاد مطبوعا على الكيد والايذاء

واذا اختلف القولان بينه وبين ابناء عصره فاحجى بنا ان نصدق كلامه هو فى ابناء عصره قبل ان نصدق كلامهم فيه ، لانهم كانوا يستبيحون ايذاءه ويستسهلون الكذب عليه لغرابة اطواره وتعوّد الناس ان يصدقوا كل ما يُرمى به غريبُ الاطوار من التهم والاعاجيب، فى حين انه كان يتحاشى عن تلك التهم ويغفر الاساءة بعد الاساءة مخافةً من كثرة الشكاية وعلما منه بقلة الانصاف :

اتانى مقال من أخ فاغتفرته ... وان كان فيما دونه وجه معتب
وذ كّرت نفسى منه عند امتعاضها ... محاسن تعفو الذنب عن كل مذنب
ومثلى رأى الحسنى بعين جلية ... وأغضى عن العوراء غير مؤنب
فياهاربا من سخطنا متنصلا ... هربت الى انجى مفر ومهرب
فعذرك مبسوط لدينا مقدم ... وودك مقبول بأهل ومرحب
ولو بلغتنى عنك اذنى اقمتها ... لدى مقام الكاشح المتكذب
ولست بتقليب اللسان مصارما ... خليلى ، اذا ما القلب لم يتقلب

فالرجل لم يكن شريرا ولا ردىء النفس ولا سريعا الى النقمة، فلماذا اذن كثر هجاؤه واشتد وقوعه فى اعراض مهجويه ؟ نظن انه كان كذلك لانه كان قليل الحيلة طيب السريرة خاليا من الكيد والمراوغة والدسيسة وما شابه هذه الخلائق من أدوات العيش فى مثل عصره . فكان مستغرقا فى فنه يحسب أن الشعر والعلم والثقافة وحدها كفيلة بنجاحه وارتقائه الى مراتب الوزارة والرآسة ، لانه كان فى زمن

يتولى فيه الوزارة الكتاب والرواة ويجمعون فى مناصبهم الوف الالوف ويحظون بالزلفى عند الامراء والخلفاء ، وقد كان هو شاعرا كاتبا وكان خطيبا واسع الرواية مشاركا فى المنطق والفلك واللغة وكل ماتدور عليه ثقافة زمانه ، او كما قال المسعودى كان الشعر اقل ادواته . . . وكان الشعر وحده كافيا لجمع المال وبلوغ الآمال، فماذا بعد أن يعرف الناس انه شاعر وانه كاتب وانه راوية مطلع على الفلسفة والنجوم الا ان تجيئه الوزارة ساعيـة اليه تخطب وده كما جاءت الى أناس كثيرين لا يعلمون علمه ولا يبلغون فى البلاغة مكانه ؟! ألم يصل ابن الزيات الى الوزارة بكلمة واحدة فسرهـا للمعتصم وفصّل له تفسيرها وهى كلمة « الكلأ » التى يعرفها عامة الأدباء ؟ بلى ! وابن الرومى كان يعرف من غريب اللغة ما لم يكن يعرفه شعراء عصره ولا أدباؤه . فما أولاه اذن بالوزارة وما أظلم الدنيا اذ هى ضنت عليه بحقه من المناصب والثراء ! !

فاذا لم تكن الوزارة فهل أقل من الكتابة او العمالة لبعض الوزراء والكتاب المبرزين ؟ فاذا لم يكن هذا ولا ذاك فهل غبن اصعب على النفس من هذا الغبن ؟ وهل تقصير من الزمان الأم من هذا التقصير ؟

ونبوءة ابيه ورجاؤه فى مستقبله وقوله له «انت للشرف» أيذهب هذا كله هباء لا يقبض منه اليدين على شيء ؟ تلك النبوءات التى تنطبع على افئدة الصغار بمثل النار ولا تزال غرارة الطفولة واحلام الصبا تزخرفها وتوشيها وتعمق فى الضمير اغوارها ايأتى الشباب وهى محو لغو مطموس لا يبين أو لا يبين منه الا ما ينقلب الى الاضداد وتترجمه الايام بالسقم والفقر والكساد ؟ وكيف يمحى إلا وقد محى القلب الذى طبعت

فيه؟ وكيف ينعكس معناه الا وقد انعكس فى القلب كل قائم والتوى فيه كل قويم؟ ذلك صعب على النفوس وليس بالسهل إلا على من يلهو به وهو بعيد

وهكذا كان ابن الرومى يسأل نفسه مرة بعد مرة ويوما بعد يوم:

مالى أسل من القراب وأغمد   لم لا أجرد والسيوف تجرد
لم لا أجرب فى الضرائب مرة؟   يا للرجال! وانى لمهنـد..!

ولا يدرى كيف يجيب نفسه على سؤاله، لأنه لم يكن يدرى أن فضائله كلهـا لا تساوى فتيلا بغير الحيلة والعلم بأساليب الدخول بين الناس وأن الحيـلة وحدها قد تغنى عن فضائله جميعا ولو كان صاحبهـا لا ينظم شعرا ولا ينظر فى كتب الفلسفة والرواية والنجوم...

حسن! إذن ندع الوزارة والولاية والعمالة بعد يأس مضيض يسهل علينا هنا أن نسطره فى كلمة عابرة ولكنه لا يسهل على من يعالجه ويشقى بمحنته فى كل ساعة من ساعات حيـاته، ندع الوزارة والولاية والعمالة ونقنع بالمثوبة من الوزراء والولاة والعمال ان كانوا يثيبون المادحين. فهل تراهم يفعلون؟

لا! لأن الحيلة لازمة فى استدرار الجوائز والمثوبات لزومها فى كل غرض من أغراض المعـاش ولا سيما فى ذلك الزمان الذى شاعت فيـه الفتن والسعايات وما كانت تنقضى منه سنة واحدة بغير مكيدة خبيثة تودى بحياة خليفة أو أمير أو وزير. وربما كانت مصانعة الحجاب والتماس مواقع الهوى من نفوس الحاشية والنـدمان واللعب بغامز النفوس الخفية واضحاك هؤلاء وهؤلاء أجدى على الشاعر فى هذا الباب من

بلاغة شعره وغزارة علمه ، وربما كان الوزير لا يثيب الشاعر إلا ليستصلحه كما كانوا يقولون فى لغة ذلك الزمان، أى ليتخذه نصيرا له عسى أن ينفعه يوماً فى مجالس الخلفاء والأمراء بكلمة يقضى بها مأربا أو يكبت عدوا أو بحيلة يقرب بها بعيدا أو يبعد قريباً . وأين يذهب ابن الرومى فى هذا المجال ؟ وماذا يرجو الممدوحون من تقريبه وهو رجل كما كانوا يقولون ممرور موسوس أدبه أكبر من عقله ولسانه أطول من صبره؟ لقد كان صاحبنا صفراً من هذه البضاعة فلا جرم نراه يشكو تكبر الحجاب ودسائس الندماء والاصحاب ويُعطى القليل حين يُجزل عطاء الآخرين أو يثاب مرة ويحرم مرات ، فقد بلغ من وكس حاله فى هذا أنه كان يستجدى الكساء فيمطلونه ويعود إلى الاستجداء فيعودون إلى المطل حتى يقول :

جعلت فداك لم أسأ لك ذاك الثواب للكفن
سألتكه لا لبسه وروحى بعد فى البدن

وبلغ من وكس حاله أن الممدوحين كانوا يقبلون شعره ولا يثيبونه فاذا ألح فى طلب المثوبة قالوا خذ شعرك فامدح به غيرنا كما فعل ابن المدبر حين قال فيه

رددت على مدحى بعد مطل وقد دنست ملبسه الجديدا
وقلت امدح به من شئت غيرى! ومن ذا يقبل المدح الرديدا ؟
ولا سيما وقد أعقبت فيه مخازيك اللواتى لن تبيدا
وما للحى فى أكفان ميت لبوس بعد ما ملئت صديدا

وكان يصنع القصيدة ويتبعها خمس قصائد أو ستا ليحصل على

جائزتها فلا يحصل بعد الجهد على شيء، ويعجب لذلك ويأخذه الشك في شعره فيقول :

عجبت لقوم يقبلون مدائحي ويـنسون تثويبي، وفي ذاك معجب
أشعري سفساف؟ فلم يجتبونه؟ وإن لا تكن هذي فلم لا أثوَّب

ولعله كان يتهم شعره أحيانا فيقول

الشعر كالعيش فيـــه مع الشبيبـــة شيب
فليصفح النـاس عنـه فطعنهم فيـــه غيب

أو يعتذر بالفاقة من السخف :

لا تلحنى فى المنطق السخيف فانني فى حالة اللهيف
وأحوج الناس الى رغيف

أو يقول :

قولا لمن عاب شعر مادحه أما ترى كيف ركب الشجر ؟
ركب فيه اللحاء والخشب اليا بس والشوك بينـــه الثمر
وكان أولى بأن يهذب ما يخـ لق رب الأرباب لا البشر

ثم يعود اليه اعتداده بكلامه فيلقى الذنب على النـاس لجهلهم بمعانى الكلام

ما خمـدت نارى ولـكنها الفت قلوبنـا نارها خامـدة

أو يقول :

ما بلغت بى الخطوب رتبة من تفهم عنه الـكلاب والقردة
وما أنا المنطق البهائم والطـ ـير سليمان قاهر المردة

أو يقول انهم بهائم لا يفهمون الا البهائم :

بحقهمُ ان باعدونى وقربوا　　سواى وتقريب المباعد أوجب
خفافيش اعشاها نهار بضوئه　　ولازمها قطع من الليل غيهب
بهائم لا تصغى الى شدو معبد　　واما على جافى الغناء فتطرب

ويخطر له حيناً أن الأمراء يحسدون شعره لأنهم يقرضون الشعر فينفسون الجيد منه على الشعراء . ولا يبعد أن يكون ذلك صحيحا كما قال :

قد بلينا فى دهرنا بملوك　　أدباء علمتهم شعراء
ان أجدنا فى مدحهم حسدونا　　فحرمنا منهم ثواب الثناء
أو أسأنا فى مدحهم أنّبونا　　وهجوا شعرنا أشد هجاء
قد أقاموا نفوسهم لذوى المد　　ح مقام الانداد والنظراء

وكان من هؤلاء محمد بن عبد الله الذى قال فيه :

إخالك إذ جوّدت فيك مدائحى　　منعت ثوابى حاسدا لى على شعرى
أتحسدنى تجويد ريط نسجته　　لتلبسه ؟ يا للعجيب من الأمر ؟
تذكر هداك الله انى مادح　　وانك ممدوح فلا تعد بى قدرى
ينافس فى الشعر النظير نظيره　　وجل ملوك الناس عن ذلك النجر

فاذا لج به الغيظ واشتد عليه بلاء الحرمان من العمل والحرمان من المثوبة صرخ متعجبا :

اذو آلة ؟ فاستخدمونى لآلتى　　بقوتى، والافارزقونى مع الزمنى

أى ارزقونى مع العجزة والسقماء ، وهذه نهاية البؤس والخيبة ونهاية الحيرة التى لا يهتدى فيها المسكين إلى سبب مريح . فلم يبق له من عزاء إلا أن يوقن أن الدنيا هكذا طبعت على ظلم العارفين ومحاباة الأغبياء

رأيت الدهر يرفع كل وغد ويخفض كل ذى زنة شريفة
كذاك البحر يرسب فيه در ولا تنفك تطفو فيه جيفة

وكرر هذا المعنى فى معارض شتى على قواف مختلفة ، لأنه سكن اليه ووجد فيه عزاءه ولو إلى حين

وينبغى أن نذكر هنا شيئا لابد من ذكره فى هذا المقام لأنه لازم لادراك حقيقة الغضب الذى كان يستولى على نفس الشاعر المحروم إذا أجاد المديح ولم يظفر بالعطاء ، فقد كان حق الشاعر فى العطاء معترفا به يقبله الأمراء والوزراء ويقره العرف وتجرى عليه القدوة . فنحن لا نعرف اليوم ذلك الحق للشاعر ولا نستطيع لهذا أن ندرك غضبه وأسفه إذا حرم وتوالى عليه الحرمان ، أما فى عهد ابن الرومى فغضبه من المنع وأسفه على فوات الربح من هذه المقاصد أمر لا غرابة فيه ولا اعتراض عليه ، فالحكم عليه إنما يكون بمقياس أيامه لا بمقياس أيامنا التى لا يجب فيها البذل على ممدوح ولا يجوز فيها الهجاء لشاعر محروم

ومما ضاعف الاستخفاف بابن الرومى أنه كان متطيرا غريب الأطوار لا يأخذه الناس مأخذ الجد ولا يزال المعربدون منهم يعتمدونه بالعبث ويتماجنون عليه لشدة فرقه وانزعاجه من الفأل السيء

يضحك من كل ما بكيت له كأن لذاته بآلامى

وكان بعضهم يصبحه بقرع بابه فاذا سأله من الطارق ؟ قال مرة ابن حنظلة ! فيمكث فى بيته لا يريم عنه سحابة يومه ! وكانوا يسوقون اليه رجلا أحدب كريه الرؤية يقابله بوجهه إذا خرج من منزله فيرتد على عقبيه ! وكانوا يحورون عليه بالعبث فيتوعد فلا يحفلون فيهجو

ولكن بعد مصابرة واعتاب . وكم قال كما قال لابن عروس

يا ليت شعرى وليت شعرك ان قلت وقلنا واستحكم القذع
ما ينفع الصارم اللسان إذا غودر يوما وعرضه قطع
فارجع وبُقيا أخيك باقية واندم وفى الحلم فسحة تسع

أو كما قال لبنى السمرى !

يا بنى السمرى لا تجشمونى أن تثير القصيد كل دفين
قد تجاوزت ما تجاوزت عنكم وتغاضت على قذا كم جفونى
لا يغرّنكم بجهلى حلمى وارعوائى إلى حيائى ودينى
ان لين المهز فى السيف أمضى بغرارية فى صميم الشئون

أو كما قال لغيرهم ولغيرهم من العابثين والماطلين الذين كانوا يضحكون مما يبكيه ويتفكهون بما يحز فى قلبه ويدميه . فماذا أفاده العتاب وماذا دفعت عنه الشكاية ! لا شىء ! لأن الاعراض هانت على أصحابها فى ذلك العصر فلا يبالون المذمة إلا أن يكون فيها معنى الاجتراء على الجاه والقوة ، وهم أحرى ألا يبالوها من شاعر كابن الرومى ليس أسهل عليهم من أن يقولوا عنه انه هذيان ممرور ، فيضيق ذرعا بهم ويهجو كالمدفوع إلى غير ما يحب ، ويظهر ذلك منه فى بعض القصائد كما يظهر من قوله

لا يغضبن لعمرو من له خطر فليس يرضى بظلمى من له خطر

كأنه يقول : لقد صبرت على عمرو فرضى الناس بظلمه إياى فاذا هجوته أنا الآن فما يحق لذى خطر أن يغضب له وهو منصف بينى وبينه

وقد يعترف بالوسواس على نفسه ولكنه يرده إلى سوء حظه واحجاف الأيام به كما قال حين رماه الناشيء بالوسواس

أن أوسوس فخقيق ، يسعد الفرد وانحس !
أصبح الناشيء ممن يتغنى وهو أخرس
نافقا عند أناس تعسوا والدهر أتعس
ته على الدنيا وقل ما شئت واظلم وتغطرس
لم يقدس منك شيء ولك الجد المقدس
كيف لا يشتد وسوا سى وأشعارك تدرس
وضياء الشمس لا يقبس والظلماء تقبس

***

فاذا عبث به العابثون وتحدثوا بنحسه لم يسره ذاك وحق له ألا يسر به وقال مناجزا :

زعمت بأنى نحس وأنى مجيبك معلنا لا أتقيكا

وانطلق يصخب ويثلب وهو فى رأيه معذور فى ذلك الجرم الذى جنوه عليه قبل أن يجنيه عليهم، ومعذور حتى من الحسد الذى كان لا يداريه ولا ينكره ولكن يقول فى التماس المعذرة له

لا تلومن حاسدا ، ألم النفس من النحس يا أخى شديد

وزد على ذلك فجائعه فى بنيه وأحبابه واحدا بعد واحد وهو أحوج ما يكون إلى معونتهم وعطفهم بين قوم كأنه غريب فيهم لا يفهمهم ولا يفهمونه ، وزد عليه طمع الناس فيه حتى كانت تسلبه ملكة الزهيد

امرأة كما جاء فى بعض شعره ويغصبه منزله الذى يسكنه تاجر يستهين به وبما عسى أن يصنع

وراغمنى فيما أتى من ظلامتى وقال لىَ أجهد فى جهد احتيالكا
فما هو إلا نسجك الشعر سادرا وما الشعر إلا ضلة من ضلالكا

* * *

لهذا وأمثاله كثرت أهاجى ابن الرومى واشتد اقذاعه وكان الذين يمدحهم بالأمس هم الذين يثلبهم بعد ذلك، يكاد لا يفصل المدح عن القدح فاصل أو يكاد يكون المدح والقدح متواليين فى صفحات الديوان، لان الديوان مرتب على حسب الحروف لا على حسب التواريخ والموضوعات . ولو أننا نصبنا ميزان العدل لكان ابن الرومى ملوماً على المدح أضعاف لومه على الهجاء . فقد كان يكذب حين يمدح ويتوسل ولم يكن يكذب حين يهجو وينتقم، وراجع تراجم المهجوين فى قصائده تجدهم كلهم او اكثرهم لصوصا لا ينقضى على احدهم فى المنصب اشهراً أو سنوات حتى يعمر بيته بالمنهوب المسلوب من ارزاق الرعية الضعفاء، ثم لا تنقضى فترة أخرى حتى يسلَّط عليه لصوص أكبر منه فينكبونه ويستصفون امواله كانهم تغافلوا عنه ريثما يجمع لهم تلك الاموال، وان فى كتب التاريخ لسوءات لهم غير هذه وآثاما جساما لا يقال فيها انها تخرص شاعر مغبون او افتراء خصم متهم بالاقاويل، فان كان الصدق عذرا للثالب الصادق فعذر ابن الرومى فى التشهير والتجريح أوجه من عذره فى الاطراء والمديح

وقد اشتهر بالهجاء واصبح له سلاحا لازما وقدرة معروفة بين

شعراء عصره فراح يلوّح به كما يلوح المهدد بسلاحه ويعجب به كما يعجب الفنان بعمله . ولو عوفى فى نفسه ورزقه لما بقى له من الهجاء الا ناحيته هذه الفنية او ألاعيبه الصبيانية . فانه على كل حال لم يحتقب قط من ادواته النية الخبيثة والطبع الشرير ، او هو على حد قوله :

لو اروض الشيطان اذعن كالكلب ، او العود عضه الكلُّوب(١)

ولما ذاك انني الرجل الشرير مني الخنا ومني الوثوب

بل لدى الانصاف يشفعه الاحسان ماقارب الالدُّ الشَّغوب

ونعود فنقول : لو كان الرجل اكثر شرا لكان الناس اكثر اتقاء له واجتنابا لكيده، فقلّت دواعيه الى سوء المقال واعفى اعراضهم واعفى لسانه فاراح واستراح ؟

---

(١) العود الجمل المسن والكلوب المهماز

هو وشعراء عصره

عاصر ابن الرومى فى بيئته كثيرٌ من الشعراء أشهرهم فى عالم الشعر الحسين بن الضحاك ودعبل الخزاعى والبحترى وعلى بن الجهم وابن المعتز وابو عثمان الناجم

وليس لهؤلاء ولا لغيرهم ممن عاصروه وعرفوه أو لم يعرفوه أثر يذكر فى تكوينه غير اثنين فيما نظن، هما الحسين بن الضحاك ودعبل الخزاعى

فقد كان ابن الرومى معجبا بالحسين يروى شعره ويستملح اخباره ويذكرها لأصحابه ، وكان ابن الرومى يافعا يحضر مجالس الادب ويتلقى دروسه والحسين فى أوج شهرته يتناشد اشعارَه ادباء الكوفة وبغداد ومدن العراق . حدّث محمد بن الفضل الاهوازى قال : « سمعت على بن العباس الرومى يقول : حسين بن الضحاك اغزل الناس واظرفهم ، فقلت حين يقول ماذا ؟ فقال حين يقول :

يا مستعير سوالف الخشف	اسمع لحلفة صادق الحلف
ان لم أصح ويلى وياحربى	من وجنتيك وفترة الطرف
فجحدت ربى فضل نعمته	وعبدته ابدا على حرف

هكذا جاء فى كتاب الاغانى — وجاء فيه ايضا عن ابن الرومى انه قال :

انشدنا ابو العباس ثعلب قال انشدنى حماد بن المبارك صاحب حسين بن الضحاك قال انشدنى حسين لنفسه

لا وحبيك لا اصا فح بالدمع مدمعا
من بكى شجوه استرا ح وان كان موجعا
كبدى من هواك اسقـ م من ان تقطعا
لم تدع سورة الضنى فىّ للسقم موضعا

قال ابن الرومى . ثم قال لنا ثعلب : ما بقى من يحسن أن يقول مثل هذا »

وروى عنه كتاب الأغانى روايات اخرى من هذا القبيل تدل كلها على الاعجاب والاستملاح ، ومثل ابن الرومى يعجب بشعر الحسين الانيق الظريف المطبوع ولـكنه لا يمتزج بطريقته ولا يتزيا بزيه ، لان طريقة الاناقة والصقل غير طريقة الامعان والنفاذ التى طبع عليها ابن الرومى . فانت تلمح أثر هذا الاعجاب فى ابيات من شعر ابن الرومى كقوله

يا وجنتيه اللتين من بهج فى صد غيه اللذين من دعج

فتعلم انه نظم هذا البيت وهو يذكر صحبة ابن الضحاك من « وجنتى صاحبه وفترة طرفه »

أو كقوله :

عينىّ شحا ولا تسحا جل مصابى عن البكاء
تركـكما الداء مستكنا اصدق عن صحة الوفاء

فتعلم انه نظمه وهو يذكر الابيات التى روى فى أولها لابن الضحاك :

لا وحبيك لا اصا فح بالدمع مدمعا
من بكى شجوه استرا ح وان كان موجعا

وابن الضحاك يقول :

كأنما نصب كأسه قمر يكرع فى بعض انجم الفلك

وابن الرومى يقول

فكأنها وكأن شاربها قمر يقبل عارض الشمس

فهو كان معجبا بظرائف ابن الضحاك ملتفتا اليها ولكنه لم يخرج عن طريقته التى طبع عليها ولم يزد فى اعجابه على ان يقتبس منه بعض الخطرات الرشيقة ، وهو شىء غير اقتباس الطريقة والتشابه فى السليقة

وقد مات الحسين بن الضحاك وابن الرومى فى التاسعة والعشرين، ولم نر فى تاريخه ولا فى تاريخ الحسين مايشير الى تلاقيهما فى بغداد حيث عاش ابن الرومى معظم حياته ، أو فى غير بغداد حيث كان يرحل ابن الضحاك

أما دعبل فابن الرومى عارضه فى موضعين، أحدهما القصيدة الطائية التى نظمها دعبل حين اتهم « خالدا » بسرقة ديكه واطعامه لضيوفه وقال فى مطلعها

أسر المؤذنَ خالد وضيوفه أسر الكمىّ هفا خلال الماقط

بعثوا اليه بنيهم وبناتهم ما بين ناتفة وآخر سامط

يتنازعون كأنهم قد أوثقوا خاقان أو هزموا كتائب ناهط

اكلوه فانتزعت به اسنانهم وتهشمت اقفاؤهم بالحائط

فزاد ابن الرومى فيها وأطالها وبلغ بها نيفا وستين بيتا وغيّر بعض ألفاظها ، فما قال فى معارضته وتمثل فيه كل مزاجه وملاحظاته :

طبخوه ثم أتوا به قد أبرمت اوتاره لمنادف وبرابط

. . . .

متجملا لدجاجه متجلدا كتجلد المجلود بين ربائط

ولقد رمتـه يوم ذلك قـدرهم بغطائط من غليـه وغطامط
حملوا عليه كلَّ ماء عندهم وفرات كوفتهم ودجـلة واسط
واهاً لذاك الديك بين مساقط منـه عهدناهـا وبين ملاقط
قوام أسحار مؤذن حارة سفّاد زوجات كمىّ مآقط
ينفى مناعسه بنفس شهمة ويشاهـد الهيجا بجأش رابط

والموضع الآخر الذى عارض فيـه دعبلا أبيات ثانيـة قال دعبل فى مطلعها

اتيت ابن عمرو فصادفته مريض الخلائق ملتاثها

فعارضها ابن الرومى وزاد عليها من ابيات

قواف ابى الوغد ابرزها فأخرجت للوغد اخباثها
أوابد قد اخنست قبلـه كهول الرجال واحداثها
. . . .
ولا جُرم لى إن اساءت جنا ة مزرعة كان حراثها

ونشأ ابن الرومى ودعبل كذلك شاعر واسع الشهرة جذاب السيرة لغرابة اخلاقه ومخاطرته وتطويفه فى الآفاق، مستحسَنُ الشعر بين من يؤثرون الفحولة اللغوية ، مفضل على المحدثين من طبقته كما قال البحترى وكان يتعصب له « دعبل بن على اشعر عندى من مسلم بن الوليد ، لان كلام دعبل ادخل فى كلام العرب من كلام مسلم ومذهبه أشبـه بمذاهبهم » . وكان دعبل فيما عدا ذلك متشيعا لآل على غاليا فى تشيعه فجذب ذلك كله نفس ابن الرومى الفتى نحوه وحبب اليه محاكاته ومجاراته ، وربما كانت الرغبة فى مجاراته احدى دواعيه الى الهجاء .

ومات دعبل وابن الرومى فى الخامسة والعشرين ولا نعلم انهما تعارفا أو كان بينهما لقاء

هذان هما الشاعران اللذان عاصرا ابن الرومى وكان لهما اثر يذكر فى تكوينه. أما الآخرون فالثابت انه كان على معرفة وصحبة مع اثنين منهما وهما البحترى وابو عثمان الناجم. عرف البحترى فى بيت الناجم، وكان هذا صديقا له بقى على صداقته الى يوم وفاته، وراويةً يحفظ شعره واخباره ويجرى على طريقته فى بعض تشبيهاته — فسأله البحترى ان يعرفه الى ابن الرومى ففعل وجرت بين الشاعرين صحبة غير طويلة ولا وثيقة، لان البحترى كان يدل على ابن الرومى بمكانه من الخلفاء والامراء وكان ابن الرومى لا يطيق الصبر على ذلك فهجاه وعاب شعره واتهمه بالسرقة، فمن قوله فيه

قبحا لأشياء يأتى البحترى بها ... من شعره الغث بعد الكد والتعب
كأنها حين يصغى السامعون لها ... ممن يميز بين النبع والغرب
رُقى العقارب أو هذر البناة اذا ... أضحوا على شعف الجدران فى صخب
وقد يجيء بخلط فالنحاس له ... وللأوائل ما فيه من الذهب
. . . .
عبد يغير على الموتى فيسلبهم ... حر الكلام بجيش غير ذى لجب
ما أن يزال تراه لابسا حللا ... أسلاب قوم مضوا فى سالف الحقب

ثم عاد يذكّره أيام رضاه ومودته والفرق بين مسالمته وحربه ويقول له بعد اقذاع كثير:

يا بحترى لقـــد أقبلت منقلبا ... يوم اكتسبت هجائى شر منقلب
. . . .
قد كنت تعرف منى فى الرضى رجلا ... حلو المذاقة، فاعرفنى لدى الغضب
تعرف فتى فيه طورا مجتنى سلع ... للمجتنين وطورا مجتنى رطب

ونظن ان المنافسة بينهما لم تكن وحدها سبب هذا الهجاء ، وانما آنس ابن الرومى اغراء من العلاء ابن صاعد بالبحترى ، لأنه خاطبه فى هذه القصيدة بما يظهر منه أن العلاء كان يستضعف هجاء الشعراء للبحترى ويبحث عمن يشد عليه ويفحمه كما يؤخذ من هذا البيت

أراك لم ترض ما أهدى له نفر   من شتم أم لئيم خيمها وأب

فأرضى ابن الرومى نفسه وأرضى العلاء بهجائه ، وكان رد البحترى عليه ما علم القراء من اهدائه تخت المتاع وكيس الدراهم وابلاغه « ان الهدية ليست تقية منه ولكن رقة عليه لأنه لم يحمله على ما فعل الا الفقر والحسد المفرط »

عرف ابن الرومى البحترى وابن الرومى شاعر ناضج مشهور بالافتنان فى المعانى والقدرة على الهجاء . وكان البحترى يحب مجاراته فى بعض قصائده فقال له فى أول لقاء بينهما أنه عزم على أن يعمل قصيدة على وزن قصيدته الطائية فى الهجاء فنهاه ابن الرومى عن ذاك لأنه ليس من عمله . فاذا كان بينهما اقتباس أو معارضة فالبحترى هو المقتبس وهو الراغب فى المعارضة . على أننا لا نخاله استفاد من ابن الرومى شيئا يزيده فى مذهبه الذى نبغ فيه لأنهما نمطان متباينان ، ولكل منهما اعتداد بنفسه يكفيه ويغنيه

أما على بن الجهم (المتوفى سنة ٢٤٩ هـ) فقد كان بينه وبين ابن الرومى برزخ واسع من اختلاف المذهب فى الدين والشعر . فابن الرومى متشيع وابن الجهم ناصب يذم عليا وآله « ولا يلتقى الشيعى والناصب » كما يقول ابن الرومى . . . وكان ابن الجهم شديد النقمة على المعتزلة وعلى

« أهل العدل والتوحيد » منهم خاصة يهجوهم ويدس لهم ويقول فى زعيمهم احمد بن أبى دؤاد :

ما هذه البدع التى سميتها بالجهل منك العدل والتوحيد

وابن الرومى كما مر بك من هذه الجماعة . فمذهبه فى الدين ينفره من ابن الجهم ولا يرغبه فى مجاراته ، ولو تشابها فيما عدا ذلك من المزاج والنزعة لقد يهون هذا الفارق ويسهل على ابن الرومى الاغضاء عنه وهو ناشىء يتلمس القدوة ويخطو فى سبيل الشهرة . ولكنك تقرأ شعر ابن الجهم فى فخره ومزاحه فيخيل اليك أنك تقرأ كلام جندى يتنفج أو يعربد . خلوه من كل عاطفة غير عواطف الجند الذين يقضون أوقاتهم بين الفجر والضجيج واللهو والسكر ، وليس بين هذه الطبيعة وطبيعة ابن الرومى مسرب للقدوة أو للمقاربة فى الميل والاحساس ، ولا كان فى شعر ابن الجهم شىء يشعر مثل ابن الرومى انه ينقصه ويحتاج الى مجاراته ، فيميل به هذا الشعور الى الاعجاب بالشاعر الذى أبعده عنه المذهب والمزاج

***

وقد ولد ابن المعتز فى سنة سبع وأربعين ومائتين ، فلما ايفع وبلغ السن التى يقول فيها الشعر كان ابن الرومى قد جاوز الاربعين أو ضرب فى حدود الخمسين ، ولما نبغ واشتهر له كلام يروى فى مجالس الأدباء كان ابن الرومى قد أوفى على الستين وفرغ من التعلم والاقتباس . ولو انعكس الأمر وكان ابن المعتز هو السابق فى الميلاد لما أخذ منه ابن الرومى شيئاً أو لكان أفسد سليقته بالأخذ عنه ، لأن ابن المعتز انما امتاز بين شعراء

بغداد فى عصره بمزاياه الثلاث وهى البديع والتوشيح والتشبيه بالتحف والنفائس ، وابن الرومى لم يرزق نصيباً معدوداً من هذه المزايا ولم يكن قط من أصحاب البديع وأصحاب التوشيح أو أصحاب التشبيهات التى تدور على الزخرف وتستفيد نفاستها من نفاسة المشبهات

ويجوز أن الشاعرين لم يتعارفا ولم يتلاقيا فى مجلس ، لأن ابن الرومى كان قليل الغشيان جدا للمجالس التى كان يحضرها الخلفاء وولاة العهود . فضلا عن تفاوت السن والخطة ، وفضلا عن سبب آخر قد يكون من موانع اللقاء بينهما وهو أن ابن الرومى هجا المعتز ومدح المستعين حين تنازعا الخلافة وتقاتلا عليها . وكان ابن الرومى من حزب المستعين لأن بغداد كانت معه وهى وطن ابن الرومى ، ومحمد بن عبد الله بن طاهر كان ينصر المستعين وهو يومئذ أكبر ممدوحيه . ونحن نذكر هذا السبب الأخير للاحاطة به ولا نعيره كبير التفات ، لأن ابن المعتز كان طفلا رضيعا حين تقاتل أبوه وعمه ولا يحتمل كثيرا أنه وعى بعد ذلك كل ما قاله ابن الرومى فى تلك الأيام

ممدوحوه

لابن الرومى ممدوحون كثيرون يزيدون على الاربعين ، يطول بنا البحث ولا ننتهى الى غرض يفيدنا فيما نحن فيه لو أننا اجملنا تواريخهم اجمالا سريعا بله التفصيل والانعام ، ولو كان للمدح فى زمن ابن الرومى بواعث نفسية غير طلب العطاء لوجب أن نُعنى بتراجم الاشخاص الذين حركوا فى نفس الشاعر تلك البواعث واستحقوا منه اكباره وثناءه ، لأن العناية بتراجمهم فى هذه الحالة عناية بالشاعر نفسه وبواعث نظمه ومعايير وصفه وثنائه ، ولكن الشعراء كانوا يمدحون ولا يقصدون من المدح الا الارضاء والتفنن فى معانى التعظيم ، فمن العبث ان نحصى هنا تراجمَ لا تزيدنا علما بالشاعر وليس العلم بها لذاتها مقصودا فى هذا المقام ، وحسبنا أن نلم بتاريخ الاسرتين اللتين خصهما الشاعر بمعظم مدائحه وكانت له صلة طويلة بهما وعلاقات مذكورة فى ترجمة حياته ، وهما أسرة آل طاهر وأسرة آل وهب ، وكلاهما من أكبر الأسر التى عرفت فى تاريخ الوزارة والقيادة فى الدولة العباسية

***

فآل طاهر أسرة قديمة تنتسب الى امراء الفرس الأولين ويُذكر منها فى عالم الحرب والأدب والنجدة افراد كثيرون . وأول من نبغ منها واشتهر فى عهد بنى العباس طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق بن ماهان ، أسلم جده رزيق على يد عبيد الله طلحة الطلحات الخزاعى والى سجستان

فنسب اليه ولُقب بالخزاعى لهذا السبب لا لانتمائه إلى قبيلة خزاعة من جهة النسب

وقد ولد طاهر بقرية بوشنج من اعمال « مرو » سنة تسع وخمسين ومائة حيث كان جده مصعب واليا يتولى اعمال مرو مع أعمال هراة. ثم كان الخلاف بين الأمين والمأمون فأبلى طاهر فى خدمة المأمون — الفارسى الأم — أحسن بلاء واخلص له ونصح فى ولائه وتوطيد ملكه : فولاه خراسان وأطلق يده فيها فاصبحت دولة طاهرية مستقلة فى حكومتها لا تربطها ببغداد الا خطبة المنبر، وقيل ان طاهرا قطع الدعاء للخليفة يوما فسمه خادم معه كان موكلا به من قبل المأمون فاصبح ميتا

وكانت لآل طاهر مع ولاية خراسان ولايةُ الشرطة فى بغداد وهى من الولايات النافعة لذوى النفوذ، فاجتمعت لهم أسباب القوة بين العاصمة وذلك الاقليم الخطير الشأن فى حياة الدولة العباسية

وولد لطاهر ابنه عبد الله فنشأ فى رعاية المأمون نشأة فاضلة وشابه أباه فى النجدة والاقدام وبذه فى الأدب والمروءة. تولى مصر واعطاه المأمون مال خراجها وضياعها لسنة، فوهبه كله وفرقه فى الناس ورجع صفرا من ذلك. فغاظ المأمون فعله فدخل اليه يوم مقدمه فانشده ابياتا قالها فى هذا المعنى وهى

نفسى فداؤك والاعناق خاضعة	للنائبات ابيا غير مهتضم
اليك أقبلت من أرض اقمت بها	حولين بعدك فى شوق وفى ألم
اقفو مساعيك اللاتى خصصت بها	حذو الشراك على مثل من الأدم
فكان فضلى فيها انى تبع	لما سننت من الانعام والنعم

ولو وكلت الى نفسى عييت بها　　لكن بدأت فلم اعجز ولم ألم

« فضحك المأمون وقال والله ما نفست عليك مكرمة نلتها ولا احدوثة حسن عندها ذكرك ، ولكن هذا شىء إذا عودته نفسك افتقرت ولم تقدر على لم شعثك واصلاح حالك ، وزال ما كان فى نفسه » ... ويقال أن البطيخ « العبدلاوى » المعروف بمصر منسوب اليه ولعله نسب اليه لأنه كان يستطيبه كما يقول ابن خلكان »

ولعبد الله شعر جزل وتلحين جيد وهو القائل « ينبغى أن يبذل العلم لأهله ولغير أهله، فان العلم امنع لنفسه من أن يصير الى غير أهله » ومن كلامه « سمن الكيس ونبل الذكر لا يجتمعان »

ومحمد بن عبد الله هذا هو الذى ادركه ابن الرومى ومدحه وظن أنه ينفس عليه شعره فقال له :

اتحسدنى تجويد ريط نسجته　　لتلبسه ؟ يا للعجيب من الأمر
تذكر هداك الله أنى مادح　　وانك ممدوح ، فلا تعدنى قدرى

ونحسب انه لم يظلمه، لانه تعود أن ينظر فى شعر مادحيه نظرة الناقد المتصعب . بعث اليه حاجبه محمد ابن أبى عون بأنوار من بستانه وريحان وكتب معه

قد بعثنا بطيب الريحان　　خير ما قد جنى من البستان
قد تخيرته لخير أمير　　زانه الله بالتقى والبيان

فوقع على ظهر رقعة :

عون ياعون قد ضللت عن القـ　　ـصد وعميت عن دقيق المعانى

حشو بيتيك قد وقد قالى كم ؟ قدك الله بالحسام اليمانى [1]

وكان محمد عظيم النفوذ فى الدولة تميل الخلافة حيث يميل ، نصر المستعين فرجحت كفته على اخيه المعتز ودانت له بغداد وما وراءها وأوشك ان يتفرد بالملك وحده ، ثم ارتاب فى المستعين فتخلى عنه فلم يجد المستعين بدا من خلع نفسه وتمت الغلبة عليه لأخيه . وينسب اليه انه قال لما انهزم محمد بن خالد فى بعض الوقائع بين جنود المستعين وجنود المعتز : « لايفلح أحد من العرب الا ان يكون معه نبي ينصره ! »

ومات محمد فى ذى الحجة من سنة ثلاث وخمسين ومائتين اى حين كان ابن الرومى فى الثانية والثلاثين ، قال ابن الاثير : « فى ليلة اربع عشرة من ذى الحجة انخسف القمر جميعه ومع انتهاء خسوفه مات محمد بن عبد الله ابن طاهر بن الحسين وكانت علته التى مات بها قروحا اصابته فى حلقه ورأسه فذبحته وكانت تدخل فيها الفتائل، ولما اشتد مرضه كتب الى عماله واصحابه بتفويض ما اليه من الولاية الى اخيه عبيد الله بن طاهر . فلما مات تنازع ابنه طاهر واخوه عبيد الله الصلاة عليه فصلى عليه ابنه وتنازع عبيد الله واصحاب طاهر حتى سلوا السيوف ورموا الحجارة ومالت العامة مع اصحاب طاهر وعبر عبيد الله الى داره بالجانب الشرقى فعبر معه القواد لاستخلاف محمد فكان اوصاه على عماله . ثم وجه المعتز بعد ذلك الخلع الى عبيد الله فأمر عبيد الله للذى اتاه بالخلع بخمسين الف درهم »

وعبيد الله هذا كان شاعرا كأخيه وابيه واكثر افراد اسرته ، وكان يقاول البحترى ويناجزه ، وهو الذى نظم ديوانا على الحروف فى شكر العلاء صاعد فمهد العلاء الى ابن الرومى بالرد عليه ، وهو القائل

---

(١) الموشح للمرزبانى

ان الامير هو الذى يبقى اميرا بعد عزله
ان زال سلطان الولا ية لم يزل سلطان فضله

وكان كاخيه محمد فى نقد الشعر ولاسيما اذا مُدح به غيره ، فهو الذى سمى قصيدة ابن الرومى النونية فى مدح اسماعيل بن بلبل بدار البطيخ لكثرة ما ذُكر فيها من اسماء الفاكهة ، فظرف فى النكتة وان لم ينصف فى نقد القصيدة

وقال ابن خلكان فى ترجمته : « ... كان عبيد الله المذكور أميرا ولى الشرطة ببغداد خلافة عن أخيه محمد بن عبد الله ثم استقل بها بعد موت أخيه ، وكان سيدا واليه انتهت رآسة أهله ، وهو آخر من مات منهم رئيسا ، وله من الكتب المصنفة كتاب الاشارة فى أخبار الشعراء وكتاب رسالة فى السياسة الملوكية وكتاب مراسلاته لعبد الله بن المعتز وكتاب البراعة والفصاحة وغير ذلك ، وحدث عن الزبير بن بكار وغيره ، وكان مترسلا شاعرا لطيفا حسن المقاصد جيد السبك رقيق الحاشية ، ومن شعره ما ذكره ابن رشيق فى كتاب العمدة فى باب الاستطراد فقال : ومن الاستطراد نوع يسمى الادماج ونحو ذلك قول عبيد الله ابن عبد الله بن طاهر لعبيد الله بن سليمان بن وهب حين وزر للمعتضد :

أبى دهرنا اسعافنا فى نفوسنا واسعفنا فيمن نحب ونكرم
فقلت له نعماك فيهم أتمها ودع أمرنا ، ان المهم المقدم

« ... وله ديوان شعر ، ونقتصر من نظمه على هذا القدر ، وكانت ولادته سنة ثلاث وعشرين ومائتين وكانت وفاته ليلة السبت لاثنتى عشرة ليلة خلت من شوال سنة ثلثمائة ببغداد ... »

ولعبد الله أخ يسمى سليمان هو الذى هجاه ابن الرومى لأنه أخلف رجاءه فى رد داره . وكانت بينه وبين عبد الله قطيعة وملاحاة شديدة

ثم اصطلحا فخلد ابن الرومى هذا الصلح فى قصيدة دالية اقتبسنا منها فيما تقدم بعض أبيات

وانتهت الى عبيدالله رآسة قومه كما قال ابن خلكان، إلا أن دولتهم فى خرسان ذهبت منهم فى أيامه واستولى عليها فى سنة تسع وخمسين ومائتين ذلك المخاطر الجرىء يعقوب بن الليث الملقب بالصفّار من الصفر لأنه كان فى صباه تاجراً فقيراً يعمل فى النحاس، واقتصرت ولاية عبيدالله وسطوة قومه على الشرطة فى بغداد فكان هذا أول بوادر الزوال فى ذلك البيت المجيد، ولحق ابن الرومى من ذلك مالا بد أن يلحقه منه، فضلا عن حسبانه عليه من عثرات جده ودلائل شؤمه !

***

اما ابناء وهب فكانوا أهل كتابة لا شأن لهم بالحرب وقيادة الجيوش، جاء فى الفخرى انهم كانوا «من قرية من اعمال واسط وكانوا نصارى ثم اسلموا»

وعملوا فى الكتابة من مبدأ الدولة الأموية ثم حظوا عند العباسيين فاشتهر منهم اثنان هما الحسن بن وهب بن سعيد واخوه سليمان

وكان الحسن كاتبا شاعرا ولاه محمد بن عبد الملك الزيات ديوان الرسائل ومدحه ابو تمام فولاه البريد فى الموصل. وكانت بينه وبين أبى تمام صداقة فلما مات هذا رثاه بقصيدة يقول منها

فان تراب ذاك القبر يحوى حبيبا كان يدعى لى حبيبا
لبيبا شاعرا فطنا اديبا اصيل الرأى فى الجلى اريبا
اذا شاهدته رواك فيما يسرك رقة منه وطيبا

ابا تمام الطائى انا لقينا بعدك العجب العجيبا
فقدنا منك قرما لا نرانا نصيب له مدى الدنيا ضريبا

ولم يزل الحسن مقربا مجدودا حتى نكبه المتوكل مع ابن الزيات فى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين

واخوه سليمان كتب للمأمون وهو فى الرابعة عشرة . حدث ابنه عبيد الله عنه انه قال : « كان مبدأ سعادتى انى كنت — وانا صبى — بين يدى محمد بن يزداد وزير المأمون ، وكنا جماعة من الصبيان بين يديه اذا راح الليل الى داره بات واحد منا فى دار المأمون بالنوبة ، لمهم عساه يعرض فى الليل . وكانت ليلة نوبتى فخرج خادم وقال . ها هنا أحد من نواب محمد بن يزداد ؟ فقال الحجاب له نعم ! ها هوذا ، فادخلنى الى المأمون فقال لى : اعمل نسخة فى المعنى الفلانى ، ووسع بين سطورها وأحضرها لأصلح منها ما أريد اصلاحه . قال : فخرجت سريعا وكتبت الكتاب بغير نسخة وبيضته واحضرته اليه . فلما رآنى قال : كتبت النسخة ؟ قلت : بل كتبت الكتاب . فقال : بيضته ؟ قلت نعم ، فزاد فى نظره الى كالمتعجب منى ، فلما قرأه تبينت الاستحسان على وجهه ورفع رأسه الى . وقال: ما أحسن ما كتبت يا صبى ! ولكن اريد ان تقدم هذا السطر وتؤخر هذا السطر ، وخط عليهما بقلمه ، فاخذت الكتاب وخرجت وجلست ناحية ثم محوت السطرين وعملت ما اراد وجئته بالكتاب ، وكان قد ظن انى ابطله وا كتب غيره ، فلما قرأه لم يعرف مبدأ المحو فاستحسنه وقال لى : يا صبى ! لا أدرى من أى شىء أعجب ! امن جودة محوك ام من سرعة فهمك ام من حسن خطك ام من سرعتك ، بارك الله فيك ! فقبلت يده وخرجت ، وكان ذلك اول علو منزلتى وصار المأمون لا يجرى مهم الا قال : « هاتوا سليمان بن وهب »

واستوزره المهتدى « ولقبه الوزير حقا لان من كان قبله كان غير

مستحق للوزارة ولا مستقل بها »[١]. استكتبه يوما عشرة كتب مختلفة الى جماعة من العمال ، فلما وضعت الكتب بين يديه قال له وقد قرأها : احسنت يا سليمان ، ونعم الرجل انت لولا المعجل والمؤجل ! وذلك ان سليمان كان اذا ولى عاملا اخذ منه مالا معجلا وأجل مالا الى ان يتسلم عمله ... ونكبه الواثق وحبسه فقال وفى هذا الشعر غناء

نوائب الدهر أدبتني — وانما يوعظ الاديب
قد ذقت حلوا وذقت مرا — كذاك عيش الفتى ضروب
ما مر بؤس ولا نعيم — الا ولى فيهما نصيب

ثم خرج من الحبس ليلة مات الواثق ، ولكنه كان مطموعا فيه لكثرة ماله واشتهاره بالرشوة فقبض عليه الموفق ومات فى حبسه سنة اثنتين وسبعين ومائتين ، وقيل سنة احدى وسبعين ... ولما قبض الموفق عليه وعلى ابنه عبيد الله تذاكر جماعة انه انما استكتبهما ليقف منهما على دخائل موسى بن بغا وودائعه فلما استقصى ذلك نكبهما لكثرة مالهما فقال ابن الرومى وكان حاضرا

الم ترى ان المال يتلف ربه — اذا جم آتيه وسد طريقه
ومن جاور الماء الغزير مجمه — وسد مغيض الماء فهو غريقه[٢]

وسليمان بن وهب هو ابو عبيد الله وجد القاسم ، وكلاهما وزر للمعتضد وتلق مدائح ابن الرومى الكثيرة ، ولا سيما القاسم . فانه كان صاحب القسط الأوفر من جميع مدحه .

وكانت اول ولاية عبيد الله للوزارة فى عهد المعتمد ثم بويع المعتضد سنة تسع وسبعين ومائتين فاقره على وزارته ولبث فيها الى ان مات سنة

---

(١) الاغانى (٢) الاغانى

ثمان وثمانين ومائتين ، وكان كاتبا حاذقا وسائسا حصيفا وفيه يقول الشاعر

اذا أبو قاسم جادت يداه لنا لم يحمد الاجودان البحر والمطر
وان مضى رأيه أو حد عزمته تأخر الماضيان ، السيف والقدر
وان اضاءت لنا اضواء غرته تضاءل النيران الشمس والقمر
من لم يبت حذرا من حد صولته لم يدرما المزعجان الخوف والحذر
ينال بالظن ما يعي العيان له والشاهدان عليه العين والأثر

ويروى أنه لما مات عزم المعتضد على أن يستأصل شأفة أولاده ويستصفى أموالهم ، فحضر القاسم ابنه واستعان ببدر المعتضدى وكتب خطابا بألفى الف دينار فاستوزره المعتضد [(١)]

قال صاحب الفخرى « كان القاسم بن عبيد الله من دهاة العالم ومن أفاصل الوزراء ، وكان شهما فاضلا لبيبا محصلا كريما مهيبا جبارا ، وكان يطعن فى دينه ... »

وقال ابن خلكان : « كان الوزير المذكور عظيم الهيبة شديد الاقدام سفاكا للدماء ، وكان الكبير والصغير منه على وجل لا يعرف أحد من أرباب الأموال الا نقمه . وتوفى سنة إحدى وتسعين ومائتين فى خلافة المكتفى وعمره نيف وثلاثون سنة ، وفى ذلك يقول عبد الله بن الحسن بن سعد :

شربنا عشية مات الوزير سرورا ونشرب فى ثالثه
فلا رحم الله تلك العظا م ولا بارك الله فى وارثه

وابن خلكان قد أخذ هذا الوصف من مروج الذهب للمسعودى ،

---

(١) الفخرى

وفى هذا الكتاب أن القاسم قتل عبد الواحد عم الخليفة المكتفى والخليفة يجهل ذلك ولا يريده . وكان القاسم يغريه به « فوكل به من يراعى خبره وما يظهر من قوله اذا أخذ الشراب منه فسمع منه وقد طرب وهو ينشد شعر العتابى

تلوم على ترك الغنى باهلية ... طوى الدهر عنها كل طرف وتالد

الى أن يقول

ذرينى تجئنى ميتتى مطمئنة ... ولم أتجشم هول تلك الموارد
فان نفيسات الأمور مشوبة ... بمستودعات فى بطون الأوساد
وان الذى يسمو الى درك العلا ... ملقىٌّ بأسباب العلا والمكايد

فقال له بعض ندمانه وقد أخذ منه الشراب : يا سيدى اين انت مما تمثل به يزيد ابن المهلب

تأخرت استبقى الحياة فلم أجد ... حياة لنفسى مثل أن أتقدما

فقال له عبد الواحد : مه ! لقد أخطأت الغرض واخطأ ابن المهلب واخطأ قائل هذا البيت وأصاب أبو فرعون التميمى حيث يقول

وما بى شىء فى الوغى غير أننى ... أخاف على فخارتى أن تحطما
ولو كنت مبتاعا من السوق مثلها ... لدى الروع ما باليت أن أتقدما

فلما انتهى ذلك الى المكتفى ضحك وقال : قد قلت للقاسم ليس عمى عبد الواحد ممن تسمو همته اليها .... أطلقوا لعمى كذا وكذا . فلم يزل القاسم بعبد الواحد حتى قتله »

وكان القاسم مكروها على خلاف أخيه الحسن الذى كان يحبه الناس ويحسنون الظن به . فلما مات الحسن قال أبو الحارث النوفلى :

قل لأبي القاسم المرزأ قابلك الدهر بالعجائب
مات لك ابن وكان زينا وعاش ذو الشين والمعايب
حياة هذا كموت هذا فلست تخلو من المصائب

قال أبو بكر الصولى النديم : « وقد رأيت أبا الحارث هذا وكان رجلا صدوقا »

ونظم آخر فى هذا المعنى فقال

قل لأبي القاسم المرزا وناد ياذا المصيبتين
مات لك ابن وكان زينا وعاش شين وأى شين
حياة هذا كموت هذا فالطم على الرأس باليدين

ولكنّ عبيد الله أباهما كان على رأى يخالف رأى الناس فى ولديه ، فكان يقدم القاسم ويهمل الحسن ، حتى راجعه فى ذلك ابن الرومى بقصيدة سبقت الاشارة اليها ، ولعله رأى من دهاء ابنه القاسم وغدره أنه أصلح للحكم فى ذلك الزمان ، وعلم أن الخلق الكريم اداة لا تنفع فى هذا الغرض فأخر ابنه الحسن عن منزلة أخيه

والقاسم هذا هو الذى اجمعت كتب التاريخ على أنه قتل ابن الرومى بالسم لأنه اشفق من فلتات لسانه

وفاة

يقول ابن خلكان فى تاريخ وفاة ابن الرومى : « توفى يوم الاربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الاول سنة ثلاث وثمانين وقيل ست وسبعين ومائتين ، ودفن فى مقبرة باب البستان »

فأى هذه التواريخ هو الصحيح ؟

إن الذين جاءوا بعد ابن خلكان تابعوه فى هذا الشك الذى لا مسوغ له اعتمادا على روايته بغير بحث فى شعر الشاعر ولا فى كتب المؤرخين الذين سبقوا ابن خلكان . ولا مسوغ لهذا الشك كما قلنا لان ابن الرومى اثبت لنا انه بلغ الستين وعاش الى ما بعد سنة ثمانين أذ يقول

طربتَ ولم تطرب على حين مطرب وكيف التصابى بابن ستين أشيب

فهو لم يمت فى سنة ست وسبعين على التحقيق ، ولا يُظن ان الستين هنا تقريبية لضرورة الشعر وانها قد تكون خمسا وخمسين أو ستا وخمسين ، فانه ذكر الخمس والخمسين فى موضع آخر حيث قال .

كبرتَ وفى خمس وخمسين مكبر وشبت فالحاظ المها عنك نفرِ

وليس من المعروف عنه انه كان يعيا بنظم ما يريد

ولو راجع ابن خلكان كتاب مروج الذهب للمسعودى لعرف منه ان ابن الرومى كان حيا بعد ست وسبعين، فلا محل للقول بموته فى فى تلك السنة . فقد جاء فى تاريخ المعتضد من ذلك الكتاب ان قطر الندى بنت خمارويه وصلت الى مدينة السلام مع ابن الجصاص فى ذى

الحجة [1] سنة احدى وثمانين ومائتين ففى ذلك يقول على ابن العباس الرومى :

ياسيد العرب الذى زفت له بالىمن والبركات سيدة العجم

الى آخر الابيات ، وهذا فضلا عن مقطوعات أخرى نظمها الشاعر فى العرس الذى احتفل به الخليفة سنة اثنتين وثمانين

فمن المحقق إذن ان ابن الرومى تجاوز سنة ست وسبعين . ولم يبق لنا الا أن نبحث فى السنتين الأخريين أى سنتى ثلاث واربع وثمانين

فعندنا تاريخ اليوم والشهر من أولاهما وليس عندنا مثل ذلك من الثانية ، وهذا مما يرجح وفاته فى سنة ثلاث وثمانين دون اربع وثمانين

ويقوّى هذا الترجيح ان مضاهاة التواريخ تثبت لنا ان جمادى الاخرى من سنة ثلاث وثمانين بدأت يوم جمعة فيكون يوم الاربعاء قد جاء لليلتين بقيتا من جمادى الاول فى تلك السنة كما جاء فى تاريخ الوفاة

وقد ضاهينا هذا اليوم على التاريخ الافرنجى فوجدناه يوافق الرابع عشر من شهر يونيو ، أي يوافق ابان الصيف فى العراق ، وابن الرومى مات فى الصيف كما يؤخذ من قول الناجم انه دخل عليه فى مرضه الذى مات فيه وبين يديه ماء مثلوج ، فيجوز لنا على هذا أن نجزم بان اصح التواريخ هو التاريخ الاول وهو « يوم الاربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الاولى سنة ثلاث وثمانين »

***

(١) الطبرى يقول ان دخولها بغداد كان لليلتين خلتا من المحرم سنة ٢٨٢

والأقوال بعد ذلك مجمعة على موت ابن الرومى بالسم ، وان الذى سمه هو القاسم بن عبيد الله او أبوه

ولكن الروايات فى هذا الخبر لا تخلو من ضعف واضطراب ، فالرواية التى أوردها ابن خلكان تقول : « ان الوزير أبا الحسين القاسم ابن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الامام المعتضد كان يخاف من هجوه وفلتات لسانه بالفحش فدس عليه ابن فراش فاطعمه خشكنانجة مسمومة وهو فى مجلسه فلما أكلها أحس بالسم فقام فقال له الوزير : الى اين تذهب ؟ فقال الى الموضع الذى بعثتنى اليه ، فقال له : سلم على والدى ! فقال له : ما طريقى على النار . . . »

وضعف هذه الرواية ظاهر . لأن عبيد الله بن سليمان مات فى سنة ثمان وثمانين[1] أى بعد آخر تاريخ فُرض لموت ابن الرومى بأربع سنوات ، فكان حيا عند وفاة الشاعر ولا معنى لأن يقول القاسم له سلم على والدى ووالده بقيد الحياة

والرواية التى أوردها الشريف المرتضى فى أماليه أصح من هذه الوجهة ، لأنها تقول ان عبيد الله كان حيا عند موت ابن الرومى وانه هو الذى أوعز بقتله ، ولكنها تقول أيضا أنه قد اتصل « بعبيد الله بن سليمان بن وهب أمر على بن العباس الرومى وكثرة مجالسته لأبى الحسين القاسم فقال لأبى الحسين : قد أحببت أن أرى ابن روميك هذا . فدخل يوما عبيد الله الى أبى الحسين وابن الرومى عنده فاستنشده من شعره فأنشده وخاطبه فرآه مضطرب العقل جاهلا فقال لأبى الحسين بينه وبينه : ان لسان هذا أطول من عقله ، ومن هذه صورته لا تؤمن عقاربه عند أول عتب ولا يفكر فى عاقبته . فأخرجه عنك فقال : أخاف حينئذ أن يعلن ما يكتمه فى دولتنا ويذيعه فى تمكننا ، فقال يا بنى !

(١) راجع الفخرى

انى لم أرد باخراجك له ماردّه . فاستعمل فيه بيت أبى حية النميرى

فقلن لها سرا فديناك لا يرح سليما ، والا تقتليه فالممى

فحدث القاسم بن فراس بما جرى وكان أعدى الناس لابن الرومى وقد هجاه بأهاج قبيحة ، فقال له الوزير أعزه الله أشار بأن يغتال حتى يستراح منه وأنا أكفيك ذلك فسمه فى الخشكنانج فمات . . . . قال الباقطانى : والناس يقولون ما قتله ابن فراس وانما قتله عبيد الله »

وضعف هذه الرواية ظاهر كذلك . لأن عبيدالله كان يعرف ابن الرومى سنوات ، وقد مدحه ابن الرومى وتردد عليه وتشفع لديه بين ولديه ، فلا حاجة به الى أن يطلب رؤيته قبل موته ليختبره كما جاء فى هذه الرواية . أما الأخبار الأخرى المنثورة فى الكتب فهى مزيج مرتبك من هاتين الروايتين

ويصعب علينا أن نستخلص الحقيقة من هذا الخلف والاضطراب، فاذا قلنا ان عبيد الله هو القاتل كما نقل الباقطانى فيجوز على هذا الزعم أنه هو الذى قال له : سلم على والدى وليس ولده القاسم ، فينتفى بذلك موضع الضعف فى الرواية الأولى ، ولكننا ننفيه بفرض لا يجوز الاعتماد عليه .

واذا أردنا أن نمزج بين الروايتين ونسقط منهما ما يجب اسقاطه فالخلاصة منهما أن عبيد الله خاف هجاء ابن الرومى فأوعز الى ابنه أن يسمه لأنه كان أقرب الى مخالطته ومنادمته ، ولا صحة لما بعد ذلك من حديث القاسم وابن الرومى وانما هو حديث غلبت فيه فكاهة القصة على صدق التاريخ

***

بين هذه الشبهات المتضاربة شبهة تعرض للذهن ولا يجوز اغفالها في هذا المقام وهي تبيحنا أن نسأل ألا يحتمل أن يكون حديث السم كله خرافة مخترعة لا أصل لها وان ابن الرومي مات ميتة طبيعيـة تشتبه أعراضها بأعراض التسمم المعروفة في زمانه ؟ فمن كلام الناجم الذي زاره في مرض وفاته نعلم أنه كان يشكو من الحاح البول فلما لاحظ الناجم ذلك قال :

غـداً ينقطع البول ويأتي الهول والغول

وأنه كان أعد ماء مثلوجا لأنه «قلما يموت انسان الا وهو ظمآن» وكان يقول فيما روته الامالي وهو يشرب الماء ولا يروى :

وأراه زائدا في حرقتي فكأن الماء للنار حطب

والظمأ والحاح البول عرضان من اعراض «مرض السكر» وهو مرض يُحدث لصاحبه التسممُ ولاسيما بعد أكل الحلوى والأفراط فيها ، وابن الرومي لم تكن تنقصه أسباب الاصابة به لانه كان منهوما بالحلوى والاطعمة الثقيلة ، مستسلما للشهوات مسرفا في الشراب مع ضعف أعصابه واعتلال جسمه ، فمن الجائز أنه أصيب به فاشتد عليه في شيخوخته وفصده الطبيب كما جاء في رواية زهر الآداب فأودى ذلك بحياته . ويسهل في هذه الحالة أن يشيع حديث السم ولواحقه لما كان يعتري ابن الرومي من كثرة التوهم أو لما كان مشهورا عن القاسم من سوء الطوية والضراوة بالغدر والفتك بحيث لا يكبر على قتل شاعر هجاه ، فاذا كان الموت قد حدث بعد وليمة في بيت القاسم فهذا مما يؤكد

التهمة ويصعب على الناس أن يعللوه بغير السم والمكيدة، وان كان الطعام وحده كافيا للقضاء على رجل جاوز الستين فى شيخوخة متهدمة مهملة طالت اصابته بمرض دفين لم يكن علاجه ميسورا فى أيامه

هذه شبهة تعرض للذهن بين مختلف الشبهات، وكل قيمتها عندنا أنها مما لا يصح اغفاله فى تحقيق وفاة الشاعر. فهى احتمال كل ما فيه أنه غير مستحيل

* * *

أما أن القاسم كان أهلا لأن يغدر بابن الرومى وأن ابن الرومى كان عرضة لغضب ذلك الوزير الفاتك المغتال فهو احتمال جد قريب، فالقاسم جرىء مستخف بالدماء وابن الرومى قانط سريع الغضب. وليس أيسر من أن ينسى القاسم رجلا كابن الرومى حين اقبلت الدولة عليه وعلى ابيه وآله وتبدلت مجالسهم الأولى واخذوا فى شأن من الصولة والابهة غير شأنهم الذى كانوا فيه، وليس أيسر من أن يطمع ابن الرومى فى عمل أو مرتب أو مكافأة تغنيه حين اقبلت الدولة على ممدوحيه واصحابه بالأمس فى أيام التطلع والانتظار، ومن هنا يبدأ الغضب فاللوم فالوشاية فالمبالغة فى الجفاء فالهجاء من الشاعر فالوعيد من الأمير الذى ليس بين وعيده وانجازه عائق من خوف ولا محاسبة ضمير. وسلسلة القصائد التى تشفع بها ابن الرومى وسأل العمل واعتذر من احاديث الوشاة سلسلة طويلة يسهل ترتيبها لولا انه لا فائدة من هذا الترتيب. فحسبنا منها ان القاسم سمع الوشايات التى تحدث بها جلساؤه ومنافسو ابن الرومى والحانقون عليه لهجائه فامعن فى جفائه والاعراض

عن توسلاته وشفاعاته ، فلم يفلح ابن الرومى فى استعطافه بمثل قوله

بلغ البغاة على حيث ارادوا والله كائدهم بما قد كادوا
وهو الشهيد على انى لم اقل بعض الذى قد أبدأوا واعادوا
وهب السعاة اتوا بحق واضح اين الكرام ؟أبدلوا ام بادوا
. . . .
عفو الملوك عن الهجاة مدائح مدحوا نفوسهم بها فاجادوا

ولم يفلح فى استعطافه باضعاف هذا الكلام وهو كثير

وحسبنا منها ان القاسم كان يتوعد ابن الرومى بالقتل فقال الشاعر يقابل بين ما وشى به السعاة اليه وما وشوا به الى القاسم

تحدثت الاملاء انك حابسى على غير اجرام وانك مغتالى
وما قيل املاء الرجال وقالهم باسهل من قيلى عليك ومن قالى

ثم يستطرد الى الترضى والاستعطاف :

اخالك لو عاينتنى فى حفيرتى بكيت عظامى الباليات واوصالى
وسرك ان أحيا كما كنت مرة ببذل الفداء الجزل والثمن الغالى
فلا تجفنى حيا ولا تبك رمتى كمنصرف عنى يسائل اطلالى

وتكرر وعيد القاسم بالقتل فتكرر استعطاف ابن الرومى وتذكيره بسالف المودة :

ايقتلنى من ليس لى منه ناصر عليه ، وأعوانى عليه مكارمه
ابى ذاك ان الحكم بينى وبينه وان علو القدر فىَّ يخاصمه

وقد طالت السعايات وطال التوسل حتى اجتمع من ذلك ديوان غير صغير فى حجمه ولا فى معانيه وابتكاراته ، وابن الرومى فى كل ذلك لايرى من القاسم الا

غضبا ألح من السحاب الاسحم ورضى اعز من الغراب الاعصم

فضاق صدره وجاهر بالهجاء، وافرغ كل ما فى جعبته من قذع أخفه:

يامن اذا ما رأته عين والده بين الرجال اتقاهم بالمعاذير
اقسمت بالله ان لو كنت لى ولدا لما جعلتك الا فى المطامير

وقال فى آل وهب عامة:

متى آل وهب يرتجى الرى حائم اذا كنتم ملاك سبل المحامد

واتهمهم فى اسلامهم لانهم كانوا قديما نصارى فاسلموا فقال فيهم من هذه القصيدة:

واحييتم دين الصليب وقمتم بتشييد « بيعات » وهدم مساجد
وابطال ما كان الخليفة جعفر تخيره زيا لكل معاند

يشير الى ابطالهم زى اهل الكتاب الذى امر به الخليفة المتوكل فى أيام غلوائه ونقمته على اصحاب النحل جميعا وقراء الفلسفة وعلم الكلام

فليس من المنتظر بعد هذه القطيعة وهذا الهجاء ان يتورع القاسم عن قتل ابن الرومى اذا استطاعه وهو مستطيعه كما استطاع قتل عم الخليفة بغير جريرة ودبر لذلك تدبيره الذى لم يعلم به الخليفة الا بعد موته، ومتى توعد القاسم بالحبس والقتل فليس هو بالذى يتردد فى انجاز وعيده او يعجز عنه، وليس ابن الرومى بالذى يتخذ الحيطة من مكيدة يراد بها وهو يسأل القاسم عطفا وينخدع فى ظواهره بغير عناء

* * *

وبقية المرحلة بعد هذا قصيرة:

ذهب ابن الرومى الى داره وهو يتوقع الموت ويتامس الشفاء و «لامفر من الموت ولا من قضائه المحتوم» كما قال وغلط عليـه الطبيب أو عزّ عليه دواؤه فكانت اصابة المقـدار . فتلقاه الموت آخر الأمر كما تلقته الحياة : نفسا يساورها القلق ويتوفز فيها الحس ولا تزال من خوف الألم فى ألم : اطمأنت الى القضاء المحتوم اطمئنانها وأبت أن تطمئن الى آلامه وصرعاته ، فاستحضرت المدية الرميضة تحاول أن تتعجل بها الموت اذا اشتدت عليها سكراته وأبطأ نزوله ، ولم تخش فى ذلك عقاب الدين وله عليها ذلك السلطان المرهوب وللساعة عندها « هول دونه الهول » وبعدها حساب عسير لا شك فيه

تلك خاتمة الترجمة التى استخرجناها من شعر ابن الرومى وعثرنا فيها بتفاصيل ودقائق لا تستخرج من شعر شاعر غيره . فكأنما انتزعها من قبضة العدم انتزاعا وتشبث بها كما تشبث بالحياة فغلب عليها اهمالَ التاريخ غلبا . . . والفضل فى ذلك لتلك الملكة الفنية التى خلقت لتحس وتعبر عما تحسه وتسجل تعبيرها فى سجل الفنون ، والتى أرهفتها الأسقام والآلام حتى أصبحت وسواسا يبالغ فى تحريه واستيفائه كما يبالغ كل وسواس فى التوكيد والتقرير ؟

الفصل الرابع

عبقرية ابن الرومى

فرغنا فى الفصل السابق من حياة ابن الرومى لنتكلم فى هذا الفصل عن عبقريته وهى زبدة حياته والغرض الذى من أجله عاش ومن أجله يكتب الكاتبون عنه . فما تحرك فى حياته حركة الا كان لعبقريته منها نصيب أوفى نصيب . حتى لكأنه كان لا يتحرك ولا يتنفس ولا يطعم ولا يشعر الا ليتخذ من ذلك كله مادة حياة ويترجم ما عمل وما علم فى قالب الفن ترجمة البر الأمين ، وصفوة القول فى هذه العبقرية أنها كانت عبقرية يونانية لولا الافراط والانهماك ، أو أنها كانت عبقرية يونانية مكبرة الجوانب بعض التكبير

ولسنا نصفها هذا الوصف لأنه تفسير سهل لهذه العبقرية النادرة ولكن لأنه وصف موجز يدل على أجزائها المختلفة بقليل من الكلمات

فربما كان القول بأن ابن الرومى رجل حسّاسٌ متوفز الأعصاب مَلِيّ المزاج نشأ فى حضارة زاهيــة فأجابته وأجابها وأخذت منه وأخذ منها فنبغ على ذلك المثال الفريد لأنه لا بد فى الشعر من مثل فريد — ربما كان هذا أقل فى العجب من تفسير عبقريته بأنها عبقرية يونانية على اعتبار أنها موروثة عن آبائه اليونان اذ من هم آباؤه اليونان ؟ لا ندرى أهم من أغريق الجزر أم من أغريق البلاد المعروفة اليوم باسم اليونان أم من اغريق آسيا الصغرى التى كانت تدور الحرب فيها . وحولها بين المسلمين ودولة الروم . ومن الصعب الذى يحتاج الى التفسير أن تقول

ان هؤلاء الاغريق جميعا سليقة واحدة وأمة واحدة وعنصر واحد يتحدر منـه الرجل وينتقل الى بيئة أخرى وينجب الأبناء فى بيئته الجديدة فيجتمع فيهم كل ما تفرق من خصائص العبقرية الفنية التى تسمى الآن بالعبقرية اليونانية .

ثم نحن لا نعلم أن الاغريق فى قديم عهدهم كانوا عنصرا واحدا ينتمى الى سلالة واحدة ، لأن امتزاج الأنساب بينهم وبين الاسيويين ثابت لا شك فيـه واقتباسهم من عقائد الاسيويين وفنونهم ولغاتهم ثابت كذلك أقطع ثبوت . ولا يمكن أن نجزم برأى فى وراثة الفطرة الفنية ولا سيما الفطرة فى الشعب كله حتى لو عرفنا الأصل الذى تحدر منه ابن الرومى بين أصول اليونان الـكثيرة . فقد كان فى بلاد اليونان نفسها ألوف من أبناء الشعب اليونانى المحاطين بالبيئة اليونانية فى جميع ظواهرها وبواطنها فلم ينبغ منهم فى عصر ابن الرومى شاعر مثله ولا نبغ منهم فى العصور السابقة التى أزهرت فيها آدابهم وفنونهم شاعر من طرازه فى جميع خصائصه وملكاته . فلو أننا نقلنا ابن الرومى من الأدب العربى الى الأدب اليونانى لـكان فذا فى أدبهم كما كان فذا فى أدبنا ، ولم تنقض الحاجة الى تفسيره بهذه النقلة من أدب لغته الى أدب أصله ، ولو أننا بحثنا عن مزية أصيلة فى الفطرة اليونانية تنتقل مع الدم وتسرى فى خلال التكوين لأعيانا أولا أن نحصر هذه الفطرة ثم أعيانا بعد ذلك أن نحصر هذه المزية

فنحن لا نفسر عبقرية الشـاعر حين نسميها بالعبقرية اليونانيـة ، ولـكننا نصفها فى كلمات موجزة وصفا يقربهـا الى الاذهان ويطبعهـا

بهذا الطابع المعروف عند المطلعين على الآداب . وما من شك فى ان الشاعر الذى تحدَّر من أصل يونانى ايا كان مقره غير الشاعر الذى تحدر من أصل عربى ايا كان مقره . ولكن التفريق بين هذين الشاعرين شىء والقول بان الشاعر لايحس هذا الاحساس ولاينظم هذا النظم الا اذا كان من ابناء اليونان شىء آخر . فحسبنا اننا نعرف ما نريد حين نذكر العبقرية اليونانية ولانحاول بعد ذلك الخروج الى تعليل الأصول والتعسف فى تقسيم خصائص الشعوب

وانما وصفنا ابن الرومى بهذه الصفة لانه صاحب عبقرية تعبد الحياة ، وتحيا مع الطبيعة ، وتلتقط الصور والاشكال ، وتشخص المعانى ، وتقدم الجمال على الخير او لاتحب الخير الا لانه لون من الوان الجمال ، ثم هى تنظر الى الدنيا نظرتها الى المعرض المنصوب للتملى والمتعة لانظرتها الى الحصن المغلق أو الصومعة الموحشة أو غير ذلك من نظرات الاجيال والاديان ، ولانعرف صفة أجمع لهذه الخصال كلها من صفة العبقرية اليونانية التى اتسمت بها فى الجملة فنون الاغريق ، فقد كان الاغريق بجملتهم كما كان ابن الرومى بمفرده ، لولا ان الاغريق كانوا يصيبون من كل متعة بمقدار وابن الرومى كان لايعرف فى امر من الأمور مقدارا أقل من الافراط والانهماك

عبادة الحياة

ولننظر أولا الى حب الحياة الذى كان أول ما اشتهر به اليونان وأول ماتستشفه من فن هذه العبقرية الحية فى كل جزء من الاجزاء وكل حالة من الحالات . فابن الرومى كان من اخلص محبي الحياة بين محبيها الكثيرين ، او كان على الاصح الاوضح من مدمنى الحياة بين شرابها غير المدمنين

وحب الحياه خليقة نادرة وانْ ظُن انها اعم شىء بين الناس وعامة الاحياء فليس الحب ـ سواء حب حياة او حب شىء من اشيائها ـ سهلا رخيصا يطمع فيه كل من يريد . فمن الناس من يحب الحياة كأنه مسوق الى حبها ، ومنهم من يحبها كأنه مأجور على عمله ، ومنهم من يحبها كأنما يحب شيئا غريبا عنه ، ومنهم من يحبها كما (يحب) الحيوان الأعجم ما هو فيه ، ومنهم من يحبها حب العاشق الذى يختار معشوقه أو يستوى عنده الحب على القسر والحب على المشيئة لانه يريد ما يقسر عليه ويأبى ان يفرض للفراق وجودا أو يتوقع لهواه تغييرا ، فهو سعيد بأن يحب وان يُسمح له بأن يحب ، وهو يحب الحياة لانه حى لاموت فيه ولا عمل لكل حاسة فى نفسه الا أن تحس وتحيا وتستجد احساسا وحياة ولا تشبع من الاحساس والحياة ، وهكذا كان ابن الرومى يعبد الحياة عبادة لايبتغى عليها اجرا غير مايبتغيه خُلّص العابدين . فكان حيا كله لا مكان فيه للموت الا الخوف منه والتفكير فيه

وانك لتتابع اياته الكثيرة فى هذا الغزل او فى هذه الفتنة او فى هذا السكر فيخيل اليك أنه شارب قبض على الكأس يود أن يجرعها مرة واحدة من فرط التعطش والخوف عليها لولا انه يستعذبها ويستطيبها فيترشف منها رشفة بعد رشفة ويعود اليها ينظر مافرغ منها ومابقى فيها، ويضن ويشتاق ويشعر بمرارة الفقد لفرط شعوره بحلاوة المتعة، فما نقصت من تلك الكأس - كأس الحياة - قطرة الا أحس بطيبها واحس بألم فقدها وعرف مقدارها وقاس من الكأس حيّزها وعاد يترشف لينسى فيزداد ذكرا على ذكر وخسارة بعد خسارة. وأى ذكر؟ وأى خسارة؟ وأى ألم؟ وأى فجيعة؟

لعمرك ما الحياة لكل حى — اذا فقد الشباب سوى عذاب
فقل لبنات دهرى فلتصبنى — اذا ولى بأسهمها الصياب

ومن هذه اللهفة بعد اللهفة تعرف كيف بلغ العشرين وكيف بلغ الثلاثين وكيف بلغ الخمسين وكيف بلغ الستين فى قصائد شتى ومناسبات عدة لاموضع هنا لاحصائها ولكنها تدلك اذا راجعتها على مغالاته بهذه الوديعة وضنه بتسليمها والتفريط فيها وحرصه على ذخيرتها حرص الشحيح الذى يود ان يزيد فى ماله المحسوب وهو يراه ينقص ساعة بعد ساعة ولمحة بعد لمحة

وهو اذا ذكر الشباب لم تكن صورة الشباب فى ذهنه انه فترة من الزمن او ظواهر من المتعة والعافية وانما يذكره وهو ينفذ الى صميمه وباطنه ولبابه الذى لا يُحسب بالايام ولا معوّل فيه الا على جدة الشعور وجلاء الدنيا فى بشاشتها الاولى كأنها الثمرة المقطوفة ولها من

الشمس صبغة جديدة ومن الطل مسحة غضة ومن العصير المكنوز وليمة تنادى الشهوة وتفتح اللهوة

فلا يعنيه ان يدوم له الشباب وانما يعنيه ان تدوم له الدنيا القديمة وهى فى جدة البواكير وفى طرافة المفاجأة التى لا تذال . والا فما يغنيه ان يدوم الشباب والدنيا امامه مذالة المنظر مجرودة اللون مسلوبة من تلك المفاجأة فى كل نظرة وفى كل لقاء ؟

لو يدوم الشباب مدة عمرى   لم تدم لى بشاشة الاوطار

أجل . هذا هو الشباب فى صميمه وباطنه ولبابه . والشباب عنده أيضا أن يستقبل الحياة لانها لا تكون جديدة الا بهذا الاستقبال

اطالع ما أمامى بابتهاج   ولا اقفو المولى با كتئاب

والشباب عنده دولة يولى صاحبها على هذه الدنيا فتطيعه وتعطيه من خيراتها كل ماتملك وكل مايصبو اليه

سقى الشباب وان عفا   آثار معهده القتير
ما كان الا الملك أو   ذى تاجه وهوى السرير

والشباب عنده هو الحياة ، لافرق بين فقده وفقد الحياة الا ان فاقد الشباب يعلم بموته وفاقد الحياة لا يعلم ولا يأسى على مافات

وفقد الشباب الموت يوجد طعمه   صراحا ، وطعم الموت بالموت يفقد

والشباب عنده مفقود لا عزاء بعده الا عزاء الموت القريب

فمالى عزاء عن شبابى علمته   سوى اننى من بعده لا أخلد
وان مشيبى واعد بلحاقه   وان قال قوم انه يتوعد

والشباب عنده مبكيّ لا يوفى البكاء الا بالدم

لا تلح من يبكى شبيبته الا اذا لم يبكها بدم

ومرثى لا ينقطع رثاؤه حتى الممات

سأثنى بآلاء الشبيبة باسطا لسانى بها حتى أحين فاقبضا

والخير الأكبر هو ان يحيا الانسان والشر الاكبر هو أن يموت، ولا سيئة عنده لهذا الخير العميم الا تنغيص ذلك الشر العميم

سواء للحياة والموت حتم ولبذل الزمان واسترداده

وكل مافى الحياة من قلة الغبطة ان الاحياء يموتون :

كيف العزاء ومافى العيش مغتبط ولا اغتباط لاقوام يموتونا

متى نعش فبلى الاحياء يدركنا وان نمت فبلى الاموات يعفونا

وعلى هذا النحو يقول :

رأيت حياة المرء رهنا بموته وصحته رهنا كذلك بالسقم

اذا طاب لى عيش تنغصت طيبه بصدق يقيني ان سيذهب كالحلم

ومن كان فى عيش يراعى زواله فذلك فى بؤس وان كان فى نعم

فالخلود الخلود . ! لا شيء دون الخلود يرضيه ويستقر عليه مناه والا فبنو الحياة بائسون محرومون لانهم لا يعيشون لا لانهم يعيشون كما يقول المتشاءون الذين لا يحبون هذا الحب ولا يعبدون هذا العبادة ولا يحسون هذا الاحساس . وما تكلمنا بالمجاز حين قلنا انه يعبد الحياة لانه ـ على ما فى شعره من هذه الابيات المفرقة فى شتى القصائد ـ قد كان يعلم ويقول ان للحياة دينا يحرم ويحلل ويأمر ويطاع ولو عارض اوامر الدين .

شربت وقد كان الشباب محللا لى الراح ما كان الكتاب محرما

وقد طابق الشيب الكتاب فحرمت على فيك تحريمين ان كنت مسلما

وذكر المحرمات فى قصيدة اخرى فقال

لم تحلل لمن اتاها ولكن لم يحل دونها من الشيب حام
واتى الآن دونها فهى اليو م حرام على كل الحرام
سوأتى ان اطعت شيبى فيما لم اطع فيه حاكم الحكام
وعظ الله والكتاب فصمم ت واقدمت ايما اقدام
ونهى الشيب بعد ذاك فاسلم ت واحجمت ايما احجام

فقد كان يدين فى خوالجه بهذا الدين ويستوحى منه شريعة التحليل والتحريم وتهم خواطره بالتبتل فيثنيه عنه هذا التبتل الذى لا تسكت دعوته ولا ينقطع رسوله :

أبى لاخى الدنيا التبتل انها لها زيفة فى كل حين تزيفها
اذا ماجلاها فى الرياض ربيعها يروق عيون الناظرين رفيفها
واخرى اذا ما اينعت ثمراتها ورقت حواشيها وطاب خريفها
تراءى لنا فى زخرفين كلاهما اذا استوحف الاهواء طال وحيفها

وقد كان همه الاكبر ان يحيا لانه مهيأ النفس للاحساس بالحياة ، ولو كان همه على مابه من الخصاصة واللهفة ان يطلب القوت وينصرف الى ذرائع العيش لما كان بالمليم .

***

وتعلق ابن الرومى بالحياة أقل شىء غرابةً وأقرب شىء الى طبيعة الأمور . نعم انه كان سقيم الجسم عسير الرزق مخيب الآمال فكان أحرى لذلك ان يبغض الحياة او يحبها حب المجبر الملول ، الا ان المرء لا يحب الحياة على مقدار سعادته بها واستجابة آماله فيها ، كما ان المرء

لا يحب المرأة على مقدار ماينال من حظوتها ويغنم من اقبالها ، ولـكنه يحب هذه او تلك كلما امتلأت بها نفسه واشتغل بها حسه واشتبكت بها ذكرياته وامتزجت بها رغباته ، وابن الرومى كان صاحب نفس لا توصف الا بانها أداة مهيأة للنظر والسمع والتلقّ عن الوجود من حيثما القى اليه بأثر من آثاره وخبر من أخباره دق أو جل واسعد أو أشق :

العين لاتنفك من نظر   والقلب لاينفك من وطر

ومن أبهر مايبهرك فى هذه اليقظة الحسية حاسة اللون الذاكية المتوهجة التى تطالعك من كل وصف من أوصافه للوجوه او للازهار أو للكؤس أو للحلى أو للخمر أو لغير هذه من المناظر التى تلامس البصر بألوانها . فانك قل أن ترى فى وصف شاعر من شعراء العالم أجمع نظيرا لهذه الحاسة الشفافة المتوفزة التى تختلج لكل لمحة من لمحات اللون وكل شعاع من أشعة النور وتفطن الى الطف مايبديه للعين من محاسن الامتزاج والمقابلة وأصفى مايجلوه من دقائق المباينة والمشاكلة. فيصيح صيحة الوهل حين يرى الوجنة الحمراء الى جانب الصدغ الادعج .

ياوجنتيه اللتين من بهج   في صدغيه اللذين من دعج
ماحمرة فيكما أمن خجل ؟   ام صنعة الله ؟ ام دم المهج ؟

ويصيح هذه الصيحة كلما رأى هذا المنظر

ليت شعرى أسحر عينيك داء ا ل   قلب ام نار خدك الوهاج

ويقول فى مثل هذا المعنى

تلقى جنى التفاح فى وجناته   وترى جنى العناب فى تطريفه
متعت منه مسامعى ومراشفى   بنثير لؤلؤه وماء رصيفه

ويصف قينة فلا يكاد يعرض من مناظرها لغير الالوان التى فى وجهها وثيابها :

وقينة ان مُنحت رؤيتها رضيت مسموعها ومنظرها
شمس من الحسن فى معصفرة ضاهت بلون لها معصفرها
فى وجنات تحمر فى خجل كأن ورد الربيع حمرها

ويقول فى ساقية

بنت كرم تديرها ذات كرم موقد النحر مثمر الاعناب
حصرم من زبرجد ، بين نبع من يواقيت جمرها غير خاب
فوق لبات غادة تترك الخا لى من كل صبوة وهو صاب
تحمل الكأس والحلى فتبدو فتنة الناظرين والشراب

و فى قينة :

وشرابنا وردية لكؤوسها شرر يطير
حمراء فى يد أحمر الو جنات ملثمه مهير

وفى مثلها :

اذا هى قامت فى الشفوف اضاءها سناها فشفت عن سبيكة سابك

وفى قيان مجتمعات :

لابسات من الشفوف لبوسا كالهواء الرقيق او كالسراب
ومن الجوهر المضيء سناه شعلا يلتهبن اى التهاب

وليس الطف من قوله فى وصف الأعناب السود

سود لهن من الظلماء الوان

وفى العنب الأبيض :

لم يبق منه وهج الحرور الا ضياء فى ظروف نور

أما الخمر فربما كان نصيب عينه من نشوتها أجمل لديه واحب اليه من نصيب السكر عند الشاربين ـ اذ تراه لا يصف سكرها كما يصف الوانها وألوان اقداحها بل هو يكاد يحسبها لونا شائعاً فى الفضاء كما قال :

صفراء تنتحل الزجاجة لونها	فتخال ذوب التبر حشو أديمها
لطفت فقد كادت تكون مشاعة	فى الجو مثل شعاعها ونسيمها

وكما قال فى موضع آخر .

نضا الدهر عن اسآرها جل لونها	فغادرها من لونها فى غلائل
ثوت تصطلى شمس الظهائر برهة	الى ان افادت لون شمس الاصائل

وهكذا يقول فى الرياض التى

توقد فيها كلما تلمع الضحى	كواكب يذكو نورها حين تشمس

او فى الشقائق التى هى

تَرِفُ لابصار كحلن بها	ليرين كيف عجائب الحكم
شعل تزيدك فى النهار سنى	وتضىء فى محلولك الظلم
اعجب بها شعلا على فحم	لم تشتعل فى ذلك الفحم

وهكذا يقول فى كل شىء

وليست حاسة البصر متفردة بهذه القوة بين حواس ابن الرومى ولاحظها من الذكاء والتوفز بأوفر من حظ غيرها فان الرجل كان يسمع ويشم ويذوق ويتلمس كما كان يبصر ويتصور ، فلا تقصر حاسة من حواسه عن اختها ولا تشكو احداهن كلالا او فتورا فى حصتها من التمييز والشعور ، وهو القائل فى وصف صوت :

صوت ندى وانفاس مساعدة   كأنما نفس منهن انفاس
يظل سامعه لدنا مفاصله   كانما فترت اوصاله الـكاس

وفى وصف مغنية

مدفى شأو صوتها نفس كا   ف كانفاس عاشقيها مديد
وأرقّ الدلال والغنج منه   وبراه الشجا فـكاد يبيـد
فتراه يموت طورا ويحيـا   مستلذ بسيطه والنشيـد
فيه وشى وفيه حلى من النـ   ـغم مصوغ يختال فيه القصيد

فـكأنه قد بلغ فى تحسس الصوت مرتبة الموسيقيين الذين يتمثلون للانغام الوانا وزخارف وأوشية تـكاد تنطبع فى صفحة الخيال او تكاد تدركها العين لشدة بروزها فى قرارة الوجدان . وهولا يدع لك ان تشرح او تستخلص ماتقرأه من كلامه حتى يقول لك بالعبارة الصريحة انه يصل بين الرؤية والسماع ويترجم بين الحاستين فينقل الى لغة العيون ما تضمنته لغة الآذان . واليك مايصف به احدى القيان :

ذات صوت تهزه كيف شاءت   مثلما هزت الصبا غصن بان
يتثنى فينفض الطل عنه   فى تثنيه مثل حب الجمان .
ذلك الصوت فى المسامع يحكى   ذلك الغصن فى العيون الروانى

ثم يستطرد الى تمييز الانغام فيقول :

جهورى بلا جفاء على السمـ   ـع مشوب بغنة الغزلان
فيه بم وفيه زير من النـ   ـغم وفيه مثالث ومثان
فتراه يجل فى السمع حينا   وتراه يدق فى الاحيان
رخّمته ورقرقته وضاهى   فعلها الاحمران والاسمران
فهو يحكى ترقرق النهى فى الر   يح لعينى ذى غلة صديان

يلج السمع مستمرا الى القلـ ـب بلا اذن ولا استئذان

وانك اذا قرأت مدائحه الاخريات فى القيان المحسنات واهاجيه فى شنطف ودبس وابى سليمان ومن لايجيد هذه الصناعة من المغنين والمغنيات علمت ان له اذنا واعية تهفو الى السماع الجميل وتنفر من السماع القبيح ، واذا قرأت مبتكراته فى فضائل الازهـار والرياحين ولذة الاستمتاع بروائحها وتمييزه لمراتبها علمت انه كان يستروح من جمال مشموماتها مثل ما كان يستروح من جمال مناظرها ، واذا قرأت ماقال فى الموز الذى « يدفعه البلع الى القلوب » وفى المشمش الذى اذا رأيت بستانه « فأيقن بحق انه لصبيب » وفى الدجاجة التى تلوح له « سميطة صفراء دينارية » والتى « يكاد أهابها يتفطر ». أو قرأت مقطوعاته فى القطائف والفطائر واللوزينج والحلوى التى كان يقرظها ويفتن فى تشبيهها ـ علمت كيف كان النهم بالمناظر والطعوم بابا عنده للنهم بالطعام ، بل حسبك من دليل على شراهة حاسة الطعم عنده وقوة التذاذه بها قوله انه ما كان ليحفل بالموت أو ليجزع من القبر « لولا فواكه ايلول ... ! »

وحاسـة اللمس فى هـذه الاداة الحسيـة اليقظى كحواس البصر والسمع والشم والطعم فى الدقة والرفاهـة والانتباه . فها هـو ذا يصف الريح الشمالية :

وشمأل باردة النسيم تشفى حرارات القلوب الهيم

. . . .

شاردة فى الليل بالنميم بين نشير الروض والخيشوم

كأنها من جنة النعيم

وها هو ذا يصف الليل فى شهر ايلول:

ياحبذا ليل ايلول اذا بردت فيه مضاجعنا والليل سجواء
وجمش القر فيه الجلد فائتلف ت من الضجيعين احشاء فأحشاء

أو ها هو ذا يصف البارد :

الذ من معتق الرساطون وقهوتى قطربل وكركين
رجرجة من ماء ليل تشرين كرونق السيف اليمان المسنون
بات على طود نياف العرنين تنفحها الريح برس ممنون
فى شطر كوز صنع طب افنون اخضر فى خضرة جرو اليقطين
ألست يامحرومها بمغبون

فها هنا تلمس معه برد الهواء الذى « يحمش » الجلود والاحشاء. بل هاهنا يخيل اليك ان لبرد الماء فى « شطر الكوز » الاخضر ثقلا راسبا ينقع الغلة بالرجرجة قبل ان ينقعها بالشراب ، وان الشاعر مااختار « معتق الرساطون » من اسماء الخمر الا لأنها كلمة مجسمة اشبه بالرصاص البارد الذى ترى لاستقراره راحة كراحة الظمآن بعد الارتواء . ثم تعيد نظرك فى الابيات فتعجب ماهى الحاسة التى لم تشترك فى وصف هذه الابيات ؟؟ اهى حاسة البصر وهى ترى للماء رونقا كرونق السيف اليمان المسنون ، وترى خضرة الكوز كأنه جرو اليقطين ،وترى «شطر» الكوز وهو كأنما تفلق من برودة مافيه ، وترى صنعة الكوز فاذا هى صنع قادر صناع ؟ ام هى حاسة السمع وهى تصغى الى رجرجة الماء ونفخ الريح ؟ ام هي حاسة الرى وهو هنا ناقع لايبقى من الظمأ بقية فى الصدور؟ ام هى حاسة الخيال وهو يرتفع بالكوز الى رأس الطود النياف العرنين

ويشبع القلب بالخمر المجلوبة من قطر بل و كر كين ؟ فأوجز مايقال فى تصوير ابن الرومى لهذا الكوز انه قد التهمه حسا بكل مافيه من منظور ومسموع ومشروب ومتخيل وملموس .

فهذه ايها القارىء نفس تامة الاداة تشعر شعورا شديدا بالحياة من حيثما واجهتها وتداخل الطبيعة فى كل جزء من اجزائها . فقد عاش صاحبها يوما يوما من عمره وناحية ناحية من وجدانه ولابس الحياة ولابسته

ودامت الدنيا له غضة كأنها الجارية الناهد

وليس الأمر كله حسا بالظواهر كذلك الحس الذى لا مذهب له وراء العيون والآذان والآناف ، ولا هو بالدقة التى ترهف الحواس ارهافا فلا يكون قصاراها الا ان تقابل بين المرئيات والمسموعات او بين هذه وتلك وبين المشمومات والملموسات .. كلا ! فان هذه اليقظة الحسية لتصاحبها يقظة فى الشعور الباطنى تسرى به فى كل مسرى وتنفذ به الى كل منفذ وتترجم العواطف والاخلاق كما تترجم المناظر والالحان ، فاذا تتبع « المكر » فى خبايا الفكر فهو القائل فى ذلك قولا لايسبقه فيه شاعر

لك مكر يدب فى القوم أخفى من دبيب الغذاء فى الاعضاء

او دبيب الملال في مستهام بين الى غاية من البغضاء

او مسير القضاء فى ظلم الغيب الى قاصد له بالتواء

واذا جال الحزن فى نفسه بدت منه على الكون غشاوة ولاح له

كانما نُفخ فى الصور ودُمّر كل عامر

واظلمت الدنيا وباخ ضياؤها نهارا، وشمس الصحو حيرى على القمم

. . . .

وابدى اكتئابا كل شيء علمته واضعاف ما ابداه من ذاك ما كتم

ثم عرف انه هو الحزن الدخيل وليست الدنيا البادية للعيان هى التى يراها بتلك النظرة الشاحبة فقال

كذاك ارى الاشياء اما حقيقة بدت لى واما حلم مستيقظ حلم

ولم يحلم اليقظان الا وقد أتت على لبه دهياء هائلة الفقم

وقد يتأمل المرأة فاذا هو محيط — فى بيت واحد — بسر «الانوثة» كله وبما فى المرأة من ضعف وقوة وبما هنالك من العجب فى ان تكون هذه المخلوقة العجيبة انسانا كالرجل وهى والرجل جسدان مختلفان وطبعان متباينان ، وان تكون غريبة عنه وهى قرينة له ما عن مقارنتها محيص. وذلك كله ملحوظ فى البيت الذى يقول فيه

ومن عجائب ما يمنى الرجال به مستضعفات لنا منهن اقران

ولا عجيبة هنا الا العجيبة التى يحسها من أحس سر الانوثة وسر الرجولة واحاط بالتوفيق الغريب بين هذين الانسانين حيث يفترقان وحيث يلتقيان ، واستوعب لغز « الجنس » ببديهة واسعة لم يحجبها عن ذلك اللغز ان الجنسين اشيع ما يرى فى عالم الانسان والحيوان

وأما وقد ذكرنا المرأة ولغز الجنس المنوط بها فقد يكون من الواجب أن نعرف مقدار ما شغلته من هذه النفس وحركته من هذا الاحساس ، فاذا كان ابن الرومى عابدا للحياة فالمرأة ولا ريب كاهنة هذا المعبد التى تتم على يديها مراسم العبادة ومحورها الذى تلتف حوله

الشعائر والقرابين ، واذا كان ابن الرومى نفسا تيقظت فيها اداة الحس والشعور ففى المرأة ولاريب تلتقى أشد مغريات الحس واعمق بواعث الشعور . ولابد من شأن لهذه « المخلوقة » فى حياة هذا الشاعر . فما هو هذا الشأن ؟ وماحقيقته ؟ ومامداه ؟ وهل هوشأن (المرأة) أوهو شأن (امرأة) خاصة أو أكثر من امرأة خاصة ؟ وهل عشق ؟ وهل أحب ؟وهل عرف ماهو الحب الذى نعنى به شيئا اكثر من العشق واكثر من الغرام ؟؟

فأما هذا الشأن فقد كان ولايعقل الا أن يكون ، ومافرغ ابن الرومى قط من شأن النساء ولاكره الشيخوخة الا لانها تصده عن المرأة او تصد المرأة عنه ، فلأجلها قبل كل شىء كان يخاف غائلة السن ولاجلها قبل كل شىء كان يتمنى خلود الشباب

أخشى كسادى على النساء اذا اسد ... نت والسن جمة الخبل
وانني من كسادهن على ... سنى لأولى بالخوف والوجل

ولأجلها كذلك تمنى ان تنعكس ايام العمر فيتقدم فيه الهرم ويتأخر فيه الشباب

فالعيش طعمان عند ذائقه ... مر التوالى مستعذب الأول
من عسل تارة ومن صبر ... لهفى لتأخير عقبة العسل
لو أنها أخرت لطاب بها العيـ ... ـش وان جاوزت شفا الأجل

وفى وسعك ان تقول انه عرف « العشق » الذى لايعرفه الا من نشبت علائقه بامرأة واحدة دون سائر النساء، فوصف ماوجده من هذا العشق فى غير موضع وقال من ذلك

قد كنت ابكى لاصحاب الهوى زمنا فهل لى الآن من باك فيبكينى
اهكذا يجد العشاق كلهم ؟ يارحمتا للمحبين المساكين !

وقال :

الحب داء عياء لادواء له تضل فيه الاطباء النحارير
قد كنت احسب ان العاشقين غلوا فى وصفه فاذا فى القوم تقصير
سقيا لايام لم اخبره تجربة الا بما وصفت عنه الاخابير

بل جرب الغيرة فقال فى تهوينها على العاشق مالا يقوله الاغيور :

اذا خلة خانتك بالغيب عهدها فلا تجعلن الحزن ضربة لازب
وهب انها الدنيا التى انت موقن بفرقتها اذ انت فى شأن لاعب

فهو قد عشق وغار وكابد لوعة الرغبة التى يحصرها العشق فى انسانة واحدة بين سائر النساء وفارق وناجى وذكّر وقال من ذلك فى معشوقة فارقها على أمل اللقاء

أعلى العهد انت ام حلت عنه جعل الله قبل ذاك مماتى
لست انسى امتناع صبرك للتو ديع والبين مؤذن بشتات

الا ان هذا كله عشق وليس فيه حب . وقد يكفى الاحساس والعاطفة لاضرام العشق واغرام المرء بامرأة يشتهيها ويغار عليها ويشعر نحوها بذلك الشعور الفطرى الذى ركب فى عامة الرجال وعامة النساء

اما الحب الذى نعنيه فلا يكفى فيه الاحساس والعاطفة ولابد فيه من « الروحانية » أو الزهد والتضحية ونكران النفس ومن ثم نكران الحياة ويقترن ذلك بالتصوف والارتفاع بالمرأة الى مافوق مرتبتها فى الطبيعة وفوق حظها من محاسن الاجسام . اذ الطبيعة لاتعرف فى المرأة الا أنها انثى وكذلك

العاشق، اما المحب فانه قادر على أن يفيض من روحانيته نوراً على من يحب وأن يحفها بهالة علوية قد يهابها وقد يخشع لها فى بعض المواقف خشوع المتنسكين. ولم يكن لابن الرومى نصيب من هذه الروحانية ولا من ذلك النور، فما كانت المرأة فى حسه أو عاطفته الا انثى طبيعية ومخلوقا جميلا فيه متعة للأعين ومسرة للقلوب، ونساؤه كلهن نساء المتعة والمسرة على نسق واحد يلخصه مثل هذا البيت :

حوراء فى وطف قنواء فى ذلف لفاء فى هيف عجزاء فى قبب

وهو فى هذا أيضاً وفىّ « للعبقرية اليونانية » وللصورة التى رسمها اليونان للجمال « فينوس ». فقد كان اليونان طبيعيين فى الجمال وطبيعيين فى العشق ولم يكونوا روحانيين فى شعر ولا فلسفة ولا تصوير، وخلاصة الحب عندهم انه نسخة من حب « خلوى ودفنيس » فى غابة حفلت بالالوف من نسخ هذا الحب بين أزواج الطير والحيوان، فاذا تنزه فهو حب عصفور لعصفورة أو ظبي لظبية أو حيوان جميل لحيوانة جميلة، يخلو من الكثافة ويزدان بالخفة والرشاقة، ولكنه لا يخلو من « الجسدانية » ولا من « الطبيعية » ولا يفارق الأرض ليصعد الى سماء « الروحانية » والنور. واذا تنزه بعد ذلك فهو صداقة حامية يشترك فيها الفكر والذوق والغريزة، ولا ينفسح فيها مجال كبير للنزاهة والتقديس

حب الطبيعة

ونتقل من ذاك الى الخاصة الاخرى من خواص الطبيعة اليونانية وهى حب الطبيعة

فقد وصف الطبيعة شعراء كثيرون ولم يمنحها الحياة الا قليلون! أما الذين منحوها حياة نحبها وتحبنا ونعطف عليها وتعطف علينا ونناجيها وتناجينا فأقل من هؤلاء القليلين

وذاك ان الشاعر قد يؤخذ بأحمرها وأبيضها وأصفرها وأخضرها ويُفتَن بما فيها من الزراكش والافانين ثم لا يعدو بذلك أن يمدح شيئا قد يجد مثله فى ألوان الحلى واصباغ الطنافس ونقوش الجدران، أو نحن نخطو وراء ذلك خطوة فنقول انه لايعدو بذلك أن ينظر الى دمية فاتنة يروقه منها وجه مليح وقوام ممشوق وحسن مفاض على الجوارح والأوصال، ولكنه لا يتطلع منها الى عطف ولا يفتش فيها عن طوية

وقد يستريح الشاعر الى الطبيعة لانها ظل ظليل. ومهاد وثير وهواء بليل وراحة من عناء البيت وضجة المدينة، فلا يعدو بذلك ان يستريح اليها كما تستريح كل بنية حية الى الماء والظل والهواء — كذلك تهجع السائمة فى المروج، وكذلك تهتف الضفدع فى الليلة القمراء

وقديمنحها الشاعر حياة من عنده أو من عند الخرافات والاساطير فاذا هى حياة بغيضة لاتصلح للتعاطف والمناجاة ولا يصدر عنها الا الفزع والاحجام ولا تقوم بينه وبينها الا الحواجز والمداوات

أما الطبيعة التى تُحب وتُناجَى ويتم التعاطف بين الشاعر وبينها

عن ثروة غزيرة من الشعر والشعور فهى طبيعة الحور الخافقات فى الهواء والعرائس السابحات بين الأمواج والعذارى الراقصات فى عيد الربيع والجنيات الهامسات فى رفرفة النسيم ورقرقة الغدير وحنين الصدى وحفيف الاغصان ، أو ان شئت فقل انها هى الطبيعة العامرة بما فى البروق والرعود والسماوات والاعماق من بطولة وعظمة ونضال جياش بالغضب الظافر والسطوة المجيدة والخطر المثير والشجاعة التى تقدم ولا تحجم وترجو ولا تخاف ، أو ان شئت فقل انها هى الطبيعة التى تبث الاغراء فى كل شىء حتى ليحذر الملاّح لجة البحار مخافة ان تستهويه بناتُ الماء من وراء زرقة الامواج ، فيثب الى احضانها وكانما يثب الى احضان عروس طال بها عهد الغياب

فعلى هـذا النحو تتجلى الطبيعة للعبقرية التى تحبها وتمنحها الحياة . فليست هى دمية ولا حلية وليست هى مروحة للهواء ولا مجلسا للمنادمة ، ولكنها قلب نابض وحياة شاملة ونفس تخف اليها وتأنس بها و«ذات» تساجلها العطف وتجاذبها المودة ، ثم هى عمار لا خواء فيه وأسرة لا تبرح منها فى حضرة قريب يناجيك وتناجيه ويعاطيك الاخلاص وتعاطيه

وقد كان ابن الرومى يحب الطبيعة على هـذا النحو ويستروح من محاسنها نفسا تتصبى الناظر اليها وتتبرج له «تبرج الانثى تصدت للذكر» ويرى وراء هذه الزينة التى تبدو على وجهها عاطفة من عواطف العشق تتعلق بها العفة والشهوة تعلقها بالعاطفة الانسانية الشاعرة

فهى فى زينة البغى ولـكن هى فى عفة الحصان الرزان

ولا يقول هذا القول على سبيل الاستعارة اللفظية ولـكنه يقوله

ويصف الطبيعة الوصف الذى يقتضيه ذلك الشعور وعليه ذلك التصور، فيشفّ وصفه لها عن شغف الحى بالحى وشوق الصاحب الى الصاحب، وتسمع من تشبيبه بها رنة طرب أو شجو لا تخرج الا من نفس مفعمة باصداء الطبيعة قد نفذت الى طويتها وشاركتها فيما تتخيله لها من حزن وسرور. فهو يحيـا مع الشمس الغاربة حين تضع على الارض « خدا أضرع » من دهشة الفراق، وهو يحيـا مع النوّار حين تخضل بالدمع عيونه وتهبط مع الليل شجونه، وهو يحيـا مع الذباب المغرد والطير الساجع فى ساعة الغروب التى يمتزج فيها الحنان الذائب بالشوق الخفيض، وهو ينتظم ذلك كله فى انشودة واحدة لم تدع مزيدا لفن اللون والحركة ولا مزيدا لوحى الخيال والسليقة :

اذا رنّقت شمس الاصيل ونفّضت ... على الأفق الغربى ورسا مذعذعا
وودعت الدنيـا لتقضى نحبها ... وشوّل باقى عمرها فتشعشعا
ولاحظت النوّار وهى مريضة ... وقد وضعت خدا الى الأرض أضرعا
كما لاحظت عواده عين مدنف ... توجع من أوصابه ما توجعا
وظلت عيون النور تخضل بالندى ... كما اغرورقت عين الشجى لتدمعا
يراعينهـا صورا اليها روانيا ... ويلحظن الحاظا من الشجو خشعا
وبَيْن اغضاء الفراق عليها ... كانها خلا صفاء تودعا
وقـد ضربت فى خضرة الروض صفرة
من الشمس فاخضر اخضرارا مشعشعـا
واذكى نسيم الروض ريعان ظله ... وغنى مغنى الطير فيـه فسجّعا
وغرد ربعى الذباب خلاله ... كما حثحث النشوان صنجا مشرّعا

وهو يعرف الربيع حياةً تتحرك فى الوحش والطير كما يعرفه زخرفا

تحلى به الارض والسماء . لأنه وليمة الحياة للاحياء

تجد الوحوش به كفايتها　　والطير فيه عتيدة الطعم
فظباؤه تضحى بمنتطح　　وحمامه يضحى بمختصم
ان الربيع لكالشباب وان الصيـ　　ـف يكسعه لكالهرم

وهو ينتشي مع الطيور والاغصان اذا بعثت الشمال بتحيتها و

هبت سُحيرا فناجى الغصن صاحبه　　موسوسا وتنادى الطير اعلانا
ورقٌ تغنى على خضر مهدلة　　تسمو بها وتشم الارض احيانا
تخال طائرها نشوان من طرب　　والغصن من هزه عطفيه نشوانا

وهو يستمع الى الروضة فى بكائها وشدوها اذ هى

يتداعى بها حمائم شتى　　كالبواكى وكالقيان الشوادى
من مثان ممتعات قران　　وفراد مفجعات وحاد
تتغنى القران منهن فى الا　　يك وتبكى الفراد شجو الفراد

وهو يفهم الشعر الذى لا ينشده صاحبه للأجر والصنعة

لكن كما راقت القمرى جنته　　فظل يتبع تغريدا بتغريد

وهو يحسن الاصغاء الى سر الحياة الكامنة فى هذه الارض وينصت الى ما يبوح به الربيع فى نجواها اذا

لم يبق للارض من سر تكاتمه　　الا وقد اظهرته بعد اخفاء
أبدت طرائف وشىء من زواهرها　　حمرا وصفرا وكلٌ نبت غبراء

وهو يشتهى جمال الطبيعة من كل جارحة فى نفسه اذا بدت للعين

برياض تخايل الارض فيها　　خيلاء الفتاة فى الابراد
منظر معجب ، تحية انف　　ريحها ريح طيب الاولاد

وقد بلغ من قوة هذا الأحساس فيه أن تجاوز حيز البديهة الى حيز التفكير، كأنه التفت الى نفسه فادرك من طول المراقبة وتواتر الاحساس المتشابه علة أنسه بالطبيعة، وعلم انه أنس مستمد مما يفيضه عليها من دلائل الحياة، فقال فى ابيات يصف بها الاغصان :

تلاعبها أيدى الرياح اذا جرت	فتسمو، وتحنو تارة فتنكس
اذا ما اعارتها الصبا حركاتها	افادت بها أنس الحياة فتؤنس

ولما شغف بالشباب ذلك الشغف المتوهج لم ينس معه الشغف بالطبيعة ولم يفرق بين ربيعه وربيعها وبين ثمراته وثمراتها، بل خلع من شبابه عليها وخلع من شبابها عليه ومزج بينهما مزجاً لا تخاله يكون الا فى مهجة واحدة وجسد واحد. فاذا تذكر الشباب فاسمع ما هذا الذى يذكّره بالشباب :

يذكرنى الشبابَ صدى طويلٌ	الى برد الثنايا والرضاب
وشح الغانيات عليه الا	عن ابن شبيبة جون الغراب

. . . .

يذكرنى الشباب جنانُ عدن	على جنبات انهار عذاب
تُفيِّيءُ ظلَّها نفحات ريح	تهز متون اغصان رطاب
اذا ماست ذوائبها تداعت	بواكى الطير فيها بانتحاب
يذكرنى الشباب رياض حَزْن	ترنم بينها زرق الذباب
اذا شمس الاصائل عارضتها	وقد كَرَبت توارى بالحجاب
والقت جنحَ مغربها شعاعا	مريضا مثل الحاظ الكعاب
يذكرنى الشباب سراةُ نهى	نمير الماء مطرد الحباب
قرته مزنة بكرٌ وأضحى	ترقرقه الصبا مثل السراب

على حصباء في أرض هجان كأن ترابها ذفر الملاب
له حبك اذا اطّردت عليه قرأت بها سطورا فى كتاب
تذكرنى الشباب صبا بليلٌ رسيس المس لاغبة الركاب
أتت من بعد ما انسحبت مليا على زهر الربى كل انسحاب
وقد عبقت بها ريا الخزامى كريا المسك ضُوّع بانتهاب
يذكرنى الشباب وميض برق وسجع حمامة وحنين ناب
فيا أسفا ويا جزعا عليه ويا حزنا الى يوم الحساب
أفجع بالشباب ولا أعزى ؟ لقد غفل المعزى عن مصابى
تفرقنا على كرهٍ جميعا ولم يك عن قلى طول اصطحاب
وكانت ايكتى ليد اجتناء فعادت بعده ليد احتطاب
ايا بُرد الشباب لكنت عندى من الحسنات والقسم الرغاب
بليت على الزمان وكل برد فبين بلى وبين يد استلاب
وعز علىّ ان تبلى وأبقى ولكن الحوادث لا تحابى
لبستك برهة لبس ابتذال على علمى بفضلك فى الثياب
ولو مُلّكت صونك فاعلمنه لصنتك فى الحريز من العياب

وهذا حنين الى الطبيعة وشبابها وحنين الى العمر وشبابه لا تدرى اين يبتدىء احدهما واين ينتهى الآخر. فهما حنين واحد وشباب واحد وفاكهة واحدة وروضة واحدة. وانك لتذوق الفاكهة فتذوق فيها طعم الشفاه والخدود وتجد فيها مس الضفائر والنهود وتجمع فيها بين وليمة الحب ووليمة البستان بعد أن تسمعه يقول

متّع الظبى من جنى غصنك اللد ن يمتعك منه قبل انحصاده
من عناقيده وتفاحه الغض ورمانه ومن فرصاده

أو بعد ان تسمعه يقول :

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان ... فيهن نوعان : تفاح ورمان
وفوق ذينك أعناب مهدلة ... سود لهن من الظلماء الوان
وتحت هاتيك عناب تلوح به ... اطرافهن قلوب القوم قنوان
غصون بان عليها الدهر فاكهة ... وما الفواكه مما يحمل البان
ونرجس بات سارى الطل يضر به ... واقحوان منير النور ريان
ألفن من كل شيء طيب حسن ... فهن فاكهة شتى وريحان

فلا افتراق عنده بين الطبيعة والشعور ، ولا يكاد ينظر الى الحسان الا تذكر الروضة والبستان ، أو لا يكاد ينظر الى الروضة والبستان الا بنظرة تثير الرغبة وتوقظ الاشجان

ولو كان للطبيعة فى بلاد العراق ظواهر أخرى غير هذه الظواهر التى توزّع وصفها فى قصائده ومقطوعاته لقرأت له فى تلك الظواهر الاخرى وصفاً على هذا الاسلوب يحييها ويناجيها ويلهمها القول والعمل ويزوّدها بالسير والاحاديث ، كما ترى فى الاساطير المروية عن بلاد الرعود والبراكين والمغاور والآجام . لاننا لا نحسب هذه القريحة قادرة على أن تتخيل شيئاً من الاشياء بغير حياة ، ولا على أن تفصل بين عالم الطبيعة وعالم الحياة فى أى البلاد ؟

التشخيص والتصوير

والقريحة المطبوعة على اعطاء الحياة مطبوعة كذلك على اعطاء الشخوص، أو على ملكة التشخيص

ولكننا نحب ان نستثنى هنا ذلك التشخيص الذى تلجىء اليه ضرورة اللغة وتسهيل التعبير مع علم المتكلم بما فى كلامه من المجاز والمفارقة . فقد يتكلم الشاعر أو غير الشاعر عن الشمس بضمير المؤنث وعن القمر بضمير المذكر، وقد يسند اليهما فعال الاحياء العاقلة وغير العاقلة، ولكنه بعدُ تعبير لفظى ليس وراءه تصوّر وليس وراء التصوّر — ان كان — أثر من الشعور، ولا سيما الشعور المتبادل بين طرفين متعاطفين

وانما المقصود بالتشخيص تلك الملكة الخالقة التى تستمد قدرتها من سعة الشعور حينا أو من دقة الشعور حينا آخر، فالشعور الواسع هو الذى يستوعب كل مافى الارضين والسموات من الاجسام والمعانى فاذا هى حية كلها لانها جزء من تلك الحياة المستوعبة الشاملة، والشعور الدقيق هو الذى يتأثر بكل مؤثر ويهتز لكل هامسة ولامسة فيَستبعد جد الاستبعاد ان تؤثر فيه الاشياء ذلك التأثير وتوقظه تلك اليقظة وهى هامدة جامدة صفر من العاطفة خلو من الارادة، وهذا الشعور الدقيق هو شعور ابن الرومى بكل ما حوله وسببُ ما عنده من قدرة الإحياء وقدرة التشخيص : قدرة التشخيص التى هى ملكة مقصودة تكون عند أناس ولا تكون عند آخرين، وليست قدرة التشخيص التى هى

حيلة لفظية تلجئنا اليها لوازم التعبير ويوحيها الينا تداعى الفكر وتسلسل الخواطر

خذ مثلا للمعانى « التشخيصية » التى يأتى بها اللفظ والمعانى التشخيصية التى يأتى بها الشعور من ابيات ابن الرومى فى مشهد الشمس ساعة الغروب

فقد ينظر بعض الشعراء الى الشمس فى هذا المشهد فيجعلها حسناء مفارقة ، ومادامت حسناء مفارقة فهى معشوقة أو عاشقة ، ومادامت معشوقة أو عاشقة فهناك قصة غرام تدور على هذا المعنى الى حيث ينتهى بها المطاف ، وكل هذا لان الشمس مؤنثة فى اللغة العربية وحسناء فى تشبيهات الشعراء ! فهى قصة مولدة من لفظ عرضى قد يكون لها نصيب من الشعور وقد لا يكون لها أقل نصيب ، أمّا الشئ الذى لا يمكن ان يخلقه اللفظ ولا التشبيهات ولا تسلسل الخواطر فهو الشعور العميق بوحشة الغروب ومايعنكس من ذلك الشعور العميق على الشمس من ترنيق وضراعة وانكسار ونظرٍ يائسٍ كنظر المريض الى العواد ووجومٍ شائع بينها وبين عيون النَّور التى تغرورق على الاغصان لتدمع وتلحظ الحاظا خشعا من الشجو والاغضاء . فلا بد اذن من شعور يسبق التشخيص ويلقى عليه ظله ويبث فيه من حياته ، وايا كان لفظ الشمس من التأنيث أو التذكير وايا كان موقعها من تشبيهات الشعراء فان هذا الشعور لا يتغير ولا يضعف ولا يزول

هـذا الشعور هو الذى يسبق كل تشخيص لابن الرومى أو كل « صورة مشخصة » فى شعره سواء تكلم عن بلد أو يوم أو خليقة أو

فترة من العمر أو معنى محسوس أو غير محسوس

فأنت تستخرج من بغداد « صورة مشخصة » حين يقول عنها :

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ... ولبست ثوب العمر وهو جديد
فاذا تمثل فى الضمير رأيته ... وعليه أغصان الشباب تميد

وأنت ترى للمهرجان والنيروز « شخصين » يشبان ويشيبان ويدينان بالاديان ويحدوهما الشوق وتلوح عليهما الهيبة حين يلوحان لك فى قوله :

شبّب المهرجان لهوُك فيه ... فغدا من غطارف الشبان
وكذاك النيروز رُدّ عليه ... بك شرخُ الشباب ذى الريعان
ولذ كّرتَ ذا وذاك جميعا ... سنَنَ الملك فى بنى ساسان
عُمّرا برهةً على دين كسرى ... وهما الآن بعده مسلمان
. . . .
فعلى منظريهما هيبة العـ ... ـز ونور الاسلام والايمان
واحبّاك حب مولى شكور ... فهما وامقان ، بل عاشقان
كل يوم وليلة فرطَ شوق ... ونزاع اليد يطّلعان
فبهذا وذاك حتى يجيئا ... غلة فوق غلة الظمآن
لو أصابا الى الغلاط سبيلا ... غالطا الحاسبين فى الحسبان
او يُخلّىَ عنان ذاك وهذا ... سبقا موقتيهما فى الزمان
ولودّا اذا هما بك حلاّ ... لو يقيمان ثَمّ لا يرحلان
وعزيز عليهما ان يكونا ... عنك لولا الازعاج يرتحلان
لو اطاقا هناك للدهر قسرا ... حرنا سائقيه اى حران

ولهنوات النفوس « شخوص » عنده يخاطبها وتخاطبه ويعتب عليها وتعتب عليه وتسمع بينه وبينها هذا الحوار :

ليتنى ما هتكت عنكن سترا   فثويتين تحت ذاك الغطاء
قلن : لولا انكشافنا ما تجلت   عنك ظلماء شبهة قتماء
قلت : اعجب بكن من كاسفات   كاشفات غواشى الظلماء
قد أفدتننى مع الخبر بالصا   حب أنْ رب كاسف مستضاء
قلن : اعجب بمهتد يتمنى   انه لم يزل على عمياء
الى آخر ذلك الحوار

والشباب روح او ملك يعيش كما يعيش الرجل وزميله من الجان فى بعض الاساطير

أخى والفى وتربى كان مولدنا   معا وربتنى الايام حيث ربا

والود كائن حى يعاجله القتل او يترك الى الهرم فيموت :

أمتَّ وديك عبطةً فمه   دعه على رسله يمت هرما

والعوسج شرير « ملعون » يهجى ويسخر منه ويقال فيه

عذرنا النخل فى إبداء شوك   يذود به الأنامل عن جناه
فما للعوسج الملعون أبدى   لنا شوكا بلا ثمر نراه
تراه ظن فيه جنى كريما   فاظهر عدة تحمى حماه ؟ !
فلا يتسلحن لدفع كف ،   كفاه لؤم مجناه كفاه !

واذا كانت هذه قدرة ابن الرومى على خلق الأشكال للمعانى المجردة أو خلق الرموز لبعض الأشكال المحسوسة فان القدرة التى سبق بها الشعراء فى الأمم كافةً بغير شك ولا تردد هى قدرته البالغة على نقل الأشكال الموجودة كما تقع فى الحس والشعور والخيال . أو هى قدرته على التصوير المطبوع لأن هذا فى الحقيقة هو فن التصوير كما يتاح لأنبغ نوابغ المصورين . فلست أعرف فيمن قرأت لهم من مشارقة ومغاربة

أو يونان أقدمين وأوربيين محدثين شاعراً واحداً له من الملكة المطبوعة فى التصوير مثل ما كان لابن الرومى فى كل شعر قاله مشبهاً أو حاكياً على قصد منه أو على غير قصد ، لأنه مصور بالفطرة المهيأة لهذه الصناعة فلا ينظر ولا يلتفت إلا تنبهت فيه الملكة الحاضرة أبداً وأخذت فى العمل موفقةً مجيدةً سواء سهر عليها أو سها عنها كما قد يسهو المصور وهو عاملٌ فى بعض الأحايين

إنما التصوير لون وشكل ومعنى وحركة ، وقد تكون الحركة أصعب ما فيه لأن تمثيلها يتوقف على ملكة الناظر ولا يتوقف على ما يراه بعينه ويدركه بظاهر حسه . ولكن تمثيل هذه الحركة المستصعبة كان أسهل شيء على ابن الرومى وأطوعه وأجراه مع ما يريد من جد أو هزل وحزن أو سرور ، وقد مر بك وصفه لمشيته التى «يغربل فيها» وللأحدب الذى شبهه بالمصفوع وهو يتجمع ويتهيأ للصفع ويخشاه ! فأضف إليه هنا وصفه لحركة الكتان فى حقله :

وجلس من الكتان اخضر ناعم ... توسّنه دانى الرباب مطير
اذا درجت فيه الشمال تتابعت ... ذوائبه حتى يقال غدير

ووصفه لحركة الرقاق فى يد الصانع :

ما بين رؤيتها فى كفه كرة ... وبين رؤيتها قوراء كالقمر
الا بمقدار ما تنداح دائرة ... فى صفحة الماء يُرمَى فيه بالحجر

ووصفه فى القمر فى سريانه :

وأسفر القمر السارى فصفحته ... ريّا لها من صفاء الجو لألاء

ووصفه لحركة الرى فى النبات :

ويحور الخريف وهو ربيع ... وتسور المياه فى العيدان

ووصفه للحركة البطيئة فى سير السحائب

سحائبَ قيست بالبلاد فأُلفيتْ غطاء على اغوارها ونجودها
حدتها النعامى مثقلات ، فاقبلت تهادى ، رويداً، سيرها كركودها

فأنك تقرأ هذه الابيات وامثالها مما سبق أو لم يسبق فى هذا الكتاب فيروعك منها — اول ما يروع — صِدقُ تمثيلها للحركة فى الجملة والتفصيل . فليس أصدق من وصف ذوائب الكتان بالغدير وهى تتلاحق مع الريح ، ثم يتمم تصوير الحركة هنا تصوير اللون الاخضر والملمس الناعم والغيم الذى يسرى على جلْس الكتان مع الليل فى وقت الوسن ويُسف بحواشيه المطيرة الى الارض البليل . فالصورة كاملة لا تنقصها سمة من سمات المكان والزمان والحركة ولاحظٌ من حظوظ العين واللمس والخيال ، ومثلها صورة الرقاق وهى تكبر فى لمح البصر كما « تنداح » الدوائر فى صفحة الماء ، ومثلها صورة الليلة القمراء وهى كاملة متحركة من بداية الاسفار الى السريان الى الصفحة الريا التى تطالعك بالامتلاء والنداوة الى الصفاء المحيط بكل هذا فاللألاء المشرق على ذلك الصفاء . ليس فى البيت كلمة واحدة الا لها مكانها من الصورة ونصيبها من التلوين والتمثيل والتبيين ، ومثل ذلك المياه التى «تسور» فى العيدان كأن لها وجيبا أو دبيبا يتتبعه الناظر بعينه ويصغى اليه باذنيه ، والسحائب التى لا تفرّق بين حركتها وركودها لأنها اطبقت على اغوار البلاد ونجودها ، وهات ما شئت من صورٍ له فى وصف الانسان والحيوان والنبات والجماد فانك لتجدن فيها كلها مثل هذا الصدق ومثل هذه الحركة ومثل هذه الحياة . وقد يكون قولنا هذا من تحصيل الحاصل بعد ما سلف من

يان احساسه باللون ويقظته لكل ما يراه أو يسمعه أو يلمسه أو يدركه من ظواهر الاجسام وبواطن العواطف والاخلاق ، ولكنه تحصيل حاصل غير مألوف ولا مستغن عن بعض الابانة وبعض التفصيل

ولو كان ابن الرومى مصورا لما استُغرب منه هذا الولع بالالوان والظلال والاشكال والحركات . لانه كان لا يستطيع اذن أن يشرع فى عمله قبل ان يلتفت الى عناصر الصورة المحسوسة ويجيلها فى روعه ويهيئها للظهور على قرطاسه . أما الشاعر فلا ضرورة فى نظم الشعر تقسره على أن يلتفت هذا الالتفات الدقيق الى كل لمحة من لمحات اللون والظل وكل صغيرة من صغائر الشكل والحركة . فاذا التفت الى ذلك فى عامة شعره بغير ضرورة قاسرة ولا طريقة مسبوقة فانما يلتفت اليه لانه مطبوع على التصوير ينظر الى ما حوله فينطبع ما يراه فى حسه وإن دق وخفى — كما ينطبع النور البعيد الضئيل فى مصوّر الفلكى المحكم التركيب

وبودنا ان نثبت الآن قصيدة « المهرجان » النونية برمتها لانها نموذج واف لشعر ابن الرومى فى هذا الباب ، ولكنا نجتزىء منها بما يأتى وفيه الدلالة الكافية على هذه الملكة النادرة . قال :

يمنُ الله طلعة المهرجان ... كلَّ يمن على الأمير الهجان

. . . .

مهرجان كأنما صوّرته ... كيف شاءت مخيّرات الاماني

. . . .

وأُديل السرور واللهو فيه ... من جميع الهموم والاحزان

لبست فيه حفل زينتها الدنـ ... ـيا وزافت فى منظر فتان

واذالت من وشيها كل برد ... كان قدما تصونه فى الصوان
وتبدت مثل الهدىّ تهادى ... رادعَ الجيب عاطلَ الابدان
فهى فى زينة البغى ولكن ... هى فى عفة الحصان الرزان
كادت الارض يوم ذلك تفشى ... سر بطنانها الى الظهران

. . . .

وتعود الرياض مقتبلات ... ناعمات الشكير[1] والافنان

. . . .

زُخرفت يوم نعمه حجرات ... جدّ موطوءةٍ من الضيفان

. . . .

حجرات ميممات بناها ... من فضول المعروف أكرم بان
لم يكن يقتنى المساكن حتى ... يتقن المجد ايما اتقان
فأذيلت فيها تهاويل رقم ... قائمات بزينة المزدان
ثم قام الكماة صفين من كـ ... ـل عظيم فى قومه مَرزُبان
كلهم مطرق الى الارض مغض ... وعلى سيفه هنالك حان

. . . .

وتجلى على السرير جبين ... ذو شعاع يحول دون العيان
يمكن العينَ لمحةً ثم ينهى ... طرفها عن ادامة اللحظان
فله منه حاجب قد حماه ... كلّ عين ترومه بامتهان
فاستوى فوق عرشه بوقار ... وبحلم من الحلوم الرزان
ثم قام المجدون مثولا ... ضاربين الصدور بالاذقان
ليس من كبرياء فيه ولكن ... كل وجه لذلك الوجه عان
فنثوا سؤدد الأمير وعدوا ... فيه آلاءه بكل لسان

(١) الشكير النبت الصغير

حين لم يُجْشَموا التزيّد لا بل ما تعدوا ما حصل الكاتبان

. . . .

فقضوا من مقالهم ما قضوه ثم آبوا بالرفد والحملان

بعد ما ارتعوا الانامل فيما لا تعدّاه شهوة الشهوان

من خوان كانه قطع الرو ض وان كان فى مثال خوان

فوقه الطير فى الصحاف وحاشى ذلك الطير من جفاء الجفان

. . . .

ثم سام الأمير سوم الملاهى وخلا بالمدام والندمان

. . . .

وقيان كأنها امهات عاطفات على بنيها حوان

مطفلات وما حملن جنينا مرضعات ولسن ذات لبان

ملقمات أطفالهن ثديا ناهدات كأحسن الرمان

مفعمات كأنها حافلات وهى صفر من درة الالبان

كل طفل يُدعى باسماء شتى بين عود ومزهر وكران

أمه دهرَها تترجم عنه وهو بادى الغنى عن الترجمان

. . . .

أُوتى الحكم والبيان صبيا مثل عيسى بن مريم ذى الحنان

. . . .

لو تسلى به حديثة رزء لشفى داء صدرها الحران

عجباً منه كيف يسلى ويلهى مع تهييجه على الاشجان

. . . .

فترى فى الذى يصيخ اليه أمرات المحزون والجذلان

فتأمل فهل ترى فى وسع المصور القدير ان يلتفت الى لون أوظل

أو شكل أو خط أو حركة فى المهرجان لم يلتفت اليها ابن الرومى فى هذه القصيدة ؟ وتأمل الشاعر هل تراه فى قصيدته الا كما قلنا فى بعض مقالاتنا : « كالرسام الذى بسط أمامه لوحته وأقبل على الوجوه والاشكال يتفرسها ويطيل النظر الى ملامحها وشاراتها وماتشف عنه من المعانى وتشير اليه من الدلائل ويراقبها فى التفاتاتها ومواقفها وحركاتها لينثنى بعد ذلك الى لوحته فيثبت عليها ماتوارد على بصره وقريحته من الالوان والمعارف والهيئات من حيث هى تحفة فنية تستهوى الحواس والاذواق ؟ فهو يبدأ برسم زينة المهرجان واختيال الدنيا بمنظرها فيه وبرود الوشى التى اذالتها للناظرين واللهو والسرور الذى شمل كل شىء ، وأديل له من جميع الهموم والاحزان ، ثم يرسم حجرات الأمير بزخارفها وتهاويلها وضيوفها الغادين اليها الرائحين منها وقيام الكماة صفا بعد صف مطرقين الى الارض مغضين بالابصار حانين على السيوف ، ثم يرسم الأمير فوق سريره وقد طلع على الجمع بوجه مهيب يمكن العين منه لحظة ثم ينهاها عن ادامة اللحظان ، ثم يذكر لك وقار الامارة وسمات الحلم والرزانة بين قوم يعنون له ويحلون قدره من الحب والتبجيل لا من الصلف والكبرياء ، ثم يرسم المادحين بين يديه يرتلون عليه الثناء ضاربين الصدور بالاذقان وينصرفون من حضرته بالعطايا والحملان ، بعد ما شبعوا من خوان يلوح فى مثل قطع الروض وان سمى بالخوان ، ثم يرسم القيان الكواعب الابكار عاطفات على المزاهر عطف الام على الرضيع بنهود مفعمات ولكنها صفر من درة الالبان ، ثم يرسم اثر الغناء على وجوه السامعين فاذا هو شجن وسلوى وأمرات من الحزن

والجذل وطرب يشوبه السكون وسكون يشوبه الطرب . . . فلا تزال في القصيدة تنتقل بين ابياتها من صورة الى صورة ومن منظر الى منظر ومن حركة الى حركة حتى تأتي عليها وقد استعرضت في خيالك متحفا واسعا من الاشكال والخطوط عملت فيه القريحة والنظر واشترك فيه الفن والاحساس وروى لك اصدق الرواية عن عين تلمح وتعي ونفس تحس فتستوعب وخيال يدخر الجمال المنظور فيثرى بالالوان والسمات . . . »

زعموا أن بعضهم قال لابن الرومي : « لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز وانت اشعر منه ؟ فقال للائمه أنشدني شيئا من قوله الذي استعجزتني عن مثله ، فانشده في الهلال :

انظر اليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال زدني . فانشده قوله في الآذَريون وهو زهر أصفر في وسطه خمل أسود

كأن آذريونها والشمس فيه كالية
مداهن من ذهب فيه بقايا غالية

فصاح واغوثاه ! تالله لا يكلف الله نفسا الا وسعها . ذاك انما يصف ماعون بيته وانا اي شيء أصف ؟ ولكن انظروا اذا وصفت ما اعرف اين يقع قولي من الناس » الى آخر القصة

وقد تصح هذه القصة أو لا تصح ، ولكنها على الحالتين تدل على رأي شائع في التشبيه بين الذين كانوا يتعاطون الادب في عصر ابن الرومي وبين الذين يتعاطونه في هذه الايام . فلابن المعتز تشبيهات كثيرة أبلغ من هذه التي مرت في القصة وأجمل وانق في المعنى والديباجة ، ولكنهم

لايختارون له فى مقام التحدى والتعجيز الا هـذه الابيات وأمثالها ، لظنهم ان نفاسة التشبيه انما تقاس بنفاسة المشبَّه والمشبه به وأن الغرض من التشبيه انما هو مضاهاة ابيض على ابيض وأصفر على أصفر ومستدير على مستدير ومستطيل على مستطيل مما يُرى بالعين ولا فضل فيه للشعور والتخيل ، فالشاعر الذى يصف النجوم ويشبهها بالجواهر والحلى هو الشاعر غيرَ مدافَع وهو المَثَلُ الأعلى فى هذه الصناعة . . . . ثم يليه الشعراء على حسب الاسعار فى سوق المشبَّهات ! وقصارى مايطلبه الشاعر من التشبيه أن يثبت لك انه رأى شيئين من لون واحد وشكل واحد كأنك فى حاجة الى مثل ذلك الاثبات الذى لا طائل تحته ، فأما انه أحس وتخيل وصور احساسه وتخيله باللفظ المبين والخواطر الذهنية الواضحة فليس ذلك من شأنه ولا هو مما يدخل عنده فى باب البلاغة والشاعرية ، وهـذا خطأ بعيد فى فهم الوصف والشعر يخرج بهما عن القدرة النفسية الى القدرة الآلية التى تحكى المناظر الظاهرة كما تحكيها المصوِّرة الشمسية . فالمسافة عظيمة جدا بين شاعر يصف لك ماراه كما قد تراه المرآة او المصوِّرة الشمسية وشاعر يصف لك ماراه وشعر به وتخيله وأجاله فى روعه وجعله جزءا من حياته . وليس يعنيك انت أن يكون الشاعر صحيح العين مطلعا على المرئيات المتشابهـة ليتصل ما بينك وبينه ويقترب وجدانك من وجدانه ، ولـكنما يعنيك منه ان يكون انسانا « حيا » يشعر بالدنيا ويزيد حظك من الشعور بها ، وتلك هى مزية ابن الرومى فى وصفه وتشبيهه ومزيته فى شعره كله من اوائل شبابه الى اليوم الذى مات فيه . وينبغى هنا ان نذكر مرة أخرى ان

ملكة الشعر غير ملكة الوصف وليستا بشئ واحد كما يفهم كثير من القراء، فمن وصف وشبّه ولم يشعر فليس بشاعر . ومن شعر وأبلغك ما فى نفسه بغير وصف مشبّه فلا حاجة به اذن الى سرد الصفات لتتم له ملكة الشاعرية

***

من ثم نقول اننا اذا قسمنا العبقريات الفنية الى أقسام وفصائل فخير ما نفهم به عبقرية ابن الرومى انها عبقرية يونانية على المعنى المفهوم بين قراء الآداب من هذه الكلمة، اذ لا نعرف صفة لعبقرية ابن الرومى هى أوجز ولا أبين من هذه الصفة المجموعة فى كلمة واحدة : فانه كان محبا للحياة فى خفة وطفولة وأريحية دائمة كالحب الذى عهدناه فى جملة الفنون اليونانية ، وكان مشخصا لمحاسن الطبيعة وعناصرها كما شخصتها أساطير اليونان وولّدت منها بنات الماء وعرائس الغاب وارباب السحب والبحار وغيرها من ولائد الذوق والخيال ، وكان مأخوذا بالجمال فى كل شىء كما أُخذوا به فى كل شىء ، مستغرقا فى الحس الدنيوى كما استغرقوا فيه . اما انه كان كذلك لانه من سلالة اليونان فذلك قول لانجزم به ولا نجزم بنفيه ، لانه يستطيع ان يكون كذلك ولو لم يكن من تلك السلالة التى اختلطت فيها سلالات الشرق والغرب والشمال والجنوب ، فما اختصّ اليونان بابداع الفنون واستجلاء الجمال ، ولا يحسن بأحد أن يدعىَ ذلك لشعب من الشعوب . وكل ما امتازوا به على غيرهم انهم منحوا الفنون حريةً لم تمنحها فى الشعوب القوية التى توطدت فيها الدولة وتوطد فيها الدين فاشتمل على العلوم والفنون واحاطها بقيود المراسم

والموروثات، فلما خضع اليونان لمثل هذا السلطان نضب فيهم ذلك المعين الحر وأخلدوا الى المراسم والموروثات الا قليلا من الحنين المتجدد الى الفن القديم ، وامتياز اليونان بالحرية فى الفن فضل عظيم جليل ولكن ما مقدار ما يسرى منه فى الدم ويثبت مع الغرائز ويتنقل مع السلالات ؟؟ وما هو الحد الفارق بين اليونانية وغير اليونانية فى الشعوب الكثيرة التى يتناولها اسم اليونان فى آسيا واوربا وقبل التاريخ وبعد التاريخ ؟؟ فأنت ترى أن القول بالوراثة اليونانية فى ابن الرومى ليس بأسهل ولا أصوب من القول بانفراد هذه الظاهرة الغريبة التى لاتزول غرابتها من بعض الوجوه حتى لو ظهرت فى بلاد اليونان . وقد يكون فيما مرّ بك من شرح مزاجه ونشأته تعليل صالح لهذا الاحساس المتوفز يساعد على تفسيره بعض التفسير، فحسبنا اذن من كلمة العبقرية اليونانية انها كلمة مفهومة فى لغة الآداب وان لم تكن مفهومة فى لغة الانساب



الفصل الخامس

فلسفة ابن الرومى

لكل شاعر كبير فلسفة للحياة، او فهمٌ لها على وجه من الوجوه. وهذه هى مزية الشاعر الكبير على الشعراء الصغار

فاذا قرأت عشرين شاعراً كبيرا فأنت امام عشرين نسخة من الدنيا، أو أمام عشرين مثالا لها كلٌّ منها مخالف لغيره مستقل عنه فى طريقة تمثيله. لان الشاعر الكبير يشعر بكل شئ حوله. فما من مظهر ولا مخبر الا وله موقع من قلبه وصدى فى ضميره. ولانه مستقل فى ادراكه وشعوره ينحو نحو نفسه ولا ينحو نحو غيره، فاذا قرأت شعره فهناك الدنيا كلها ممثلة فى ذلك الشعر على طريقته التى لا تشبهها طريقة. ولا كذلك الشاعر الصغير، اى الشاعر الذى تضيق نفسه بسعة الدنيا فلا يشعر الا بجانب صغير من جوانبها الكثيرة؛ والذى يتبع غيره فى ادراكه وشعوره فلا يثبت على قدميه لحظة الا ريثما يتكئ على سند من سابقيه أو معاصريه. فان هذا الشاعر الصغير شذرة من الدنيا وليس بمثال كامل للدنيا برمتها. وقد تكون هذه الشذرة أجمل واتقن وأحب وأشهى من المثال الكامل فى مساحته الواسعة ومنظره الجسيم، ولكنه شذرة على كل حالٍ او خريطةُ بلد واحد لن تغنيك — بالغة ما بلغت من روائها واتقانها — عن خريطة الارض الكاملة، وان قصّرت فى الرواء والاتقان

فمن الشعراء الكبار من يريك الدنيا كأنها معرض للجمال، أو يريكها كأنها متنزه للفرجة، أو كأنها كعبة للعبادة، أو ميدان للقتال،

أو طريق للعبور ، أو ملعب للسرور ، أو يريك الدنيا كما هى ، وذلك أكبر الشعراء وأعلاهم فى مراتب الالهام . أما الشاعر الذى تسأل نفسك بعد قراءته : ما هى الدنيا ؟ وما مثالها فى خلدك ؟ فلا تهتدى الى جواب فليس بالشاعر الكبير وان عدَّ فى المجيدين من الشعراء

فلا بد للشاعر الكبير من إدراك الدنيا كلها ، ولا بد لهذا الادراك من صورة تختلف كثيراً أو قليلا من سائر الصور ، وهذا هو الذى نعنيه بفلسفة الشاعر ولا نتخطاه الى معنى الفلسفة الشائع بين المفكرين . اذ لو قصدنا الى هـذا لوجب علينا أن نقول ان الفلسفة أبعد المطالب عن ابن الرومى وان ابن الرومى أبعد الناس عن الفلسفة ، بل لوجب علينا أن نقول أكثر من ذلك أن قريحة ابن الرومى كانت نقيض القريحة التى يحتاج اليها الفيلسوف ، لأن الفيلسوف يجرد كل شىء ليراه بعين الفكر حيث تلتقى الكليات وتنعدم الفوارق والأجزاء ، وابن الرومى كان يجسم كل شىء ليراه بعينى الفنان فى عالم الأنوار والاشكال والخطوط والحركات

وربما خطرت للقارىء وساوس ابن الرومى وأوهامه وأسراره فحسبه من أهل الباطن الذين ينظرون الى الدنيا نظرة الروحانية وقرّب ما بينه وبين الفلاسفة المجرّدين على هذا الاعتبار . فيجب علينا كذلك أن نبادر الى القول بأن ابن الرومى كان نقيض أهل الباطن المتعمقين كما كان نقيض الفلاسفة المجردين ، لأن أهل الباطن يتجاوزون الظواهر الى البواطن ويحسبون الظواهر وهما أو كذبا لا وجود له الا فى الحس المضلل المخدوع . أما ابن الرومى فكان يعكس الأمر فيلبس الاسرار ثوب الظواهر ويلحق عالم الخفاء بهذا العالم المجسّم المحسوس ، فالباطنيون

ينفون الظواهر ويُثبتون الأسرار وابن الرومى ينفى الأسرار ويُثبت الظواهر ، وكان يلحى الناس لأنهم يغفلون عن نذير الخفاء ولا يتقونه كما يتقون نذير العيان . لأن الخفاء عنده انْ هو الا عيان يراه ويلمسه ويتجنبه ويلقاه

لقد كان الرجل « جديد » الاحساس فى شبابه وهرمه ، فعالمه ابدا عالم الطفولة الخالدة الذى يطالع صاحبه ابدا ببهجة جديدة أو خوف جديد : طفولة خالدة ولكنها مروَّعة لفرط ما ألح عليها من السقم والألم . فهى فى هذه المأدبة الالهية التى تُسمى بالدنيا فاغرة الحس أبدا لكل طارئ جديد من طوارئ الاغراء والترويع ، طفولة لم تزدها السنون الا امعانا فى الطفولة واغراقا فى اللعب وشوقا الى الحلوى ورهبة من العصا واحتيالا على هذه الرهبة ، فلن ترى فى شعره كله قولة واحدة الآ هى قولة الطفل الكبير الذى يفهم اضعاف مايفهم الكبار ولكنه لا يحس الا كما يحس الاطفال

أيتكلم عن الصبر ؟ أيتكلم عن العزلة ؟ نعم ، ويتكلم عن الزهد والعفه والتقوى وعماشئت من الحكم والنصائح !! وزد عليه انه يتكلم عنها كلام النية والعقيدة لا كلام الخبث والرياء ، ثم ماهو الا ان تعروه بادرة واحدة من بوادر الفرح أو الحزن وغواية واحدة من غوايات الربيع أو الخريف حتى تذهب جميع هذا الحكم والنصائح فى الرياح وينطلق الطفل الكبير مصفقا للمتعة الجديدة او صارخا من الالم الجديد . لان الكلمة العليا فى هذه « الفلسفة » للاحساس الطارئ لا للفكر السابق أو الاحساس القديم أتسميها اذن فلسفة « ابيقورية » تنشد اللذة اينما كانت وتهرب

من الألم اينما كان ؟؟ ان كنت تسمى الطفل الذى يتهافت على الحلوى ويجفل من العصا « ايقوريا » فلك ان تعد ابن الرومى فى جماعة الابيقوريين ، ولكن الابيقورية فى رأيى ليست « جدة » الاحساس المتفزز للمسرات والآلام وانما هى فتور الاحساس واستكانة الشيخوخة الى ما يريح ونفورها مما يزعج ويثير . وهى فى معناها الشائع نقص فى الاحساس وليست بزيادة فيه . والا فهل تظن ابا نواس شعر بلذعة الالم أو بنضرة السرور قط ؟؟ هذا هو الابيقورى فى الابيقوريين ... وهو كما تعلم واحد من أولئك المترفين الذين يطلبون اللذة ويشفقون من الالم لانهم فاترون فارغون لا لانهم مرهفو الحس مفعمون بالحياة . أما ابن الرومى فكان يألم ويُسَر لان حياته هى الالم والسرور ، او لانه لا بد له من أن يحس ولا بد للاحساس من ان يكون بعض الألم وبعض السرور ، وليس فى وسعك ان تعطله من الاحساس بهذا أو بذاك الا اذا عطلته من الحياة ، وليس فى وسعه هو ان يطلب اللذة باختياره أو يجتنب الالم باختياره . لأن الجدول الرقراق لا يطلب الصفاء ولا يجتنب الكدر ، وانما يصفو ويكدر لانه ماء ولن يكون الا من الماء

فعالم ابن الرومى هو عالم الطفولة الخالدة لا عالم الشيخوخة الوادعة أو عالم « الابيقوريين »

والطفولة الخالدة هى الاحساس الجديد بالالم والاحساس الجديد بالسرور . ولقد دام له هذا الاحساس الجديد كأحسن ما يدوم بعد فقد الشباب ، ولكنه لفرط طمعه فى الحياة كان لا يقنع الا بان يجمع بين « بشاشة الاوطار » وقدرة الشباب ؟

الفصل السادس

صناعة ابن الرومى

قولا لمن عاب شعر مادحه   أما ترى كيف ركب الشجر
ركب فيه اللحاء والخشب اليا   بس والشوك دونه الثمر
وكان أولى بأن يهذب ما يخلا   ق رب الأرباب لا البشر

يتفق لقارىء الشعر ان يعرض له فى مطالعاته بيت غير منسوب الى صاحبه فينسبه الى شاعر معروف عنده ثم يجد بعد البحث أن فراسته قد صدقت وأن البيت لذلك الشاعر بغير خلاف ، ولكنه قد يعلم السبب الذى دعاه الى نسبة البيت إليه وقد يتعذر عليه أن يرد ظنه الى سبب غير البداهة التى لا تعلل . لان سمات الشعراء التى تبدو فى قصائدهم وابياتهم بعضها ظاهر يسهل تتبعه والاستدلال عليه وبعضها خفى يجرى فى الكلام مجرى الملامح فى الوجوه . تعرفها وتعرف بها الأبناء والآباء ولكنك لا تردها الى سبب محدود

وليس كل الشعراء ذوى ملامح واضحة يعرفهم بها القراء ، ففى العربية مثلا الوف من الشعراء لا تعد منهم مائة بين اصحاب الملامح الواضحة التى تعرفهم بها فى القصيدة الواحدة بله البيت الواحد . وفى طليعة هؤلاء من الشعراء المحدثين — غير ابن الرومى — المتنبي والمعرى والشريف الرضى ، والبقية درجات فى هذه الخصلة تعرفهم بسهولة حينا ، ولا تعرفهم حينا الا بعد جهد وتحقيق

بعض هذه الملامح أو العلامات نفسى لا نتكلم عنه فى هذا الفصل لأنه سبق فى مواضع متفرقة من الفصول المتقدمة ، وبعضه لفظى

يرجع الى الصياغة وأسلوب التعبير والنزعة الفنية التى ينفرد بها الشاعر بين الشعراء وإن تساووا فى الاجادة ، كما ينفرد الجميل بين ذوى الجمال بسمةٍ خاصة تُستحب فيه وان تساووا كلهم فى الجمال . وهذا الذى نعنيه بالصناعة ونتم به مباحث هذا الكتاب

فالعلامات البارزة فى قصائد ابن الرومى هى طول نفسه وشدة استقصائه المعنى واسترساله فيه ، وبهذا الاسترسال خرج عن سنة النظامين الذين جعلوا البيت وحدة النظم وجعلوا القصيدة ابياتا متفرقة يضمها سمط واحد ، قل أن يطرّد فيه المعنى الى عدة أبيات وقلّ أن يتوالى فيها النسق توواليا يستعصى على التقديم والتأخير والتبديل والتحوير . فخالف ابن الرومى هذه السنة وجعل القصيدة « كُلّاً » واحدا لا يتم الا بتمام المعنى الذى اراده على النحو الذى نحاه ، فقصائده « موضوعات » كاملة تقبل العناوين وتنحصر فيها الأغراض ولا تنتهى حتى ينتهى مُؤداها وتفرغ جميع جوانبها وأطرافها ، ولو خسر فى سبيل ذلك اللفظ والفصاحة

ولا ريب أن هذا الاستقصاء كان سبباً من أسباب الاطالة ولكنه لم يكن كل السبب ، لأن ابن الرومى كان يطيل القصائد حفاوة بالممدوحين واكباراً لشأنهم واظهاراً لعنايته بارضائهم ، وكان يرى فرضاً عليه للممدوح أن يستصعب ولا يستسهل ، فاذا طرق القوافى السهلة اعتذر من تقصيره كما قال لعبيد الله بن عبد الله من قصيدة نيفت على سبعين ومائتى بيت :

كل مدح فى غيركم فتبابٌ ... ما أثيبت عبادة الأوثان
هاكها ، لا أقول ذاك مُدلا ... قولَ ذى نخوة بها وامتنان
بين أثنائها مديحٌ نفيس ... من لبوس الملوك والفرسان

ذو قواف كأنها حلق الاصد	اغ فى البيض من خدود الغوانى
راق معنى ورق لفظاً فيحكى	رائق الخمر فى رقيق الصحان
ان تكن سهلة القوافى فليست	فى المعانى بسهلة الوجدان
فابتذلها فى يوم لهوك واعلم	انها بعدُ من ثياب الصيان
وابسط العذر فى ارتخاص القوافى	واتباعى سهولة الأوزان
أنت ألجأتنى الى ما تراه	بالذى فيك من فنون المعانى
أى وزن وأى حرف روى	لهما بالمديح فيك يدان
ضاق عن مأثراتك الشعر الا	فاعلات مفاعل فاعلان
ليس مدحٌ يفى بمدحك الا	صلوات المليك فى القرآن
لا ولا حمد كفء نعماك الا	حمد سبع من الكتاب مثان

أو كما قال لأبى القاسم التوَّزى الشطرنجى من قصيدة ناهزت مائة وخمسين بيتاً :

ولك العذر مثل قافيتى فيـ	ـك اتساعاً فانها كالفضاء
وتأمّل فانها الف المدّ	لها مدة بغير انتهاء

وله رأى فى اطالة الشعراء واطالته يقول فيه :

كل امرىء مدح امرءا لنواله	وأطال فيه فقد أراد هجاءه
لو لم يقدّر فيه بعد المستقى	عند الورود لما أطال رشاءه
غيرى فانى لا أطيل مدائحى	الا لأوفى من مدحت ثناءه
وأعد ظلماً أن أقل مديحه	عمداً وأسخط إن أقل عطاءه

على أنه كان يستريح الى الاطالة كما يستريح « الجواد الكريم » الى سعة المضمار ، لأنها تشبع لذة القدرة على النظم والتمكن من اللغة وتنفى ظنة العجمة التى كانوا يعيرونه بها ويتهمونه فى شعره من أجلها ،

فلغبطةٍ فى نفسه ـ لا لارضاء الممدوح وحده ـ كان يركب القوافى الصعبة ويتعمد رياضة الحروف العصية، فيَذّل له أعصاها حتى الثاء والخاء والذال والزاى والظاء والغين والهاء وغيرها من الحروف المتروكة فى الروى الناقصة فى شعر أقدر الشعراء، وكانت فيه غيرة القول ونخوة المنافسة وهمة الوثوب الى الغاية. فكان هذا «الجواد الكريم» يأرن للسباق كلما مرت به خيل السباق! فاذا سمع الكلام الجيد لم يبرح أن يعارضه بكلام من بحره وقافيته ومعناه، ولم ينس أن يجرب قوته الى جانب كل قوة ويحرك شاعريته الى جانب كل شاعرية. ففى ديوانه معارضات كثيرة للنابغة وأبى مسلم وأبى نواس والحمدونى ودعبل وغيرهم ممن تُروى لهم الأبيات المستحسنة والحكم المأثورة. ومثل هذا لا يُقْصِر فى المضمار اذا نشطت القريحة وتفتحت أشواط الكلام

وحبه هذا للمعارضة وتجربة القدرة هو الذى كان يدعوه الى النظم فى هذا المعنى أو ذاك من المعانى الطريفة التى كانت تروقه فى شعر بعض الشعراء. كالمتأنق المغرم باللبس الجميل يستملح الكساء على لابسه فيود لو يكون له كساء من طرازه وصنفه ولكنه لا يفكر فى سرقته واغتصابه. مثال ذلك: قال ابو تمام

غرّبته العلى على كثرة الأهـ ل فاضحى فى الأقربين جنيبا

فاعجب هذا المعنى ابن الرومى فقال فيه

رب أكرومة له لم نخلها قبله فى الطباع والتركيب
غربته الخلائق الزهر فى النا س وما أوحشته بالتغريب

وقال

أعاذك انس المجد من كل وحشة فانك فى هـذا الأنام غريب

وقال

فآنس الله نفساً أنت صاحبها فانها من معاليها بمغـترب

. . . .

لولا عجائب لطف الله ما نبتت تلك الفضائل فى لحم ولا عصب

وقال :

وحيـد فريد فى المحـامد آنس بوحدته مستأثر بالفضـائل

وقال

الله يكلؤه والله يؤنسه فانه بمعاليـه قد اغتربا

ويروى صاحب الاغانى بيتا آخر نظر اليه ابن الرومى مثل هذه النظرة اذ يقول ابراهيم ابن العباس :

لفضل بن سهـل يد تقاصر عنهـــا الأمل

فباطنهـــا للندى وظاهرهـــا للقبل

فيقول ابن الرومى

أصبحت بين خصاصة ومذلة والمرء بينهما يموت هزيلا

فامدد الىَّ يداً تعود بطنها بذل النوال وظهرهـا التقبيلا

وجاء فى الجزء الثالث من زهر الآداب ان الحسين بن الضحاك أنشد ابا نواس قوله

كأنما نصب كأسه قمر يكرع فى بعض أنجم الفلك

فنعر نعرة منكرة . فقال له الحسين : مالك ؟ فقد رعتنى ! قال هذا المعنى أنا احق به منك ، ولـكن سترى لمن يروى . ثم انشده بعد أيام :

اذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا

قال صاحب زهر الآداب : « وقال ابن الرومي فكان أحسن منهما :

أبصرته والكأس بين فم ... منه وبين أنامل خمس
فكأنها وكأن شاربها ... قمر يقبل عارض الشمس

فهذه المآخذ القليلة جداً في شعره تعاب ولكنها أخلق بأن تعد من المعارضة والمسابقة ولا تعد من السرقة والغصب . أو هي على كل حال ليست من سرقة المعدم الذي لا رزق له الا رزق غيره . لانها لو سقطت من شعره جملةً وسقط معها عشرة أضعافها لما نقصت ثروته ولا مُست قدرته على التوليد والابتكار أقل مساس . ولو جازت المقاصّة في هذا الباب لكان ابن الرومي دائنا طالبا ولم يكن مدينا مطلوبا ، لان ما اخذه من الشعراء اقل بكثير مما اخذه منه الشعراء

وهناك المعاني الشائعة والنكات الشعبيه العامة التي ليست لأحد ولكنها لكل احد . اى التي يأخذ منها كل انسان ويضيف اليها اى انسان، أو التي هي كالهواء يتساوى منه نصيب من يشاء . فمن هذه المعاني الشائعة حتى في هذا الجيل وحتى بين الاميين الذين لا يقرأون الشعر والأدب ان اللحية تشبه بالمخلاة . وينسب الى سعد بن وهب في كتاب الوزراء والكتاب انه قال في قصة لا محل لذكرها هنا :

قل لمن رام بجهل ... مدخل الظبي الغرير
بعد ما علق في خد ... يه مخلاة الشعير
ليته يدخل ان جا ... ء من الباب الكبير

وفي كنايته عن اللحية « بمخلاة الشعير » على هذه الصيغة ما يفيد ان النكتة « معهودة » وان الاشارة اليها على هذا النحو غمزة مفهومة ،

فمن الخطل فى النقد ان يقال ان ابن الرومى عمد الى بيت سعيد ابن وهب فسرقه حين قال

علّق الله فى عذاريك مخلا ة ولكنها بغير شعير

فان سعيد بن وهب وابن الرومى فى هذا الاقتباس يستويان ، ويزيد ابن الرومى بتصرف جديد فى المعنى . . . وهو أن المخلاة فارغة !

وقد يلحق بهذا قول صاحب الصناعتين بعد ما أورد البيتين الآتيين مثلا للمبالغة فى الهجاء :

يقتّر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

فهو يقول : « والناس يظنون أن ابن الرومى ابتكر هذا المعنى وانما اخذه مما حكاه ابو عثمان . . . . أن بعضهم قبر احدى عينيه وقال أن النظر بهما فى زمان واحد اسراف » فصاحب الصناعتين أصاب حين نفى ابتكار ابن الرومى للمعنى ولكن من تراه أولى منه بفضل الابتكار ؟ ولقد كان ابن الرومى يخطىء لو أنه عدل عن نظم معناه هذا لان اباعثمان سبقه بتلك الحكاية ، فحسبه منه أنه تصرف فيه وأنه مسح المبالغة عنه، لانه لم يقل أن « عيسى » يتنفس من منخر واحد ولكنه قال أنه لو استطاع لفعل !

لكن الحذلقة التى لا يقاس اليها شىء من هذا هى زعم بعض النقاد أن ابن الرومى سرق البيتين اللذين انشأهما قبيل وفاته ! وهما :

غلط الطبيب علىّ غلطة مورد   عجزت موارده عن الاصدار
والناس يلحون الطبيب وانما   خطأ الطبيب اصابة المقدار

فابو عبد الله بن عبدوس الجهشيارى صاحب « كتاب الوزراء والكتاب » يروى عن على بن ابى طالب كرم الله وجهه أنه قال « اذا نقصت المدة كان الهلاك فى العدة » ثم يزعم أن ابن الرومى سرق البيتين من هذه الكلمة . . . . وصاحب زهر الآداب يزعم أنه أخذهما من يحيى ابن خالد حين « دخل على الرشيد فأخبر انه مشغول فرجع فبعث اليه الرشيد : خنتنى فاتهمتنى . فقال اذا نقصت المدة كان الحتف فى الحيلة . والله ما انصرفت الا تخفيفا »

ولا نظن أن عصرا مضى من عصور الاسلام خلا من اناس يؤمنون بأن الحذر لا يغنى من القدر ، أو يقول عامتهم كما يقول العامة فى زماننا « وقت القدر يعمى البصر » . فقول ابن الرومى أن « خطأ الطبيب اصابة المقدار » انما هو عقيدته لا يزعم أحد أنه سرقها الا اذا زعم أن المسلم فى هذا العصر يسرق عقائده من المسلمين فى العصور السابقة ! ثم يبقى بعد ذلك أن قوله « خطأ الطبيب اصابة المقدار » هو أبلغ تعبير جديد عن ذلك المعنى القديم . وما كان النقاد ليتورطوا فى مثل هذا النقد لولا أن التعسف فى اظهار السرقات كان فى زمن من الازمان — أو فى زمن الجمع والتأليف — آيتهم على سعة الرواية والعلم باقدار الشعراء .

***

وتُلاحظ فى صناعة ابن الرمى لازمة الافعال المزيدة والمشتقات

التى يستخدم منها من جميع الصيغ والاوزان . فاسماء الفاعل والمفعول والزمان والمكان وصيغ التفضيل والمبالغة والصفات المشبهة والمصادر تكثر فى شعره كثرة لم نلاحظها فى شعر غيره ، ونحسب أن الافراط فى استخدام المشتقات والافعال المزيدة هو الوسيلة التى لا بد منها للشاعر العربى الذى يريد أن يتناول المعنى من جميع نواحيه ويتدرج به فى مختلف درجاته . اذ ليس فى اللغة العربية ظروف كالظروف التى يشتقها الأفرنج من معظم الصفات والأسماء باضافة صغيرة فى أول الكلمة أو فى آخرها فتدل على المعنى المقصود وتدل كذلك على اختلاف الدرجة والقوة فى أداء ذلك المعنى . فاذا أراد الشاعر العربى أن يلتفت الى هذه الفروق فلا بد له من الاستعانة على ذلك بالمشتقات والافعال المزيدة كما كان يفعل ابن الرومى . الا أنه كان يسرف فى جمعها معا حتى تنبو بها الاذن فى بعض الأبيات . كقوله :

صاغة صوّاغة صيغاً   بدعاً لم تُلق فى خلَد

أو قوله :

أبصر بيضاء فى القذال فلا   نفرْ كنفر رأيته نفَره

أو قوله :

يترك بالحول حول حوّلها   وهو سواء وموق مائقها

أو قوله :

قلت ان تغلبوا بغالب مغلو   ب فحسبى بغالب الغلاّب

وهى ركاكة منه كان ينساها فى استطراده وربما كان يهونها عليه وسواسه . لأن طبيعة الموسوس لا تنفر من التكرار كما تنفر منه سائر

الطبائع . على أنه كان يجمع بعض المشتقات والحروف المتشابهة المخارج فتساغ — وقد تستحسن — فى أصعب القوافى كما قال فى الجيمية :

سلام وريحان وروح ورحمة عليك وممدود من الظل سجسج
ولا برح القاع الذى أنت ربه يرف عليه الاقحوان المفلج

فان للراء والحاء «راحة» فى القلب تزداد بالتكرار وتمهد لما بعدها من الظل الممدود والتضعيف المقبول فى هذه القافية العصية

أو كما قال من قافية الخاء

يا صارخاً فى جموع ليس تصرخه للظالمين غدا فى النار مصطرخ

أو من قافية الفاء

ومنعم كالماء يشفى ذا الصدى كشفائه ويشف مثل شفيفه

ويوقعه الاستطراد ـ ولك أن تقول الاستغراق فى المعنى ـ تارة فى اهمال اللفظ وتارة أخرى فى الأساليب النثرية التى لا ينفسح غيرها للاسهاب والاطناب والتفصيل والتفريع والمراجعة والاستدراك. فينظم فى هذه الحالة وكأنه ينثر ، الا أنه لا يخلو من الشاعرية ولا يسف الى طبقة « المتن » المنظوم و « الالفيات » التى ليس فيها من الشعر الا أنها موزونة مقفاة

ومع هـذا تستطيع ان تقول انه لم يجعل اللفظ شغلا شاغلا فى صناعته ولم يحفل به الا لاداء المعنى الذى يريده . فيخيل اليك وانت تطرّد فى قراءته انه يرتجل القصائد ارتجالا ويفيض بها فيضا لمطاوعة لفظه وغزارة مدده . فهو يجيد فى تركيب أبياته وإحكام قوافيه ولكنه

لا ينتزع الاجادة بالجهد والترويض ، وما عليه الا أن يعنى ما يقول فيقول ما يعنى بغير اخلال ولا التواء ، وما عليه الا أن يرسم فيجىء البناء على ما رسم وتقوم الاركان على ما دعم

ومن الشعراء من تلمح الكلمة فى قصيده وكأنها تمن على الشاعر بفضل وتستطيل بدالة ، لانها أطاعته ولبّت رجاءه ورضيت بمقامها فى حظيرته . فاذا بحثت عن أمثال هذه المفردات والتراكيب فى قصائد ابن الرومى فلست واجدها هناك ، لان كلماته تُقبل الى مواضعها وكأنها تعلم أن الفضل فى مقامها للشاعر لا لها وأن الدالة فى اختيارها له لا عليه ، ومن ثم لم يُشغَل باللفظ ولم يبدُ على معناه أثر الجهد فيه ، وبهذا سلم من لعب الجناس اللفظى والمحسنات المموهة مع أنه نشأ فى العصر الذى نشأت فيه هذه المحسنات . وعجيبٌ هذا منه وهو ذلك المتطير الذى كان يلقى باله الى أقل تجانس فى الكلمات وأضعف تشابه فى الحروف ليستخرج منه النُذرَ والبشائرَ ويعلق عليه القنوط والأمل ، ولكنه عجيب فى الظاهر دون الحقيقة . لانه انما كان يبالى بالكلمات حين كان يأخذها مأخذ المتطيرين وهى حينئذ لها معنى عنده ومن ورائها نبأ وفيها شعور . فليست هى خواء ولا تمويها ولا بهرجا زائفا كبهرج العابثين والمزوقين ، انما كان يُجانس لمعنى يراه هو ويراه من يتطير مثله ولا يجانس لتزويق فارغ ولهو سخيف ، فاذا لم يكن متطيرا فلا جناس ولا اكتراث باللفظ الا لما فيه من معنى ظاهر مستقيم وماله من فصاحة ونضارة ، أو يتفق له جناس اللفظ كما كان يتفق للشاعر الجاهلى والشاعر المخضرم قبل عهد التنميق والصناعة ، فلا غرابة فى أن تجد له أو لشاعر مخضرم مثل هذا البيت .

فيسبيك بالسحر الذى فى جفونه ويصبيك بالسحر الذى هو نافثه

أو مثل هذا البيت :

تصيب اذا حكمت وان طلبنا لديك العرف كنت حيا تصوب

أو مثل هذا البيت :

ليس ينفك طيرها فى اصطحاب تحت اظلال ايكها واصطخاب

وهكذا كان فى كل تجنيسه الذى لا تعسف فيه وليس هو بالكثير البارز فى ديوانه الكبير . فاذا جنّس فى غير ذلك فهو عابث متعمد للعبث وليس بملفق محسنات ولا بطالب تزويق . كما قال

لو تلففت فى كساء الكسائى وتلبست فروة الفراء

وتخللت بالخليل واضـــحى سيبويه لديك رهن سباء

وتكونت من سواد أبى الأسو د شخصا يكنى أبا السوداء

لأبى الله أن يعدك أهل العا م الا من جملة الأغبياء

فالذى يقرأه هنا لا يخطر له بتةً أنه يزوق ويزخرف ولا يشك لحظة فى أنه يعبث ويهزل ، وأنه لا يحاول أن يبيع الناس بهرجا بثمن ذهب وعرضا بثمن جوهر

وغنى عن القول أننا لم نقصد بما تقدم أن ابن الرومى كان على سذاجة الجاهليين والمخضرمين فى صوغ الشعر وفهم فنون البلاغة . فان هؤلاء كانوا يأتون بالقول البليغ ولا يعرفون علته ، وكانوا يطربون للشعر ولا يتوخون مذاهب نقده ، وليس فى وسع شاعر عباسى أن يكون كذلك بعد ما أولع القوم بالبحث فى جميع العلل والأسباب واصطلحوا فى البلاغة على الحدود والأسماء وخرجوا من حالة « العفو »

الى حالة « الوعى » ومن سهو الجنة التى كانوا غافلين فيها عن النعيم والعذاب والخجل والعيب الى يقظة الدنيا التى يؤخذون فيها بالتكاليف ويدركون فيها المحاسن والعيوب ، وابن الرومى أولى ألا يكون على تلك السذاجة الجاهلية أو المخضرمة وألا يسهو عن محاسن كلامه وعيوبه وهو الذى لم يسهُ قط عن شىء فيه ولم يكن له من هم الا أن يحصى خطرات ذهنه وخلجات فؤاده ، فهو شاعر ناقد وبليغ له مذهب فى البلاغة ورأى فى المعانى وحجة فى الاختيار . ونوادره فى ذلك قليلة ولكن النادرة التى ننقلها بعدُ كافية للابانة عن وجود هذه الملكة فيه وعملها فى نقد كلامه ونقد كلام غيره . قيل أنه سمع هذه الأبيات :

ايها الظبى المليح القد مجدول مهفهف
انا من ميلك فى مشـ ـيك مرعوب مخوّف
لا تميلن فانى خائف أن تتقصف

وهى لابن ابى فنن . فقال فى البيت الآخر : «انما اراد منه أنه يميل من لينه ونعمة أعضائه فأسرف حتى اخطأ ، وذلك أنه جعل اللين المفرط يتقصف . وانما كان ينبغى أن يقول : لو عقد لا نعقد من لينه فضلا عن أن يميل وهو سليم من التقصف » ثم أسرع إلى معارضة القائل بهذين البيتين :

أيها القائل انى خائف أن تتقصف
ليس هذا الوصف الا وصف مصلوب مجفف

فملكة الابتكار فى ابن الرومى كانت مصحوبة بملكة الانتقاد ،

---

(١) ص ٣٤٧ من كتاب الموشح

وفصاحته كانت فصاحة الذى يحاسب نفسه ويحمل تكليفه لا فصاحة غير المكلفين فى جنة السهو والتوفيق !

كذلك لا يفهم من سهولة شعره وتدفقه وأخذ بعضه باطراف بعض انه كان قليل التهذيب له والرجعة اليه . فربما فرغ من القصيدة وأفضى بها الى ممدوحه ثم عاد الى تنقيحها والزيادة عليها وردها مرة أخرى كما فعل فى المهرجانية التى تتبعها وأطالها وكتب فى ذلك يعتذر إلى عبيد الله بن عبد الله .

قصيدة كرها مثقفها عليك اذ ثقفت على مهل
أعجلها الوقت عن رياضتها فاقبلت ريضاً على عجل
. . . .
لم أحتشم كرّها عليك ولا سدىَ منها مواضع الخلل
لأننى عالم بأنك لا تعتـ ـب فيما أصلحت من عملى
وليس مثلى ينام عن خلل فى مدح ممدوحه ولا زلل

على أنه ـ لطول رياضة الكلام الموزون ـ قد أسلست له طريقة فى النظم يقسر بها المعنى على الظهور ولو اضطر الى الحشو واللف والاعتراض . فلا تشعر الا وقد استدار له البيت على أحسن تركيب وأصبح الحشو فى يديه حُسْناً يزيد المعنى ولا يعيبه . فاذا أراد أن يقول « لا تكذب الاخبار بالهوى » ولم يساعده الوزن قال :

لا تكن بالهوى تكذب بالاخبا ر حتى تهين مالا يهان

فأكسب المعنى قوة لم تكن له فى عبارته البسيطة . لأنه حين صاغ البيت هذه الصياغة كأنما ينهى عن « خُلق » التكذيب لا عن « فعل »

التكذيب مرة واحدة أو مرات . فمعنى « لا تكن مكذبا الأخبار بالهوى » غير معنى « لا تكذب الأخبار بالهوى » . لأن العبارة الأولى تفيد زيادة فى النفى لا تدخل فى مدلول العبارة الثانية : تفيد النهى عن « طبيعة » التكذيب أو عن أن « يكون » الانسان مكذبا ، ولا تقتصر على استنكار التكذيب فى هذه الحادثة أو فى تلك

واذا أراد أن يقول ان البوم أفشل الطير وحال الوزن دون هذا المعنى البسيط قال

واعتبر ان أفشل الطير ، فى الطير ، وفينا ، كروّسات البوم

فبلغ فى اظهار فشل البومة ما لا تبلغه العبارة الأولى . لأنه بيّن فشلها بالنظر الى مقاييس الطير وبالنظر الى مقاييس بنى الانسان ، فهى فاشلة كما يراها نظائرها فى عالم الطيور وفاشلة كما نراها نحن فى عالمنا الانسانى ، وذلك معنى لا تجده فى قول من يقول : ان البومة أفشل الطوائر . وتلك كانت طريقته فى الحشو « المبارك » المقبول ، وفى تدوير النظم حتى يستدير له على أحسن تقويم

***

وقد كان ابن الرومى كأبناء عصره يقدم الغزل بين يدى مدحه ووصفه جريا على سنة لم يكن فى ثقافة عصره ما يدعوه الى استغرابها والنظر فى تنقيحها ، إلا انه يعلل هذه السنة ويتصرف فى تقديم الهجاء بالغزل فلا يقصره على الوصف والمديح ، فيخرج بذلك بعض الخروج من حكم التقليد والمحاكاة العمياء ويختار لصناعته بعض الاختيار .

ألم تر أننى قبل الأهاجى أقدم فى أوائلها النسيبا
لتخرق فى المسامع ثم يتلو هجائى محرقاً يكوى القلوبا

كذلك كان يحكى ابناء عصره فى تصعيب اللفظ وتعمد الغريب حين كان ينظم فى الطرد ووصف الأسد وما اليه . لأن الشعراء العباسيين جعلوا الطرد خاصة معرضاً للبداوة الشعرية والفحولة العربية . فكانوا فى ذلك على حد مايقال عربا أكثر من العرب وجاهليين أكثر من الجاهليين

أما لفظه من حيث هو صحيح وخطأ فلفظ عالم بالنحو مطلع على شواهد العربية ولا سيما فى القرآن . ومن هنا لم يذكر كلمة « اشياء » الا ممنوعة من الصرف ، وهى مصروفة فى قول القياسيين من النحاة لانها جمع شىء . فهى افعال جمع فعل وليست فعلاء مؤنث أفعل التى تمنع من الصرف ، فمن المواضع التى وردت فيها الكلمة قوله : « حرمت بالمشيب أشياء حلت » وقوله . « قبحاً لاشياء يأتى البحترى بها » وقوله .

فيك أشياء لو وجدن قديماً نظمتها الملوك فى التيجان
وقوله : فيك أشياء من يواليك مسر ور بها والعدو منها مغيظ
وقوله : واليك الشكاة منها ومن اش ياء تبتز ذا الحجى معقوله
وقوله : ياحور ماللحبيب يفعل بى اش ياء لا يستحلها الحرج

وانما تابع المفسرين فى هذا ولم يتابع القياسيين من النحاة لأن كلمة أشياء وردت فى سورة المائدة ممنوعة من الصرف ، اذ جاء فى الآية : « يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء أن تبد لكم تسؤكم » بفتح الهمزة فى أشياء ، وتعليل المفسرين لذلك ، ان أشياء هنا اسم جمع كطرفاء غير أنه

قلبت لامه فجملت لفعاء، وقيل افعلاء حذفت لامه — جمع لشيء كهين أوشيء كصديق نخفف، وهذه المخالفة للنحاة القياسيين هي كما ترى أدل على العلم منها على الخطأ، فلم يكن ابن الرومي ممن يسهل وقوعهم في الخطأ النحوي والا لظهر منه ذلك في مواضع شتى مع اطالته واكثاره وجرأته على تذليل النحو لمراده. ونقول جرأته لأننا لا نعد من خطأ الجهل قوله

دعني وإيا أبي على الأعور المعور الخبيث

اذ لا يخفى على المبتدئ ان «إياه» ضمير فصل يتصل بالضمائر الموصولة ولا يتصل في الكلام الفصيح بالأسماء. فابن الرومي اذا وصل الضمير المفصول بالاسم لا يفعل ذلك جهلا بالقاعدة التي يعلمها المبتدئون وانما يفعله وهو مجترىء عليه عالم بمكان هذه الكلمة من الخطأ والصواب، وعلى ذكر التجوز في صرف الممنوع ومنع المصروف نقول ان ابن الرومي كان من أقل الشعراء تجوزاً في «عروضه» وأكثرهم حرصاً على أوزانه. ولا بأس بأن نذكر له هنا بيتين قالهما في مرض وفاته ورواهما عنه أبو عثمان الناجم وهما

أبا عثمان أنت قريع قومك وجودك للعشيرة دون لومك
تمتع من أخيك، فما أراه يراك ولا تراه بعد يومك

فقد ذكرهما المعري في رسالة الغفران فعاب عليهما أنهما مقيدان وقال «وماعلمت انه جاء عن الفصحاء هذا الوزن مقيداً الا في بيت واحد يتداوله رواة اللغة، والبيت

كأن القوم عشوا لحم ضأن فهم نعجون قد مالت طلاهم

وهذا البيت مؤسس، والذي قاله ابن الرومي من غير تأسيس»

والحقُّ أنه لا خلل فى وزن البيتين من حيث العروض ، وانما كان المعرى فى نقده هذا أشبه بالفقهاء منه بالادباء ، ولو اختل البيتان أشد خلل لما قيست بهما صناعة ابن الرومى فى جميع شعره . لان المرء لا يقاس بنظم مرتجل يلقى به القاء وهو يجود بنفسه

***

وقد تُلاحظ على ابن الرومى تعبيرات كالتى تسمى فى عصرنا هذا بالتعبيرات الافرنجية فى مثل البيت

كما لو هجا كم شاعر حل قتله كذاك فأوفوا مادحا دية القتل

وقد يلاحظ ذلك فى اكثاره الهتفات مثل قوله « ضلة ! ضلة » « وسوأة سوأة » الى اشباه ذلك من اللفظات الكثيرة فى تعبيرات اللغات الاروبية . فيرد على الخاطر أنه كان – لهذا – يعرف الاغريقية ويتأثر بها فى أسلوبه ، أو يرد على الخاطر ان هـذه التعبيرات من أثر العجمة فى سليقته والعادة فى لسانه . ولـكنها ملاحظة لا تستلزم هذه النتيجة ولا نستطيع أن نعززها بملاحظات أخرى من قبيلها . ومن السهل جدا أن نقول أن أمثال تلك التعبيرات القليلة سرت الى ابن الرومى من دراسة الكتب المترجمة ومعالجة التدليلات المنطقية فى كلامه ومساجلاته ، وان الهتفات مألوفة فيمن كان له مزاج كمزاجه المتوفز عربياً كان أو أعجمياً بلا خلاف . ذلك أسهل من القول باللغة الاعجمية الذى استضعفناه فيما تقدم من الكلام على تعليم الرجل ومعلوماته

***

فى أى باب من أبواب الشعر كان ابن الرومى يجيد خاصة ؟

سؤال لا بد أن يخطر لنا فى معرض الكلام على صناعته وأسلوبه ، وأرى أن الكثيرين سيقولون - أو قد قالوا - أنه هو باب الهجاء لانه اشتهر به وشاع أنه مات بسببه ، فلنعلم اذن أنهم مخطئون فى هذا الحكم لان ابن الرومى كان يجيد فى أبواب الشعر كلها على حد سواء ويعطى قصائده جميعا بمقدار واحد من عنايته واتقانه

وخذ مثلا أقواله فى الحكمة وهى أقل ما اشتهر به تجد له مئات من الابيات التى تسير مسير الأمثال وتخرج من عداد تلك الافكار المطروقة التى يتفيهق بها من يحبون الاشتهار بالبيت الحكيم والمثل السائر ، ولو أننا رجعنا الى أبياته التى مرت بنا فى هذا الكتاب لما الفينا بينها تفاوتا فى الطبقة بين غرض وغرض وباب وباب ، وانما اشتهر بالهجاء لأن الهجاء أشهر وأسير لا لانه يجيد فيه اكثر من اجادته فى المديح أو فى الغزل أو فى الصفات ، فلو أن الالسن تتساير بالوصف البارع كما تتساير بالهجاء اللاذع لغطى وصف ابن الرومى على هجائه لكثرة ما قال واجاد فى الوصف حتى خلال قصائد الهجاء

وأغرب من هذا الاستواء فى طبقة القول انك تقرأ الابيات التى مرت بك فى هذا الكتاب فتحسب انها نظمت كلها فى عمر واحد ولا تدرى أيها شعر الشباب وأيها شعر الكهولة والشيخوخة الا ما يندب فيه شبابه ويتبرم بسنة ، فانظر مثلا الى الابيات التالية

قل لايوب والكلام سجال والجوابات ذات يوم تدال

اسكتوا بعدها فلا تذكروا الشـ ـؤم ، حياءً . فاتم الآجال

انا شؤمى فيما تقولون عزاً ... ل ، ولكن شؤمكم قتال
بالذى ادرك المؤيد منكم ... وابن سعد ان تُضرب الامثال
زرتموه والصالحات عليه ... مقبلات فادبر الاقبال
حين درت له افاويق دنيا ... ه دلفتم له فكان الفصال
أن شؤما حلت به عقدة الما ... ك لشؤم تزول منه الجبال
ليس بدعا من الحوادث أن يعز ... ل وال وتخفق الآمال
انما البدع أن تزول أمور ... لم يكن يهتدى اليها الزوال
كالذى حاق بالمؤيد منكم ... بعد ما نوّطت به الآمال
ذلك الشؤم يا بنى أم شيخٍ ... يمكن القائلينَ فيه المقال
ذاك شؤم فيه سمام الافاعى ... ناجز النقد ، ليس فيه مطال
ذاك شؤم كالسيل عفّى على الق ... طرَ جلال كما يكون الجلال
ذاك شؤم لوجاور البحر يوم ... ين لأمسى وليس فيه بلال

فهذه قطعة نظمها فى نحو الثلاثين من عمره، لأنها نظمت فى نكبة « المؤيد » . فقابل بينها وبين القطعة التالية التى نظمها وهو فى الخامسة والخمسين

كبرتَ وفى خمس وخمسين مكبر ... وشبتَ ، فالحاظ المها عنك نفرّ
اذا ما رأتك البيض صدت وربما ... غدوت،وطرف البيض نحوك أصور
وما ظلمتك الغانيات بصدها ... وأن كان من احكامها ما يجوّر
أعر طرفك المرآة وانظر فان نبا ... بعينيك عنك الشيب فالبيض أعذر
اذا شنئت عين الفتى وجه نفسه ... فعين سواه بالشناءة أجدر

أو قابل بينهما وبين هذه القطعة التى نظمها قبيل وفاته على لسان العزُير :

ايادى بنى الجراح عندى كبيرة   واكبر منها انها لا تكدّر
هم القوم ينسون الأيادىَ منهم   عليك ، ولكن المواعيدَ تذكر
وأن كنتُ قد أهملتُ بعد رعاية   وأغفلت حتى قيل أشعث أغبر
وقلدت شغلا ضرُّه لى معجل   سريع ، وأما نفعه فمؤخر
أروح وأغدو فيه انصب عامل   واصفره كفا ، فكم أتصبر !

. . . .

ايعطش امثالى ووادبك فائض   ويجدب امثالى ووادبك أخضر
أبى ذاك أن الطوْل منك سجية   وأنك بيت الحمد بالطول تعمر
وأنك لم تؤثر على الحق لذةً   بحكم هوى ، فالحق عندك مؤثر
وما زلت تختار الأمور بحكمةٍ   فا فضلها الأمر الذى تتخير

فانظر حين تقرن هذه الابيات بعضها ببعض هل ترى بينها من تفاوت فى الصناعة أو اختلاف فى روح الشعر ونسج الكلام وطريقة التركيب وتناول المفردات ؟ فهى وغيرها من قصائده التى نظمت من العشرين الى الستين طبقة واحدة من هذه الناحية لا تستطيع أن تتحقق فيها مزيةَ سن على سن ولا فترة على فترة . وتعليل ذلك صعب فى الشعراء المطبوعين غير ابن الرومى ، أما هو فلا صعوبة فى تعليل هذا الاستواء فى تركيبه والتشابه فى روحه ونسجه ، لأنه ينسج من غزل واحد وبضاعة واحدة ، وهى الشعور الجديد أو شعور الطفولة الفنية التى لازمته فى حياته من المبدأ الى النهاية . فلم يتغير فيه الا القليل بعد مادرس نصيبه من اللغة والعلم واستوفى مادته من الفن والصياغة ، وكأنه الشجرة التى نضجت مبكرة وبلغت تمامها ورسخت فى تربتها ، فثمرتها اليوم كثمرتها

بعد سنوات عشر أو بعـد عشرين وثلاثين ، ولا عيب فى ذلك إلا أن تكون الثمرة بسراً لا خير فيه . أما اذا كانت ثمرة جنية كأطيب الثمر فى النضرة والحلاوة فالتبكير إذن أصلح من التأخير والبقاء على طبقة واحدة أحب وأكمل من التغيير

فالكلمة الأولى والأخيرة فى هذا العبقرى النادر أنه كان شاعراً فى جميع حياته حياً فى جميع شعره ، وأن الشعر كان لا ناس غيره كساء عيد وحلة موسم ولكنه كان له كساء كل يوم وساعة بل كان له جسما لا تكون بغيره حياة ؟

خاتمة

بالكلام عن صناعة ابن الرومى تمت الصورة التى استخرجناها له من مجموعة شعره ومتفرق أخباره . وحسبنا أن نتم هذه الصورة لنكون قد بلغنا الغاية من وضع هذا الكتاب وأقمنا — فى عرض الطريق — أوضح الادلة المحسوسة على وحدة المقاييس بين تعبيرات الشعر وتعبيرات الحياة . ونحسب أننا قد أقمنا هذا الدليل فى وقت الحاجة اليه عند قراء الادب الغربى بيننا قبل قراء الادب العربى وحده بفرعيه من قديم وحديث ، لاننا نعيش فى عصر شاع فيه بين كثير من الاوربيين أن الشعر شىء بمعزل عن خوالج الحياة ، واننا لا ينبغى أن ننتظر منه مطلبا آخر غير الرونق والطلاوة وما الى ذلك من ظواهر قسامة لا تتجاوز البشرة الى ما وراءها من قلوب ونفوس وضمائر

وغير عجيب أن يشيع هذا الرأى القائل بين الاوربيين فى العصر الذى نحن فيه وهو هو عصر السآمة و « الفردية » وآداب الصالونات والمجالس . اذ ماذا تنتظر من شعر يقرأه انسان قدسئم المُثل العليا وكذّب بالاغراض الرفيعة وفترت فيه قوة العقيدة ؟ وماذا تنتظر من شعر يقرأه انسان تفرض عليه « الفردية » أن يظل فردا معزولا بين أفراد معزولين ؟ وماذا تنتظر من شعر يقرأه انسان أنيق لا يريد أن يسمع من جليسه فى الصالون أو النادى أو القهوة الا شقشقة لسان وأحاديث فراغ ؟ انك لا تنتظر من هذا الانسان أن يتطلب فى الشعر ما يتطلبه الانسان الذى

تنشط نفسه للعقيدة ولو نشاط المكافحة والثوران ، أو يتطلبه الانسان الذى تتصل بينه وبين الاحياء من حوله وشائج دم لاتزال تنقل منه اليهم كما تنقل منهم اليه ، أو يتطلبه الانسان الذى يحس أن الكون مجال حياة وأسرار يُولد فيه مخلوقا حيا عريق الاصول فى آباد لا نهاية لها ، لا عضوا فى « صالون » أو جليسا فى قهوة أو سميرا فى سهرات مجون . . .

كلا ! انك لا تنتظر من انسان السآمة والفردية والصالون أن يقرأ شعراً كالذى يقرأه انسان النشاط القلبي والوشائج الآدمية والكون الابدى المستهول الوضوح والخفاء على السواء ، فغير عجيب كما قلنا أن يشيع رأى أصحاب الرونق والطلاء فى هذا العصر الذى لم يبق فيه للانسان من مطلب عزيز متفق عليه غير مطلب الراحة الملساء والهدوء الناعم من مزعجات الجهاد

فاذا كنا ، مع استخراج صورة ابن الرومى من شعره ، قد وفقنا الى اظهار الوحدة العامة بين الشعر والحياة أو بين الفن والحياة كلها — فذلك فى ذاته مقصد جدير بالالتفات خليق أن يتقرر بيننا قبل أن يشيع فى أذواقنا رأى السأم والاثرة وأناقة المتبطلين.

لكننا نرجو أن نكون قد وفقنا الى ارضاء التاريخ الى جانب ارضاء التصوير وارضاء الوحدة بين الشعر والحياة ، وحسبنا فى هذا أيضا اننا سندع ترجمة ابن الرومى هنا خيرا مما تسلمناها من شتات الماضى صحةً فى الاخبار ورجحانا فى الاحتمالات، ومن هذه الاخبار أخبار تتعلق بمولده ووفاته ،وأخبار أخرى تتعلق باخلاقه ومعيشته ، ومنها أخبار تلقاها الناقلون بالتسليم وجرت فى التراجم مجرى المقررات ولا مصدر لها الا

خطأ عارض فى طبع بعض التواريخ . كالخبر الذى يُنقل عن ابن خلكان ويقال فيه أن المتنبي روى عن ابن الرومى شعره وبينهما ما بينهما من بعدى الزمان والمكان .... فيأخذه الناقلون ويقبله منه منهم يقبل ويحار فيه من يحار ، وانما هو اسم « المسيبي » حرّفه الطابعون الى اسم «المتنبي» فسرى الخطأ سريانه فى الكتب الحديثة بلا شذوذ . . . . وغير ذلك كثير ليس يعنينا فى صدد هذه الخاتمة أن نحصيه وما شاكله ونحا نحوه فى جميع المصادر والمنقولات . لاننا نقصد الى تصحيح ما لاح لنا خطأه ولا نقصد الى احصائه على المخطئين

*
* *

وبعد فمن تمام التعريف بابن الرومى أن نختم كتابنا بمختارات له لم نعتمد فيها الدلالة التاريخية التى توخيناها فى شواهد الفصول السابقة، ولا ريب أن هذه الشواهد معرض حسن تبدو فيه شاعرية المترجم فى نواحى كثيرة منوعة . ولكننا نعتقد أن المختارات التى تقرأ لذاتها لا لموقعها من الترجمة أحرى أن تتم المعرفة بشاعريته من جميع نواحيها . وهاهى أولاء تلك المختارات معروضة فيما يلى لتدل على معدن شعره لا على أحسن ما فيه :

الطبيعة والحياة

(الربيع شباب الطبيعة)

ضحك الربيعُ الى بكى الديمِ ... وغدا يسوى النبتَ بالقِمَمِ
من بين أخضرَ لابسٍ كمماً ... خضراً، وأزهر غيرِ ذى كمِ
متلاحق الاطراف متسقٌ ... فكأنه قد طُمَّ بالجلم (١)
متبلج الضحوات مشرقها ... متأرّجُ الأسحار والعتم
تجد الوحوشُ به كفايتَها ... والطير فيه عتيدةُ الطعم
فظباؤه تضحى بمنتطَح ... وحمامُه تضحى بمختصَم
والروضُ فى قِطَعِ الزبرجد والا ... ياقوت تحت لآلىء تُوَمِ
طلٌّ يرقرقه على ورقٍ ... فكأنه دُرٌّ على لِمم
حُشِد الربيع مع الربيع له ... فغدا يهزز ثابت الجمِ (٢)
والدولةُ الزهراء والزمن المز ... هارُ حسبُك شافِيٌ قرَم
إن الربيع لكالشباب وإن ال ... صيف يكسعه لكالهرم
أشقائق النعمان بين ربىً ... نعمانَ ! أنت محاسن النعم
غدت الشقائق وهى واصفةٌ ... آلاء ذى الجبروت والعظم
تَرَفٌ لأبصارٍ كُحلنَ بها ... ليُرين كيف عجائبُ الحكم
شُعَلٌ تزيدك فى النهار سنًى ... وتضىء فى محلولك الظلم
أعجب بها شعلا على فحم ... لم تشتعل فى ذلك الفحم
وكأنما لمعُ السواد الى ... مااحمرَّ منهافى ضُحَى الرِّهَم (٣)
حَدَقُ العواشق وُسِّطت مُقَلاً ... نَهلَتْ وعلَّتْ من دموع دم

---

(١) يطمه بالجلم يعلوه بالمقص (٢) جمع جمة والمقصود بها هنا رؤس الشجر (٣) المطر الخفيف الدائم

هاتيكَ أو خيلانُ غاليةٍ　　أضحت بها الوجنات فى ذَمَم
يا للشقائق إنها قِسَمٌ　　تُزهى بها الأبصار فى القسم
ما كان يُهدى مثلها تحفاً　　إلا تطوّلُ بارىء النسم

(السحاب)

متهللٌ زجلٌ ، تحنّ رواعد　　فى حجزتيه ، وتستطير بروقُ
سَدّت أوائلُه سبيلَ أواخرٍ　　لم يدر سائقُهنّ كيف يسوق
فَسَجَا ، وأسْعَدَ حالبيه بدَرّةٍ　　منه — سواعدُ ثرّةٌ وعروق
وتنفّست فيه الصبا فتبجّستْ　　منه السَكَلىَ ، فأديمُه معقوق
حتى اذا قُضِيتْ لقيعانِ الملاَ　　عنه حقوقٌ بعدهن حقوق
طفقتْ رَوَايَاهُ تجرّ مزادَها　　فوق الربى ، ومزادُها [١] مشقوق
وَتضَاحَكَ الروضُ الكئيب لصوبه　　حتى تفتّق نَوْرُه المرتوق
وتنسّمت نفحاتُه فكأنه　　مسكٌ تضوّع ، فأرُهُ مفتوق
وتغرّد المُكّاء فيه كأنه　　طَرِبٌ تعلّل بالغناء مشوق

(روضة)

وروضة عذراء غير عانسهْ　　جادت لها كلّ سماء راجسهْ
رائحة بالغيث أو مغالسه
فأصبحت من كل وشى لابسه　　خضراء ما فيها خلاةٌ يابسه
ضاحكة النوار غير عابسه　　كأنها معشوقة مؤانسه
فيها شموس للبهار وارسه　　كأنها جماجم الشمامسه
تروقك النورة منها الناكسه　　بعينٍ يقظى وبجيدٍ ناعسه
لؤلؤة الطلّ عليها فارسه

---

(١) المزاد ما يوضع فيه الزاد

وخُرّمٍ (١) فى صيغة الطيالسه ... يحكى الطواويسَ غدتْ مطاوسه
كأنما تلك الفروع المائسه ... تغمسها فى اللازورد غامسه .
وصفوةُ النعمان والقوابسه ... من ناصع الحمرة ريّاً قالسه (٢)
تكاد تحت الظلمات الدامسه ... تهوى اليها كلُّ كفٍ قابسه

النرجس

ياحبذّا النرجسُ ريحانةً ... لأنفِ مغبوقٍ ومصبوحِ
كانه من طيب أرواحه ... رُكّب من رَوْحٍ ومن روح
ياحسنه فى العين ياحسنه ! ... من لامحٍ للشُّرْب ملموح
كأنما الطلُّ على نَوْره ... ماءُ عيونٍ غيرُ مسفوح

الهاجرة فى الصحراء

وهاجرة بيضاء يُعدى بياضها ... سواداً كأن الوجهَ منه محمّمُ
أظلّ اذا كافحتُها وكأننى ... بوَهاجها دون اللثام ملثّم
بديمومة لا ظلّ فى صحصحانها ... ولا ماء ، لكن قورُها (٣) الدهرَ عوّم
ترى الآل فيها يلطم الآل مائجا ... وبارُحها المسموم للوجه الطم

خابط الليل فى الفيافى

وليلٍ — غشا ليلٌ من الدجن فوقه — ... فليس لنجم فى غواشيه منَجَم
عفا جلبُه آيَ الهدى من سمائه ... وأعلامهَ من أرضه فهى طُسّم
لبستُ دجاه الجونَ ثم هتكته ... بوجناء ينميها غُرَيرٌ وشدقم (٤)
عذافرةٌ تنقضُّ من كل زجرةٍ ... كما انقضّ مِردِى (٥) المنجنيق الململم
يخوض عليها لجّةَ الهول راكب ... هو السيفُ إلا أنه لا يثلم
نجيبٌ من الفتيان ، فوق نجيبة ... من العيس ، فى يهماء ، والليل أيهم

---

(١) نبت كاللوبية ملون حسن الشم والمنظر (٢) ملأى طافحة (٣) اصاغر الجبال
(٤) فحلان مشهوران من الابل (٥) المردى حجر يرمى به

فريدين ، يُمضيها وتمضيه فى الدجى كسمراء يمضيهـا وتمضيه لهـذم
تريها الهُدَى حدْساً ، وتنجو برحله ، ودون الهدى سدٌّ من الليل مبهم
على ظهر مَرْتٍ [1] ليس فيه معرَّجٌ ولـكنْ مَخَبٌّ للركاب ومسعم [2]
ينـوح به بومٌ وتعزف جِنَّـةٌ فيعوى لها سِيدٌ ويضبح سمسم [3]
يُخال بها من رزّ هذا وهـذه اذا اختلف الصوتان عرسٌ ومأتم
تعسَّفتُـه إما لخفضٍ أناله وإما سـآمَ الخفض ، والخفض يُسأم

الاسفار

اذاقتنىَ الأسفار ماكرّه الغنى الىّ ، وأغرانى برفض المطالب
فأصبحت فى الاثراء أزهد زاهدٍ وان كنتُ فى الاثراء أرغب راغب
حريصاً جبانا ، أشتهى ثم انتهى بلحظى جنابَ الرزق لحظ المراقب
ومن راح ذا حرصٍ وجبنٍ فأنه فقير أتاه الفقر من كل جانب
تَنازعنى رغبٌ ورهبٌ كلاهما قوىٌ ، وأعيانى اطّلاع المغايب
فقدمتُ رجلاً رغبةً فى رغيبة ، وأخّرت رجـلاً رهبة للمعاطب
أخاف على نفسى وأرجو مفازها ، واستارُ غيب الله دون العواقب
الامن يرينى غايتى قبل مذهبى ، ومن أين ؟ والغايات بعد المذاهب

سفر البر

ومن نكبةٍ لاقيتُها بعد نكبةٍ رهبتُ اعتسافَ الأرض ذات المناكب
وصبرى على الأقتار أيسرُ محملاً علىّ من التغرير بعـد التجارب
لقيتُ من البرّ التباريحَ بعد ما لقيت من البحر ابيضاض الذوائب
سُقيتُ ـ على رىّ بهـ ألفَ مطرةٍ شغفت لبغضيها بحب المجادب
ولم أُسْقَها ، بل ساقها لمكيدتى تحامُقُ دهرٍ جـدّ بى كالملاعب

---

(١) أرض قفر لا نبات بها (٢) السعم السير السريع (٣) ثعلب

الى الله أشكو سخف دهرى فأنه يعابثنى مذ كنت ، غيرَ مطايب

أبى أن يغيث الأرض، حتى اذا ارتمت برحلى أتاها بالغيوث السواكب

سقى الأرض من أجلى فأضحت مزلةً تمايَلَ صاحبها تمايلَ شارب

لتعويق سيرى أو دحوض مطيتى، وإخصاب مزوَرّ عن المجد ناكب

فلتُ الى خانٍ مرثٍ بناؤه تميلَ غريق الثوب لهفان لاغب

فلم ألق فيه مستراحاً لمتعبٍ ولا نُزُلاً ، ايّان ذاك لساغب ؟

فما زلت فى خوف وجوع ووحشةٍ وفى سهرٍ يستغرق الليل واصب

يؤرقنى سقفٌ كأنى تحته من الوكف تحت المدجنات الهواضب

تراه اذا ما الطين أثقل متنه تصرّ نواحيه صرير الجنادب

وكم خانِ سَفرٍ خانَ فانقض فوقهم كما انقض صقرُ الدجن فوق الارانب

ولم أنس ما لاقيت أيام صحوه من الصرّ فيه والثلوج الأشاهب

وما زال ضاحى البرّ يضرب أهلَه بسوطىْ عذابٍ جامد بعد ذائب

فأن فاته قطرٌ وثلجٌ فأنه رهينٌ بساف تارةً وبحاصب .

فذاك بلاء البرّ عندى شاتياً ، وكم لىَ من صيف به ذى مثالب

ألا ربّ نارٍ بالفضاء اصطليتُها من الضحّ يودى لَفحُها بالحواجب

اذا ظلّت البيداء تطفوا إكامُها وترسبُ فى غمرٍ من الآل ناضب

فدع عنك ذكر البرّ ، أنى رأيته لمن خاف هولَ البحر شرّ المهاوب

كلا نُزُليْه صيفهُ وشتاؤه خلافٌ لما أهواه غيرُ مصاقب

لهاثٌ مميتٌ تحت بيضاء سخنةٍ ورىٌّ مفيتٌ تحت أسحم صائب

يجفّ اذا ما الريق أصبح عاصباً ، ويغدق لى والريق ليس بعاصب

فيمنع منى الماء واللوح جاهدٌ ، ويغرقنى والرىُّ رطبُ المحالب

وما زال يبغينى الحتوفَ موارباً – يحوم على قتلى – وغير موارب

فطوراً يغادينى بلصٍ مصلّت ، وطوراً يمسينى بورد الشوارب

الى أن وقانى الله محذور شرّه ... بعزته ، والله أغلب غالب
فأفلتّ من ذوبانه وأسوده ... وخرّابه إفلاتَ أتوبِ تائب

السفر بحراً بدجلة

وأما بلاء البحر عندى فأنه ... طوانى على روعٍ مع الروح واقب (١)
ولو ثاب عقلى لم ادع ذكرَ بعضه ... ولكنه من هوله غير ثائب
ولِمْ لا ؟ ولو أُلقيتُ فيه وصخرةً ... لوافيت منه القعر أولَ راسب
ولم اتعلّمْ قطّ من ذى سباحةٍ ... سوى الغوص،والمضعوف غير مغالب
فأيسر اشفاقى من الماء أننى ... أمرّ به فى الكوز مرّ المجانب !
وأخشى الردى منه على كلّ شارب ... فكيف بأمنيه على نفس راكب
أظلّ اذا هزته ريح ولألأت ... له الشمس امواجاً طوال الغوارب
كأنى أرى فيهنّ فرسان بهمةٍ ... يليحون نحوى بالسيوف القواضب
فأن قلت لى قد يُركَب اليمُّ طامياً ... ودجلة عند اليمّ بعض المذانب (٢)
فلا عذرَ فيها لامرىء هاب مثلها، ... وفى اللجة الخضراء عذرٌ لهائب
فأن احتجاجى عنك ليس بنائم ... وإن بيانى ليس عنى بعازب
لدجلة خبٌّ ليس لليمّ ، إنها ... تَراءى بحلمٍ تحته جهلُ واثب
تطامن حتى تطمئنَّ قلوبنُا ، ... وتغضب من مزح الرياح اللواعب
وأجرافُها رهنٌ بكل خيانةٍ ... وغدرٍ ، ففيها كلُّ عيبٍ لعائب
يرانا ـ اذا هاجت بها الريح هيجةً ... تزلزل فى حوماتها بالقوارب ـ
نُوائل (٣) من زلزالها نحو خسفها ، ... فلا خير فى أوساطها والجوانب
زلازل موجٍ فى غمار زواخرٍ ، ... وهدّاتُ خسفٍ فى شطوط خوارب.
واليمّ اعذارٌ بعرض متونه ... وما فيه من آذية المتراكب

---

(١) غائر أو مستكن (٢) المذنب مسيل الماء الى الارض (٣) واءل من الشيء الى الشيء لجأ

ولستَ تراه فى الرياح مزلزِلاً بما فيه ـ إلاّ فى الشداد الغوالب

وإن خيفَ موجٌ،عيذَ منه بساحلٍ خلىٍّ من الأجراف ذات الكباكب

ويلفظ مافيه ، فليس معاجلاً غريقاً بغتٍّ يزهق النفس كارب

يعلّل غرقاه الى أن يغيثهم بصنع لطيفٍ منه خير مصاحب :

فتلقى الدلافين الكريمَ طباعُها هناك رَعالاً عند نكب النواكب

مراكبَ للقوم الذين كبابهم ، فهم وسطه غرقى وهم فى مراكب

وينقض الواحَ السفين فكلّها منجٍّ لدى نوبٍ من الكسر نائب

وما أنا بالراضى عما البحر مركبا ولكننى عارضتُ شغب المشاغب



الطرد والقنص

(صيد الطير)

وقد أغتدى للطير والطير هجَّعٌ ولو أوجست مغداى مابتن هجّعا
بخلّين تمّاً بى ثلاثة اخوةٍ جسومهم شتى وأرواحهم معا
مطيعين أهواء توافت على هوًى فلو أُرسلت كالنبل لم تعد موقعا
اذا مادعا منا خليل خليله : بأفديك . لبّاه مجيباً فأسرعا
كأن له فى كلّ عضوٍ ومفصلٍ وجارحةٍ قلباً من الجمر أصمعا
فثاروا إلى آلاتهم فتقلّدوا خرايط حمراً تحمل السمّ منقعاً
محمّلّةً زاداً خفيفاً مناطه من البُندُق الموزون قلّ وأقنعا
وقد وقفوا للحائنات [1] وشمّروا لهن الى الأنْصاف ساقاً وأذرعا
وجدّت قسيُّ القوم فى الطير جدّها فظلّت سجوداً للرماة وركّعا
فظلّ صحابى ناعمين ببؤسها وظلّت على حوض المنية شرّعا
طرايح من سُودٍ وبيضٍ نواصع تخال أديم الأرض منهن أبقعا
نؤلف منها بين شتّى ، وإنما نشتت من أُلاّفها ما تجمّعا
فكم ظاعنٍ منهنّ مزمعَ رحلةٍ قصرنا نواه دون ما كان أزمعا
وكم قادم منهن مرتاد مَنزلٍ أناخ به منا منيخ فجعجعا
كأن بنات الماء فى صرح متنه اذا ما علا روقُ الضحى فترفعا
زرابىّ كسرى بثّها فى صحانه ليحضر وفداً أو ليجمع مجمعا
تريك ربيعاً فى خريفٍ ، وروضةً على لجةٍ : بدعاً من الأمر مبدعا

---

(١) الطير الحائنات

أدوات القتل

الرماة

لهمْ عدةٌ تكفيهمُ كلَّ عدة : بناتُ المنايا والحنىُّ الموتَّرُ
يزِلّون عن أكباد كل حنيّةٍ خفافاً مع الاجال تعلو وتقصر
نواها نواهم فى المنايا ، كأنما مواقعُها فيما يشاءون تُقدَرَ
لها ألسنٌ ما تستفيق لهاتُها يكاد لعابُ الموت منهنّ يقطر

سيف

خيرما استعصمت به الكفُّ عضبٌ ذكرٌ حدُّه ، أنيثُ المهزّ
ما تأملته بعينيك إلا أرعدت صفحتاه من غير هزّ
مثله أفزع الشجاعَ الى الدر ع فعَالَىَ به على كل بزّ
ما يبالى أصممت شفرتاه فى محزٍ أو جازتا عن محزّ

مجالس الشراب واللهو

القيان الأتراك

(فى مجلس القاسم)

أظلّ اذا شاهدتُ يوم نعيمه — كأنّى فى الفردوس فوق الارايكِ
بمرآى من الدنيا جميلٍ ومسمع — لدى ملك بالحقّ ، لا متمالِك
تحثَّ الحسانُ المحسناتُ كؤوسَه — بمدحٍ له قد سار جمَّ المسالك
من الوضّح اللُّعس الشفاه كأنما — يفهنَ بأفواه الظباء الاوارك
يرفعن أصواتا لدانا وتارةً — ينمنمنَ وشيا غير وشى الحوائك
كفلن لنا لما اصطففن حيالنا — بترحيل اضياف الهموم السوادك(١)
فما برحت تهدى الينا عجائبٌ(٢) — عجائبَ تصبى كلّ صابٍ وناسك
فتاةٌ من الأتراك ترمى بأسهمٍ — يصبن الحشا فى السلم لا فى المعارك
كأن زمير القاصباتِ أعارها — شجاه ، وسجعَ الباكيات الضواحك
ظللنا لها نُصْباً تشك قلوبنا — بذاك الشجا الفتان لا بالنيازك
وما « جُلنّار » بالمقصّر شأوُها — ولا المتعدّى قصد أهدَى المسالك
لطيفةُ قدّ الثدى تسند عودَها — الى ناجمٍ فى ساحة الصدر فالك
تطامنَ عن قدّ الطوال قوامُها — وأربى على قدّ القصار الحواتك
ورقاصة بالطبل والصنج كاعبٌ — لها غنجُ مخناثٍ ، وتكريه فاتك
أُتيح لها فى جسمها رِفْدُ رافدٍ — وإن نالها فى خصرها نَهْكُ ناهك
اذا هى قامت فى الشفوف أضاءهـا — سناها فشفّتْ عن سبيكة سابك

***

(١) الملازمة (٢) اسم جارية

سبايا اليمنّ استباء عقولنا   مماليكُ مُلّكن اقتدارَ الممالك

السوداء الحسناء

(فى مجلس عبد الملك بن صالح)

. . . .

سوداء لم تنتسبْ الى بَرَص الشقر ولا كلفةٍ ولا بَهَق
ليست من العبّس الاكفّ ، ولا الفلح الشفاه ، الخبائث العرق
بل من بنات الملوك ناعمة   تنشر بالدلّ ميت الشبق
فى لين سمّورةٍ تخيّرها الفرّاء ، أو لين جيّدِ الدلَق (١)
تذكرك المسك والغوالىَ والمِـ   ـسكّ ذواتَ النسيم والعبق
هيفاء زينت بخمص محتضَن   أوفى عليه نهودُ معتنق
غصنٌ من الآبنوسُ أُلّف من   مؤتزر معجب ومنتطَق
يهتز من ناهديه فى ثمر   ومن دواجى ذراه فى ورق
أكسبها الحُبَّ أنها صبغت   صبغةَ حَبِّ القلوب والحدق
فانصرفت نحوها الضمائر والأبـ   ـصار يعنقن أيما عنق
يفترّ ذاك السواد عن يققٍ   من ثغرها كاللآلىء النسق
كأنها والمزاحُ يضحكها   ليلٌ تفرّى دجاه عن فلَق
سمحاء كالمهرة المطهّمة الدهـ   ـماءِ تنضو أوائل السبق

الشراب فى الخمائل

وصفراء بكرٍ ، لا قذاها مغيّبٌ   ولا سرّ من حلّت حشاه مكتّمُ
ينم على الأمرين فرطُ صفائها   وسورتُها حتى يبوح الجمجم

---

(١) حيوان يقرب من السنور فى الحجم

هى الورسُ فى بيض الكؤوس، وان بدت ... لعينيك فى بيض الوجوه فعندم

مذاق ومسرّى فى العروق كلاهما ... ألذّ من البرء الجـديد وأنعمُ

اذا نزلت بالهمّ فى دار أهـله ... غـدا الهمُّ وهو المرهَق المتهضَّم

أقامت ببيت النـار تسعين حجة ... وعشراً يُصَلَّى حولَها ويُزمزَم

سـقتنى بها بيضاء ، فوها وكأسها ... شبيها مذاقٍ عنـد من يتطعَّمُ

لدى روضـة فيها من النور أعينٌ ... ترقرق دمعاً ، بل ثغـور تبسّم

يضاحك روقَ الشمس منها مُضاحِكٌ ... مدامعـه من واقع الطلّ سُجَّم

كمستعبرٍ مستبشرٍ بعد حزنه ... لبين خليـطٍ قوّضوا ثم خيّموا

يغازلنى فيهـا غزالان منهما ... ربيبُ الفيـافى والرّبيب المتوّم

اذا نصبا جيـديهما فكلاهما ... سواء وأبريق لدىّ مفـدّم (١)

ثلاثة أظبٍ نحرُها غـير واحدٍ ... لدى اللهو فيها كلهـا مُتنغِّم

غـزال ، وأبريق رذومٌ ، وغادة ... تحرّك من أوتارها وتنغم

---

(١) المفدم الذى عليه الفدام وهو شبه مصفاة

الموسيقى والغناء

فى وحيد المغنية

يا خليلىّ تيمتنى وحيدُ ففؤادى بها معنًى عميدُ
غادةٌ زانها من الغصن قدٌّ ومن الظبى مقلتان وجيد
وزهاها من فرعها ومن الخدّ ن ذاك السواد والتوريد
أوقد الحسنُ نارَه فى وحيدٍ فوق خدٍّ ما شانه تخديد
فهى بردٌ بخدّها وسلامٌ وهى للعاشقين جهدٌ جهيد
لم تُضِرْ قطّ وجهَها وهو ماءٌ وتذيب القلوب وهى حديد
ما لما تصطليه من وجنتيها غيرُ ترشاف ريقها تبريد
مثلُ ذاك الرضاب أطفأ ذاك الوجدَ لولا الإباء والتصريد(١)

* * *

وغريرُ بحسنها قال : صِفْها ! قلتُ : أمران ، هيّنٌ وشديد
يسهل القول إنها أحسن الأشياء طرّاً ويعسر التحديد .
شمس دجنٍ ، كلا النيرين — من شمس وبدرٍ — من نورها يستفيد
تتجلّى للناظرين اليها فشقىّ بحسنها وسعيد
ظبية تسكن القلوب وترعاها ، وقمرية لها تغريد
تتغنّى ، كأنها لا تغنّى من سكون الأوصال ، وهى تجيد
لا تراها هناك تجحظ عينٌ لك منها ، ولا يدرّ وريد
من هدوّ وليس فيه انقطاع وسجوّ وما به تبليد
مدّ فى شأوٍ صوتها نفسٌ كافٍ كأنفاس عاشقيها مديد

(١) صرد الرجل سقاه دون الرى

وأرقّ الدلالُ والغنج منه ... وبراه الشجا فكاد يبيد
فتراه يموت طوراً ويحيا ... مستلذٌّ بسيطُه والنشيد
فيه وشيٌ ، وفيه حليٌ من ... النغم مصوغٌ يختال فيه القصيد
طاب فوها وما ترجّع فيه . ... كلّ شيء لها بذاك شهيد
ثغبٌ(١) ينقع الصدى ، وغناء ... عنده يوجد السرورُ الفقيد
فلها الدهرَ لا ثمٌّ مستزيدٌ ... ولها الدهرَ سامعٌ مستعيد
فى هوى مثلها يخفّ حليمٌ ... راجح حلمُه ، ويغوى رشيد
ما تُعاطى القلوب الا أصابت ... بهواها منهنّ حيث تريد
وترُ العزف فى يديها مُضاهٍ ... وترَ الرجف فيه سهمٌ شديد
واذا أنبضته للشَّرب يوماً ... أيقن القومُ أنها ستصيد
معبدٌ فى الغناء وابن سُرَيجٍ ... وهى فى الضرب زلزلٌ وعقيد
عيبُها أنها اذا غنّت الأحرار ... ظلّوا وهم لديها عبيد
واستزادت قلوبهم من هواها ... بُرقاها ، وما لديهم مزيد

***

وحسانٍ عرضن لى ، قلت : مهلاً ... عن وحيدٍ تخصّها التوحيد
حسنُها فى العيون حسنٌ وحيد ... فلها فى القلوب حبٌّ وحيد
ونصيح يلومنى فى هواها ... ضلّ عنه التوفيق والتسديد
لو رأى من يلومُ فيه ، لأضحى ... وهو المستريثُ والمستزيد
ضلة للفؤاد يحنو عليها ... وهى تزهو حياتَه وتكيد
سحرته بمقلتيها فأضحت ... عنده والنديمُ منها حميد
خُلقت فتنةً غناء وحسناً ... ما لها فيهما جميعاً نديد
فهى نعمى ، يميد منها كبير ... وهى بلوى ، يشيب منها وليد

(١) الغدير لاتصيبه الشمس فيبرد ماؤه

لى حيث انصرفت منها رفيقٌ ... من هواها ، وحيث حلت قعيد
عن يمينى وعن شمالى وقدّامى ... وخلفى ، فأين عنه أحيـــد ؟
سدّ شيطانُ حبّها كلّ فجّ ... إن شيطان حبها لمريد
ليت شعرى اذا أدام اليها ... كرّةَ الطرف مبدئٌ ومعيد
أهى شئٌ لا تسأم العين منه ؟ ... أم لها كل ساعة تجديد ؟
بل هى العيش لا يزال متى استـ ... مرض يُملى غرائباً ويفيـــد
منظرٌ ، مسمعٌ ، معان من اللهـو ، عتادٌ لما يُحبّ عتيـد
لا يدبّ الملالُ فيها ، ولا ينقضُ من عقـد سحرها توكيد
حسنُها فى العيون حسنٌ جديد ... فلها فى القـلوب حبٌ جـديد

***

أخـــذ اللهُ يا وحيـد لقلبى ... منكِ ما يأخـذ الذليلُ المقيد
حظّ غيرى من وصلكم قرةُ العـــين ، وحظى البكاء والتسهيد
غـير أنى معلّل منك نفسى ... بعداتٍ خَـــلاَ لهنّ وعيد
ما تزالين نظرةٌ منـك موتٌ ... لى مميتٌ ، ونظرة تخليـد
نتلاقى ، فلحظة منك وعـدٌ ... بوصالٍ ، ولحظة تهـديد
قد تركت الصحاح مرضى يميدون نحـولاً وأنت خوطٌ يميد
ضافنى حُبّك الغريب ، فألوى ... بالرقاد النسيبُ فهـو طريد
عجباً لى ، إنّ الغريبَ مقيمٌ ... بين جنبىّ ، والنسيب شريد
قـد مللنا من ستر شىء مليح ... نشتهيه ، فهل له تجـريد !
هو فى القلب وهو أبعد من نجـــم الثريا فهـو القريب البعيد

رثاء بستان المغنية

إنّا الى الله راجعون لقد ... غال الردى سيرةً من السِيَرِ
ما أولع الدهر فى تصرّفه ... بكل زينٍ له ومفتخَر

يعدو على نفسه فيسلبها ، الاعتادَ المعدَّ ذى النمر
كم ملبس لا يعاب هتكه عن جلدةٍ منه شثنة الوبر [1]
أودى ببستان وهى حُلّتهُ فقد غدا عاريا من الحبر
أطار قمرية الغناء عن الارض فأىّ القلوب لم يطر
لله ما ضُمّنت حفيرتها من حسن مرآى وطهر مختبر
أضحت من الساكنى حفائرهم سكنى الغوالى مداهن السرر
مُطيّبى كل تربة خُبثتْ ومؤنسيها بشر مجتوَر
يا حرَّ صدرى على ثلاثة أمواهٍ هريقت فى الترب والمدر
ماءا شبابٍ ونعمةٍ مُزجا بماء ذاك الحياءِ والخفر
لو يعلم القبر من أتيح له لانحفر القبر غيرَ محتفَر
أو لأباها ، فصَانَ حينئذ عن رمسه درةً من الدرر
إن ثرىً ضمها لأفضل محجوجٍ لصبٍ وخير معتمر
أقسمتُ بالغنج من ملاحظها وسحر ذاك السجوّ والفتر
لو عُقرتْ حول قبرها بقرُ الأنس مكان القِلاص والمهر
والدرُّ نَظْمٌ على الترائب منهنّ ، وأشكالُه من العتر
وانتحرتْ فى فنائه بُهم الحَرب وصيدُ الملوك من مضر
ثم سَقيتُ الدماءَ تربتها لم أشفِ ما فى الفؤاد من وحر
نفسَك يا نفس فانحرى أسفاً فأن هذا أوانُ منتحر
ما حَسَنٌ أن تذوب مهجتُها ومهجتى لم تُرَقْ ولم تمر
لاينكر الدهرُ بعد مَهلكها هلكَ ذوات الجلال والخطر

***

بستانُ يا حسرتا على زهرٍ فيك من اللهو ، بل على ثمر

---

(١) الشثن الغليظ

بستان لهفى لحسنِ وجهك والاحسان ، صارا معًا الى العفر
بستان أضحى الفؤاد فى وَلهٍ يانزهة السمع منه والبصر
بستان ما منك لامرىء عوضٌ من البساتين ، لا ولا البشر
بستان أسقيتِ من مدامعنا الدمعَ ، وأعقبتِ عقبةَ المطر
بل حقُّ سقياك أن تكون من الصهباء ، صهباء حمص أو جدر
بل من رحيق الجنان يُقطَب بالمسك ، سلالاتُه بلا عكر
بل من نجيع القلوب يمزَج بالعطف وصفو الوداد لا الكدر
يانعمةَ الله فى بريّته أصبحتِ أحدى فواقر الفقرِ
ياغضة السن ياصغيرتها أمسيتِ أحدى المصايب الكبر
أنّى اختصرت الطريق ياسكنى الى لقاء الاكفان والحفر
أنّى تجشّمتِ فى الحوادث ما جُشّمتِ من كرهٍ ذلك السفر
أحميكِ من موردٍ قصدتِ له لا ينتهى وردُهُ الى صدر
يا شمس زُهرِ الشموس ، ياقمر الأقمار حسناً ، يازهرة الزهر
أبعد ما كنتِ باب مبتهجٍ للنفس أصبحتِ بابَ معتبَر
أصبحتِ كالترب غير راجحةٍ به ، وقد ترجحين بالبدر
أصابنا الدهر فيكِ أكملَ ما كنتِ ، فما رزؤنا بمجتبَر
لم تقتحمك العيونُ من صغرٍ ولا قلتكِ النفوسُ من كبر
فكيف تسلوك والأسى أبداً فى كبر ، والسلو فى صغر
كل ذنوب الزمان مغتفر وذنبه فيك غيرُ مغتفر
تبتلّ العودُ عند فقدكمُ وازدُجر اللهو كلَّ مزدجر
وغاب عنا السرور بعدكم واحتُضر الهمُّ حين محتضَر
وغاض ماء النعيم يتبعكم وانهمر الدمعُ كل منهمر
فأن سمعنا لمزهرٍ وتراً حنّ ، فهاتيك عولةُ الوتر

أمَا ولـؤم البلى وقسوته   لقـد محَا منكِ أحسن الصور
يا بشراً صاغـة المصوّرُ من   نورٍ على سنّةٍ من الفطر
بل من شعاع العقول حين ترى   الغيب بعـين الذكاء والعبر
لا تحسبوني غنيتُ بعـدكمُ   عنكم بشمس الضحى ولا القمر
لا تحسبوني أنستُ بعـدكم   الى هديل الحمام فى الشجر
لا تحسبوني استرحت بعـدكم   الى نسيم الشمال بالسحر
لا تحسبوا العين بعدكم سرحت   فى مسرح من مسارح النظر
يأبى لها ذاك أن ناظرها   فى شغل بالسهاد والعبر
وكيف بالنوم للمباشرِ أطرا   فَ حماتِ الحيات والأبر
سقياً ورُعياً لعيشةٍ معكم   أصبحت من عهدها بمفتقر
أمتعنى دهرُها بغبطتـه   على الذى كان فيه من قصر
كانت لياليـه كلّها سحراً   وكان أيامُهنّ كالبُكَر
لهـوٌ أطفنـا بيكرِ لذّته   وما فضضنـا خواتم العـذر
ولم ننلْ من جنـاه نهمتنا   وإن حظينا بمـونق الزهر
كم قد شربتُ الرضاب فى قُبَلٍ   كانت، ولكن شربت بالغُمَرِ(١)
جدوى فمٍ فيـه لؤلؤ وجَنَى   نحـلٍ بماء السحاب فى النقر
غنـاؤه يشتـكى حرارتَه   وريقـه يشتـكى من الخصر
كنتم لنا فتنةً من الفتن الـ   غرّ بلا شهرة من الشهر

***

كأنني ما طلعتِ مقبـلةً   علىّ يوماً بأملح الطـرر
فى كفك العـودُ وهو يؤذن بالاحسان ايذانَ صادق الخـبر
إذ مشيكم مُذْكرِى غناءكم   مشى الهوينى سواكن البقر

(١) القدح الصغيرة

وإذ فسادى بكم يذكّرنى «لنفسدنّ الطوافَ فى عُمَر» (١)
كأن عينى ما أبصرتْكِ ضحًى فى مجلسى – والوشاة فى سقر –
كأنها ما رأتك كالملك الأصـيد فى التاج يوم مُبْتَهر
يا أحسن العالمين حاسرةً وأكمل الناس عند معتجَر
كأنها ما رأتكِ صادحةً والصُدحُ الوُرْقُ عكّفُ الزُمَر
يسمعن ، أو يستفدن منك شجاً والتمرُ يُمتار من قُرى هجر
كأننى ما اقترحتُ ما اقترحتْ نفسى ، فساعفتنى بلا زَوَر (٢)
كأننى ما استعدتُ مقترَحى يوما فكررته بلا ضجر
وصُنْتِ خداً كساه خالقه الحسنَ ، فصعَّرتِه عن الصعر
ولو تكبرّتِ كنتِ معذرةً ، والمسك ما لا يعاف بالذفر
كأننى ما نعمتُ منك بمرتاح نعيمٍ ولا بمبتكر
رضيتُ من منظرٍ بطيفِ كرًى يعرو ، ومن مسمع بمدَّكَر
لولا التعزّى بذاك آونةً لانفطر القلب كلَّ منفطر (٣)

***

ما انتهك الدهرُ قبلكم لذوى اللهو حريما فى البدو الحضر
أبكيك بالدمع والدماء بل التسهاد بل بالمشيب فى الشعر
بل بنحول العظام محتقراً ذاك وإن كان غير محتقر
بل باجتناب الشفاء بل بتوخى النفس ما يُتَّقى من الضرر

***

لا أسأل الله حسنَ مصطبرٍ فأنه عنك لؤم مصطبر

(١) يشير الى قول عمر بن أبى ربيعة من أبيات له
« أبصرتها ليلة ونسوتها يمشين بين المقام والحجر
قالت لها أختها تعاتبها لا تفسدن الطواف فى عمر »
ولعل بستان كانت تغنى هذه الابيات
(٢) الزور الميل (٣) أى لولا التعزى بوصلها فى الخلد

وحزنُ نفسى عليك من كرمٍ | وهو على من سواك من خور
وقد يعزّى الفؤاد أنك فى | جنة عدنٍ غداً وفى نهر
سيشفع الحور فيك أنك منهنّ | بذاك الدلال والحور

(هجاء أبى سليمان المغنى)

ومسمعٍ لا عدمتُ فرقته | فأنها نعمةٌ من النِعَمِ
يطول يومى اذا قرنتُ به | كأننى صائمٌ ، ولم أَصُم
اذا تغنّى النديمَ ذكَرَه | أخذَ السياقِ[1] الحثيث بالكظم
يفتح فاه من الجهاد كما يفتح فاه لأعظم اللقم
مجلسهُ مأتمُ اللذاذات والقصفِ ، وعرسُ الهموم والسَّدم[2]
تنشدنا اللهوُ عند طلعته : | « من أوحشته البلادُ لم يُقِم »[3]
كأننى طولَ ما أشاهده | أشرب كأسى ممزوجة بدمى
تشهده فرطَ ساعتين فيُنسيك عهوداً لم تؤتَ من قِدَم
يريك ما قد عهدتَ فى أمسك الأدنى ، كشىء فى سالف الأمم
عشرته عشرةٌ تبارك فى الأعمار لولا تعجّلُ الهرم
اذا الندامى دعوه آونةً | تنادموا كأسهم على ندم
نبرد ، حتى يظلّ ينشدنا : | هل بالديار الغداة من صمم !
يستطعم الشرْب أن يقال له | «أحسنتَ!» . والقوم منه فى وَكَم[4]
وكيف للقوم بالتصنّع؟ لا كيفَ ، ولو صوّروا من الكرم
يُظهر فى وجهه إساءته | كأنها مسحةٌ من الحمم
يَسْوَدُّ من قبح ما يجىء به | حتى كأن قد أسفّ بالفحم
يرتاح منه الى الأذان كما | يرتاح ذو شقةٍ الى علم

---

(١) الاحتضار (٢) الهم مع الندم (٣) كناية عن أن اللهو يستوحش مجلسه فيرحل
(٤) شدة الحزن والجزع

يشـدو بصوت يسوء سامعهَ   تبارك الله بارىء النسم
أبحّ فيه شـذور حشرجةٍ   منظومةٍ فى مقـاطع النغم
نبرتُه غصـةٌ ، وهزتُه   مثل نبيب التيوس فى الغنم
لو قُدّس الله ذو الجـلال به   لم يرفع الله طيّبَ الـكلم
يُفزّعِ الصبيةُ الصغـارُ به   اذا بكا بعضَهم ولم ينم
يقسو له القلبُ ـ حين يسمعه ـ   على أحبـائه بـلا جرم
أحلف بالله لا شريك له   فأنهـا غاية من القسم
ما عرف الله قبلَه أحداً   ما فضلُ نعمائه على النِقَم

هجو شنطف

شنطف يا عوذة السموات والأر   ض وشمس النهـار والقمر
إن كان ابليس خالقـاً بشراً   فأنت ـ عندى ـ من ذلك البشر
صوّرك المـاردُ اللعين فأعطتْـ   ـك يداه مقـابحَ الصـور

هجو كنيزة

شاهدتُ فى بعض ما شاهدتُ مسمعةً   كأنمـا يومُها يومان فى يوم
تظـلّ تلقى على من ضمّ مجلسُها   قولا ثقيـلا على الأسمـاع كاللوم
لهـا غناء يثيب الله سـامعهَ   ضعفىْ ثواب صـلاة الليل والصوم
ظللتُ أشرب بالأرطـال لا طرباً   عليه بل طلبـاً للسكر والنوم

مناعم الخوان

طلاب المآرب

(قصيدة فيها وصف ودعابة قالها فى أبى شيبة بن الحاجب وكان قد دعاه واستتر عنه)

نجّاك يابن الحاجبِ الحاجبُ ، وأين ينجو منى الهارب !
أبعـــدَ إحرازِكَ أيمانَنا هاربتنا واعتذر الحـاجب ؟
ياعجباً إذ ذاكَ من حالةٍ دافِعُنا فيهـــا هو الجاذب
حقا لقـد أوليتنا جفوةً يُمحِل منها البلد العاشب
انظر بعين العدل تبصر بها أنك عن منهاجه ناكب

***

لهفى وقد جاءتك جفّالةٌ كُلٌّ مغذٌّ ساغبٌ لاغب
من كل شحذانِ الحشا لُهْسُمٍ (١) يأكل مالا يأكل الحاسب
فكّاه كالعصرين من دهره كلاهما فى شـأنه دائب
ذى معدة ثعلبُها لاحسٌ وتارةً أرنبهـــا ضاغب
تعلوه حمّى شرهٍ نافضٍ لـكن حمّى هضمه صالب
كأنما الفرّوج فى كفّه فريسةٌ ضرغامُها دارب
وإن غـدا الشبّوط قرناً لهم فخـدّ شبوطهم التارب
أقسمتُ لو أنـك لاقيتهم نابك من أضراسهم نائب

***

أبشِرْ بكرّ عاجلٍ إننى بالثـار فى أمثالها طالب
لا تحسبنى عنك فى غفلةٍ عوّذى وشيك أيها الصاحب

(١) لهسم أكل جميع ما على المائدة

قلتُ لصحبي حين راوغتَهم : « لاتحزنوا ، قد يَشهدُ الغائب
سيصنع اللهُ لنا فى غد إن كان أكدى يومُنا الخائب
كُرّوا على الشيخ بتطفيلةٍ عن عزمةٍ كوكبُها ثاقب
وإن زواه منكم جانبٌ فلا يَفُتْكم ذلك الجانب
جوسوا عليه الأرض واستخبروا حتى يروح الخبرُ العازب
لاتنجونْ منكم فراريجُهُ لا وهب المَنْجَى لها الواهب
لا تفلتن منكم شبابيطه لا أفلت الطافى ولا الراسب
جدّوا فقد جدّ بكم لاعباً وقد يجدّ الرجل اللاعب
وليكن الكرُّ على غرّةٍ والصيد فى مأمنه سارب
مقالةٌ قمتُ بها خاطباً وقد يصيب الغرّة الخاطب

* * *

فاعتزم القومُ على غارةٍ ساند فيها الراجلَ الراكب
يهدى أبو عثمان كردوسها (١) هذاك ، ذاك الطاعنُ الضارب
يُرْقِل والراية فى كفّه قد حفّها الرامح والناشب

* * *

والقوم لاقوك فأعددْ لهم ما يرتضى الآكلُ والشارب
يسّرْ فراريجك مقرونةً بها شبابيطُك ياكاتب
تلك التى مخبرُها ناعم تلك التى منظرها شاحب
واذكر بقلبٍ غير مستوهلٍ يعروه من ذكرى القِرَى ناخب
أنك من جيرانِ قُطْرُبُلٍ وعندك اللَّقْحةُ والحالب
فاسقِ حليب الكرم شُرّابَهَ إذ ليس من شأنهم الرائب
أحضرْهُم البكرَ التى ما اصطلتْ ناراً ، فكلٌّ خاطب راغب

---

(١) طائفة الخيل

تلك التى ما باينت راهباً إلا جفا قنديلَه (1) الراهب

تلك التى ليس لها مُشْبهٌ فى الكاس الا الذهب الذائب

أو أمُّها الكبرى (2) التى لم يَزَلْ لليل من طلعتها جانب

حققها بالشمس أن ربيت فى حِجْرها ، والشبهُ الغالب

أعجب بتلك البكر محجوبةً مكروبةً يُجلَى بها الكارب

مغلوبةً فى الدنّ مسلوبةً لها انتصارٌ غالبٌ سالب

بينا تُرَى فى الزقّ مسحوبةً إذ حَكَمَتْ أن يُسحَبَ الساحب

تقتصّ من واترها صرعةً ليس لها باكٍ ولا نادب

إلا حمامُ الأيك فى أيكةَ أو عازف للشَّرْب أو قاصب

ذات نسيم مسكهُ فائح وذات لونٍ ورسُه خاضب

هاتيك هاتيك على مثلها حام ولاب الحائم اللائب

والنَّقْلُ والريحانُ من شأنهم فلا يَعِبْ فقدَها عائب

ولا تنمْ عن نرجس مؤنس يضحك عنه الزمنُ القاطبُ

ريحانُ روحٍ مُنْهِبٌ عطرَه ، والروحُ إذ ذاك هو الناهب

لم يلفح الصيفُ له صفحةً ولا سقاه عوده الشاسب . (3)

وزَخْرِف البيتَ ، كما زُخرفتْ روضةُ حَزْنٍ جادَها هاضب

واجلبْ لهم حسناء ، فى شدوها ـ لكل ما سرَّهُمُ ـ جالب

محسنةً ليست بخطّاءَة طائرُها الهادل لا الناعب

بيضاء خوداً ردفُها ناهدٌ غيداءَ رودًا ثديُها كاعب

مملوكةً بالسيف مغصوبةً لها دلالٌ مالكٌ غاصب

تستوهب الجيدَ اذا أتلعت من ظبيةٍ أفزعها طالب

---

(1) كناية عن اشراقها والا كتفاء بسناها (2) أو لا شبه لها الا أمها الكبرى وهى الشمس التى تمزق طلعتها الظلام (3) اليابس

نعيمُ من نادمها دائمٌ ... وبرْح من فارقها واصب
كأنها والبيت مستضحكٌ ... والعودُ فى قبضتها صاخب
أدمانةٌ تربب فى روضة ... جاوبها خشفٌ لها نازب[١]
وأصبب عليهم تحفًا جمَّة ... يُحمى بهن الموعدُ الكاذب
واغرمْ لهم من بعد ذا كلهِ ... ما نقلَ الملاحُ والقاربُ
وتبْ من الذنب الذى جئته ... فقد يقال[٢] المذنب التائب
كيما يقولوا حين ترضيهمُ : ... ياحبذا المنهزم الثائب

***

أعتبْ بيومٍ صالحٍ فيهم ... ليس على أمثاله عاتب
ولا يكنْ يوماً اذا ما انقضى ... صِيح به : لا رجع الذاهب
عجلْ لهم ذاك ولا تَهْجَهم ... ولا يثب منك بهم واثب
فليس من يأدبُ إخوانه ... مؤدّبا للقوم بل آدب
أخلفنا نوْك موعوده ... فلا تُصبْنا ريحك الحاصب
حاشاك أن يلقاك مستمطرٌ ... ومزْنُك الصاعق لا الصائب

---

(١) غزالة تصوت فيجاوبها ولدها ـ كناية عن مجاوبة العود لغناء المغنية (٢) يغفر له

اللوزينج

(وهو حلواء تشبه القطائف تؤدم بدهن اللوز)

لا يخطئنى منك لَوْزينَجٌ ... اذا بدا أعجب أو عجّبا
لم تغلق الشهوةُ أبوابَها ... الا أبتْ زُلفاه أن يُحجبا
لوشاء أن يذهب فى صخرةٍ ... لسهَّل الطيبُ له مذهبا
يدور بالنفخة فى جامه ... دوراً ترى الدهنَ له لولبا
عاون فيه منظرٌ مخبراً ... مستحسَنٌ ساعد مستعذَبا
كالحسَن المحسِن فى شدوه ... تمَّ فاضحى مطربا مضربا
مستكثف الحشو ولكنه ... أرق قشرا من نسيم الصبا
كأنما قُدَّت جلابيبُه ... من أعين القطر الذى قَببا
يخال من رقه خِرشائه (١) ... شارك فى الأجنحة الجندبا
لو أنه صُوِّر من خبزه ... ثغرٌ لكان الواضح الاشنبا
من كل بيضاء يحبّ الفتى ... أن يجعل الكفَّ لها مركبا
مدهونة زرقاء ، مدفونة ... شهباء ، تحكى الازرقَ الاشهبا
مَلَذُّ عينٍ وفمٍ ، حُسِّنت ... وُطيِّبت حتى صبا من صبا
ذيق لها اللوز فلا مُرَّةٌ ... مرّت على الذائق إلا أبى
وانتقد السكَّرَ نقادُه ... وشاوروا فى نقده المذهبا
فلا إذا العينُ رأتها نبتْ ... ولا اذا الضرس علاها نبا

---

(١) شمع العسل او قشر البيض

الشبوط

فلا يبعدُ الشبوطُ من متلبّسٍ ظهارته الحسنى ، ومن متجرّد

اذا نُشّ فى سفّوده عند نضجه وأخرج من سرباله المتورّد

فتىّ رعى مرعىً بدجلة مخصبا أبى أن يراه رائدٌ غيرَ محمد

الى أن أصابته من الدهر نوبةٌ وقد صار أقصى مُنيةَ المتجوّد

فأصدره الصيادُ عن خير موردٍ وأورده الشوّاء أخبثَ مورد

وجاء به الحمّالُ أطيبَ مطعمٍ الى الطيّب المنفاق غيرِ المصرّد

ويا حبذا امعاننا فيهِ ناضجاً كما جاء من تنوّره المتوقد

وانى لمشتاقٌ الى عود مثله وإن كنتُ أبدى صفحةَ المتجلّد

الدجاجة

وسميطةٍ صفراءَ دينـاريةٍ ثمناً ولوناً زفّها لك حَزْوَرُ (١)

عظُمتْ فكادت أن تكون أوزّة ، ونوتْ فكاد إهابُها يتفطرُ

ظلنـا نقشر لحمَها عن جلدهـا وكأن تبرأ عن لجين يقشر

(١) غلام حزور بلغ القوة

الفواكه

(فواكه أيلول)

لولا فواكه أيلول اذا اجتمعت　　من كل نوعٍ ورقّ الجوُّ والماء
اذاً لما حفلت نفسى متى اشتملت　　علىّ هائلة الجالين غبراء

(الموز)

انه (الفوزُ) مثلَ ما فقده (المو　　تُ) لقد بان فضلُه لا خفاء
ولهذا التأويل سمّاه (موزا)　　مَن أفاد المعانىَ الأسماء
رب فاجعله لى صَبوحا وقيلاً　　وغبوقاً وما أسأتُ الغذاء
وأرىَ - بل أبتُّ - أن جوابى :　　« لا تغالط ، فقد سألتَ البقاء »
نكهةٌ عذبةٌ وطعمٌ لذيذٌ　　شاهدا نعمةٍ على نعماء
لو تكون القلوبُ مأوى طعام　　نازعته قلوبنا الاحشاء
أننى للحقيق بالشبع السائغ من أكله وإن كان ماء

كرمة العنب الرازقى

ورازقىّ مخطف الخصور　　كأنه مخازن البلور
لم يُبق منه وهجُ الحرور　　الاضياء فى ظروف نور
لو أنه يبقى على الدهور　　قرّط آذان الحسان الحور
له مذاق العسل المشور　　ونهكة المسك مع الكافور

وبردُ مسّ الخَصر المقرور

باكرته والطير فى الوكور　　- وعُذر اللذات فى البكور -
بفتيةٍ من ولد المنصور　　أملأ للعين من البدور

حتى أتينا خيمة الناطـور   قبل ارتفاع الشمس للذرور
فانقضّ كالطاوى من الصقور   بطاعـة الراغب لا المجبور
ثم جلسنا مجلس المحـبور   على حفافى جدولٍ مسجور[1]
أبيض مثل المهرق المنشور   أو مثل متن المنصل المشهور
ينساب مثل الحية المذعور   بين سماطىْ شجرٍ مسـطور

فنيلت الاوطار فى سرورِ

وكلّ ما تقضى من الأمور   تعلةٌ عن يومنا المنـظور

ومتعةٌ من متع الغرور

---

(١) ملآن

المرأة والحب

النساء

أجنتْ لك الوجدَ أغصانٌ وكثبانُ ... فيهنّ نوعان تفاح ورمّانُ (١)

وفوق ذينك اعنابٌ مهدّلة ... سودٌ لهن من الظلماء الوان (٢)

وتحت ذلك عُنابٌ تلوح به ... أطرافهن قلوب القوم قنوان (٣)

غصون بانٍ عليها ـ الدهرَ ـ فاكهةٌ ... وما الفواكه مما يحمل البان

ونرجسٌ بات سارى الطلّ يضرب به ... وأقحوان منيرُ النورْ ريان (٤)

أُلّفن من كل شىء طيّبٍ حَسَنٍ ... فهن فاكهةٌ شتّى وريحان

ثمارُ صدقٍ اذا عاينتَ ظاهرَها ... لكنها حين تبلو الطعم خطبان (٥)

بل حلوةٌ مرةٌ ، طوراً يقال لها ... شهدٌ ، وطوراً يقول الناس ذيفان (٦)

يا ليت شعرى ـ وليتٌ غيرُ مجدية ... الا استراحة قلبٍ وهو أسوان —

لأى أمرٍ مُرادٍ بالفتى جمعت ... تلك الفنون فضمتهنّ أفنان ؟

تجاورت فى غصونٍ لسن من شجرٍ ... لكن غصونٌ لها وصلٌ وهجران

تلك الغصون اللواتى فى أكتها ... نُعْمٌ وبؤسٌ وأفراح وأحزان

يبلو بها الله قوماً كى يبين له ... ذو الطاعة البرُّ ممن فيه عصيان

وما ابتلاهم لأعناتٍ ولا عبثٍ ... ولا لجهلٍ بما يحويه إبطان

لكن ليثبت فى الأعناق حجته ... ويحسن العفوَ ، والرحمان رحمان .

***

(١) (الاغصان) اشارة الى القدود و (الكثبان) الارداف و (التفاح) الخدود و (الرمان) النهود

(٢) (كرم الاعناب) اشارة الى مسترسل الشعور (٣) (العناب) البنان المخضوب

(٤) (النرجس اشارة الى الاعين و (الاقحوان) للثغور الناصعة الثنايا (٥) جمع أخطب مر ويقال أمر من تقيع الخطبان (٦) سم

ومن عجائب ما يُمنَى الرجال به ... مستضعفاتٌ لنا منهن أقرانُ
مناضلاتٌ بنبل لا تقوم له ... كتائب الترك يزجيهن خاقان
مستظهراتٌ برأى لا يقوم له ... قصيرُ عمروٍ ، ولا عمروٌ ووردان
من كل قاتلة قتلى ، وآسرةٍ ... أسرى وليس لها فى الأرض أثخان
يولين ما فيه إغرامٌ ، وآونة ... يولين ما فيه للمشغوفِ سلوان
ولا يُدُمْنَ على عهد لمعتقد ... أنىّ ؟ وهن كما شُبّهن بستان
يميل طوراً بحملٍ ثم يعدمه ... ويكتسى ثم يلفى وهو عريان

امتزاج روحين

أعانقها ، والنفس بعد مشوقة ... اليها : وهل بعد العناق تدانِ ؟
والثم فاها كى تموت حزازتى ... فيشتد ما ألقى من الهيمان
وما كان مقدار الذى بى من جوىً ... ليشفيه ما ترشف الشفتان
كأن فؤادى ليس يشفى غليله ... سوى أن يرى الروحين تمتزجان

لمحة التوديع

ربّ كعابٍ فى حجابٍ لم تزل ، ... مثل الغزال عنقا ومكتحَل
لم تكتحل مقلتها سوى الكحل ... ولا تحلّى جيدُها سوى العطل
ما زلتُ منها فى مطالٍ وعلل ... حتى اذا ما قدُر البين نزل
خلستُ منها نظرةً على وجل ... آخرها أولها من العجل
ثم أجنتها غيابات الكلل

الشباب الراحل

أبين صلوعى جمرة تتوقد ... على ما مضى ؟ أم حسرةٌ تتجدد ؟
خليلىّ ما بعد الشباب رزية ... يُجَمّ لها ماء الشؤون ويُعتَد

فلا تلحيا إن فاض دمعٌ لفقده ... فقلّ له بحرٌ من الدمع يثمد

ولا تعجبا للجَلْد يبكى ، فربما ... تفطّر عن عينٍ من الماء جلمدُ

شــــباب الفتى مجلودُه وعزاؤه ... فكيف ؟ وأنّى ؟ بعده يتجلّد

وفقدُ الشباب الموتُ ، يُوجد طعمه ... صراحاً ، وطعم الموت بالموت يُفقد

رزئت شبابى عودة بعد بدأةٍ ... وهن الرزايا باديات وعوّد

سُلبتُ سواد العارضين وقبله ... بياضهما المحمودَ إذ أنا أمرد

وبُدّلتُ من ذاك البياض وحسنِه ... بياضاً ذميما لا يزال يُسوّد

لشتان ما بين البياضين : معجبٌ ... أنيقٌ ، ومشنوء الى العين أنكد

تَضاحكَ فى أفنـان رأسى ولحيتى ... وأقبح ضحاً كين شيبٌ وأدرد (١)

وكنتُ جلاء للعيون من القذى ... فقـد جعلت تقذى بشيبى وترمد

هى الأعينُ النجلُ التى كنتَ تشتكى ... مواقعَها فى القلب ، والرأس أسود

فما لك تأسى الآن لما رأيتها ... وقد جعلت مرمى سواكَ تَعمّدُ

تَشَكّى اذا ما أقصدتك سهامُها ... وتأسى اذا نكّبْنَ عنك وتكمد

كذلك تلك النبلُ ، مَنْ وقعتْ به ... ومن صُرفتْ عنه من القوم مُقْصَد (٢)

اذا عدلتْ عنـا وجدنا عدولَها ... كموقعها فى القلب ، بل هو أجهد

تنكّبُ عنـا مرةً ، فكأنما ... مُنَكِّبُها عنـا إلينا مُسدّد

كفى حزنا أن الشباب معجّلٌ ... قصيرُ الليالى ، والمشيب مخلّد

إذا حلّ ، جارىَ المرء شاوَ حياته ... الى أن يضم المرء والشيبَ ملحد

أرى الدهر أجرى ليلَه ونهارَه ... بعدلٍ ، فلا هـذا ولا ذاك سرمد

وجار على ليـلِ الشباب فضامَه ... نهارُ مشيبٍ سرمد ليس ينفد

وعزّاك عن ليل الشباب معاشرٌ ... فقالوا نهار الشيب أهدى وأرشد

وكان نهـار المرء أهدى لسعيه ... ولـكنّ ظلّ الليل أندى وأبرد

---

(١) الادرد من ذهبت اسنانه (٢) مصاب

أأيام لهوى هل مواضيك عوّدٌ ؟ وهل لشبابٍ ضل بالأمس منشد ؟
أقول وقدشابت شواتى ، وقوّستْ قناتى ، واضحت كدنتى(١) تتخدد
ودبَّ كِلالٌ فى عظامى أدَبَّنى جنيبَ العصا أنآد أو أتأيّد
وبورك طَرْفى ، فالشخوص حياله قرائنُ - من أدنى مدًى - وهى فُرَّد
ولذّت أحاديثى الرجال ، وأعرضتْ سليمى وريّا عن حديثى ومهددُ
وبُدّل اعجابُ الغوانى تعجّباً فهن روانٍ يعتبرن وصُدَّدُ
لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعةَ يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها لأفسح مما كان فيه وأرغد
اذا أبصر الدنيا استهل كأنه بما سوف يلقى من أذاها يُهدّد
وللنفس أحوالٌ تظل كأنها تشاهد فيها كل غيبٍ سيُشْهَد

***

لعبتُ بأولى الدهر ، فاغتال شرّتى بأخرَى حقودٍ ، والجرائم تحقد
فصبرًا على ما اشتدّ منه ، فانما يقوم لما يَشتدُّ مَنْ يتشدّد
يذيق الفتى طورَىْ رخاءٍ وشدةٍ حوادثُه ، والحولُ بالحول يُطرد
ومالى عزاء عن شبابى علمتُه سوى أننى من بعده لا أخلّد
وأنّ مشيبى « واعدٌ » بلحاقه وإن قال قوم أنه « يتوعّد »

دمعة على الشباب

لا تلح من يبكى شبيبته الا اذا لم يبكها بدمِ
عيبُ الشبيبة غولُ سكرتها مقدارَ ما فيها من النعم
لسنا نراها حقّ رؤيتها إلا زمان الشيب والهرم
كالشمس لا تبدو فضيلتُها حتى تغشى الأرض بالظلم
ولرب شىء لا يبيّنه وجدانُه الاَّ مع العدم

---

(١) اللحم المكتنز

حلم زائل

رأيت سواد الرأس واللهو تحتـه   كليلٍ وحلمٍ بات رائيه ينعم
فلما اضمحلّ الليـلُ زال نعيمـه   فلم يبق الا عهـــده المتوهم

الاحداث السياسية

مصرع

أبي الحسين يحيى من احفاد عليّ

أمامك فانظرْ أيَّ نهجيك تنهجُ   طريقان شتى : مستقيم واعوجُ
ألا أيهذا الناسُ طال ضريرُكم   بآل رسول الله فاخشوا ، أو ارتجوا
أكل أوانٍ للنبي محمـد   قتيلٌ زكيّ بالدماء مضرّج
تبيعون فيه الدينَ شرَّ أئمةٍ —   فلله دينُ الله ، قد كاد يمرج .(١)

***

بني المصطفى ! كم يأ كل الناسُ شِلوَكم؟   لِبلواكم — عما قليل — مُفرّج
أما فيهم راعٍ لحق نبيّه ؟   ولا خائف من ربّه يتحرّج ؟
لقد عمهوا ما أنزل الله فيكم ،   كأنَّ كتاب الله فيهم مُمَجْمَج(٢)
ألا خاب من أنساه منكم نصيبَه   متاعٌ من الدنيا قليلٌ وزبرج

***

أبعد المكنّى بالحسين شهيدكم   تضيء مصابيح السماء فتسرج
لنا وعلينا — لا عليه ولا له —   تسحسح اسراب الدموع وتنشج

---

(١) مرج الدين اضطرب وفسد   (٢) مجمج الكتاب لم يبين حروفه ولم يفد به

وكيف نبكّى فائزاً عند ربه ... له فى جنان الخلد عيش مُخَرْفج (١)

وقد نال فى الدنيا سناء وصيتةً ... وقام مقاماً لم يقمه مزلج (٢)

فأنْ لا يكن حيا لدينا ، فأنه ... لدى الله حيٌّ فى الجنان مزوّج

وكنا نرجّيه لكشف عمايةٍ ... بأمثاله أمثالُها تتبلّج

فساهمنا ذو العرش فى ابن نبيه ... ففاز به ، والله أعلى وأفلج

***

أيحيى العلى لهفى لذكراك لهفةً ... يباشر مكواها الفؤادَ فينضج

لمن تستجدّ الأرض بعدك زينةً ... فتصبح فى أثوابها تتبرّج ؟

سلامٌ وريحان وروح ورحمة ... عليك ، وممدود من الظل سجسج

ولا برح القاع الذى أنت جاره ... يرفّ عليه الاقحوان المفلّج

ويا أسفى الاّ تردّ تحيةً ... سوى أرج من طيب رمسك يأرج

ألا انما ناح الحمائم بعدما ... ثويت ، وكانت قبل ذلك تهزج .

ألا أيها المستبشرون بيومه ... أظلّت عليكم غمةٌ لا تفرّج !

أكُلّكم أمسى اطمأنّ مهادُه ... بأن رسول الله فى القبر مزعج !

فلا تشمتوا وليخسأ المرء منكم ... بوجه كأن اللون منه اليرندج (٣)

فلو شهد الهيجا بقلب أبيكم (٤) ... غداه التقى الجمعان والخيل تمعج —

لأعطى يدَ العانى ، أو ارتدّ هاربا ... كما ارتدّ بالقاع الظليم (٥) المهيّج

ولكنه ما زال يغشى بنحره ... شبا الحرب، حتى قال ذو الجهل: أهوج

وحاش له من تلكم ، غير إنه ... أَبَى خطةَ الأمر الذى هو أسمج

وأين به عن ذاك ؟ لا أين — إنه ... اليه بعرقيه الزكيين مُحْرَج .

كأنى به كالليث يحمى عرينه ... وأشباله لا يزدهيه المهجهج

---

(١) عيش واسع ناعم (٢) زلج فلانا تقدم (٣) جلد أو طلاء أسود

(٤) فلو نزل يحيى ابن الحسين المترك وقلبه منخوب كقلب أبيكم لسلم نفسه للأسر أو ولى هارباً

(٥) ذكر النعام

كدأب عليٍّ في المواطن قبله ... أبي حسن — والغصن من حيث يخرج

كأني أراه والرماح تنوشه ... شوارع كالأشطان تدلى وتخلج

كأني أراه إذ هوى عن جواده ... وعفّر بالترب الجبين المشجج

فحبٌّ به جسما الى الأرض اذ هوى ... وحبٌّ بها روحاً الى الله تعرج

***

أأرديتم يحيى ! ولم يطوَ أيطلٌ[1] ... طراداً ولم يدبر من الخيل منسج

تأتت لكم فيه مُنَى السوء هينةً ... وذاك لكم بالغيّ أغرى وألهج

تمدون في طغيانكم وضلالكم ... ويُستدرَج المغرور منكم فيدرج

أجنوا بني العباس من شنآنكم ... وأوكوا[2] على ما في العياب وأشرجوا[3]

وخلوا ولاةَ السوء منكم وغيّهم ... فأحرِ بهم أن يغرقوا حيث لججوا

نظار لكم أن يرجع الحقَّ راجعٌ ... الى أهله يوماً ، فتشجوا كما شجوا

على حين لا عذرى لمعتذريكم ... ولا لكم من حجة الله مخرج

فلا تلقحوا الآن اللواقح بينكم ... وبينهم ، إن اللواقح تنتج

غررتم لأن صدقتم أن حالة ... تدوم لكم ، والدهر لونان أخرج

لعلّ لهم في منطوى الغيب ثائراً ... سيسمو لكم والصبح في الليل مولج

بمجرٍ تضيق الأرض من زفراته ... له زَجَلٌ ينفى الوحوش وهزمج[4]

اذا شِيمَ بالأبصار أبرق بيضهُ ... بوارقَ لا يسطيعهنَّ المحمّج[5]

توامضهُ شمسُ الضحى ، فكأنما ... يُرى البحرُ في أعراضه يتموج

يؤيده ركنان ثبتان : رجلهٌ ... وخيلٌ كأرسال الجراد وأوثج[6]

عليها رجالٌ كالليوث بسالةً ... بأمثالها يُثنى الأبيّ فيعنج[7]

تدانوا ، فما للنقع فيهم خصاصةٌ ... تنفّسهُ عن خيلهم حين ترهج

---

(١) الايطل الخاصرة والمنسج ما بين العرف وموضع اللبد (٢) اوكى القربة شدها بالوكاء
(٣) اشرج الخريطة داخل بين أشراجها وشدها (٤) الهزمجة اختلاط الصوت (٥) المحدق النظر (٦) أوثج أى أشد كثافة والتفافا (٧) من عنج الراكب البعير جذبه بخطامه ليقف

فلو حصبتهم بالفضاء سحابة ... لظل عليهم حصبُها يتدحرج
كأن الزجاج اللهذميات فيهم ... فتيلٌ بأطراف الردينيّ مسرج
يودّ الذى لاقوه أن سلاحه ... هنالك خلخال عليه ودُملج
فيدرك ثأرَ الله أنصارُ دينه ، ... ولله أوسٌ آخرون وخزرج
ويقضى « إمام الحق » فيكم قضاءه ... تماماً ، وما كل الحوامل تخدج
وتظعن خوفَ السبى — بعد إقامة — ... ظعائن لم يُضرَب عليهن هودج

***

مهِ ! لا تعادوا غرة البغى بينكم ... كما يتعادى شعلةَ النار عرفج (١)
أفى الحق أن يمسوا خماصا ، وأنتم ... يكاد أخوكم بطنـــةً يتبعج
تمشون مختالين فى حجراتكم ... ثقالَ الخُطى أكفالكم تترجرج
وليدُهم بادى الضوى ، ووليـدكم ... من الريف ريان العظام خدلّج
بنفسى الألى كظتهم حسراتكم ... فقد علزوا — قبل الممات — وحشرجوا (٢)
وعيّرتموهم بالسواد ، ولم يزل ... من العرب الامحاض أخضر أدعج
ولكنكم زرقٌ ، يزين وجوهكم ... بنى الروم ! ألوانٌ من الروم نعج
أبى الله إلا أن يطيبوا وتخبثوا ... وأن يَسبقوا بالصالحات ويفلجوا
وإن كنتم منهم وكان أبوكم ... أباهم ، فأن الصفو بالرنق يمزج

***

لعمرى لقد أغرى القلوبَ ابنُ طاهرٍ ... ببغضائكم ما دامت الريحُ تنأج (٣)
سعى لكم مسعاة سوءٍ ذميمـــةً ... سعى مثلها مستكرَه الرجل أعرج
فلن تعدموا — ماحنّت النيبُ — فتنةً ... تحش كما حش الحريق المؤجج
وقد بدأت — لو تُزجَرون بريحها — ... بوائجها من كل أوبٍ تبوّج (٤)

***

(١) نبات سهل (٢) علز أخذه القلق والهلع (٣) نأجت الريح اشتدت (٤) البوائج الدواهى

بنى مصعب ! ما للنبى وأهلِه ... عدوٌّ سواكم ـ أفصحوا أو فلجلجوا

دماء بنى عباسكم وعليّهم ... لكم كدماء الترك والروم تهرج

يلى سفكَها العورانُ والعرج منكم ، ... وغوغاؤكم جهـلاً بذلك تَبهج

وما بكُم أن تنصروا أولياءكم ... ولكنْ هناتٌ فى القلوب تنجنج[1]

ولو أمكنتكم فى الفريقين فرصةٌ ... لقد بينت أشـياء تلوى وتحنج

إذن لاستقدتم منهما وترَ فارسٍ ، ... وإن ولياكم . فالوشائج أوشج

أَبَى أن تحبُّوهم ـ يدَ الدهر ـ ذكرُكم ... ليالى لا ينفك منكم متوّج

وأنى على الاسلام منكم لخائفٌ ... بوائق شتى ، بابها الآن مرتج

وفى الحزم أن يستدرك الناسُ أمرَكم ... وحبلُهم مستحكم العقد مدمج

***

نظارِ فأن الله طالبُ وتره ... بنى مصعبٍ ! لن يسبق اللهَ مدلج

لعـــل قلوبا قد أطلتم غليلها ... ســتظفر يوما بالشفاء ، فتثلج

---

(١) تردد وتحير

شخصيات أعلام

بطل الشطرنج

(فى أبى القاسم التوزى الشطرنجى)

يا أخى يا أخا الدماثة والرقة   والظرف والحجى والدهاء
أترى الضربة التى هى غيبُ   خلف خمسين ضربةٍ فى وحاء
ثاقب الرأى نافذ الفكر فيها   غير ذى فترة ولا إبطاء
ويلاقيك سبعةٌ فيظلو   ن على ظهر آلة حدباء
تهزم الجمع أوحديًا وتلوى   بالصناديد أيما الواء
وتحطّ الرخاخ بعد الفرازين فتزد   اد شدة استعلاء
ربما هالنى وحيّر عقلى   أخذُك اللاعبين بالبأساء
ورِضاهم هناك بالنصف والربع ،   وأدنى رضاك فى الأرباء
واحتراسُ الدهاةِ منك واعصا   ؤك بالاقوياء والضعفاء
عن تدابيرك اللطاف اللواتى   هن أخفى من مستسرّ الهباء
بل من السرّ فى ضمير محبٍ   أدبته عقوبةُ الأفشاء
فأخال الذى تدير على القو   م حروبا دوائر الارحاء
وأظن افتراسك القرنَ فالـ   ـقرن منايا وشيكة الارداء
وأرى أن رقعة الادم الاحمر   أرضٌ علَّتها بدماء
غلط الناس لست تلعب بالشـ   ـطرنج لكن بأنفس اللُعباء
أنت جديها ، وغيرك من يلعبُ .   إن الرجال غيرُ النساء
لك مكرٌ يدبّ فى القوم أخفى   من دبيب الغذاء فى الاعضاء

أو دبيب الملال فى مستهامين الى غاية من البغضاء
أو مسير القضاء فى ظلم الغيب الى من يريده بالتواء
أو سرى الشيب تحت ليل شباب مستحير فى لمة سمحاء
دبّ فيها لها ، ومنها اليها فاكتست لون رثة شمطاء
تقتل الشاه حيث شئت من الرقعة طباً بالقتلة النكراء
غير ماناظر بعينيك فى الدست ولا مقبل على الرسلاء
بل تراها وأنت مستدبر الظهر بقلب مصور من ذكاء
ما رأينا سواك قرنا يولّي وهو يردى فوارس الهيجاء
ربّ قوم رأوك ريعوا فقالوا هل تكون العيون فى الاقفاء
والفؤاد الذكىّ للمطرق المعرض عين يرى بها من وراء
تقرأ الدست ظاهراً فتؤديه جميعاً كأحفظ القراء

طباع وشمائل

(فى يحيى بن على المنجم)

ربّ اكرومةٍ له لم تخلها قبلَه فى الطباع والتركيب
غرّبته الخلائقُ الزهر فى الناس، وما أوحشته بالتغريب
المعىّ يرى بأول ظنّ آخر الأمر من وراء المغيب
لا يروّى ولا يقلب كفاً ، وأكفّ الرجال فى تقليب
يدرك الطّلّبَ بالبديهة دون العقب، قبل التصعيد والتصويب
حازم الرأى ليس من طول تجريبٍ، لبيب وليس عن تلبيب
ليّن عطفه فأن ريم منه مكسرُ العود كان جدّ صليب

(فى القاسم)

عجبتُ لمن حزمُه حزمُه تكون يداه يدى حاتمِ
عجبت لمن جوده جوده تكون له عقدةُ الحازم
عجبت لمن حلمه حلمه تكون له صولةَ الصارم
عجبت لمن حدّه حدّه تكون له رأفة الراحم
أرى كلَّ ضدّ الى ضدّه من الخير فى طبعه السالم

رسائل استعطاف وعتب

(عتب على سوء مقابلة)

قرأتُ فى وجهك عنوانا — آذَنَنى بالغــــدر أيذانا
تا لله أنسى ـ ما ذكرتُ الصبى — بل ما ذكرت الله لهفانا ـ
يومَ التقينــا فتجهمتنى — تجهمَ المديون ديانا
وكيف أنسى ذاك مستيقظا — ولستُ أنسى ذاك وسنانا
طلعتُ من بُعدٍ فأوهمتنى — أنك قد عاينتَ شيطانا
لاقيتنى ساعةَ لاقيتنى — أثقل خلق الله أجفــــانا
كأنما كنتَ تضمنْتَ لى — ردَّ شبابى كالذى كانا
أو طمَّ بحر الصين فى طرفةٍ — أو كسْحَ أروندَ وثهــــلانا
أو كلَّ ما لم يستطع فعله — عيسى ولا موسى بن عمرانا
يا حسن الوجه لقـــد شنته — فاضممْ الى حسنك احسانا
أنت ملولٌ حائلٌ عهــدُه — تصبغك الساعات ألوانا
تصرم ذا الوصل ، وتضحى الى — من يجتوى وصلَك ظمآنا
حتى اذا واصلَ ، صارمتَه — أو سُمتَه صداً وهجرانا
وتستلين الدهر ذا خشنةٍ — فظًّا ، وتستخشن من لانا
وتعقــد الوعدَ ، فانجازُه — خُلفٌ إذا إنجازُه آنا
حتى اذا أنجــزته مرةً — مننتَــه سراً وإعــلانا
وما أحبُّ الواعدَ مُخلفاً ، — كلا ، ولا الممتنّ منــانا
حذرتنى الناسَ فقــد أصبحت — نفسىَ لا تألف إنســانا
أهنتنى جــداً فأعززتنى — ربَّ امرىء عزَّ بأن هانا

(الى آل وهب)

تخذتكم درعاً وترسا لتدفعوا نبال العدى عنى فكنتم نصالها

وقد كنتُ أرجو منكم خير ناصرٍ على حين خذلان اليمين شمالها

فأن أنتم لم تحفظوا لمودتى ذماما فكونوا لا عليها ولا لها

قفوا موقف المعذور عنى بمعزل وخلّوا نبالى والعدا ونبالها

هى النفس إما أن تعيش بغبطة وإلا فغنم أن تزول زوالها

طلبتُ لديكم بالعتاب زيادةً وعطفاً فأعتبتم بأحدى البوائق

فكنت كمستسقٍ سماء مخيلةً حياً ، فأصابته باحدى الصواعق

(الى القاسم)

أأحببتنى بالأمس ثم تميتنى برفضى وإقصائى ، وحق أن أُذَى

ولو أننى أحييتُ ميتاً عشقته لحسن الذى أثرتُ فيه من الحسنى

سوط الهجاء

فى ابن الخبازة

خلياني عند اصطكاك الخصوم ... وازحما بى عند اعتراك القروم
وكلانى الى بلائى وصدق ... تأمنا نبوة الكهام اللئيم
يا ابن بوران ، ما نجوت من الوا ... د لخير ، لكن لشرٍ عظيم
لو تبعت الالى مضوا من شهيد ... ووئيدٍ الى جنان النعيم
كان خيراً من البقاء لحربى . ... بل أَبَى شؤم جدك المشئوم
واذا لم نحن محاين قومٍ ... فلماذا تجرى نحوسُ النجوم !

***

شمل الناس عدل أمك حتى ... سار فيهم كبير جورِ سدوم
لو رآك الرجالُ شيئا نفيسا ... كثرت فيك هنبثات الخصوم (١)
كيف ندعوهمُ لآبائهم ، ر ... بّ ! وفيهم أمثال هذا الزنيم
كل نخلٍ أبوك عدلاً من الله ، وعيسى بلا أبٍ كاليتيم
تطمث الأرض من مواطىء بورا ... ن ، ولو بين زمزم والحطيم
أفحش القذف والهجاء لبورا ... ن طهورٌ كالرجم للمرجوم
كيف لا تسقط السماء على الأر ... ض وترمى من أجلها بالرجوم
كثرت موبقات بوران حتى ... ضاق عنها عفوُ الغفور الرحيم (٢)

. . . .

فاذا ليم فى تغاضيه عنها ... قال : من شأنىَ اطّراح الهموم
رضى الشيخ بالذى قدر الله فألقى مقالد التسليم

---

(١) الهنبثة الاختلاط فى القول (٢) يقصد زوجها

غير أن لم تغبنه طرفة عينٍ بفجورٍ ولا زنا مكتوم
بل بسحناء وجهٍ سهلٍ طليقٍ وبطيبٍ من نفس سمحٍ كريم
لو أطاعت كما عصت ، لاستحقت خلة الله دون ابراهيم

***

ليس لى من هجاء بوران الا نقل منثوره الى المنظوم
ومعانٍ كأنهن اتباعٌ لا ابتداعٌ — والعلم بالتعليم
هى تعرى لى الفرىَّ فأحذو حذوَها كالامام والمأموم
ما أرانى اسيّرَ الشعر فيها سيرَها فى سهولها والحزوم
هى أهدى من القوافى وأسرَى فى دجى الليل والفلا الديموم
حملاها — النهارُ والليلُ — دأبًا يُعملان الرسيم بعد الرسيم(١)
ليس يخلى منها مكانًا مكانٌ هى شىء خصوصُه كالعموم
هى طيف الخيال يطرق أهل الأر ض من بين ظاعن ومقيم
هى بالليل كلَّ شخص تراه ماثلاً فى الظلام كالجرثوم
ناقضت مريمَ العفافَ فلمّا قاومتها بالغىّ والتأثيم
صمدت فى الزنا تناسل حوا ء ، لحواء عندها كالعقيم

***

أيها المؤذنى بصرم حبالى رب رزء كالمغنم المغنوم
فى الذى بين حرمتيك وبينى خلَفٌ من وصالك المصروم
لا تخلنى قرعتُ سنًا بظفرٍ من ندامٍ عليك أو تنديم
فى سبيل الشيطان منك نصيبى وعليك العفاء لوم بن لوم

***

ما تبالى وبين كشحيك هذا الشعر سكنى لظىً وشربَ الحميم

---

(١) سير الابل

يا ابن بوران قد أظلك زجرٌ كالدخان المذكور فى حاميم
يا ابن بوران لا مفر من الله ولا من قضائه المحتوم
صدمت مسمعيك شنع القوافى صدمة غادرتك كالمأموم(١)
فتلومتَ واقفاً موقف الاشـقر بين التأخير والتقديم
ساعةً ثم قلتَ قد هلك الملا ك فأشفى غيظى وأنفى همومى
ولعمرى لقـد عميت عن الرشـد وقصدَ المحجّة المستقيم
ما مضيض الكلوم معتبطات كمضيض الكلوم فوق الـكلوم
إن شتما أَلِمتَه يا ابن بورا ن لأدهى من العـذاب الأليم
ليس هـذا عهدى بصبرك للهـون على سالف الزمان القـديم
غير أنى أنضجت جلدَك كيا فتململْ فأنت غـير ملوم
لك عذرٌ أن لا تنام لعمرى أنا أدهى من أن ينام سليمى

رد على هجاء

يابن بورانَ ياجعلتَ فدائى عشتُ فى غبطةٍ وفى نعماء
كيف اهجو امرءً كريما لئيماً واحد الأم خِلفة الآباء
كيف اهجو مَن فيه مجتمع الانسـاب طراً وملتقى الاحياء
انما استطيب كدّك فى شـعرك يابن الخبازة «الخرقاء»
فـكأنى أراك فى عَكَر الفكر توالى تنفس الصُّعَداء
مجلباً مغبراً كأنك فى شىء ألاَ ضيعةً لذاك العناء
وكأنى أراك تهتف : إيهِ ! تزجر الشعرَ حضرةَ الغوغاء
مستميلاً أسماعهم بهجـائى بنبـاحٍ ملحن بعُواء

---

(١) المشجوج رأسه

قد أصاخوا ، وأنت تيعر[1] كالتيس ، وهم ضامزون مثلَ الشاء[2]

فاهجُنى ، إنما هجاؤك عندى ضحكاتٌ تزيد فى السراء

أنا فى غبطةٍ بها وسرورٍ مل، صدرى وأنت فى بُرَحاء

ومحالٌ أن يسعد السُعَداء — الدهرَ — إلا بشقوة الاشقياء

أنا هاجيك ما سكتَّ ، ومعفيك اذا ما هجوتنى من هجائى

ليس يُنجيك من يدىَّ سوى ذا كَ ، ولو كنتَ فى بروج السماء

ويميناً لألعبنَّ بأشلائك بين الإشواء والإصماء

هاجيا ، مادحاً ، ومتخذاً إيا ك ملهىً وعرضةَ استهزاء

شئ ليس له وجود

قل لابن بوران — إن كان ابن بوران فأن شكى فيه جلَّ ايمانى :

يا باطلاً أوهمتنيه مخايلهُ بلا دليلٍ ولا تثبيت برهان

ما أنت إلا خيالٌ طاف طائفهُ وماهجائيك إلا هُجْرُ وسنان

قد كنتُ أحسبه شيئاً فأهجوه حتى أزاح يقينى فيه حسبانى

(فى اسماعيل بن بلبل)

صبراً أبا صقرٍ فكم طائر خرّ صريعاً بعد تحليقِ

زُوِّجت نُعمى لم تكن كفؤها فصانها الله بتطليق

وكلُّ نعمى غيرُ مشكورةٍ رهنَ زوالٍ بعد تمحيق

لا قُدِّستْ نعمى تسربلتها كم حجةٍ فيها لزنديق

---

(١) اليعر واليعرة الجدى يربط عند زبية الاسد أو الذئب فاذا سمع الذئب صوته جاء ليفترسه فوقع فى الزبية . والمقصود بالاسد هنا هو الشاعر (٢) ضمز جمع شدقيه ولم يتكلم

كيمياء الجد

عجب الناس من أبي الصقر اذ ولـ ـىّ بعد « البطالة » الديوانا
ولعمري ما ذاك اعجب من أن كان علجاً فصار من شيبانا
إن للجد كيمياء اذا ما مسَّ كلباً أحاله انسانا
يفعل الله ما يشاء ، كما شا ء ، متى شاء ، كائنا ما كانا

تأبين !!

أقول اذ هتف الداعي بمصرعه لبيك ! لبيك ! من داعٍ بتبيين
نعيتَ من جمدت غزر العيون له فلم تفض عبرةٌ من عين محزون
ومن يقلْ له الداعي بمغفرةٍ وينشد الناسُ فيه بيت يقطين
فأن تصبك من الأيام جائحةٌ لم نبك منك على دنيا ولا دين
يا منكراً ونكيراً أوجعاه فقد خلوتما بقليل الخير ملعون
بعداً وسحقاً له من هالكٍ نطفٍ مشوّه الخلق من نسل الشياطين

اعتزال الهجاء

يا من قسا لما شكو تُ إلى تطوّله زماني
واعتدّني — لما رخصـتُ عليه من سقط المعاني
سأصون مالَك عن يدي وأصون عرضك عن لساني
آليتُ لا أهجو طوا لَ الدهر الا من هجاني
لا بلْ سأطرّح الهجا ء وإن رماني من رماني
أمن الخلائقُ كلهم فليأخذوا مني أماني
حلمي أعزّ علىَّ من غضبي اذا غضبي عراني

فلأصبرنّ وأكظمنّ وإن لظى غيظى كوانى
لـكننى سأحبّ نفـ سى إذ قلانى من قلانى
وأريدها كلّ الارا دةِ إذ أبانى من أبانى
وأرى مـكانى إن تعا مه مَنْ تعامه عن مكانى
حتى يرانى الله كيـ فَ صيانتى قـدرى وشانى
ويعـولنى فعيـالتى حقٌّ عليه كما برانى
وليغذونىّ بالكرا مةِ إنه قدْماً غذانى
وسأستعين على الفرا قِ الصبرَ إن شوقٌ دعانى



صور ممسوخة

يصف نفسه

مَنْ كان يبكى الشباب من جزعٍ ... فلستُ أبكى عليه من جزعِ
لأن وجهى بقبح صورته ... ما زال بى كالمشيب والصلع
أشبُّ ما كنتُ ، أهرمُ ما كنـ ... ـتُ ، فسبحان خالق البدع
اذا أخذت المرآة ، سلمنى ... وجهى – وما مُتُّ – هولَ مطَّلَعى
شعفتُ بالخرَّد الحسان وما ... يصلح وجهى إلاَّ لذى ورع
كى يعبد الله فى الفلاة ، ولا يشـ ... ـهد فيه مساجد الجمع

أكول

وأما يد البصرىّ فى كل صفحةٍ ... فأقلعُ من سيلٍ وأغرفُ من رَفْشٍ[1]
أأوعده بالشعر وهو مسلَّطٌ ... على الأنس والجنّان والطير والوحش
ألمْ أرهُ لو شاء بَلَّعَ تهامةٍ ... وأجبالها ، طاحتْ هناك بلا أرْش[2]
على أنه ينعى الى كل صاحبٍ ... ضروساً له تأتى على الثور والكبش
يخبّر عنها أن فيها تثلّماً ... وذلكمُ أدهى وأوكد للجرش
ألم تعلموا أن الرحا عند نقرها ... وتجريشها تأتى على الصلب والهشّ
فلا تقبلوا ذاك التفارقَ ، واحذروا ... شباه ، ولو أمسى مسجىً على نعش

مقارنة

وجهك يا عمرو فيه طول ... وفى وجوه الكلاب طول
مقابح الكلب فيك طرًّا ، ... يزول عنها ولا تزول

---

(١) الرفش ما يجرف به التراب (٢) الأرش الدية

وفيه أشياء صالحاتٌ حما كها اللهُ والرسول
فالكلب وافٍ وفيك غدرٌ ففيك عن قدره سفول
وقد يحامى عن المواشى وما تحامى ولا تصول
وأنت من بيتِ أهل سوء قصتُهم قصةٌ تطول
وجوههم للورى عظاتٌ لكنّ أقفاءهم طبول
نستغفر اللهَ قد فعلنا ما يفعل المائق الجهول
ما إن سألناك ما سألنا الا كما تُسأل الطلول
صمّتَ وعيّتَ فلا خطابٌ ولا كتابٌ ولا رسول
مستفعلنٌ فاعلن فعول مستفعلنٌ فاعلنٌ فعول
بيتٌ كمعناك ليس فيه معنىً سوى أنه فضول

الغث السمين

لنا صديق كلا صديقٍ غثٌّ على أنه سمينُ
من أقبح الناس ، لا أحاشى من كان منهم ومن يكون
اذا بدا وجهه لقومٍ لاذت بأجفانها العيون
كأنه عندهم غريمٌ حلّت عليهم له ديون
وهو على ما وصفتُ منه متهمَّ ودُّه ظنين

كبرياء الحجاب

وكم حاجبٍ غضبان كاسر حاجب محا الله ما فيه من الكسر بالكسر
عبوس اذا حييتُه بتحية فيا لك من كبرٍ ومن منطق نزر
يظلّ كأن الله يرفع قدرَه بما حط من قدرى وصغر من أمرى
اذا ما رآنى عاد أعمى بلا عمى وصم سميعاً ما بأذنيه من وقر

ومن شيم الحجاب أن قلوبهم قلوبٌ على الآداب أقسى من الصخر
يخافون أن يحظى سواهم بحظهم فهم من سؤال السائلين على وحر

(ثقيل)

كان للأرض مرة ثقلان فلها اليومَ ثالثٌ بفلان
أتقى غصة اسمه علم الله فأكنى عن ذكره بالمعانى
يا ثقيل الثقال أقذيت عيني ليت أنى كما أراك ترانى
من يكن عانيا بحب حبيب ففؤادى ببغضك اليوم عانى

(بارد ثقيل)

يا أبا القاسم الذى ليس يدرَى أرصاصٌ كيانُهُ أم حديد
أنت عندى كماء بئرِك فى الصيفِ ثقيل يعلوه بردٌ شديد

(فى أهوج)

وأخرق تضرمه نفخة سفاها وتطفئه تفلْه
فأخلاقه تارة وعرة وأخلاقه تارة سهله

اصدقاء كثيرو السلام

ولى أصدقاء كثيرو السلام علىّ وما فيهم نافع
اذا أنا أدلجتُ فى حاجةٍ لها مطلبٌ نازحٌ شاسع ،
فلى أبداً معهم وقفةٌ وتسليمةٌ وقتها ضائع .
وفى موقف المرء عن حاجةٍ تيممها شاغلٌ قاطع
ترى كل غثٍ كثير الفضول ، مصحفُه مصحفٌ جامع
يحدثنى مِن أحاديثه بما لا يلذ به السامع
أحاديث هن كمثل الضريع ، آكلُه أبداً جائع
أولئك لا حيُّهم مؤنِسٌ صَديقاً ، ولا ميتُهم فاجع

تجاريب وعظات

الظنون

يا أخى ، اين ريعُ ذاك اللقاءِ ؟ … أين ما كان بيننا من صفاء

كشفت منك حاجتى هنواتٍ … غُطِّيَتْ برهةً بحسن اللقاء

تركتنى ولم أكن سيّءَ الظنّ … أسيء الظنون بالاصدقاء

قلت — لمابدت لعينىَّ شُنْعاً : … رب شوهاء فى حشا حسناء

ليتنى ما هتكتُ عنكن ستراً … فثويتنّ تحت ذاك الغطاء

قُلْن : لولا انكشافُنا ما تجلّت … عنك ظلماء شبهةٍ قتماء

قلتُ : أعجب بكن من كاسفاتٍ … كاشفات غواشى الظلماء

قد افدتنّنى — مع الخُبْز بالصا … حب ـ أن رُبَّ كاسف مُستضاء

قلن : أعجب بمهتدٍ يتمنى … أنه لم يزل على عمياء

كنتَ فى شبهةٍ فزالت بنا عنـ … ـك فأوسعتنا من الإرزاء

وتمنيتَ أن تكون على الحـ … يرة تحت العماية الطخياء

قلتُ : تالله ليس مثلىَ من ودّ … ضلالاً وحيرةً باهتداء

غير أنى وددتُ ستر صديقى … بدلاً باستفادة الانباء

قلن : هذا هوىً فعرّجْ على الحـ … ـق وخلّ الهوى لقلبٍ هواء

ليس فى الحق أن تودّ لخلٍّ … أنه الدهرَ كامنُ الادواء

بل من الحق أن تنفر عنهنّ … وإلا فأنت كالبعداء

إن بحث الطبيب عن داء ذى الد … اء ، لأسُّ الشفاء قبل الشفاء

دونك الكشف والعتاب فقوِّمْ … بهما كلَّ خَلَّةٍ عوجاء

واذا ما بدا لك العرُّ (١) يوماً　　فتتبعْ نقابه بالهناء (٢)
قلت : فى ذاك موتكُنَّ ، وما المـ　　ـوت بمستعذَبٍ لدى الاحياء
قلن : ما الموت بالكريه اذا كا　　ن بحقٍ فلا تزد فى المراء

(طينة الناس)

واعلم بأن الناس من طينةٍ　　يصدق فى الثلب لها الثالبُ
لولا علاجُ الناس أخلاقهم　　اذن لفاح الحمأ اللازب

(اعتزال الناس)

ذقتُ الطعومَ فما التذذتُ كراحةٍ　　من صحبة الاشرار والاخيار
أحب قوماً لم يحبوا ربهم　　الا لفردوسٍ لديه ونار

(المعدم فى أمانه)

ماراح مغبوناً بصفقةٍ خاسرٍ　　من باع متعةَ فائتٍ بأمانِ
أمن أمروءٌ من رزء شىء فاته ،　　والمدركوه مراقبو الحدثان
وكفى عزاءً لامرىء من فائتٍ　　أنْ لا يخاف عليه صرفَ زمان

(القناعة)

اذا ما كساك الله سربال صحةٍ　　ولم تخل من قوت يحلّ ويعذب
فلا تغبطنّ المترفين فأنهم　　على حسب مايكسوهمُ الدهرُ يَسلب

(من هو الكريم ؟)

ليس الكريم الذى يعطى عطيتَّه　　على الثناء وإن أغلى به الثمنا
بل الكريم الذى يعطى عطيته　　لغير شىء سوى استحسانه الحسَنا

---

(١) العر الجرب　　(٢) القطران

(جزاء الإحسان)

ولقد كافأ بالنعمى أمرؤٌ كافأ النعمى باخلاص الوداد
إن يكُنْ نوّل نيلاً من يدٍ فلقد نوّل نيلاً من فؤاد

(الدرهم والسيف)

لم أر شيئاً صادقاً نفعه للمرء ، كالدرهم والسيف
يقضى له الدرهمُ حاجاتِه والسيف يحميه من الحيف

(الشرير)

وليس بشرّيرٍ ضليعٌ بحجةٍ رمى باطلاً بالحق حين يخاصمُ
ولاواسمٌ عرضَ امرىءٍ كان ناله بسوء ـ وان لامته فيه اللوائمُ
وما بى زهدٌ فى التفضّل : انه لفضل ، ولكن للرجال شكائم
ولكنما الشرّيرُ من عمّ شرّه ، وسُولِمَ بدءاً فأبَى لا يُسالِم
وعاذ باذعانٍ له وتودّدٍ أخوه ، فلم تنفعه تلك التمائم
وكافأ إحساناً بسوء ولم يزل يراجم بالمكروه من لا يراجم

(الظلم)

لانتقامُ المظلوم أربى على الظا لم ، من ظلمه على المظلوم
صاحبُ الظلم إن تأملتَ كالرا تع فى المرتع الوبيل الوخيم
يجتلى أمرَه فيعلم أن قد باع ليلَ السكرى بليلِ السليم [١]
فهو مِن لوم نفسه حين يخلو فى عُرامٍ وفى عذابٍ أليم
قد أمرّت حياته وشجَته برحاه الندیم والتنديم
لو تجافى الخصيمُ عنه وأغضى ، لكفاهُ بنفسه من خصيم

---

(١) الملدوغ

(الملام)

لا تكثرنّ ملامةَ العشاقِ فكفاهمُ بالوجد والاشواق
إن البلاء يطاق غيرَ مضاعَفٍ فاذا تضاعف كان غير مطاق
لا تطفئن جوىً بلومٍ إنه كالريح تغرى النار بالاحراق

(السلو)

أبت نفسى الهلاع لرزء شئ كفى شجواً لنفسى رزء نفسى
أهلع وحشةً لفراق إلفٍ وقد وطّنتُها لحلول رمس

(الصبر)

أرى الصبر محموداً وفيه مذاهبٌ ، فكيف اذا ما لم يكن عنه مذهب !
هناك يحق الصبرُ ، والصبر واجب ، وما كان منه كالضرورةِ أوجب
هو المهربُ المنجى لمن أحدقت به مكارهُ دهرٍ ليس منهن مهربُ
لَبوسُ جمالٍ ، جُنّة من شماتةٍ ، شفاء أسىً ، يُثنَى به ويثوّب

(اغراء المشيب)

وتولى الشباب فازددتُ ركضاً فى ميادين باطلى إذ تولَّى
إن من ساءه الزمانُ بشئ لأحق امرئ بأن يتسلى

(الفناء)

اذا اختط قومٌ خطةً لمدينة تقاضتهمُ أضعافها للمقابر
وفى ذاك ما ينهاهمو ان يشيدوا وأن يقتنوا الا كزاد المسافر

(الحرب الاهلية)

وماقَتلُ بعض الحى بعضاً بناهكٍ قواه اذا ما جاء حىٌّ يحاربه
وما لطمُ بعض الموج فى البحر بعضه بمانعه تغريق من هو راكبه

(بجنود الحرب وغيرهم وفودها)

رأيتُ جناةَ الحرب غيرَ كفاتها   اذا اختلفت فيها الرماح الشواجر
كذاك زناد النار عنها بنجوةٍ   ولكنما تصلى صلاها المساعر

(الاغضاء الا عن الخلصاء)

يا أبا القاسم الذى كنتُ أرجو   ه لدهرى قطعت متن الرجاء
لا أجازيك عن غرورك أيا   ىَ غروراً وقيتْ سوء الجزاء
بل أرى صدقك الحديث وما ذا   ك لبخلٍ عليك بالاغضاء
أنت عينى ، وليس من حق عينى   غضٌّ أجفانها على الاقذاء

الشعر

(دفاع عن شعره)

قلتُ لمن قال لى عرضتُ على الاخفش[١] ما قلته فما حمدَهْ

« قصّرتَ بالشعر حين تعرضه على مبين العمى اذا انتقده
ما قال شعراً ، ولا رواه ، فلا تعلبه كان ، لا ولا أسده
فان يقلْ أننى رويتُ ، فكالدفتر جهلاً بكل ما اعتقده
أرُمْتَ زينى بأن تعرّضنى لمدحه ؟ فالذليلُ من عضده
أم رمت شينى بأن تعرضنى لثلبه ؟ فالسليم من قصده[٢]
أنشدتَه منطق ليشهده فغاب عنه عمًى وما شهده
وقال قولا بغير معرفة أفكاً ـ فما حل أفكُه عقَدَه
شعرى شعر اذا تأمله الانسان ذو الفهم والحجى عَبَدَه
لكنه ليس منطقا بعث الله به آية لمن جحده
ولا أنا المفهم البهائم والطير ، سليمانُ قاهرُ المرده
ما بلغت بى الخطوب رتبةَ من تفهم عنه الكلاب والقرده
وحسبُ قردٍ أراه يحسدنى أن يُسْكِنَ اللهُ قلبَهُ حسدَه
لاخفَّفَ الله عنه من حسدى وزاده الله فوقه كمده
ولا تزل صورتى اذا طلعت لناظريه قذاه بل رمده

(حملته على البحترى)

الحظ أعمى ولولا ذاك لم نره للبحترىّ بلا عقلٍ ولا أدب

---

(١) هو على بن سليمان الاخفش
(٢) الذليل من آزره الاخفش والسليم من قصده الاخفش بسوء

قبحاً لأشياء يأتى البحترىُّ بها ‍ ‍ ‍ من شعره الغث بعد الكدّ والتعب
كأنها حين يُصغِى السامعون لها ‍ ‍ ‍ ممن يُميِّزُ بين النبْع والقَرَب :
رقى العقارب ، أو هذرُ البناةِ اذا ‍ ‍ ‍ أضحوا على شعف الجدران فى صَخَب
وقد يجىء بخلط فالنحاس له ‍ ‍ ‍ وللأوائل ما فيه من الذهب
يُسىء عفَّا ، فان أكدتْ وسائله ‍ ‍ ‍ أجاد لصاً شديد البأس والكَلَب
عبدٌ يغير على الموتى فيسلبهم ‍ ‍ ‍ حُرَّ الكلام بجيش غير ذى لجب
ما إن تزال تراه لابساً حللا ‍ ‍ ‍ أسلابَ قوم مضوا فى سالف الحقب
شعر يغير عليه باسلاً بطلاً ، ‍ ‍ ‍ وينشد الناسَ إياه على رَقَب
يقول مستمعوه الجاهلون به : ‍ ‍ ‍ أحسنت يا أشعر الحُضَّار والغَيَب
حتى اذا كفَّ عن غاراته فله ‍ ‍ ‍ شعرٌ يئن مقاسيه من الوصب
والحكمُ فيه مبينٌ غيرُ ملتبسٍ ‍ ‍ ‍ لو ريم فيه خلافُ الحق لم يُصَب
إذا أجاد فأوجِبْ قطعَ مقوله ‍ ‍ ‍ فقد دهى شعراء الناس بالحَرَب
وإن أساء فاوجب قتله قوَداً ‍ ‍ ‍ بمن يُميتُ إذا أبقى على السلب

التأسى

خليلى قد علمتمانى بالأسى ‍ ‍ ‍ فأنعمتما لو أننى أتعلل
وما راحة المرزوء فى رزء غيره ‍ ‍ ‍ أيحمل عنه بعض ما يتحمل ؟
وضرب من الظلم الخفى مكانه ‍ ‍ ‍ تعزيك بالمرزوء حين تأمّل
لأنك يأسوك الذى هو كله ‍ ‍ ‍ بلا جَرَم ، لو أن جورك يعدل

حلم اليقظة

المرء فى حال التيقظ هاجع ‍ ‍ ‍ يرنو الى الدنيا بمقلة حالم
وأخو الحجا أبدا يجاهد طبعه ‍ ‍ ‍ فتراه — وهو محارب — كمسالم

التكلف

فى الناس ذو حلم يسفه نفسه ... كيما يهاب وجاهل يتحلم
وكلاهما تعب يحارب شيمة ... غلبت فآض بحملها يتألم

الدهر الشاعر

الناس كالشعر تلقى الارض جائشة ... بالجم يزجى ، وخير منهم رجل
والدهر شاعر آفات يفوه بها ... للناس يفكر تارات ويرتجل

الحزم

اذا طرف من حبلك انحل عقده ... تداعت وشيكا بانتقاض مرائره (١)
فلا تغفلن أمرا وهى منه جانب ... فيتبعه فى الوهى لا شك سائره

الأصدقاء

عدوك من صديقك مستفاد ... فلا تستكثرن من الصحاب
فأن الداء أكثر ما تراه ... يحول من الطعام أو الشراب
اذا انقلب الصديق غدا عدواً ... مبينا والأمور الى انقلاب
ولو كان الكثير يطيب كانت ... مصاحبة الكثير من الصواب
وما اللجج الملاح بمرويات ... وتلقى الرى فى النطف العذاب

جمع المال

المال يكسب ربه مالم يفض ... فى الراغبين اليه — سوء ثناء
كالماء تأسن بئره الا اذا ... خبط السقاة جمامه بدلاء

---

(١) أمر الحبل فتله شديداً والمرير من الحبال ما اشتد فتله

فى الثقال

ليس حمد الجفون فى مريها النـ   وم ولا نفيها إذى الأقـذاء
انما حمـــدها اذا هى حالت   بـين طرف العيون والبغضـاء

المنى

حرك مناك اذا همـ   ـت فأنهـــن مراوح
لا تيـــأسن فان رز   ق الله غادر رائح

(حظ من الشعر)

ويح القوافى ما لها سفسفتْ   حظى كأنى كنتُ سفسفتُها
ألم يكن هوجاً فسددتُها ؟   ألم تكن عوجاً فثقفتُها
كم كلماتٍ حكتُ أبرادَها   وسَّطتُها الحسنَ وطرَّفتها
ما أحسنت ان كنت حسنتها   ما ظرفت إن كنت ظرفتها
ألحتْ على حظى بمبراتها   شكراً ، لأنى كنت أرهفتها
فَرقَّقتْهُ حين رققتها ،   وهفهفته حين هفهفتها
وكثّفتْ دون الغنى سدَّها   حتى كأنى كنتُ كثفتها
أحلفُ بالله لقد أصبحت   فى الرزق آفتِى وما إفتُها
لم أشكها قطّ بتقصيرةٍ   فيها ، ولا من حَيفةٍ حفتها
حرمتُ فى سنّى وفى ميعتى   قراى من دنيا تضيفتها
لهفى على الدنيا وهل لهفةٌ   تنصف منها إن تلهفتها
كم آهة لى قد تأوهتُها   فيها ، ومن أفٍّ تأففتها
أغـدو ولا حال تسنمتها   فيها ، ولا حالٌ تردفتها

فهرس

تصحيح

وقعت فى الكتاب اخطاء مطبعية ننبه الى الآتى منها :

ص	س	خطأ	صواب
٢٩	٦	صفقت على اطبقاق	صففت على أطباق
٩٦	٩	ن	ان
١١٣	١٧	صفحة	صفة
١٥٢	١٧	مهوما	منهوما
١٥٩	١٧	واللغزل	والغزل
١٧٦	٢٢	ومدارة	ومداراة
١٨٦	٢١	الهندسية	الهندية
١٨٩	٧	يداً مثقبها	يدا مثقبها
٢٠٦	١١	تشجيشهم	تستجيشهم
٢١٨	١٩	احد	واحد
٢١٩	١	رومى	الرومى
٢٢٢	٦	غرضه	عرضه
٢٣٢	٣	الفرد	القرد
٢٣٢	١٧	النحس	البخس
٢٣٦	٤	موضحا	موضعا
٢٣٦	١٣	صحبة	صيحة
٢٣٧	١٥	بينهم	بغيتهم
٢٣٨	١٢	حرائها	حرائها
٢٥٨	١٣	التسممُ	التسممَ
٢٥٨	٢٠	يكبر على	يكبر عليه
٢٦٩	١٦	هذا العبادة	هذه العبادة
٢٧٥	٩	لصبيب	لطبيب
٢٧٦	١٩	نفخ الريح	نفح الريح
٢٩٣	١٩	فى التمر	للقمر

